مهاجرون حائرون

«من قبل كنت أقول عن رواية ليزا كو إنها مكتوبة بشكل جميل، وإنها رواية طموحة، ومؤثرة بشكلٍ يحرك المشاعر، وبالفعل ذلك كله صحيح، ولكنَّني الآن أرى أكثر من ذلك، فإذا كنت تريد أن تفهم جزءًا منسيًّا من العالم وضروريًّا في الوقت نفسه الذي نعيش فيه، فعليك بقراءة رواية «مهاجرون حائرون».

ــــ آن باتشت، مؤلفة رواية «الكومنولث» ــــ

مهاجرون حائرون

رواية

ليزا كو

قنديل | Qindeel

THE LEAVERS

a novel

LISA KO

مهاجرون حائرون

رواية

ليزا كو

ترجمة: ديوان آرابيا
... رواد المحتوى الإبداعي

© 2019 Qindeel Printing, Publishing & Distribution

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-10- 01-4736158 تاريخ 2019/2/4

ISBN: 978 - 9948 - 38 - 835 - 7

Published by Algonquin Books of Chapel Hill 2017

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2019

الطبعة الأولى: نيسان / إبريل 2019 م – 1440 هـ

مثل البحر، يُتمِي تحكَّمَ في مصيري.

صاخباً.. في انتظار برقياتٍ لم تأتِ،

حائراً بين أسماء مستعارة،

تائهاً بين رحلاتٍ بلا وجهة،

وفي خضم معاناة ترحيلي؛ أحببتُك.

لي يونغ لي «المدينة التي أحببتُك فيها»

شكر وعرفان

عندما تعمل على رواية لأعوام وأعوام، فإنك حقيقةً لا تفعل ذلك بمفردك، لا يمكنني أن أعبِّر عن امتناني.

شكراً، باربارا كينغسولفر. شكراً، بين. بالغ الشكر لوكيلتي عائشة باندي؛ ومحررتي كاثي بوريس؛ وكيلي الإعلامي مايكل ماكنزي؛ وللفريق الرائع في دار التوزيع ألغونكوين بوكس لعملهم الدؤوب في إخراج هذا الكتاب للعالم. لا أستطيع أن أعبِّر عن مدى امتناني لكم.

خالص حبي لورشة عمل فونا/ فويسز. شكر خاص لحكمة ألماز أبينادر، وديفيد مورا، وجونوت دياز. شكراً لإيملي رابوتو، ولينسي أبرامز، وجودي ستيرنلايت، وزملائي في ورشة عمل روايتي لرؤيتهم الحلم في مهده، وإلى ورشة عمل الكتاب الآسيويين الأمريكيين؛ حيث كان مجتمعي الأول.

لم تكن هذه الرواية لتخرج إلى النور دون سونيتا دوراندهار ورينا لين وميليسا ريفيرو. شكراً لكُنَّ لوريلي روس وأميليا بلانكيرا وزُهرة سعيد وميليسا هونغ وجلينداليز كاماتشو وغرايس لي، وجميع أصدقائي الذين شجعوني وأنصتوا لي وضحكوا معي في حين كنت أعمل على كتابتها، إضافة

إلى جميع من تحمَّل كثرة أسئلتي في سبيل البحث، بما في ذلك فين فيرارو وهوارد مينت وبريندان كروسبي ومايكل مافي وريثا باورز ولينلين ليانغ.

إلى والديَّ، ألفونسو وليليان كو؛ داعميَّ الحقيقيين: شكراً لكما على كل ما قدَّمتماه لي، بما في ذلك شحذكما لي، وحبّكما، وتشجيعكما، وكذلك عشقكما للموسيقى والرقص، وتعليمي كيف أرى الحياة كرواية وأهمية طرح الأسئلة الصعبة.

إلى جولمان تولينتينو، ذلك الذي غيّر حبُّه وتفهُّمُه كلَّ شيء؛ شكراً لأنك بنيت معي عشّاً، ولأنك تحمّلت كل هذه الأحاديث الطويلة عن دانيال وبولي.

لم أكن لأتمكَّن من كتابة هذه الرواية لولا دعم الزملاء الفنانين الذين قابلتهم في مقر العمل في المجلس الثقافي في مانهاتن (لور مانهاتن كالتشر كونسلز وورك سبيس ريسدينسي) (والذين رأوني أخيراً بعد أن اجتزتُ خط النهاية)، وهوثوردن كاسل، وماكدويل كولوني، ومركز بلو ماونتان سنتر، ورايترز أومي آت هاوس ليدج، ومؤسسة ذي آي بارك، ومركز آندرسون سنتر، ومؤسسة كونستانس سالتونستال للفنون، ومعهد بادين، ومركز كيميل هاردينغ نيلسون سنتر، وصندوق فان لير، ومركز الفنون في نيويورك.

شيوى بينغ غيانغ، وسيريلا بالتازار كروز، وإيركارناشن بيل روميروك: أنا مدينة لكم. مقالة نينا بيرنشتاين في جريدة نيويورك تايمز لعام 2009 «المرض العقلي وإهمال الهجرة» كانت بمثابة الشرارة التي بها انطلقت. عديد من المصادر الأخرى التي أتاحت إرشادات في نسج هذه الرواية، منها: غريب من الداخل: كتابة حول التبني بين الأجناس، حرَّرها غين غيونغ ترينكا، وجوليا شينير أوبارا، وصن يونغ شين؛ وفتاة المصنع، للكاتبة ليزلي ت. تشانغ؛ وتهريب الصينيين لغوو لين تشين؛ والمغامرة الذهبية؛ أخرجه بيتر كون؛ فيلم آخر قطار للوطن، أخرجه ليكسن فان؛ وفيلم أحبك يا أمي، أخرجه ستيفاني وانج بيريال، وفيلم الموقع الإلكتروني للمختطَفين بين الأجناس؛ ومقالات بقلم باتريك رادين كيف، جينجر تومسون، وكاي تشانغ. لقد استعنت برؤى خيالية من المواد المذكورة، وأي مغالطات في الرواية فهي جراء خطئي الفردي.

المترجم

كنا قد اشترينا حقوق الترجمة وطبع النسخة العربية من رواية «مهاجرون حائرون»، وتأهَّبنا للعمل على ترجمتها وإعدادها للطباعة والنشر، وحين بدأنا قراءة النص الأصلي لترجمته أُسقط في أيدينا! لم يكن لدينا بديل عن الترجمة، فاخترنا الحل الأوفق، وخضنا التجربة، وهذَّبنا النسخة العربية بقدر الإمكان كي توافق الذوق العربي وعادات البيئة العربية وتقاليدها، كنا مضطرين إذاً إلى حذف بعض الفقرات التي لا يجدر بنا إثبات ترجمتها، لأنها تخدش الحياء العام، ومكان تلك الفقرات وضعنا (...) ليعلم القارئ أن هناك جملة أو فقرة أو مجموعة فقرات محذوفة، ونذكر هذا لأمانة الترجمة، ولمن يودّ مراجعتها في النص الأصلي.

الفصل الأول

فتى آخر
وكوكب آخر

- 1 -

في اليوم الذي سبق لقاء ديمينغ غوو الأخير بأمه، فاجأته بزيارة إلى المدرسة، مرتديةً قبعةً زرقاء داكنة تتدلَّى على جبهتها، ووشاحاً حول رقبتها كأنه ثعبانٌ بنيٌّ كبيرٌ: «ما الذي تنتظره أيها الولد؟ الجو بارد بالخارج».

كان يقف بمدخل بي إس 33 حين جذبت معطفه بشدة إلى أن ضغطت على ياقته بادرها قائلاً: «هل تركتِ العمل مبكراً؟»، كانت الساعة الرابعة والنصف والظلام قد حلَّ بالفعل، ولكنها عادةً لا تغادر صالون العناية بالأظافر قبل السادسة.

وتكلَّما كالعادة بلكنة «الفوزهو» الصينية «كان دوامي قصيراً، وقال مايكل إنكَ اضطُرِرت إلى أن تبقى إلى وقت متأخر للحصول على المساعدة في الواجب المدرسي». ضاقت عيناها خلف نظارتها، ولم يستطع معرفة ما إذا كانت مقتنعة أم لا «لم يقم المدرسون باستدعاء أمك عندما تم احتجازك، فقط أعطوك نموذجاً يجب عليك إعادته موقَّعاً»، (وهو ما قام بتزويره). مايكل لم يُحتجَز من قبل وغادر بعد الفترة الثامنة، وأراد ديمينغ العودة إلى المنزل معه والجلوس أمام التلفاز، فلن يشعر بالقلق من أن يخذل أحداً وهو يشاهد المقاطع الكوميدية المصحوبة بأصوات الضحك.

تساقط الثلج مثل كتل الغسيل المبلَّل. سار ديمينغ وأمه في شارع جيروم، وفي الجزء الخلفي من ساحة بناية خرسانية كان يوجد ثلاثة أولاد أكبر سنّاً يتبادلون سيجارة مخدِّرة، ومعاطفهم مفتوحة ولا يرتدون حقائب ظهر أو قبعات، وكان الدخان الأبيض والضحك البطيء يدفئان هواء فبراير اللطيف. قالت: «لا أريدك أن تصبح مثل هؤلاء، ولا أريدك أن تصبح مثلي، فأنا لم أكمل حتى الصف الثامن».

يا لها من فكرة جميلة عدم إكمال الصف الثامن! فقد استطاع بالكاد إنهاء الصف الخامس. قال مدرِّسوه إن مشكلته في التركيز وعدم العمل بجدّ على نفسه، وعندما عرقل ترافيس بوبا في حصة الرياضيات، كان ديمينغ مصدوماً تماماً مثل ترافيس. قالت أمه: «سوف آتي إلى مدرستك غداً؛ لأتحدث مع مدرسك عن الواجب المدرسي». ظلَّت ذراعه ملامسةً لذراع أمه، فقد أحب صوت احتكاك سترتيهما. لم تكن من الأمهات اللواتي نشاهدهن على التلفاز، من النوع الدائم العناق لأطفالهن أو تنظر إليهم بابتسامة مرتبكة، ولكنها أصرت على الإمساك بيده عند عبور الشوارع المزدحمة. كانت يداها حمراوين ومكشوطتين داخل قفازيها، وكان جلدها ملتهباً ومقشَّراً، وكل ليلة قبل النوم تضع مرطباً كثيفاً على أصابعها، وتظهر عليها علامات الألم، وذات مرة سألها إذا كان ذلك يقلِّل الألم، فأجابت: «لفترة قليلة فقط»، وتمنَّت لو كان يوجد مرطب يتسبَّب في نمو جلد جديد، أو لو كانت توجد قفازات ذات قوة خارقة.

كانت قصيرة وممتلئة الجسم، وترتدي بنطالاً فضفاضاً من الجينز، ولم يرها ترتدي فستاناً قط، وكان صوتها عالياً جدّاً، لدرجة أنها عندما تناديه تكاد الكلاب تنبح ويرتعد الأطفال في الجوار. عندما رأت تقرير تقييم أدائه المدرسي الأخير، ظنَّ أن صراخها سيطلق أجهزة إنذار السيارات على بعد أربعة طوابق، بينما كانت ضحكتها عالية مثل صياحها، لكن لم يحسِّن ذلك من الأمر شيئاً، حيث لم يكن صوت ضحكتها يدل على الرضا بقدر ما كانت تفعل عندما تصفع ركبتيها وتُهمهِم عن شيء سخيف. كانت تضحك على أشياء لم يكن من المفترض أن تكون طريفة، مثل المسلسلات التلفزيونية والموسيقى

التصويرية الأوركسترالية المبالغ فيها المصاحبة لها، أو على أشياء قالها أو فعلها ديمينغ، فعندما كان يقلد أسلوب الجار تومي وهو يقول «بخير ـ بخير ـ بخير» حين يلتقونه عند الدرَج، وكأنه رد أوتوماتيكي على «كيف حالك» حتى قبل أن ينطق بها أحد، أو حينما كانت تشاهده وهي تارة تقلب قنوات التلفاز، وتسأل «هل بدأ برنامج الرقص مع النجوم؟»، وتارة تصفّق له وهو يُخرج ورقة مايكل القديمة عن النظام الشمسي ويرقص بها في غرفة المعيشة، وكان ذلك شيئاً جيداً، تقريباً كالبهجة التي يشعر بها مع أصدقائه.

وعندما كان ديمينغ يعيش مع جده في ميانيانغ، كانت أمه قد ارتادت نيويورك بنفسها، وكان ذلك مؤرِّقاً لها ويمثِّل عدم المقدرة على السكون أو الاستقرار. هزَّت ساقيها ورجَّت ركبتيها وطقطقت أصابعها ولفَّت إبهاميها، فكانت تكره وجودها كالحبيسة في البيت في يوم مشرق، تخطو مسرعة في الغرف من جدار إلى جدار، في حين تتدلَّى سيجارة من فمها. كانت تقول: «من يريد الخروج للتنزُّه؟»، فيخبرها رفيقها ليون أن تهدأ وتجلس «أجلس؟! نحن نجلس طوال اليوم!»، يريد ديمينغ أن يمكث على الأريكة مع مايكل، ولكنه لم يستطع أن يقول لها لا، وخرجا معاً، فليس لأيهما عائلة سوى الآخر، وكان يفضِّل مرافقتها دون سواه، يسيران بتمهُّل في المتنزَّه أو على ضفة النهر، ويختلقان القصص عن الذين عاشوا في الشقق التي يرونها من الخارج، فهذه عائلة تدعى سميث، ولديها خمسة أطفال، الأب مُتوفًّى، والأم مدمنة كعك، وتأمَّل اليوم الذي ذهبوا فيه إلى آبر إيست سايد. قالت: «مدمنة كعك؟»، «ما نكهة الكعك؟»، فقال لها: «الكعك بكل النكهات»، جعلها ذلك تقهقه أكثر حتى مالا في شارع ماديسون من قوة الضحك، لدرجة أنهما لم يستطيعا إخراج أي صوت، وآلمته معدته، ولكنه لم يستطع أن يمنع الضحك، وكان كبار السن من البيض يرمقونهما بنظرة كريهة لتوقُّفهما في منتصف الرصيف. أحب ديمينغ وأمه «الكعك بكل النكهات»، والكرات الشفافة الموجودة بها، وجرأة نيويورك بادعاء أن الكعك بكل النكهات حتى لو لم يوضع عليه إلا السمسم والبذور الحمر والملح. مرَّت حافلة ناثرةً الثلج الذائب، وأومضت علامات السير. قالت أمه: «أتعلم ماذا

فعلت اليوم؟ أتت سيدة لديها كالو في كعبها بحجم أنفك، واضطررت إلى أن أكحت كل ذلك الجلد الميت، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً جدّاً، وكان البقشيش مزرياً، لن تفعل ذلك أبداً إذا كنت حريصاً».

كان يخاف من هذه القيود المألوفة. أما بالنسبة إلى أمه فكان يمكنها أن تقبل السب، ولكن في المرة التي تجرَّأ مطلقاً فيها هذا السباب أمامها، أحب طريقة نطق المقاطع ككرة اللحم في فمه، صفعته على ذراعه قائلة له: «لا تتلفَّظ بهذه الكلمات، فأنت أفضل من ذلك»، والآن ينطق الكلمات في سرّه أثناء سيره، فيلوكُ مقطعاً واحداً في فمه كل خطوة.

«هل تعتقد عندما كنت فتاة صغيرة في مثل عمرك أنني فكرت وقلت: في يوم من الأيام سأقطع كل هذه المسافة إلى نيويورك كي أتمكَّن من إزالة المقرِّزات من أصابع أقدام الغرباء؟ لم تكن تلك خطتي».

وكانت تحب أن تقول: «كن مستعداً دائماً. لا تعتمد أبداً على أن يعطيك أحدهم شيئاً تستطيع الحصول عليه بنفسك»، فكانت تحتقر الكسل والرخاوة والأشخاص الضعفاء. كان لديها قليل من الأصدقاء، ولكنها كانت مخلصة لهم، ويمكنها أن تحمل ضغينة شديدة، وقد تسير مسافة أكثر بثلاثة مبانٍ إلى متجر بقالة آخر، إن ابتسم الصراف في المتجر المجاور بتهكُّم على لغتها الإنجليزية الرديئة قبل عامين، ويرى ديمينغ أنها كانت رديئة بالفعل.

«انظر إلى ليون، على سبيل المثال، هل يبدو على ما يرام في نظرك؟».

«ليون على ما يرام دائماً».

«انحنى ظهره، ووهنت كتفاه، والرجال لا يعملون بصالونات العناية بالأظافر، فإذا لم تستكمل دراستك، سينتهي بك الحال في تقطيع اللحم مثل ليون، وتصاب بالتهاب المفاصل عند سن الخامسة والثلاثين».

لم يبدُ حديثهما وفيّاً عن «يي با ليون» بهذا الشكل، فقد كان قوياً جدّاً ويستطيع أن يقوم بتمرين الضغط بيد واحدة لديمينغ ومايكل وأصدقائهما،

ويدعهم يلكمونه في بطنه بشدة، ولكن ديمينغ توقَّف عن لكمه بشدة قدر المستطاع، فكان ليون يقول له: «افعلها مرة أخرى.. هل تسمِّي هذه لكمة؟ إنها مصافحة باليد»، حتى لو لم يكن ليون أباه الحقيقي، فقد جعل ديمينغ فخوراً به، وفي هذا الصدد كانت أمه متكتِّمة جدّاً، وكل ما يعرفه عن أبيه أنه لم يكن معهم أبداً، فإذا استطاع أن يكبر ويصبح مثل أي رجل، لاختار أن يصبح مثل ليون، أو مثل الشخص الذي عزف الساكسفون في محطة مترو الأنفاق وكان محاطاً بالناس، بينما تراقصت أصابعه وانتفخ صدره وامتلأ النفق بوميض الألوان البنفسجية والبرتقالية. أوه، هل يمكن أن يصبح المرء محبوباً هكذا!

كان طريق فوردهام هادئاً على غير العادة في البرد، وغطَّت الثلوج الرصيف أمام مبنى مهجور، والتصقت قطعة لبان حمراء بها كأنها قطعة الببروني الوحيدة على بيتزا مجمَّدة. قالت أم ديمينغ: «هذا الشتاء ليس له نهاية»، وتشابكت أيديهما في محاولة للتوازن أثناء سيرهما عبر الرصيف «ألا تريد مغادرة هذا المكان والذهاب إلى مكان دافئ؟».

«المنزل دافئ»، في شقَّتهم كانت الحرارة شديدة، لو استطاعوا الوصول إليها، حتى إنهم في بعض الأيام كانوا يرتدون قمصاناً بأكمام قصيرة في الداخل.

تجهَّمت أمه «كنت أول فتاة في قريتي تذهب إلى العاصمة الإقليمية، ونجحت في اجتياز الطريق إلى نيويورك، وكان من المفترض أن أسافر حول العالم».

«ولكن بعد ذلك؟».

«بعد ذلك أنجبتك، ثم قابلت ليون، أنت وطني الآن». بدآ يصعدان التل في شارع يونيفيرسيتي: «سوف ننتقل».

توقَّف في بركة من الطين الثلجي: «ماذا؟! أين؟!».

«فلوريدا، حصلت على وظيفة جديدة في مطعم قريب من عالم ديزني، سوف آخذك إلى هناك». ابتسمت له ابتسامة عريضة، وكأنها كانت تتوقَّع أن يبتسم لها.

«هل سيأتي يي با إلى ليون؟».

جذبته بعيداً من البركة «بالطبع».

«وماذا عن مايكل وفيفيان؟».

«سيلتحقان بنا فيما بعد».

«متى؟».

«ستبدأ الوظيفة قريباً، في خلال أسبوع أو أسبوعين».

«أسبوع؟! ولكن عندي مدرسة».

«منذ متى وأنت تحب المدرسة إلى هذا الحد؟!».

«ولديَّ أصدقاء».

ظل ترافيس بوبا يدعو مايكل وديمينغ بالصراصير لعدة أشهر، والدافع كان عبقريّاً وعفويّاً لإخراج قدمه من الوحل بينما كان يترنَّح باتجاه الممر، والنظرة غير المصدِّقة على وجه ترافيس وصوت جسده وهو يسقط كحبات المطر في المستنقع، صافحه مايكل وأصدقاؤهم تحيةً له، أما ديمينغ صعب المراس فكان يستحق الاحتجاز.

وقفا أمام متجر البقالة «سوف ترتاد مدرسة جيدة، وستوفِّر لنا الوظيفة الجديدة أموالاً كافية، وسنعيش في بلدة هادئة».

كان صوتها عالياً كالبوق وكلماتها حادة كالمثلَّث الموسيقي. تذكَّر ديمينغ السنوات التي قضاها من دونها، والبيت الصامت في الزقاق رقم (3) مع يي غونغ، ورأى الشارع هادئاً جداً، لدرجة أنه استطاع أن يسمع صوت غمزة عينه.

«لن أذهب».

«أنا أمك ويجب عليك أن تذهب معي».

أُغلق باب متجر البقالة بشدة، وخرجت السيدة جونسون التي تسكن معهم في نفس المبنى بحقيبتين بلاستيكيتين.

قال: «لم تكوني معي عندما كنت في الصين».

«كان يي غونغ معك في تلك الفترة، وكنت أعمل لأتمكَّن من توفير المال كي أحضرك إلى هنا، والأمر مختلف الآن».

فنزع يده من يدها: «مختلف! كيف ذلك؟».

«ستحب فلوريدا، وسيكون لك منزل كبير وغرفتك الخاصة».

«لا أريد غرفة خاصة لي، بل أريد مايكل معي هناك».

«لقد انتقلت من قبل ولم يكن الأمر صعباً، أليس كذلك؟».

تغيَّرت الإضاءة ولكن ظلت السيدة جونسون تراقبهما على نفس الجانب من الشارع، فشارع يونيفيرسيتي يختلف عن الحي الصيني الذي كانا يسكنان فيه من قبل، حيث كان يتجول مع ليون في حي البرونكس، ولا توجد عائلات من فوزهو الصينية في مبناهم، وينظر إليهم الناس أحياناً وكأن لغتهما انبثقت من مياه الصرف.

وكان جواب ديمينغ باللغة الإنجليزية: «لن أذهب، اتركيني وشأني».

رفعت يدها فأسرع إليها عائداً فاندفعت تجاهه، ثم عانقته حتى صارت مقدِّمة سترتها الثلجية تمشِّط خده، وانغمس أنفه في صدرها. استطاع أن يسمع دقات قلبها من خلال طبقات ملابسها، وكان يتنفس بصعوبة وإصرار، ولكنه قبل أن يستطيع الاسترخاء أجبر نفسه على التملُّص من ذراعيها وركض مسرعاً تجاه المبنى، وحقيبة الظهر ترتطم بعموده الفقري. سارت خلفه بخطوات ثقيلة بحذائها البلاستيكي ذي الرقبة العالية، وصاحت عندما انزلقت على الرصيف!

كانا يسكنان في شقة صغيرة بمبنى كبير، وأرادت أم ديمينغ منزلاً به غرف أكثر، وكانت تريد الهدوء، ولكن ديمينغ لم يعترض على الضوضاء، بل أحب سماع جيرانهم يتجادلون باللغة الإنجليزية أو بالإسبانية أو بلغات أخرى لا يعرفها، وأحب أصوات دويِّ الأقدام واحتكاك سحب الكراسي، وموسيقى السلسا والميرينجي والهيب هوب، ومباريات كرة القدم وبرنامج دائرة الحياة،

كل هذه الأصوات تتسرَّب من أسفل الأبواب وشروخ السقف وأنابيب شبكة تبريد الهواء، وتتداخل مع أصوات مواسير الصرف، وسماع أمهات أخريات يصرخن في أطفال آخرين، فالمبنى كان يؤوي بلدة بالكامل.

لم يتم ذكر فلوريدا على وجبة العشاء، شاهد ديمينغ ومايكل برنامج جورج لوبيز وبعده مسلسل فيرونيكا مارس، بينما قامت أم ديمينغ بترتيب الغسيل. كان ليون في المجزر يعمل بدوام مسائي، وكانت فيفيان أخت ليون وأم مايكل لا تزال في العمل. اضطجع ديمينغ على أحد أجناب الأريكة ممدِّداً ساقيه في المنتصف، ومايكل على الجانب الآخر بنفس الوضع وكأنهما مرآة، وما زال يتذكَّر ترافيس بوبا «لقد سقط بشدة»، هرست كعوب مايكل الوسائد «كان يستحق ذلك»، ماذا لو كانت الغرف كبيرة جدّاً في فلوريدا لدرجة أن بعضهم لم يستطع سماع الآخرين؟ كانت أمه تضع مرطباً على يديها، فقالت: «أنت وطني الآن»، في وقت سابق تطوَّع لإحضار السجائر لها من متجر البقالة، وسرق شوكولاته ميلكي واي، ثم أعطى نصفها لمايكل وهي غير منتبهة. قالت: «ديمينغ، صعب المراس». قضم مايكل قطعته على مرة واحدة ونظر إلى ديمينغ نظرة إعجاب شعر منها ديمينغ أن الأمور ستصبح على ما يرام، فيمكنهم الانتقال ما دام سيأتي مايكل معهم وبشرط أنه لن يكون وحيداً. لم تعرف أمه بأمر الاحتجاز، ويستطيع هو ومايكل التعرُّف إلى أصدقاء جدد، وتخيُّل الشواطئ والرمال والمحيط، وارتداء بنطال قصير في أعياد الكريسماس، وفي وقت متأخر من الليل استيقظ ديمينغ على صوت لكمة في الفراش بغرفة النوم، ووجد ليون وأمه يتهامسان، ومايكل مستلقٍ على ظهره يغطُّ في نوم عميق. قالت أمه: «تبّاً لك». كانت جرَّافات الثلج تعمل في الشارع وتزيح الثلج عن الرصيف لتنظيفه.

وعلى الرغم من محاولاته رجع إلى النوم، وعندما رنَّ منبِّه المدرسة كان ليون نائماً ومايكل في الحمام وأمه في المطبخ مرتدية ملابس العمل، بنطالاً أسود وقميصاً أسود، وسيجارة نصفها مدخَّن على حافة برطمان فارغ. أصبح رماد السيجارة أطول وأنعم، ثم سقط.

«متى سننتقل؟».

قذف المبرِّد نقاطاً سوداً، وكان شعر أمه واقفاً كأنه هالة ثابتة، وكانت نظارتها ملطختة ودهنية. أجابت: «لن ننتقل».

«أسرِع الآن وإلا ستتأخَّر عن المدرسة».

وفي وقت الشفق وبعد التخلُّص من فكرة الانتقال إلى فلوريدا وشواطئها، وحتى عندما قال ترافيس بوبا: «سأقتلك»، بلهجة مصاصي الدماء خارج الكافيتريا، على الرغم من أنه قال أشياء أكثر غرابة لأطفال آخرين مثل: «سأحرق المبنى الذي تسكن فيه وآكل أذنيك»، لكن ترافيس لم يكن لديه حلفاء ولا أحد يدعمه. سار ديمينغ ومايكل بعد المدرسة معاً، وفتحا الشقة بالمفاتيح التي أعطتهما أمهما، ثم استخرجا من الثلاجة كتلة من الأرز وعبوة من قطع اللحم البارد على شكل دوائر رطبة وردية اللون، فقد كانا ماهرين في صنع الوجبات حتى ولو رأى أصدقاؤهما أنها مقزِّزة، فيما بعد ستصبح هذه الوجبات أكثر ما يفتقده ديمينغ: الأرز المقلي ولحم السلامي المرشوش بمسحوق الثوم من زجاجة بلاستيكية كبيرة، والنودلز سريع التجهيز الغارق في الكاتشب وعليه جبن أمريكي وصلصة الفلفل الحار.

تناولا الطعام على الأريكة التي تشغل معظم حيِّز غرفة المعيشة، وعليها نقوش لوحش غامض وزهور حمر وبرتقالية، وتُصدِر ضجيجاً عندما تحاول الجلوس عليها، وتنزلق بدلاً من ذلك، وكانت أيضاً على سرير فيفيان. كانت أمه تكره تلك الأريكة ولكن ديمينغ رأى في رسوماتها عوالم مختلفة، وكان يحدِّق في الألوان حتى تحوَّل عيناه وتأخذ الزهور أشكالاً مختلفة؛ خزان أسماك، قطع حلوى، قمم الأشجار في أواخر أكتوبر، وتخيَّل نفسه تحت الماء يسبح بين خيوط النسيج، وكانت أمه تقول: «أول ما سأفعله عندما أدير صالوني الخاص هو التخلُّص من تلك الأريكة، ستعود إلى البيت يوماً ما ولن تجدها».

كان التلفاز مملاً منذ الساعة الرابعة وحتى الثامنة، حيث يعرض البرامج الحوارية والأخبار المحلية. كان لديهم اختبار في مادة الهندسة في اليوم التالي،

ولا يحتاج مايكل إلى أن يذاكر استعداداً له، ولم يكن ديمينغ ينوي المذاكرة حتى تكتشف أمه أمر الاختبار. غلبه النعاس وهو يفكِّر في ورقة العمل التي قاموا بها اليوم في الفصل، حيث كتب عليها إجابات ملفَّقة بجوار المثلثات والأشكال الأخرى المتنوعة. ما مقياس الزاوية «ج»؟ خمسون قطعة نقانق. عندما أصبحت الساعة السابعة ولم تعد أمه إلى المنزل توقَّع أنها ستتأخَّر في العمل، وأنه حصل على فرصة تأجيل دراسة مادة الهندسة.

عادت فيفيان إلى المنزل قبل انتهاء الخطر، وصحبتها رائحة النشادر. كانت تقوم ببعض أعمال الخياطة على منضدة المطبخ، لاستيفاء بعض الطلبات من أحد المصانع بشكل تدريجي، ولكنها أخيراً كانت تقوم بتنظيف الشقق في حي ريفيرديل.

«هل حضرت بولي؟ لم يقم أحد بتجهيز الطعام؟».

قال مايكل: «لقد تناولنا قطع اللحم المدخَّن».

«لا يعد ذلك وجبة عشاء، كان من المفترض أن تحضِر أمك بعض الطعام في طريق عودتها يا ديمينغ».

قال ديمينغ: «إنها ما زالت بالعمل».

فتحت فيفيان الثلاجة وأغلقتها: «حسناً، سأستحم».

كانت الساعة الثامنة عندما عاد ليون.

«كان من المفترض أن تكون أمك بالمنزل بالفعل، أعتقد أن مديرها الجديد تسبَّب في تأخرها». أحضر معه بيتزا مجمَّدة لوجبة العشاء، وبعض كرات النقانق التي تشبه الحبات ولكنها دسمة ولذيذة. تناول ديمينغ ثلاث شرائح «لم تحضر أمي البيتزا من متجر البقالة أبداً».

دقَّ جرس الهاتف المتحرك الخاص بليون. أخذ ليون هاتفه وأجرى المكالمة من الردهة، فأبعد ديمينغ الأطباق وانتظر عودته.

«هل كانت هذه أمي؟ هل يمكنني التحدث إليها؟».

«لا، لقد كانت صديقتها ديدي». ضغط ليون على الهاتف في يده كأنه كان يعصر منشفة مبلَّلة.

«أين أمي؟ هل سنذهب إلى فلوريدا؟».

«ستتغيَّب لبضعة أيام، ستزور أصدقاءها».

«من أصدقاؤها؟».

«أنت لا تعرفهم».

«أين يسكنون؟».

«لقد تأخَّر الوقت، يجب عليك أن تخلد إلى النوم».

وكان مايكل جالساً على سريرهما: «أين أمك؟».

وكان يبدو أكبر في السن وأنحف عندما ينزع نظارته، وسرح بنظره دون تركيز.

«يقول ليون إنها ستتغيَّب لبضعة أيام».

لم يستطع ديمينغ استبعاد شعوره بأن يكون حدث لها مكروه بعد دخوله تحت البطاطين.

مرَّ أسبوع ولم يذهب إلى المدرسة إلا مرة. عندما ذهبت أمه مع ليون إلى مدينة أتلانتيك سيتي لمدة ليلة، اتصلت به وذكَّرته أن يخلد إلى النوم في موعده، ولكنه الآن يظل مستيقظاً إلى وقت متأخر ويتناول حلوى إم آند إم على الإفطار، ولعب الهوكي مع صديقه هونج الذي تُوفِّي والده منذ شهر مضى، وشاهدا أسطوانات الدي في دي بمنزل هونج بشارع فالنتين لمدة طويلة، حتى ناما ثم استيقظا ثم ناما مرة أخرى، وحرَّك مستوى الصوت إلى أن هدأت مطاردات السيارات وإطلاق النيران من روعه والرعب البارد الذي يسري بداخله. أين كانت أمي؟ لم يكن لديها أصدقاء لتزورهم، ولا يوجد أحد للكذب عليه بشأن الاحتجاز في اليوم التالي، ولا لاتباعه لأن لديه خطة. لم تتحقَّق فيفيان أبداً من الواجب المدرسي، وكان مايكل ينجز واجبه دائماً.

إنه يوم السبت مرة أخرى. كان أنبوب مرطب اليد داخل حاوية الحمام بجوار فرشاة أسنانها، وكان منغمساً في شعيراتها بقعة خضراء، وهي مادة نباتية قد استخرجتها من ضرسها. نزع ديمينغ غطاء المرطِّب وضغط عليه فخرج منه القليل، واندفعت رائحة مألوفة ومطهِّرة وزهرية إلى جيوبه الأنفية، فغسل يديه بالماء الساخن والصابون حتى تلاشت الرائحة، ووجد أحد جواربها عند آخر السرير والآخر في نهاية الغرفة، فوضعهما على خزانة الملابس بعد أن صرَّهما على شكل كرة كما كانت تحب، وجلس في أحد أركان الغرفة مع صندوق به أشياؤها؛ بنطال جينز أزرق وقطة بلاستيكية لتزين بها هوائي هاتفها المتحرك، ولكنها ما زالت مغلَّفة في عبوَّتها، وسترة صفراء لم ترتدِها أبداً، وأكمامها منقَّطة بكرات صغيرة من الخيط الشديد، وقام بوضع زر أزرق صلب مستدير في جيبه.

وكذلك حذاؤها وفرشاة أسنانها والكوب القرمزي ذو الحافة المكسورة التي كانت تشرب فيه الشاي، كل هذا كان لا يزال في الشقة، وعلى الرغم من هذا لم توجد مفاتيحها أو محفظتها أو حقيبة يدها، فتح ديمينغ خزانة الثياب فوجد جميع ملابسها ما عدا معطفها وقبعة الشتاء والحذاء ذا الرقبة العالية التي كانت ترتديها في العمل في ذلك الخميس، أغلق الباب. لم تقم بحزم أمتعتها. ربما كانت ضحية إحدى الجرائم مثلما يحدث في مسلسل سي إس آي، أو ربما تكون قد ماتت.

شرب مايكل الماء من كوبها القرمزي، وأراد ديمينغ أن يطيح به من يده. لم يرغب أن تكون قد ماتت أبداً، ولكنه يبدو خياراً مزرياً أفضل من أن تكون قد رحلت دون أن تودِّعه. آخر كلمات قالها لها: «متى سنرحل؟»، لو لم يتم احتجازه، لو كان يغادر المدرسة في الأوقات المعتادة، لو لم يقاوم فكرة الانتقال إلى فلوريدا، لو تدخَّل في الشجار الدائر بينها وبين ليون، لكانت لا تزال هنا.

مثل المحقِّق الذي يفحص نفس مقطع الفيديو البالغة مدته خمس ثوانٍ من كاميرات المراقبة، قام بإعادة مشهد بعد ظهيرة يوم الأربعاء، ويسير عبر المباني من المدرسة إلى المنزل. قام ديمينغ وأمه مراراً وتكراراً بعبور طريق فوردهام، وانتظرا عند إشارة المرور، وانزلقا على الجليد، وتعانقا، وراقبتهما

السيدة جونسون باستمرار. قام بتكبير المشاهد؛ حين أبطآ حركة سيرهما في شارع يونيفيرسيتي، ثم عكس اتجاهها إلى أن أصبحت مثل خطوات إوزة في منحدر، وسارت السيارات والحافلات إلى الوراء. انتقى الكلمات التي قالتها في محاولة للبحث عن الدلائل، بنفس الطريقة التي علَّمها لهم مدرسو اللغة الإنجليزية في قراءة قصائد الشعر، والتحدث لمدة عشرين دقيقة عن جملة ما، والمعنى وراء المعنى، المعنى وراء إخبارها له عن حياتها، المعنى وراء موضوع فلوريدا، المعنى وراء عدم عودتها إلى المنزل.

سمع مفتاحاً يفتح الباب وتمنى أن تكون هي وتقول له: «أتظن أنني تركتك؟ من تعتبرني أيها الولد، الأم في فيلم العودة إلى الوطن؟»، كانا قد شاهدا فيلماً على التلفاز تركت فيه الأم أطفالها في المركز التجاري ولم تعد إليهم، ولكنه أعجب أكثر بالسوق التجاري وفراغه الممتد المترامي الأطراف. لو عادت إلى المنزل، فلن يلعب بطعامه أو يتحدث اللغة الإنجليزية بسرعة حتى لا تستطيع مواكبته. سوف ينجز واجبه المدرسي، ويغسل الصحون، ويدعها تضربه مثل لعبة ضرب آكل الحشرات كما فعلت في مهرجان الكنيسة الصيف الماضي في بلمونت، عندما كان مايكل يتقيَّأ حلوى غزل البنات بعد أن ركب لعبة الأخطبوط.

ولكن لم تكن أمه على الباب، كانت فيفيان تزيل الطين الثلجي من حذائها. ركض إليها صائحاً: «يجب أن تجديها، إنها في خطر».

وضعت فيفيان ذراعها حوله، وكان وجهها مستديراً وعريضاً مثل وجه ليون: «إنها ليست في خطر».

كانت دافئة وحميمة ولكنها ليست أمه، وبدلاً من طلاء الأظافر ومرطب اليد، انبعثت منها رائحة العرق ومطهر الليمون.

«هل هي في فلوريدا؟».

عضَّت فيفيان شفتيها: «نحن لا نعرف على وجه اليقين، ولكننا نحاول أن نعرف، وأنا أثق أنها على ما يرام».

ذاب الثلج، وظهرت البراعم الوردية على الأشجار، وفي إحدى الليالي تحدث ليون مع فيفيان في المطبخ، ولكن عندما دخل ديمينغ توقفا عن الكلام وتبادلا النظرات، في ذلك الأسبوع قام ديمينغ ومايكل بتخزين معاطفهما الشتوية واستخرجا قمصانهما، ورأى ديمينغ سترة الربيع الخاصة بأمه في خزانة الملابس، التي كانت تطلق عليها معطف الكريسماس؛ لأن اللون الأخضر هو لون أعشاب الصنوبر، ثم ابتعد مسرعاً، واعتذر إلى ترافيس بوبا على أمل أن يصحِّح ذلك من الوضع، وأنه عندما يضحِّي بكبريائه سيضمن ذلك سلامة أمه.

قال له هونج: «هل جننت؟».

وبدا على مايكل وكأن ديمينغ قد أوقعه بدلاً من ترافيس، وقال ترافيس بصوت أجش: «أيّاً كان»، ولكنها لا تزال غائبة، واعتقد أنه كلما زاد شعوره بالسوء، أسرع ذلك من عودتها، فقرَّر عدم تناول الطعام لمدة يوم كامل، ولم يكن ذلك صعباً، حيث إن فيفيان ومايكل دائماً بالخارج، ووجبة العشاء عبارة عن كيس من رقائق البطاطس وكوب من مكرونة الرامن سريعة التجهيز، وبيتزا مجمَّدة من متجر البقالة أربع مرات في الأسبوع، والآن كان من المفترض أن تعود إلى المنزل. شعر بالنعاس والدوار في المدرسة من عدم تناول الإفطار. كانت لتأخذه لتناول وجبة الإنشيلادا بالخارج، ولكنها ستكون سعيدة لأنه فقد وزنه ولن تضطر إلى شراء ملابس جديدة له، ولكنها لا تزال غائبة. إذا حصل على تقدير ممتاز في مادة الهندسة سوف تعود، لكنه حصل على تقدير ضعيف جدّاً في الاختبار، وضاعف مجهوده وحصل على تقدير جيد جدّاً في الاختبار الذي تلاه، ولكنها لا تزال غائبة. يبدو أن فيفيان كانت على صواب، فقد رحلت إلى فلوريدا وتركته.

- 2 -

بعد عقدٍ من الزمن، وقف دانيال ويلكنسون في الزاوية، آملاً ألا يلحظ أحد حذاءه، فقد كان حذاءً عازلاً برقبة عالية مخصصاً للسير وقديماً، وعليه علامات خضر، ويقيه من الشتاء القارس في شمال البلاد، ولكنه يعدُّ إهانة جمالية في المدينة، وكان يرتدي معطفاً من ماركة جورتكس وقبعةً من الصوف وقفازات منتفخة، وقف مختبئاً في غرفة خلفية ومعه جيتاره بلونه الأصفر الداكن من ماركة ستراتكوستر، كان قد اشتراه عن طريق إعلانات كريجزليست، ولم يبدُ في بنطاله الجينز وقميصه الأسود كأنه من الضواحي بشكل سافر، بينما ارتدى الأشخاص الآخرون أحذية رياضية بيضاء أو أحذية داكنة برقبة عالية، فارتدَّ إليه الخوف القديم وخشي أن يتم فضحه واستدعاؤه وطرده.

«أنت زائف، ما اسمك الحقيقي؟ ما بلدك الأصلي؟».

دسَّ يديه في جيوبه وفرك النسيج بأصابع الإبهام والسبابة «كيف تخيط الجيب من الداخل على أي حال؟». رأى غرفة مليئة بماكينات الخياطة، ونساء يوجِّهن قماش الدنيم تحت الإبر العريضة، وحينها تذكَّر أمه.

كان الحفل في إحدى شقق الأدوار العلوية في آخر مبنى متبقٍّ من المباني

الصناعية في جنوب مانهاتن، وكانت النوافذ متراصة على جدار واحد، يكسو حوافها صقيع شهر فبراير، والأرض الخرسانية لزجة من المشروبات المسكوبة، وكلما اقترب المكان الذي تعزف فيه الفرق الموسيقية تزداد الحرارة وكأنك في شهر يوليو. يضم المشهد الحالي فرق موسيقى الروك التعليمية الذين تبدو أغانيهم كأنها أغنية واحدة طويلة مدتها ثلاثون دقيقة، وألواناً رمادية باهتة وزوايا تصويرية ضعيفة، ورأس المطرب محلوقاً بالكامل من جميع الجوانب، بينما ينبت الشعر في أعلى رأسه كأنه حفنة من العرقسوس، تذكَّر دانيال الأيام التي قضاها تحت تأثير المخدِّرات في غرفته بالمدينة الجامعية في جامعة ولاية نيويورك في بوستدام، عندما كان يضغط على زر الإعادة لنفس الأغنية حتى انفصلت النغمات وانحلَّ غموضها.

حمداً لله أنه لم يعد في بوستدام. احتسى الشراب في كوبه البلاستيكي، فانتشر الدفء في جسده حتى وصل إلى بطنه، ورقَّت أعصابه حتى تخلَّلت الموسيقى أصابع أقدامه. عندما كان يعزف مع رولاند، كان الجمهور مندهشاً ومعجباً، ليس كسابق عهده، عندما كان صديقهما المتأنِّق نيت يتحدث عن فيك سيرو، بادره دانيال قائلاً: «أتقصد ذلك الشخص ذا حقيبة الظهر الزرقاء؟»، وظهرت ملامح الاندهاش على وجه نيت وكأنه لاحظ بقعة على بنطاله.

أتقصد ذلك الشخص ذا حقيبة الظهر الزرقاء! عاقب دانيال نفسه ذهنياً. كان نيت طويلاً جداً ونحيفاً وأحدب الظهر قليلاً، وكان وجهه الطويل النحيف يكاد يطاول الزرافة، ولكن حتى نيت كان يعتقد أن دانيال شخص فاشل. بعد الليلة لن يستطيع أحد أن يتركه في منتصف المحادثة، أو يتكبَّر عليه وكأنه غير مرئي. سيعزف الفريق في حفلات بيعت تذاكرها بالكامل، وسُيكتَب عنه في المدوَّنات الموسيقية، وستوضع صوره في المقدمة وفي المنتصف، وظل رولاند يخبر الناس أن مشروعه الجديد سيكون الأفضل، وأنه سيتحد مرة أخرى مع شريكه الأصلي؛ مع دانيال وجيتاره المجنون. أصبح دانيال متوتراً بعد سماع هذا الكلام، وكأنهما كانا يتحديان القدر، وكان ينتظر طيلة الأسبوع أن يخبر أحدهم رولاند أن يصمت ويتوقَّف عن الثرثرة، ولكن

نصف الموجودين في الغرفة حضروا لتشجيع رولاند، وحاول دانيال بصعوبة امتصاص الإثارة والتوتُّر.

فصبَّ لنفسه كوباً آخر من الشراب وتجرَّعه وصبَّ آخر. توجَّه إلى السطح فظهرت المدينة باتساعها الممتد كأنها عرض فني، على الرغم من خبراته ليعترف أنه انبهر بالمنظر، ففي شمال الولاية كان الثلج يغطي كل شيء، وكأن الموسم في غيبوبة عميقة، ولكن في المدينة كانت الثلوج قليلة والمصابيح الحرارية على السطح، وتلألأت إضاءة الجسور البعيدة كأنها أشعة إكس، وأصوات الموسيقى غير المصحوبة بالغناء والنغمات الشاذة والرقص، وكانت الأرجل والأذرع تتحرَّك ببطء مثل الحيوانات التي تطارد فريستها خلسة. كان هناك فتيات بوشوم هندسية على سواعدهنَّ من الداخل، وشعورهنَّ مجدولة إلى أعلى كأنها ثعابين، وكحل كثيف على أعينهن حتى بدا وكأنه وُضِع بأقلام تظليل من ماركة شاربي. عزفت إحداهن مجموعة ألحان في وقت سابق، اتسمت بالصرخات البطيئة المتدرِّجة وأصوات الكيبورد الصاخبة، والكمان والثيرمين والميلوديكا، وكل آلة موسيقية كانت أغرب من الأخرى. نظر دانيال إلى حذائه ذي الرقبة العالية وتوجَّه إلى مركز الرقص والموسيقى وكأنه يحلم تحت الماء.

استغرق الأمر سنوات قبل أن يتجرَّأ هؤلاء الشرذمة بالمجازفة والخروج من مساقط رؤوسهم في الضواحي، كان دانيال من أطفال المدينة وحفظ نظام مترو الأنفاق وهو في الصف الرابع، ولكن حتى الآن لم يشعر أنه ينتمي إلى المكان، فبعد مرحلة ريدجبورو لم يكن من السهل على دانيال أن يثق بنفسه. على العكس من رولاند الذي يمكنه توجيه مجموعة ببساطة من خلال ظهوره. عندما تساءل رولاند عمن يريد أن يتناول الطعام في مطعم تاكو بيل، أجاب الحضور أن ذلك أمر رائع بالتأكيد، في حين إذا اقترح دانيال هذا الأمر نفسه سيُقابل بالصمت أو حتى السخرية، وإذا أظهر رولاند الملل من عرض ما، وافقه الناس وسارعوا بالنهوض، أما دانيال فكان طيِّعاً، ومثل كل الناس ولا أحد مثله، وكان جامعاً للحالات المزاجية، ومراقباً حذراً لما يقول. كان يراقب ردود أفعال الآخرين قبل أن يقرِّر ردَّة فعله، ويمكنه أن يكون مرحاً أو جادّاً أو أي شيء حسب الاستراتيجية

الغالبة، أو أن يكون أي شخص تريده. أحياناً تكون النتيجة عكسية، فمثلاً عندما سمع بالصدفة هؤلاء الشبان يتحدثون عن فرقة موسيقية تُدعى كروديتس قال: «نعم، لقد سمعت بهم، إنهم فرقة من التسعينيات يعزفون موسيقى البوب بانك، أليس كذلك؟»، فقال أحدهم: «إنهم ليسوا فرقة حقيقية، هم مجرد أضحوكة»، فتلعثم بسرعة بحجة أنه قد سمع الاسم خطأ. أو في ليلة أخرى عندما خرج مع رولاند والأصدقاء وكانوا يتحدثون عن فيلم «بوتل روكت» ومدى حبهم له، فأومأ دانيال برأسه موافقاً لهم، فقال رولاند: «ولكنك تكره المخرج ويس أندرسون!»، فأجابه دانيال: «من حقي أن أغيِّر رأيي»، وتساءل إذا كان انزعاجه بسبب معلوماته المغلوطة عن أفلام ويس أندرسون القيِّمة، أو لأنه أغفل العبقرية الخفية الواضحة للناس الأكثر منه تعليماً.

لو كان يمتلك الملابس المناسبة ويعرف المراجع الصحيحة لأصبح في النهاية الشخص الذي يتمنى أن يكون. تماماً مثل رولاند، مطمئن النفس ولا تشوب ذوقه شائبة، ولكنه أقل زهواً بنفسه، ويستحق الحب الصادق، وبغض النظر عن عدد الألبومات التي حصل عليها أو قوائم الأغاني التي جمعها بطريقة فنية، فقد ظل معدنه الحقيقي موجوداً بثبات، مثل السفينة الضخمة في الأفق، مرئية ولكنها بعيدة المنال، وكلما اقترب منها اندفعت بعيداً أكثر. كان دائم الانتظار لتخطِّي المدخل السري، وعندما تمزَّقت الحبال لم يصدِّق تماماً أنه أصبح بالداخل، وتجسَّد أمامه باب آخر، وحبل آخر عليه أن يتخطَّاه، والوعد الدائم بوجود شيء أفضل.

وأمسك بكوبه البلاستيكي الفارغ، ومزَّقه إرباً، وأخذ يثني الإطار إلى الأمام وإلى الخلف حتى انقسم البلاستيك في خط واحد. ما زالت فرق موسيقى الروك التعليمية تعزف لمدة أربعين دقيقة، ولم يرَ بالداخل أي وجوه مألوفة فحصل على كوب جديد وصبَّ الشراب للمرة الأخيرة، وجد رولاند يقف أمام الجدار مرتدياً سترة سوداء، وشعره الداكن يترنَّح بالقرب من فروة رأسه. كان مظهر رولاند من رقبته فيما فوقها يذكِّر دانيال برجال عصابات القرن التاسع عشر، بملامحه الماكرة وابتسامته المجردة. أثناء مرحلة المدرسة

الثانوية كانا مختلفين جداً ولم يجذبا انتباه الفتيات (أو الفتيان الذين يصاحبهم رولاند أيضاً هذه الأيام)، وعلى الرغم من ذلك أحب دانيال أن يعتقد أن الأمر لا يهم الآن. لا زال رولاند قصيراً وصغيراً ولكنه صلب، ووجهه مدبب وعدواني، وحركاته سريعة وعنيفة، ولم تعد طاقته المهووسة تبدو غريبة كما كانت في ريدجبورو، ولا تشاؤمه الشديد الذي كان يبدو مخيفاً بعض الشيء عند سن الثانية عشرة.

قال رولاند: «لقد حصلنا على هذا، هؤلاء الشباب مقلدون جدّاً».

ضحك دانيال بطريقة أربكت الغرفة بالكامل. يا له من شيء عظيم أن أعود إلى المدينة وأعزف الموسيقى مع رولاند مرة أخرى. كانا يعزفان معاً لنحو نصف عمريهما تقريباً، دانيال على الجيتار والأداء الصوتي، ورولاند الأداء الصوتي والإيقاع والإنتاج، وأحياناً الجيتار الإيقاعي، وكانت العروض في الحفلات المنزلية لكلية كارلوج أو «ريدجبورو إلكس لودج»، أو في أحد إسطبلات ليتل تاون، في المدرسة الثانوية كانت لهم تجربة قصيرة لموسيقى الإلكترو كلاش، وكانا يمثلان ثلاثيّاً قويّاً مع صديقهما شو الذي كان يعزف على الطبل، والثنائي ويلكنسون وفيونتس لموسيقى البانك، وقد حاول دانيال أن يعزف على الجيتار الأبيض ماركة سكواير بأسنانه على غرار جيمي هندركس، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً. قال: «يبدو أن هؤلاء الشباب يسخرون من ألبومات آبائهم لفريق يس».

قال رولاند: «التقليد السيئ كثير هنا».

«ليس مثل هذه المجموعة بآلة الثيرمين».

والحقيقة هي أن سايكيك هارتس كان مقلداً، ويعد كابوساً لموسيقى «النيو ديسكو»، مثلما حاول رولاند أن يفعل بالخلط بين موسيقى «هير ميتال» و«دراكولا» بنغمة البوب الصاخبة المخفَّفة، ومستخدماً العنوان من أحد الألبومات الغامضة للفنان ثورستون مور. كل هذه المواجهات والتلميع فقط ليتم تمزيقهم عن عمد. لم تكن الموسيقى جيدة، وليست من النوع الذي قد يرغب دانيال في عزفه، فهذه ليست الموسيقى المفضلة لديه، ووجد أن إيقاعات

آلات الطبل لرولاند متوقَّعة، وكلمات الأغاني غامضة وضبابية، وأسلوب الثمانينيات يتسم بالوعي الذاتي الشديد. لطالما كان هناك شيء كريه في مسرح رولاند المتبختر، ولكن كيف كان أداؤه طبيعياً، وكيف انخدع الجمهور به بكل سهولة، ولكن إذا أراد رولاند أن يعزف موسيقى كهذه فلن يخذله دانيال.

اتصل رولاند الشهر الماضي وقال إنه يحتاج إلى عازف جيتار لمشروع جديد «أريكتنا لك طالما كنت في حاجة إليها، ما وجهة النظر في أن تظل بعيداً هكذا بالقرب من كندا؟». كان رولاند قد انتقل إلى المدينة مباشرةً بعد مرحلة المدرسة الثانوية، وظل يعمل حتى تمكَّن من الذهاب إلى الكلية بدوام جزئي، ولم يره دانيال وقليلاً ما تحدث إليه لأكثر من عام. قال رولاند: «لا يستطيع أي شخص عزْف الموسيقى معي مثلما تفعل أنت»، وفي اليوم التالي حجز دانيال تذكرة ذهاب متوجهاً إلى المدينة على متن حافلة كانت رائحتها كحفاضات الأطفال، وكان يبدو أنه ليس لديه أي خطط بعد أن أقلع من بوتسدام، وكما قال والداه، ومثلما سيذكِّرونه غداً مرة أخرى، فقد أضاع مستقبله.

كانت الستائر الرمادية معلَّقة على الجدار بطريقة ملتوية، والرسومات والكتابة الزخرفية عبر باب الحمام. هذه الحفلة كانت للدعوات فقط ويحضر فيها مدعوون من أماكن مثل «جوبيتر» للتحقُّق من مستوى الفرق الموسيقية، وهو فريق اشتاق رولاند للعزف معه. عرف رولاند الفتاة التي جهزت قائمة البريد الإلكتروني السرية التي حجزت لهم على أساس مشاريعه السابقة. إذا كان الشاب من جوبيتر معجباً بسايكيك هارتس ربما حجز لدانيال عزفاً منفرداً في يوم ما.

بدأ دانيال بتفحُّص الجمهور، رأى في الخلف رجلاً له شارب يقف وحده، ويرتدي قبعة بيسبول بيضاء وحذاء بنياً كبيراً ذا رقبة عالية وأربطة برتقالية، فنظر دانيال إلى حذائه مرة أخرى «هل هذا هو مسؤول حجوزات جوبيتر؟»،

ونظر رولاند، توقفت فرق موسيقى الروك التعليمية عن العزف، وتلاحق التصفيق الضعيف في مقدمة الغرفة، ونظر أحد أصدقاء رولاند ورفع إبهامه تحية له «هل أنت مستعد لذلك؟».

قال دانيال: «على الدوام».

وكان الخطأ في رابع كأس. بحلول وقت انتهاء التحقُّق من أجهزة الصوت، شعر دانيال كأنه يرى الغرفة من خلال نظارة شخص آخر، ونظر إلى قطة مرسومة بالرش على الجدار البعيد ثم عاد ليضبط نغمات جيتاره، بالدق على نفس الوتر مراراً وتكراراً. حينها تمنَّى أن يكون معظم الناس يتفحَّصون هواتفهم بدلاً من النظر إليه وانتظاره أن يفسد الأمر. بدأ رولاند بعزف أولى نغمات أغنيته الأولى على آلته الإيقاعية الإلكترونية من طراز «آكاي إم بي سي 60»، وقام دانيال بعزف نغمات متآلفة (كوردات) بنعومة وحزم، وبدأت الألوان تتسرَّب من الأغنية، الأزرق الداكن مع البني الفاتح، وكأن نغمات الأوتار تندفع بقوة من خلال أنبوب، واندفعت قائمة مجموعة الأغاني الست المكتوبة عند قدمه تجاهه. عزف مقام الدو ثم المي نصف تون، وغنى رولاند أول سطر. بدت النغمات حزينة ومضطربة وخاطئة للغاية، مثل الوقت الذي قضم فيه مربعاً أصفر كان يظنه ثمرة أناناس، فاكتشف أنه جبن مر جدّاً.

استمر رولاند في الغناء، فقد أخفقا في كثيرٍ من الحفلات، وكان من يقع في الخطأ يصحِّح من نفسه في نهاية المطاف. كان ذلك بمثابة الميثاق غير المعلن بينهما، مثلما يوجِّه الآباء أبناءهم، في حال تفرَّقنا نعود إلى المكان الذي بدأنا منه، ولكن هذه المرة لم تعد النغمات، فقد تدرَّبا لبضع مرات فقط، وغرَّهما في ذلك تاريخهما في العزف لسنوات، وعندما حوَّل دانيال نظره إلى قائمة مجموعة الأغاني لم يتعرَّف إلى أي عنوان منها. لم يتعلَّق الأمر بالأعصاب، فعلى الرغم من صغر سنه فإنه لم يكن من الهواة، ولكنه التدمير الذاتي: إنك تفسد كل شيء، أخذ يعزف الكوردات واحداً تلو الآخر، وتذكر نغمة بسيطة فعزفها. كانت هذه النغمة من ألحانه، لحناً أراد أن يعزفه بصوت مرتفع، ففعل ذلك. كان اللون البرتقالي الفاتح يدور من حوله، وأصوات ردود الفعل كالنحيب، ورأى الناس عَبوسةً وتسد آذانها.

توقف رولاند عن الغناء قائلاً: «هذه الأغنية تدعى «أرجوك أرني ثناياك»»،

وبدأ في الأغنية التالية لكن دانيال لم يتعرَّف إليها أيضاً. كان الأمر كأنه استيقظ في بلد أجنبي والكل يتكلم بلغة لم يسمع عنها قط، ومطلوب منه إلقاء خطبة. صاح أحد الأشخاص: «تعلَّم كيف تعزف». لم يستطع دانيال رؤية مسؤول حجوزات جوبيتر في أي مكان. ازدادت درجة الحرارة في الغرفة، وأصبحت أضيق، ولم يعد بإمكانه أن يسمع أي شيء فيما عدا تسارع الطبول الثائرة، وأصوات هرولة حوافر الخيول، وأصوات ضربات فرشاة الرسم الرديئة وهي ترسم باللون الرمادي فوق الأسود. أشارت دقات الطبول إلى الخطر، فكان عليه إصلاح الموقف، ويجب عليه تصحيح أمره، كان يخطئ بسرعة، لدرجة أنه لم يستطع فعل أي شيء سوى التمايل، وظل يضغط على الزر كأنه يراهن دون حدود تردعه على الرغم من علمه بحماقة عزفه، وضغط مرة أخرى وهو يرى المال ينقص، وضغط مرة أخرى، وكان غير قادر على فعل أي شيء سوى تعقُّب ذلك النبض الفردي إلى الانهيار، وعرف أن هذا قد يكون أسوأ شيء فعله برولاند، وأن رولاند قد لا يسامحه على الإطلاق، وأنه قد لا يسامح نفسه، ولكنه لم يعد قادراً على تحمُّل الوقوف على المسرح بعد الآن.

ففصل جيتاره وسحبه، واستمر الإيقاع «ماذا تفعل؟». قالها رولاند همساً. ترنَّح دانيال مبتعداً عن المسرح، وشقَّ طريقه مندفعاً بين الجمهور، وبينما كان يهرب إلى خارج الغرفة سمع رولاند ينادي باسمه، وأصوات ضحكات السخرية. تعثَّر حتى وصل إلى الشارع، فلكمه الهواء البارد على وجهه، ولكنه ترك معطفه بالطابق العلوي. اصطفَّ الجمهور على الرصيف في طريق بويري مروراً بقاعة جوبيتر، تخيَّل أن اسمه مكتوب على اللافتة الأمامية، فنظر بعيداً وعبر الطريق مع أول ضوء إشارة مرور، وسار شارداً تجاه الجنوب. يجب عليه التخلِّي عن الموسيقى والعودة إلى المدرسة وإسعاد والديه. اتخذ منعطفاً حادّاً تجاه اليسار وسلك شارع موت إلى شارع القنال، مروراً بمحلات النودلز ومتاجر البقالة، وكانت اللافتات منتشرة في كل مكان باللغة الصينية. استطاع أن يفسر أحد الحروف ويضعه مع ما يليه ليفهم بعض اللافتات مثل: العلاج المرخَّص بالإبر، وبطاقات الاتصال الدولية. كان حل رموز اللغة الصينية بمثابة إلهاء مرحَّب به،

فأسرع في مشيته، وانزلق على الثلج، ومسح أنفه المرشح بأصابعه. عندما كان في شمال الولاية قام بين الحين والآخر بتشكيل الحدود المتقاطعة لكلمة ما بلغة الفوزهو الصينية، وشعر بشكل فمه عند نطقه لها، وتذكَّر نطق مقاطع مثل (شا) أو (تزا)، ولكن محاولة الوصول إلى المعنى كانت أشبه بمصارعة الهواء، وحتى لو تذكَّر المعنى فطريقة نطقه بها قد ذهبت أدراج الرياح. لم يكن هناك أي شخص ليتحدَّث معه، حتى لو كان بإمكانه ذلك.

وبعد غياب سنوات صدمته أعداد الناس الموجودة بالحي الصيني، وشوارع في أماكن لم يستطِع تذكُّرها، وواجهات المتاجر مكتظَّة بعضها فوق بعض، وأصبح الشعور بوجود الصينيين من حوله شعوراً غريباً، وكان الأطفال في المدرسة الثانوية يقولون إنهم لا يعتقدون أنه آسيوي ولا أن رولاند مكسيكي، كنوع من أنواع المجاملة، فلم يكن ذلك الفتى الصيني أو الآسيوي أو الكوري أو أياً من كان، الذي يعيش مع والدين من أساتذة الجامعة، ولكنه كان مجرد شاب يعزف على الجيتار، وشارك في جميع تلك الفرق الموسيقية، الفتى الذي كان يجلس متجهماً في الصفوف الأخيرة في الفصول الدراسية التكريمية، ولكنه كان بالكاد ينجح، ولكن على الرغم من درجاته في الاختبارات، عرف الجميع أنه كان بارعاً في الرياضيات.

في بوستدام كان يوجد عدد قليل من الطلاب الآسيويين الآخرين في صفوف محاضرته، أو طلبة برنامج التبادل الطلابي المتكتِّلين بعضهم مع بعض، أو آخرين وحيدين كالذئاب. تراهم في الحفلات محاطين بأصدقائهم غير الآسيويين. قام بتجنُّبهم، وكان التجنُّب متبادلاً، ولكنه لم يعد في بوستدام الآن. لم يعد لديه إلا المدينة بعطلتها الأسبوعية الطويلة الضائعة، يرقص في حفلة على إحدى البوارج، أو يذهب في جولة بسيارة أجرة على جسر وليامز بورج، حيث تتلألأ مانهاتن من بعيد، وخمسة من أصدقائه محشورون في المقعد الخلفي، وفتاة لا يعرفها تجلس على رجليه، أما رولاند فيجلس في المقعد الأمامي مثرثراً مع السائق عن النباتات وآفاتها، أو تجميع عيش الغراب من الغابات، أو يشاهد فيلم «البرتقالة الآلية» في وقت متأخِّر من الليل إلى أن يصل إلى شروق شمس يوم السبت.

في مثل هذه الليالي يندمج الماضي والحاضر والمستقبل في موجة رقيقة، فكل من يعرفهم يركبون بجواره في جولة مرحة، تصاحبها الصافرات البخارية كالموسيقى التصويرية.

تعثَّر في رباط حذائه وانحنى ليربطه. هل ذهب كل ذلك بعد ما حدث الليلة؟ ربما لم يكن هناك الكثير ليخسره. كانت تمر عليه أيام يستيقظ في الصباح على أريكة رولاند، وها هو يوم جديد يقضيه وحيداً ويطول عليه، ولكنه فضَّل التسكُّع في البرد لساعات ولم يُرِد العودة إلى الشقة الخالية مقتنعاً أنه قد ارتكب خطأً فادحاً، ولكنه فعل ذلك حقّاً. لقد أخفق أمام الناس الذين طالما اشتاق إلى إبهارهم.

قام بفرك القشعريرة التي تكوَّنت على ذراعيه وارتعشت أسنانه، ثم مرَّ بمتجر للهواتف المحمولة ملصوقة على نوافذه لافتات باللغة الصينية. عندما كان طالباً مستجداً في المدرسة الثانوية رأى امرأة صينية في مركز «ليتل تاون» التجاري، كانت نحيفة وشعرها مجعداً، وتمسك حقائب بلاستيكية أذرعها متشابكة. اقتربت منه بتركيز فلم يستطِع أن يخفي وجهه، وتحدَّثت ففهم لغتها الصينية الشمالية. كانت قد ضلَّت طريقها، فهل تمكَّن من مساعدتها؟ احتاجت إلى أن تجري مكالمة هاتفية، وأن تجد حافلة، وبدا على ملامحها الخوف والقلق. كان هناك مراهقان ملامحهما شاحبة وشريرة يشاهدانها وسخرا من لهجتها، وقال لها دانيال باللغة الإنجليزية: «أنا لا أتحدث اللغة الصينية». حاول بعد ذلك نسيان تلك المرأة لأنه عندما يفكِّر فيها يشعر بوحدة عميقة كأنه وحيد في مغارة.

ولكنه تذكرها الآن وتمنى لو كانت معه سماعات الرأس ليستمع لأغنية تخفِّف ألمه، في حين يختتم الليلة بالضوضاء والدخان. مرَّ رجل ونظر في عينيه بفضول، كان يرتدي معطفاً من النوع الفضفاض اللامع، وتذكَّر دانيال أنه رآه محشوراً في رفوف متاجر طريق فوردهام. صاح دانيال في ظهر الرجل: «ما الذي تنظر إليه؟».

أصدر هاتفه صوت طنين، فوجد رسالة من رولاند يقول فيها: «هل أنت بخير؟»، ثم تفقَّد بريده الإلكتروني، فوجد رسائل من قوائم البريد الموسيقية، ومقالة عن معدَّلات البطالة والدرجات الدراسية مُعاداً إرسالها من والديه فحذفها دون أن يقرأها، وكانت هناك رسالة من مايكل تشين تلقَّاها منذ أكثر من شهرين، لم يرد عليها ولكنه لم يحذفها أيضاً، وعوضاً عن ذلك قرأها مرة أخرى ثم أغلقها، ولكن كلماتها ما زالت مشتعلة بداخله، وتسبَّبت له في غليان شبه ثابت:

مرحباً دانيال.. أبحث عن شخص يدعى دانيال ويلكنسون اعتاد أن يكون اسمه ديمينغ غوو. هل أنت ذلك الشخص؟

مرحباً!! أنا مايكل، لقد اعتدت أنت وأمك أن تسكنا معي أنا وأمي وخالي في حي البرونكس. تزوَّجت أمي منذ سنوات عديدة، وأنا أعيش معها هي وزوجها في بروكلين، والآن أنا طالب في السنة الثانية في جامعة كولومبيا.

أعلم أننا لم نتحدَّث منذ سنوات، ولكن هل أنت دانيال المقصود؟ هل يمكنك أن تراسلني أو تتصل بي على الرقم 646ـ795ـ3460؟ إن الأمر مهم، ويتعلَّق بوالدتك.

إذا كنت دانيال ويلكنسون آخر، هل يمكنك أن تخبرني حتى لا أزعجك مرة أخرى؟

أتمنى أن أتلقَّى ردَّك قريباً.

مايكل تشين.

قال دانيال: «اللعنة»، كما لو أن مايكل وليون وفيفيان يمكنهم العودة بعد عشر سنوات، كما لو أنه أصبح يهمهم فجأة، فقد تركوه يرحل وتخلَّوا عنه، ولم يستطع أن يفكر في أي شيء يريد أن يعرفه عن أمه قد يخبره به مايكل، فأينما كانت فهي قد رحلت منذ زمن بعيد.

أغلق هاتفه وسار باتجاه الجزء العلوي للمدينة. كُسِر حذاؤه ذو الرقبة العالية على الرصيف، ودخل في بركة عندما كان يعبر شارع القنال، فشعر

بسائل يندفع إلى بنطاله الجينز من الخلف، فهو لن يبيع أبداً أحداً بهذه الطريقة، ولن يترك أحداً أو يختفي، فهو ليس مثل أمه أو ليون. سوف يعود إلى الشقة ويعتذر لرولاند، ويدرس جميع الأغاني، ويعزف حتى تلتهب أصابعه، ويتمرَّن حتى يتم العفو عنه ويصبح مثالياً.

«لا أدري لماذا يصنعون القائمة بهذا الشكل بحيث تصعب قراءتها». حدَّق بيتر بالحروف المتعرِّجة التي طُبِعت لتبدو مثل خط اليد. اصطدمت رجلاه بالجانب السفلي من المنضدة فارتجَّت الأواني الفضية «وما هذا الكرسي، هذا الحجم يصلح للأطفال الرضَّع».

وكانت النادلة التي تضع حلية أنف كبيرة بين فتحات أنفها قد صاحت بالفعل بسبب معايير موسيقى الجاز، ولكن بيتر طلب منها إعادة العروض الخاصة بالوجبات لأن كاي سألت بعض الأسئلة عن الأصناف. «هل الليمون الرائب حامض جداً؟ لا أحب طعم الأشياء الحامضة. ما بذور القرع؟ وما لحم لافريدا؟ ولماذا يطلقون أسماء على البقر؟». انزلقت الوسادة المخملية المرنة الموجودة على كرسي ديمينغ تحته، فرفع القماش إلى أعلى ودسَّها تحت ركبتيه.

اعتاد والدا دانيال ارتداء نفس نوع الملابس منذ أن عرفهما، حيث يرتدي بيتر السترات الصوفية باللون الكاكي أو الترابي، وترتدي كاي ملابس برقبة ضيقة فاتحة اللون وبناطيل قصيرة واسعة. بعد عشرة أعوام توقَّف عن ملاحظة كيف بدوا مختلفين عنه، ولكن بعد انقطاعه عن رؤيتهما لمدة شهرين، حيث كان يعمل ويرتاد مترو الأنفاق ويسير في الشوارع مع جميع أنواع البشر، تغير الوضع الآن، فبدا مختلفين وأكثر هدوءاً وأصغر حجماً وبعيدين عن الواقع، وكان عكس الأدوار مرضياً بشكل غير متوقَّع.

قالت كاي: «إن الجدل يتخمَّر في الكلية، عذراً على التورية أثناء شرب القهوة». شرب دانيال فنجانه قائلاً: «هل يحدث ذلك في كارلوج؟».

«كان طلاب الأقليات يحتجُّون»، قالها بيتر وهو يشدِّد على كلمة الأقليات «يريدون من الإدارة أن تنشئ قسماً للدراسات العرقية».

«وما الخطأ في ذلك؟».

قالت كاي: «حسناً، ليس ذلك اختلافنا معهم، أعني أننا نقدِّر التنوُّع».

قال بيتر: «لكن مستوى النقد اللاذع، بصراحة لا يساعدهم في قضيتهم. كان لديَّ طلبة يخرجون من محاضراتي، وهذا شيء مربك على أقل تقدير».

أضافت كاي: «والطلاب البيض أيضاً بالطبع، كل ذلك التركيز لإثارة التحذيرات والتصحيح السياسي. أخشى أننا نقوم بتربية جيل من الأطفال المدلَّلين، أود أن أعتقد أننا ربَّيناك يا دانيال على عدم المطالبة بالحصول على هذا النوع من الاستحقاقات».

«بالطبع يا أمي».

عادت النادلة بالطعام، وطلب منها بيتر إعادة تعبئة القهوة. أخرجت كاي كيس الشاي من فنجانها وضغطت عليه بالملعقة. لا يقم أي منهما بالتدريس أيام الجمعة، وقد استيقظا في السادسة صباحاً ليقودا السيارة لمدة خمس ساعات إلى المدينة، وخطَّطا أن يعودا إلى المنزل مباشرةً بعد الغداء، ورفضا عرض دانيال بالبقاء الليلة في شقة رولاند. قال بيتر: «لن ننام على أريكة رولاند فيونتس»، قالها متهكِّماً وكأن مجرد الاقتراح كان سخيفاً.

«قهوة أخرى لي من فضلك، وماء»، وكان دانيال قد تجرَّع زجاجتين من الماء عندما استيقظ، ولكن فمه ما زال جافّاً.

تفحَّصته كاي قائلة: «هل كنت بالخارج لوقت متأخر الليلة الماضية؟ هل لم تستيقظ سوى الآن؟»، فهز رأسه بالإيجاب.

«بالطبع، أتذكَّر عندما كنت تستيقظ عند بزوغ الفجر خلال العطلة الصيفية».

قال دانيال: «أنت تعرفينني يا أمي، أحب أن أستيقظ مع شروق الشمس»،

«لتأخذ السبق وتبدأ العمل في المزرعة، أليس كذلك؟».

قالها بيتر وهو يقلِّب السكر في قهوته: «كيف حال رولاند هذه الأيام؟».

عندما استيقظ دانيال منذ نحو أربعين دقيقة، وبعد بضع ساعات من النوم الذي لا يكاد يذكر، كان معطفه مطويّاً أسفل الأريكة، وكان باب غرفة نوم رولاند مغلقاً، ولم يلتقيا منذ أن هرب من الحفل الموسيقي.

تحدَّث من خلال أسنانه وارتفع بأسلوب الكلام: «عظيم! لقد عزفنا في حفل موسيقي الليلة الماضية»، وبينما كان يقطع العجَّة اصطدم كوعه بكوع كاي.

«الليلة الماضية! هل كان الحفل في بار؟».

«أمي، لم أكن أفعل أي شيء، مجرد قدح أو اثنين من الشراب بين الحين والآخر».

«أنت تعرف ماذا يقولون، يمكن أن تؤدي الإغراءات إلى الانتكاس، يجب أن تكون بالمنزل معنا وتحضر الاجتماعات، سوف تذهب إلى الاجتماعات، أليس كذلك؟»، كانت تسأله نفس السؤال كل مرة تحدَّثت فيها، ودائماً كان يكذب عليها.

«قريباً من شقة رولاند، لقد أخبرتك بذلك».

رأى دانيال الخطاب الذي أرسله العميد في نهاية الفصل الدراسي الأخير، والطباعة بالحروف العريضة بتفاصيل شروط فصله الأكاديمي، وضعته المدرسة قيد الاختبار بعد الفصل الدراسي في الربيع؛ حيث كان المعدَّل التراكمي لدرجاته 1.9 درجات، وفي أكتوبر توقَّف عن الذهاب إلى الفصول الدراسية. كان بيتر قد قام بتثبيت برنامج حظر على الكمبيوتر المحمول لدانيال، على الرغم من أن مواقع لعبة البوكر كانت قد حظرته بالفعل بعد أن قام بتجاوز حدود كثيرٍ من الحسابات.

اصطدمت ركبته بالمنضدة فانسكب الشاي من فنجان كاي، ونظر إليه بيتر بينما كان يمسح الشاي بمنديله «أنا على ما يرام هنا، فأنا أجني مالاً معتبراً من وظيفتي، ولا أستخدم بطاقتي الائتمانية، كما أن زميل رولاند بالسكن سينتقل

في مايو، وسوف آخذ غرفته.

وهنا الأمر مختلف عن بوستدام، حيث لا يوجد ما يمكن أن أفعله، فأنا مشغول جدّاً لأشتِّت انتباهي بمثل هذه الأشياء».

«أيقول لا يوجد ما يمكن أن يفعله في بوستدام!»، قالها بيتر بتأفُّف.

«توجد المدرسة، من المفترض أنك تدرس، هذا ما يفترض عليك أن تفعله، وليس كل هذه الأشياء».

قالت كاي: «لا أدري، فحالات الإدمان التي كنت أقرأ عنها، تخطَّت القدرة على ضبط النفس، ومدينة نيويورك مليئة بالإغراءات».

«ثقي بي يا أمي، بالفعل توجد عناصر سيئة في كل مكان، ولكن مدينة نيويورك بها أشخاص أكثر، وفرص أكثر لتخطِّي العناصر السيئة».

قال بيتر: «العمل في مطعم مكسيكي مثل العوام من العمال»، فقال له دانيال: «لا تكن عنصرياً».

«ماذا؟! هل أصبح من العنصرية أن أقول مكسيكياً؟! حسناً، عندما تقوم بتقديم التاكو والفاصوليا المجفَّفة، إذا لم يكن هذا مكسيكياً، إذاً لا أعرف ماذا أسميه، فلتدعُ الأشياء بأسمائها الحقيقية».

«أسماؤها الحقيقية؟! هل أنت جاد؟! لا يوجد ما يقلقك، فملاك العقار أغنياء ومن الأمريكان البيض، وجميع أصناف البشر يعملون هناك، وجميع الأعراق والأعمار. أتدري لماذا؟ لديَّ زميل هندي في العمل ويدرس في معهد فلوريدا التقني، وصديق عمل آخر أسود سيدرس بجامعة نيويورك، أما عن المُلاك فلم يدخلوا الجامعة ولكنهم مليونيرات أوغاد، ولم أقابلهم لأنهم لا يعيشون في نيويورك. أحدهم يسكن في بيت خشبي على الأشجار في ولاية واشنطن، وأخوه يمارس ركوب الأمواج في كوستاريكا، والرجل الآخر يعيش في برلين».

لم يعقِّب بيتر، وغرف بشوكته قطعة كبيرة من شطيرة البيض باللحم.

قالت كاي: «دانيال، لا تحدِّث أباك بهذا الأسلوب».

فقال بيتر: «كفانا هذا، لا أريد مزيداً من اللف والدوران، فلم نقُد السيارة لخمس ساعات كي نسمع تهكُّمه».

قالت كاي: «لدينا أخبار جيدة، بل أخبار عظيمة، وافقت كلية كارلوج على أن تلتحق بها بصفتك طالباً بدءاً من هذا الصيف، ويمكنك تعويض ما فاتك من البرنامج الدراسي، وسيكون ذلك بشكل مؤقَّت بالطبع».

أراد بيتر وكاي أن يذهب دانيال إلى كارلوج حيث يستطيعان أن يحصلا له على تخفيض الرسوم الدراسية لأعضاء هيئة التدريس، ولكنهما رضخا لاختياره جامعة ولاية نيويورك في بوستدام بعد أن وعدهما بعدم حضور دروس الموسيقى. كانت المعونة المالية ودخله من العمل مع الدراسة كافيين لتغطية الرسوم الدراسية عندما كانت درجاته جيدة، كما أن بوستدام بعيدة بما يكفي في شمال الولاية، مما يمكِّن دانيال من التواري، ويجنِّبه من أن يُعرَف فقط على أنه صديق رولاند.

«ولكنَّني موجود هنا الآن، ولديَّ مكان أعيش فيه»، فقال بيتر: «أريكة رولاند ليست مكاناً تعيش فيه».

أخذ دانيال رشفة طويلة من الماء «لا أريد الذهاب إلى كارلوج».

«كان يجب عليك التفكير في ذلك قبل أن تُفصل من بوستدام».

«لا أريد الذهاب إلى أي مكان، أريد أن أظل هنا».

«لقد جازفت أنا وأمك ووضعنا مستقبلنا المهني على المحك من أجلك، ونجحنا في أن نضمن لك مكاناً في كارلوج على الرغم من توجُّس العميدة الذي كان بكل صراحة في محله، فقد رأت قرار الفصل وتقريرك الدراسي، وحاولنا بكل قوة إقناعها أنك تستحق فرصة أخرى، نكرانك للجميل أمر مذهل بالتأكيد».

وضعت كاي كفَّها على معصم دانيال «أعرف أنه كان وقتاً عصيباً، ولكن لا يمكنك الانسحاب بعد عامين من الدراسة الجامعية، وماذا ستفعل دون الحصول على شهادة جامعية؟!».

«سأعزف الموسيقى».

«تعزف الموسيقى!». توهَّجت جبهة بيتر غضباً «لا تكن غبيّاً، هل ستسدِّد الموسيقى إيجار السكن وتشتري لك مواد البقالة؟».

كان بيتر يقول نفس الشيء منذ أن كان دانيال في الثانية عشرة من عمره «لم يكمل رولاند دراسته الجامعية ولكن حالته المادية على ما يرام»، قالها دانيال متجاهلاً الإشارة إلى أن رولاند كان يتلقَّى دروساً في إدارة الأعمال في الليل. «وأدريان رفيقه بالسكن في عامه الثالث من الكلية ولديه بالفعل مائة ألف دولار في قروض الطلاب».

«هذا أمر جنوني»، فتَّشت كاي في حقيبة يدها وأخرجت مجموعة من الأوراق ومرَّرتها إلى دانيال.

قال بيتر: «يوم 15 مارس، أي بعد ثلاثة أسابيع، هذا هو الموعد الأخير لك لملء هذا الطلب لتتمكَّن من التسجيل في كارلوج للفصل الدراسي الصيفي، وستجد الموقع الإلكتروني لملء النموذج عبر الإنترنت مطبوعاً عندك، كنت سأكتب استمارة الغرض من التقديم بنفسي نيابةً عنك إذا لم يكن ذلك خطأً أخلاقياً. لا أعتقد أنني لم أفكر في ذلك، ولكن لا تفهم بالخطأ أن ذلك اختيار».

كان بيتر قد ملأ بالفعل الصفحة الأولى باسم دانيال وعنوانهم في ريدجبورو. طوى دانيال النماذج ووضعها في جيبه «ما رأيكما لو سجَّلت في كارلوج في الخريف، أو حوَّلت إلى مدرسة في المدينة؟

توجد هنا فرص عمل أكثر، وكذلك فرص للتواصل، كما أنني أريد أن آخذ إجازة لعدة أشهر، وعندما أعود إلى الدراسة ستكون صحتي أفضل وتركيزي أكبر».

قالت كاي: «لا أعتقد ذلك».

وقال بيتر: «لقد أخذت إجازة لمدة فصل دراسي كامل، وهذا كثير بالفعل، أنت معرَّض للتراجع والرسوب، ولو كان الأمر بيدي الآن كنا سنأخذك إلى البيت معنا بعد هذه الوجبة، لكن يبدو أن أمك تعتقد أنك تستطيع الاعتماد على نفسك».

قالت كاي: «حسناً، بالفعل أنا أعتقد ذلك، لا تقلق من أي شيء».

«سوف تعطينا النماذج بنهاية الأسبوع القادم، ونسخة من استمارة الغرض من التقديم، ثم سترسل إلينا صيغة التأكيد على الطلب المقدَّم».

«بنهاية الأسبوع القادم؟!».

قالت كاي: «سنحضر إلى المدينة مرة أخرى، سيبلغ جيم هينينغس سن الستين وسيقيم حفلاً مساء يوم السبت، وستكون آنجل موجودة بالحفل، ستنضم إلينا بالطبع».

تقلَّصت عضلات دانيال، إذاً لم تذهب آنجل إلى نيبال، لو كانا لا يزالان صديقين، ولو كانت لا تزال تتحدَّث إليه، لأخبرها عن البريد الإلكتروني الذي أرسله مايكل، ولأخبرها عن اتهام بيتر له بنكران الجميل، وعن شعوره بالتمزُّق بين إحساسه بالغضب وإحساسه بأنه مدين له. ليت بيتر وكاي يعرفان مدى احتياجه إلى موافقتهما، ومدى خوفه من أن يخذلهما مثلما خذل أمه من قبل. أخبرته آنجل ذات مرة كيف تشعر بأنها مدينة لوالديها، وقالت: «ولكننا لا نستطيع أن نتعس أنفسنا لاعتقادنا أن ذلك سيجعلهم سعداء، سيكون ذلك أسلوباً فاشلاً نعيش به حياتنا»، وكان دانيال قد تعرف إليها منذ أن كانا طفلين، ولكن مكالمتهما الهاتفية الطويلة التي تمنعهما من النوم بدأت في الربيع الماضي، وكانت تمثل أعظم مواساة له معظم العام الماضي. كان إخلاصها معدياً، وأحب دانيال سماع أخبار أصدقائها وتجاربها العاطفية وترتيباتها لفصل الصيف والفصول الدراسية التي تحبها والأخرى التي لا تحبها، وكيف كانت الحياة في الغرب الأوسط أهدأ وأكثر سكوناً من مانهاتن، ولكن يا إلهي، قد تقتل أحدهم من أجل قطعة بيتزا لذيذة أو شطيرة شاورمة لحم في الخبز اليوناني.

توجَّهت كاي إلى النادلة لتدفع الحساب وقالت: «نحن نحبُّك، ونريد الأفضل بالنسبة إليك، أعرف أن الأمر لا يبدو كذلك في الوقت الراهن، ولكننا نحبك بالفعل».

«سيعرف ذلك في يوم من الأيام». دفع بيتر المقعد بعيداً عن المنضدة وقال: «أين الحمام؟».

كان دانيال يشاهد بيتر وهو يسير في المطعم، وشعر بتيبُّس جديد في ذراعيه ورجليه. تمكَّن منه الشعور بالذنب، فقد أرادا أن ينجح بالأسلوب الذي كان مهماً بالنسبة إليهما؛ لأن ذلك كان يعني نجاحهما أيضاً. كان رولاند مشغولاً جدّاً ولم يتحدَّث معه لمدة عام، ولكن كاي وبيتر كانا يتصلان به كل أسبوع، فكيف يتسبَّب في إيذائهما أكثر ممَّا قد قام به بالفعل؟! ولم يستطِع أن يرد على البريد الإلكتروني لمايكل.

فرجع إلى كاي قائلاً: «سأقوم بملء الطلب يا أمي».

شعر دانيال بالتهاب في معصميه بعد دوام عمل لمدة سبع ساعات في غرف الفول وتقطيع الفلفل ولف شطائر البوريتو. كان هناك صندوق فارغ على منضدة مطبخ رولاند لميكروفون ماركة «نيومان»، التقط دانيال إيصال السداد، فأطلق صافرة منخفضة من فمه. تكلفة هذا الميكروفون ألفا دولار! وأزاح نماذج التقديم لكلية كارلوج ووضعها على الطاولة بعد أن أصبحت مجعَّدة بعد أن وضعها في جيبه.

سحب الأريكة فتحوَّلت إلى سرير لينام عليه، وكانت حقيبة ظهره وجيتاراته مختفية تحت رجليه. كان أدريان رفيق رولاند في السكن وفي العمل، أو في المدرسة، أو في شقة حبيبته، وكان رولاند في الغالب بالخارج أيضاً في فصوله الدراسية، أو يقوم بنقل القطع الفنية، أو يعمل مع طاقم إنشاءات في تركيبات أحد المعارض، أو يشارك في تصميم أحد أعمال أصدقائه من المصمِّمين، أو يساعد أصدقاءه في الفرق الموسيقية الأخرى. غاص دانيال في الأريكة وأخرج جيتاره، وعلى الرغم من معصميه الملتهبين أراد أن يتدرَّب على أغنية.

سمع صوت مفاتيح عند الباب، ودخل رولاند قبل أن يتمكَّن من إبعاد الجيتار «ما اللحن الذي تعزفه؟».

فقال دانيال: «لا شيء.. مجرد عبث موسيقي».

وتبادلا النظرات «اسمع»، حوَّل رولاند اتجاهه وموطئ قدمه «أريدك أن تعلم أنني لست غاضباً أو أي شيء آخر».

«لم أقل ذلك».

«فنحن نادراً ما تدرَّبنا».

«أنا آسف».

«تعالَ واسمع لشيء عزفته اليوم».

جلس دانيال على سرير رولاند، وفتح رولاند برنامج التوزيع الموسيقي «بروتولز» على حاسبه الشخصي، وقام بتشغيل مقطع من أغنية لسايكيك هارتس بصوت رولاند، وضغط رولاند على زر، كان نفس المقطع ولكن الصوت تغيَّر بتأثيرات برنامج إضافي وأصبح أكثر خشونة وإزعاجاً. لم يفهم دانيال ما المقصود. كان يستخدم تأثيرات رديئة بتطبيقات الرسومات الحاسوبية في فيلم تاريخي، وفلتر صور كلاسيكياً سيئاً.

قال رولاند: «هاتش مسؤول حجوزات جوبيتر مشارك في هذا الهراء، وبعد أن غادرت الليلة الماضية، انتهى بي المطاف وأنا أتحدث معه عن الفرق الموسيقية التي عمل معها. تعرف أنه ساعد جين روست في الانطلاق، أليس كذلك؟ وكذلك تيراريا، آلات إيقاع عملاقة، وجيتارات بدواسات ومؤثرات صوتية (أوفردرايف)، والآن انظر إلى ضخامتها، أعتقد أن سايكيك هارتس يجب أن تأخذ نفس الاتجاه».

«هل تريد أن تغيِّر الفرقة الموسيقية من أجل هاتش؟».

«أريد أن أعزف موسيقى جوبيتر، وأريد أن أوقِّع عقداً».

«وماذا عن موسيقاك الخاصة، ألا يهمك ذلك؟»، هزَّ رولاند كتفيه مستهجناً: «الفن يتطوَّر».

«ما الذي تقوله، توقَّف عن هذا».

«لسنا مضطرين إلى ذلك». ضغط رولاند على زر الإيقاف.

«ولكن يجب أن نفعل ذلك».

«لا أعتقد أن هاتش سيحجز لنا بعد ما حدث ليلة أمس على أي حال».

«لا، فقد تكلَّمت معه، سيقوم خافيير بالعزف في عرض حفل موسيقي في غضون بضعة أسابيع. ليس حفلاً كبيراً، ولكن يمكننا أن نحصل على إحدى الدخلات الافتتاحية».

«بنظام الصوت الجديد، الذي يحبه هاتش».

«نعم بالطبع».

ومع ذلك كان دانيال أقرب إلى تحقيق مراده أكثر من أي وقت مضى. تحدث إيفان عدة مرات عن نيويورك وكيف كانت أروع وأخطر في التسعينيات، وهو أكبر عامل لف شطائر بوريتو في مطعم «تريس لوكاس» المكسيكي، أبيض ذو شعر أحمر ويبلغ من العمر ستّاً وثلاثين سنة، ولكنه ما زال يحاول النهوض بفرقته الموسيقية، وكان دانيال قد ذهب إلى مشاهدة إيفان في أحد عروض الساعات الأربع في إحدى ليالي الثلاثاء، والرجل يمكنه بالكاد أن يغني، وفي العمل اليوم عندما ذكر دانيال أنه قد عزف في حفل الدور العلوي ـ مغفلاً الجزء الخاص بهروبه ـ قال إيفان: «اذهب إلى الجحيم، لا أصدقك»، ورمى ملعقة مملوءة بفول البينتو بقوة حتى تناثرت عصارة الفول على صدره. سيقوم بدعوة إيفان إذا عزفت سايكيك هارتس في جوبيتر. اعتاد رولاند في المدرسة الثانوية أن يقول للأولاد الآخرين: «عليكم أن تروا دانيال وهو يعزف»، وإذا شاركوا في حفل موسيقي ولم يعلِّق أحد على أدائه، يشعر دانيال بالذعر، ويفكر أن يقذف جيتاره في القمامة، ولكن عندما يقول الناس عنه إنه مذهل، يطير النوم من عينيه وهو يستعرض المجاملات مراراً وتكراراً في عقله.

فهو يريد أن يسمع المجاملات مرة أخرى، وأن يقال عنه إنه مذهل. قال دانيال: «موافق، بنظام الصوت الجديد».

«علينا أن نقوم بالتسجيل في استوديو «ثاد» الذي يقوم بعمل عروض الكاسيت، هذا الصيف بعد أن يكون لدينا مزيد من الأغاني، أو حتى قبل ذلك»، وكان رولاند قد قام بنقل صندوق من أشرطة أغاني الثمانينيات القديمة

الخاصة بوالديه من ريدجبورو، تلك التي كان درسها هو ودانيال كما لو كانت قد اكتُشِفت في كهف من العصر الحجري القديم، وأصبحت الآن ذات قيمة مذهلة مثل أكثر أنواع الفينيل ندرة وعراقة. كان على دانيال أن يقر بأن هناك نوعاً من الارتياح الغريب تجاه الشريط المتيبِّس وصوته الضعيف والصدق والعمق اللذين لا يمكن أن تحقِّقهما التقنية الرقمية في الموسيقى.

قال: «بالتأكيد»، في هذا الصيف سيذهب إلى فصوله الدراسية في كارلوج، وسيعيش في غرفته القديمة في ريدجبورو، ولن يعزف الموسيقى على الإطلاق.

«أين ذهب والداك؟ إلى فندق؟».

«لقد ذهبا إلى المنزل». سيكونان الآن قد عادا إلى المنزل الكبير البارد ويقرآن على السرير. تلاعب بقميصه الثقيل وقال: «لقد تسلَّمت بريداً إلكترونياً غريباً منذ فترة، من ذلك الشخص الذي تربَّيت معه، عندما كنت أعيش مع أمي ـ أمي الحقيقية ـ قبل أن أنتقل إلى ريدجبورو».

«وماذا قال؟».

«قال إن لديه ما يخبرني به عن أمي، ولم أكتب له الرد، ولكنني أشعر بالفضول قليلاً».

وكان دانيال يعرف ما سيقوله رولاند حتى قبل أن يتكلم «لا تفعل هذا، سوف تندم على ذلك». إذا تعلَّق الموضوع بأطياف الأبوين، فإن رولاند كان مستقلاً وصامداً، فقد مات والده عندما كان رولاند صغيراً جداً على أن يتذكَّره، ولم يُبدِ أي اهتمام لمعرفة المزيد. تاقَ دانيال لأن يكون حاسماً مثل رولاند، وكان يتمنى دائماً أن يكون واثقاً من نفسه.

التقط نماذج طلب الالتحاق بكارلوج وأعادها مرة أخرى، وعاد إلى جيتاره وعزف الأغنية التي كانت تتردَّد في وقت سابق، وأعاد صياغتها وكتب بعض السطور، ثم تخيَّل وجه كاي وعيناها تدمعان وهو يخبرها أنه قد اكتشف

ماذا حدث لأمه الحقيقية. تفلَّتت الأغنية منه، فالتفكير في أمه كان يسبِّب له ألماً طفيفاً ولكنه مستمر، ولم يستطع أن يحدِّد السبب وراء ذلك. أبعد الجيتار وأمسك بالكمبيوتر المحمول الخاص به، مجرد عملية بحث سريعة ولن يعرف بيتر وكاي. كان يقوم بعمليات البحث كل بضعة أشهر عندما كان طالباً مستجداً في المدرسة الثانوية، حتى تلاشى الدافع لمعرفة المزيد، وتوقف عن البحث بعد أن أدرك أنه يتجنَّب النظر إلى النتائج وهو يستعرضها، وشعر بالراحة عندما لم يجد الشخص الصحيح. عدم معرفة المزيد كان مبرراً له لعدم تغيير الحياة التي اعتادها، وقد مضت سنوات منذ أن بحث عن مايكل تشين، وكان اسم مايكل شائعاً جدّاً، وينتج عن البحث نحو نصف مليون نتيجة، أو بولي غوو أو غوو بيلان، ولم ينتج عن عمليات البحث أي شيء مماثل لأمه سواء بالحروف الإنجليزية أو الصينية، ولم يعثر أبداً على ليون أو فيفيان تشنج.

ولكن الليلة عندما كتب «مايكل تشين» و«كولومبيا»، وفتح موقعاً إلكترونياً لمختبر بيولوجي لإحدى الجامعات، وانتقل إلى أسفل الصفحة، رأى اسم مايكل وصورة لرأس شخص نحيف يبدو معتداً بنفسه وسعيداً ويرتدي قميصاً داكناً. بدا وجه مايكل أطول ولم يكن يرتدي نظارته، ولكن دانيال تمكَّن من رؤية نسخة الطفل البالغ من العمر عشرة أعوام بعينيه الواسعتين، الذي كان مستعداً أن يذهب معه إلى أي مكان، وكان دائماً أقرب شخص إليه وبمثابة أخيه. شخص قد عرف ديمينغ جيداً.

أغلق شاشة الكمبيوتر كما لو كانت اشتعلت بها النار، فإذا كان لدى مايكل معلومات عن أمه فلن يغيِّر ذلك من حقيقة أنها تركته ورحلت. كان رولاند محقّاً، لم تكن هناك حاجة إلى إثارة ذكريات سيئة.

مشى بخطوات ثابتة في أرجاء غرفة المعيشة والمطبخ، وأخذ يلهو بصندوق الميكروفون وتخيَّل رولاند على المسرح في قاعة جوبيتر بينما هو يجلس في قاعة محاضراته بالكلية، فلم يستطع أن يسعد رولاند وبيتر وكاي في نفس الوقت، ولكنه قد يحاول أن يفعل ذلك.

- 3 -

وعدته ألا تتركه أبداً مرة أخرى في اليوم الذي وجدا فيه قرينيهما، في ذلك الوقت كان ديمينغ البالغ من العمر ست سنوات، وأمه لا يزال كل منهما غريباً عن الآخر، ولكنهما شكّلا ثنائياً مناسباً، لهما نفس الأنف الواسع والابتسامة المقوّسة، وحدقات كبيرة داكنة أسفلها قطعٌ بيضٌ، وبعض الكسل في نظرتيهما، وكانت يدها غريبة في يده، فقد اعتاد قبضة جده الأكثر دفئاً ومشيته الأكثر تمهُّلاً. كانت أمه سريعة وصاخبة الصوت مثل المدينة الأمريكية التي ألقي فيها مرة أخرى، وافتقد ديمينغ القرية والتمايل الصامت للعشب والماء، وكذلك الألوان الخضر والزرق والعنابية والرمادية. كانت مدينة نيويورك براقة ونشطة وبها إفراط في الألوان، وصخب غير مفهوم باللغة الإنجليزية في كل مكان، فآلمته عيناه، وامتلأ فمه بالضجيج. كان الهواء بارداً جداً ويؤلم في الشهيق، وكانت السماء مكتظّة بالمباني.

فبحث عن الراحة في شيء مألوف، وسمع ألحاناً في كل مكان ومن خلالها رأى الألوان، وانجذب جسده إلى إيقاع الطريقة التي تتقوّس بها النباتات عالياً إلى النور. شعر بارتياح لتكرار ارتطام قدميه بالرصيف أثناء عبور طريق بويري، وكانت يده اليسرى ممسكة بيد أمه اليمنى، وكل خطوة من خطوات أمه تعادل

خطوتين من خطواته، وانطلقت في ممر المشاة، كان ذلك يوم عطلتها منذ أسبوعين. تفحَّص ديمينغ الفضلات الملقاة على الرصيف، وأعقاب السجائر، والمناديل الملطَّخة، والعلكة الواضحة بين قطع الثلج. من الذي مضغ كل هذه الرزم من العلكات الرمادية الوردية؟ فهو لم يمضغ العلكة من قبل، ولا أمه على حد علمه، أو أي من رفقائها الستة في السكن بشقتهم بشارع روتجرز. كان ذلك قبل أن ينتقلا للعيش مع ليون، وقبل شقة شارع يونيفيرسيتي في حي البرونكس.

وقفا أمام خريطة مترو الأنفاق بخطوطها الطويلة الشبيهة بالنودلز. سألته أمه: «ما اللون الذي علينا اختياره اليوم؟»، قام ديمينغ بدراسة الكلمات التي لم يستطِع قراءتها، والأماكن التي سوف يذهب إليها، وأشار إلى اللون الأرجواني.

كان قد وُلِد هنا في الحي الصيني بمانهاتن، ولكن أرسلته أمه للعيش مع جده عندما كان يبلغ من العمر عاماً واحداً، في القرية التي ترعرعتْ فيها، ولعب يي غونغ دور البطولة في ذكريات ديمينغ المبكرة، فهو الذي أطلق عليه البدين الصغير، وعلَّمه كيف يجدِّف بالقارب، ويجمع بيض الدجاج، ويستخرج أمعاء السمك بطرف سكين صدئ. كان هناك أطفال آخرون مثله في ميانيانغ، وُلِدوا في أمريكا ويعتني بهم الأجداد، ولهم آباء يعرفونهم فقط من خلال الهاتف. كان الصوت يقول: «سوف أرسل إليك»، ولكن ما الذي يدفعه للذهاب والعيش مع صوت، وترك ما يعرفه لأجل شخص لا يتذكَّره؟ كان كل ما لديه صورة له عندما كان طفلاً متجهماً، وكان وجه أمه محجوباً بالظل، وكان يستيقظ كل صباح مهمهِماً، حيث كان يي يونغ يكنس أمام منزلهم في الزقاق رقم (3)، وكان صوت أزيز أنفاسه مسموعاً، وحلقات الدخان الفضية تتلاشى في اتجاه السماء. حتى جاء الصباح الذي لم يستيقظ فيه يي يونغ ووجد ديمينغ نفسه على متن طائرة بجوار أحد أخواله، ذلك الرجل الذي لم يره بعد ذلك أبداً، ثم امرأة تحتضنه في شقة باردة مليئة بالأَسرَّة ذات الطابقين، وبدا وجهها مألوفاً فقط لأنه يشبه وجهه. أراد أن يذهب إلى وطنه فأخبرته أن السرير ذا الطابقين هو وطنه. لم يرد أن يستمع إليها، ولكنها كانت كل ما لديه.

كان ذلك منذ أسبوعين، وهو يجلس كل يوم الآن في فصل بمدرسة في شارع هنري، ولا يفهم أي شيء يقوله مدرسوه، بينما كانت أمه تحيك القمصان في أحد المصانع.

وبعد محطتين لتحويل الاتجاه، أسرع الخط الأرجواني فوق الأرض، ونظر ديمينغ وأمه من النافذة على لافتات مكتوبة بلغات لم يتعرفا إليها. قال وهو يدَّعي القراءة: «هذا للجوارب، وهذا للكلاب»، وبالقرب من نهاية الخط تحوَّلت اللافتات إلى اللغة الصينية، وقرأت له أمه كل لافتة بصوت مرتفع ومضحك وعميق مثل مذيع الراديو «الخروج من قطاع الأعمال!»، «مشكلات الهجرة»، «نعالج أورام أصابع القدم!». لقد أحبها وهي تتصرَّف هكذا، وكان واثقاً أنها ستكون ملكه، ركل رجليه في الهواء عندما صفعت فخذيها بضربة طائشة.

ذهبا إلى حي كوينز، ومن حي صيني إلى آخر، وعندما خرجا من مترو الأنفاق كانت المباني أقل انخفاضاً والشوارع أوسع، لكن الحشود واللغات كانت متشابهة، وعلى الرغم من برودة الهواء استطاع ديمينغ أن يشمَّ روائح مألوفة للخضراوات والأسماك. كان الجو شديد البرودة بعد الظهر كأنه لسعة شتاء قاسية، وقفت عند إحدى النواصي وعلَّمته لعبة جديدة «قد يوجد نسخة أخرى منا، ديمينغ وأمه يعيشان هنا أيضاً، مثل أعز الأصدقاء ولكن أفضل، أو مثل الأخين أو كروح منشطرة إلى نصفين». اختارا المبنى الذي قد تسكن فيه هذه الأم وديمينغ، كان مبنًى قصيراً بواجهة مستوية مثل المبنى الذي يقطنان فيه في شارع روتجرز، وشاهدت الأمهات والأطفال الذين يسيرون على الرصيف إلى أن وجدا صبيّاً في مثل عمر ديمينغ، وامرأة في مثل طول أمه، وكانت خصلات شعرها أيضاً تنسدل على كتفها، وكانت ترتدي معطفاً أزرق داكناً مثل أمه، ويمكن أن تخلط بينها وبين الأخت الكبرى لابنها.

«أيمكننا أن نطلب منهما أن يأتيا معنا؟».

«لا ينبغي أن نزعجهما، فهما مشغولان، ولكن دعنا نشاهدهما، اتفقنا؟».

توجَّهت به إلى مخبز فترجَّاها أن يأخذ كعكة بيض، في تلك الأيام كان

يمكنك شراء ثلاث كعكات بدولار واحد، ولكنها رفضت قائلة إن ذلك مضيعة للنقود، وجلسا على منضدة دون أن يطلبا أي شيء، وأخذا يتفحَّصان قرينيهما من خلال النافذة. اتكأ الصبي على أمه فمالت إلى أسفل للتحدث إليه وهما يعبران الشارع، وكان هناك شيء لامع منتفخ في كفّ الصبي، فطيرة صفراء هشّة.

«أيمكن أن أتناول كعكة البيض؟ من فضلك؟».

«لا يا ديمينغ».

فتجهَّم وجهه؛ كان يي غونغ يسمح له أحياناً بشرب الكوكا على وجبات الإفطار، ولكنها لم تشترِ له أي شيء.

«أريد أن أقابلهما»، ودبَّ بحذائه على الأرض. رفضت مرة أخرى، فاندفع بسرعة وراءهما على الرصيف، وصاح: «انتظرا!».

فاستدارا حيث كانا يعرفان لغة الفوزهو الصينية. كانت الأم الأخرى أكبر وأنحف، وكان ديمينغ الآخر في الثامنة أو التاسعة من عمره وليس الخامسة أو السادسة، كان ذا وجه مربع وكانت عيناه مريبتين مثل ذلك النوع من الصبية الذين يمكن أن يشعلوا النار في الحشرات بغرض التسلية، وتدلَّت قطعة ضخمة من الفطيرة من شفته السفلى، وفي اللحظة التي كانت تبعده أمه، تلاقت عينا ديمينغ مع عيني نظيره، فقال النظير: «مرحباً» باللغة الإنجليزية، ثم ذهبا وتلاشيا في بحر من معاطف الشتاء.

قال ديمينغ: «لقد ذهبا، لقد رحلا». كان خائفاً ومشتاقاً إلى يي يونغ «هل ستتركينني مرة أخرى؟».

«كلا». أخذت أمه بيده وأرجحتها إلى أعلى وإلى أسفل «أعدك أنني لن أتركك مرة أخرى أبداً».

ولكنها فعلت ذلك في يوم ما!!

بحلول شهر يوليو كانت أم ديمينغ قد رحلت لمدة خمسة أشهر، ومنذ اليوم

الذي اختفت فيه في شهر فبراير، كان ينتظر أي علامة تدل على أنها ستعود، أو حتى أي علامة على أنها رحلت إلى الأبد.

وكان الصيف بمثابة علامة كبيرة لطريق مسدود، وكانت المدينة شديدة الحرارة لعدة أسابيع، وكان تنجيد الأريكة مبتلّاً بعرَق ديمينغ أثناء فترات بعد الظهيرة الطويلة ملتهبة الحرارة، وكان هو ومايكل يضعان وجهيهما أمام المروحة البلاستيكية الصاخبة ويغنون لا ـ لا ـ لا ـ لا ـ لا، فتقذف الذبذبات كلماتهما كأنها صوت نقيق رطب لضفدعة بُنيَّة، وقاما بإذابة مكعبات الثلج في أكواب زجاجية وأخذا يمتصَّانها، وبحثا تحت الوسادات عن النقود الفكة المنسية لشراء الآيس كريم من عربات «مستر سوفتي»، وكان الآيس كريم عادةً مسبباً للإحباط؛ حيث يتسرَّب السكر البرتقالي اللزج من الغلاف الكرتوني من قبل حتى أن يضع ديمينغ لسانه عليه.

أما المتبقي من العام الدراسي فكان بمثابة عرقلة لمسيرته، حيث قال السيد سكوت مدير المدرسة، إن ديمينغ يمكنه الصعود إلى الصف السادس إذا ذهب إلى مدرسة صيفية لتعويض المواد الدراسية التي رسب فيها، ولكن ديمينغ لم يرغب في الذهاب.

قال له مايكل: «إذا لم تذهب فستظل في نفس السنة الدراسية».

جلسا على سياج معدني في صف من المقاعد، حتى مسبح «كروتونا» الذي ذهبا إليه الصيف الماضي مع أصدقائهما قد فقد جاذبيته.

«يا له من صيف لعين»، قالها ديمينغ وهو يتذوَّق الثقل الممتع للكلمات «عليك اللعنة».

«عليك اللعنة أيضاً». كانت الحروف الثابتة تخرج من مايكل رنانة مع بعض البصاق «ألا تريد أن تتخرَّج في المدرسة الثانوية؟».

لم تكن تلك خطتي، كان ديمينغ قد سمع أمه تقول ذلك من قبل. اللعنة على الخطَّة، وفكَّر في النزول إلى الشارع. امتزجت رائحة العفن مع بعض الروائح

المألوفة، مثل رائحة العوادم وقمامة الحلويات وحجارة الرصف الساخن والعشب الجاف، ودخان القدور والعطور، ورائحة شواء من مكان ما.

قال: «هل تجرؤ على القفز إلى أسفل؟».

ضحك مايكل دون أن يخرج صوتاً «المسافة ليست بعيدة، سأجعلك تقفز». جلس ديمينغ وركبتاه مرفوعتان إلى أعلى، وحرَّك ذقنه في الهواء مثلما فعل ليون عندما علم أنه يكذب «لن يجبرني أي أحد على فعل أي شيء».

«سننتقل جميعاً إلى الصف السادس وستبقى عالقاً في الصف الخامس».

«اصمت»، ونزل ديمينغ من على الدرابزين. هرول مايكل بجواره في شارع 184 ومرَّا بمبنى صوفيب، وكان مثل باقي المباني الموجودة في الجوار قصيراً وبنياً أو أطول قليلاً ورمادياً، وكانت النوافذ مليئة بالعائلات الأخرى، والأرصفة مفعمة بضجيج أطفال آخرين. توقَّفا وراقَبا النافذة ذات الستائر البلاستيكية المعلقة، وهي نفس الستائر التي شاهداها كثيراً من داخل شقة صوفيب، ولكن يبدو وكأن أصدقاءهما لم يكونوا موجودين في ذلك الصيف، مثل أم ديمينغ التي اختفت مع عدم وجود ضمان لعودتها.

كان إلروي في زيارة لعمَّته في ولاية ميريلاند، وهونج عند أقاربه في شمال الولاية، وصوفيب، ذلك الخائن الذي وعد أن يكون بالمنزل طوال الصيف، ولكنه رحل فجأة مع أول فرصة إلى أقصى حي كوينز؛ حيث زعم أن ابن عمه لديه شاشة تلفاز كبيرة ويسكن في مبنى مليء بالفتيات المثيرات، وفي المرة الأخيرة التي تقابل فيها مايكل وديمينغ مع صوفيب، منذ أربعة أيام أو ستة أسابيع أو أيّاً ما كان، وصف لهم صوفيب حزام حمَّالة الصدر المخيف المكشوف على كتف أكثر الفتيات إثارة، وكيف كانت تجلس بالقرب منه عندما كانا يشاهدان التلفاز، وقال إن رائحة العلكة وبيتزا البيبروني كانت تفوح منها، ولكن مايكل وديمينغ سخرا وقالا إن صوفيب كان يكذب، فكيف يعقل أنه لم يدعُهما للذهاب إلى حي كوينز، وأن صوفيب لم يكن مع الفتيات المثيرات، ولكن كان يمضي أيامه مع جدته ذات الذراعين الممتلئتين بالشامات، والسن

الطويلة الصفراء التي تتسبَّب بخروج لعابها عندما كانت تصيح في الغلمان باللغة الخميرية كي يبتعدوا، وتضربهم بخُفِّ الحمَّام على عظام أكتافهم حتى يجلسوا بطريقة مستقيمة.

فكان كل شيء مثيراً للريبة. هل عاشت عائلة صوفيب هناك أصلاً؟ هل سيعود إلروي وهونج إلى المدرسة بنهاية الصيف؟ وماذا حدث لوالدته؟ فلم يعد متأكداً من أي شيء أو أي شخص.

وقف مايكل وديمينغ تحت الممرات العلوية وظلا يصيحان بكلمات بذيئة في صخب مترو الأنفاق. مرَّت سيارة لونها أحمر كستنائي براق وأنيق، تُصدِر نغمات إيقاعية مدوِّية، فتسرَّب الألم إلى قلب ديمينغ، فقبل أن تختفي أمه كان مرتبطاً بمايكل في أسرارهما التي يخفيانها عن أمهاتهما، مثل سرقة علبة شراب من عبوة ليون ذات الاثنتي عشرة علبة. تجهَّم وجه مايكل وتجشَّأ عندما كانا يشربان، وتجرَّع ديمينغ مزيداً من الشراب، وقهقها وتمايلا، وفي وقت آخر سرقا لباساً نسائيّاً داخليّاً من إحدى عربات المغسلة الموجودة في مبنى إلروي بالشارع المقابل (...).

أصبحت فيفيان الآن هي الأم الوحيدة في الشقة؛ حيث إن حقيقة رحيل أم ديمينغ لم تعد سرّاً. انطلق صوت إنذار سيارة في الشارع الخالي حول منتصف الليل. يمكنه الآن أن يسبَّ كما يشاء، ولكن مذاق الكلمات أصبح عفناً في فمه. حاول أن يتذكَّرها قدر المستطاع، وتذكَّر الوقت القصير الذي كانت فيه ملكه وحده، وكيف كانت تثني ذيل بنطالها الجينز مرتين كي لا يجر على الأرض، وتسحب أكمام سترتها إلى أسفل مثل قفازات اليد الواسعة، والتنافر اللطيف في ثرثرتها، وكيف كانت تقرصه من ذراعيه البدينتين وتناديه «يا كرة اللحم»، وجمال ملامحها الناعمة، فكان جمالها من النوع الذي يستحق المطاردة، ولكنك قد لا تمسك به في البداية. كان فمها جميلاً، وشفتاها معقوفتين مما يجعلها تبدو مستمتعة قليلاً، وكان حاجباها مقوسين، فبدت عيناها مفعمتين بحيوية تقترب من السرور.

نظر بعيداً حتى لا يرى مايكل الدموع التي في عينيه، والتي كادت تنهمر سريعاً.

ثم انعطفا إلى الناصية «ديمينغ؟»، قالها مايكل بصوت متردِّد كأنه يحدِّث أحد المدرسين أو أمّاً لصديقه «هل عرفت الأخبار؟ ترافيس بوبا سينتقل إلى بنسلفانيا».

«وماذا في ذلك؟». لم يعرف ديمينغ أين تقع بنسلفانيا.

«لقد هجرت أمه والده من أجل رجل آخر، وهو مضطر الآن إلى العيش مع جدته».

«ومن الرجل الآخر؟».

«أحد الجيران».

غرس ديمينغ أظافره في ذراعه، فتسبَّبت الأظافر العشرة الحادة في ألم شديد بذراعه. لكن ماذا لو لم تكن قد ماتت؟ فقال: «هذا أمر سيئ، بالنسبة إلى ترافيس».

تناولوا وجبة العشاء في المطبخ على طاولة قابلة للطي، والجزء العلوي منها بلاستيكي مطبوع ليبدو مثل الخشب، وأركانها المقشَّرة تكشف طبقة الفوم التحتية. اختطف ديمينغ قطعة دجاج من صحن فيفيان، فحاولت انتزاعها منه «توقَّف عن هذا، أيها الولد الشقي».

بدت الشحوم في جسد فيفيان وكأنها تعيد هيكلتها، فازداد بطنها وذراعاها نحافة، بينما ظهر جلد زائد تحت ذقنها وحول فمها، مثل الجبس الموضوع بتسرُّع على قمة بناء قائم، وكانت تلهث عندما تصعد السلم، ولم تعد ترقص على موسيقى الراديو، وتشعر بالنعاس على المنضدة، وتعطي الطعام للأولاد مدَّعيةً أنها غير جائعة. رآها ديمينغ تنظر في محفظتها وتسب، وعندما فتح الثلاجة صرخت فيه كي يغلقها. سمعها تتشاجر ذات مرة مع ليون بسبب قيمة الإيجار، ومن الذي يجب عليه رعاية الأطفال.

فلعق قطعة الدجاج قبل أن تتمكَّن من الوصول إليها، وأخذ يلعق بلسانه الجلد المملَّح صعوداً ونزولاً، فنظر إليه ليون شزراً وأعطى فيفيان المتبقِّي من طعامه.

كان مظهر ليون مريعاً، وذكَّر ديمينغ بصور رجل الكهف في الكتب المدرسية، يقف مستقيماً، حيث نُزِع منه الشعر فتحوَّل إلى الجنس البشري العاقل، فبعد رحيل أم ديمينغ تطوَّر ليون بشكل عكسي؛ احدودب ظهره وانتفخ كرشه وأصبح شعر ذقنه غير المكتمل مبقَّعاً بالبياض، فأخاف ذلك ديمينغ، وكأن ليون أصابه الكبر بمائة عام بينما ظل الآخرون دون تغيير.

عندما ركب ديمينغ مع أمه وليون عبارة جزيرة ستاتن في وقت سابق، لسعته الرياح ولكنه شعر بالدفء كما لو أنه لن يُصاب بأي مكروه. قالت أمه: «هل أعجبك هذا القارب؟ أليس أفضل من قارب الصيد الخاص بيي غونغ؟»، فضحك ليون ضحكة مكتومة من بطنه جعلت ديمينغ يشعر كأنه تفوَّق على الأطفال الآخرين في الملعب، والآن لا يستطيع أن يتذكَّر آخر مرة سمع فيها ليون يضحك. هل رحلت أمي ورفضت أن تتزوج ليون لأنه أصبح قبيحاً؟ مضغ ديمينغ قطعة الدجاج، كان لديهم جيران كثيرون؛ السيدة جونسون، وتومي الذي يقول دائماً: «بخير - بخير - بخير»، والسيدة ماري بطفلتها الرضيعة، وإدواردو مالك متجر البقالة الذي كان يسأل:

«لم أرَ أمك أخيراً، كيف حالها؟»، وكان ديمينغ يقول إنها بخير ولكنها مشغولة.

«يسأل إدواردو دائماً عن أمي»، وترقَّب ديمينغ ردة فعل ليون.

«من؟».

«الرجل في متجر البقالة». لم تظهر أي ردود أفعال على وجه ليون. حاول ديمينغ مرة أخرى «لقد قابلت تومي يوماً ما» لا توجد إجابة. «يي با؟ هل يمكننا الذهاب إلى فلوريدا؟».

لم يتعامل ديمينغ مع أي شخص باعتباره والده إلا ليون، وعندما أخبرته أمه أنه يستطيع أن ينادي ليون باسم «يي با»، بدا ذلك غير شرعي، وفي المدرسة عندما كان يلهو بينما كان المدرِّس يكتب جدول الضرب بالطباشير وهو يحاول أن يتجاهل الأطفال مدمني السكريات الذين كانوا يتأرجحون إلى الخلف وإلى الأمام، ويتلفَّظون بالسباب نتيجة الخلل العصبي المعروف باسم

متلازمة توريت، كان ديمينغ ينشد كلماته الخاصة: يي با، هل يمكنك أن تأتي هنا؟ يي با، هل يمكنني مشاهدة التلفاز؟

نظر إليه ليون، «فلوريدا؟ لماذا؟».

«من الممكن أن تكون أمي هناك، ونحن لا نحاول بالجدية الكافية لإيجادها، ماذا لو كانت معرَّضة للخطر؟».

«إنها ليست معرَّضة للخطر».

«ولكن كيف تعرف؟».

«أنا متأكد، سوف تتصل قريباً».

«أمي»، تساءل مايكل «هل يمكننا الذهاب إلى فلوريدا؟».

قالت فيفيان: «لا».

قال مايكل: «أريد أن أذهب إلى عالم ديزني».

«لا، لا، لا، لا».

بينما كان ديمينغ يغرف الأرز في القدر، وقعت كتلة على المنضدة «لا تهدر الطعام»، فأزاحت فيفيان الأرز المسكوب إلى صحنها وأبعدت وعاء ديمينغ «ربما رحلت أمك لأنها تعبت من إطعام طفل ناكر للجميل مثلك».

وأخذت صحن ديمينغ إلى حوض الغسيل. قال ليون: «لا تستمع إليها، فهي لم ترحل بسببك، سنظل جميعاً معاً، أنت وأنا وأمك، ولكن علينا أن ننتظر».

قالت فيفيان: «سأذهب إلى المتجر».

ذهب ليون إلى العمل، وسقط مايكل في وسط الأريكة فبدت كأنها ابتلعته، ولم يعرف ديمينغ ماذا يفعل هنا، فلم يكن ليون والده الحقيقي، ولم يكن مايكل ابن خالته الحقيقي ولا فيفيان خالته الحقيقية. إذا كانت أمه قد هربت مع رجل آخر، فعليه أن يجعلها تعرف أنها لا يمكن أن تتخلَّص منه بهذه السهولة، فجمع ملابسه وكدَّسها في حقيبة بلاستيكية.

قال مايكل: «توقَّف عن حجب التلفاز».

«سأذهب إلى فلوريدا لأجد أمي».

تعالت الضحكات من الجمهور في الاستوديو. نظر مايكل بإمعان إلى ديمينغ بعينيه الكبيرتين تحت نظارته «إذاً سأذهب معك أيضاً».

«هل أنت جاد؟».

«بالطبع، فنحن أخوان، أليس كذلك؟ أو مثل الأخوين».

«حسناً، إذاً علينا أن نسرع». ألقى ديمينغ بكرة من ملابسه في الحقيبة. «يجب علينا أن نذهب الآن». أخذ مفاتيحه وقذف حذاء مايكل تجاهه وخرجا من الباب.

«كيف سنذهب؟»، صاح مايكل بينما كان ديمينغ يركض في شارع يونيفيرسيتي وانعطف يميناً إلى شارع 192. لم يعرف إلى أي متجر ذهبت فيفيان، وأي طريق ستسلكه للعودة إلى الشقة.

«رباط حذائي!».

قال ديمينغ: «لديَّ خطة»، على الرغم من أنه ليس لديه فكرة عما سيفعل، وعندما اقتربا من محطة مترو الأنفاق سمعا قطاراً يبتعد، فقفزا إلى بئر السلم وهما يلهثان.

قال مايكل: «ليس لديَّ بطاقة المترو».

أرجح ديمينغ الحقيبة على رجله، حيث كانت أثقل مما توقع.

«ولا أنا».

«سوف أربط رباط حذائي الآن». انحنى مايكل إلى أسفل وربط حلقة وبعدها أخرى.

قال ديمينغ هامساً: «لا أملك أية نقود».

«ربما يمكننا أن نطلب من أمي».

«إذا طلبت منها لن تدعك تذهب». بدا ديمينغ في غاية الجدية وفي غاية الثقة، فلم يستطع أن يطلب من مايكل أن يترك فيفيان، ومن ثم سيصبح كلاهما بلا أم.

«هيا نعُد إلى المنزل».

«وماذا عن فلوريدا؟».

«في وقت آخر».

ثم عادا أدراجهما. قال مايكل: «أشعر بالجوع». حاول ديمينغ أن يتباطأ داخل ممرات متجر البقالة وهو يلمس بأصابعه كيس حلوى، ولكن ظلت لحية إدواردو الكثيفة البيضاء تجذب عينيه.

كان إدواردو يصفِّر من وراء ماكينة تسجيل النقود «هوو». دفعت مروحة معدنية ضخمة الهواء الساخن في أنحاء المكان.

«هذه الحرارة كريهة».

قال مايكل: «إنها موجة حارة».

«كيف حال أمك؟ هل هي بخير؟».

قال ديمينغ: «إنها بأفضل حال، وقد تأخَّرنا على العشاء».

ثم خرجا بخفَّي حنين، وفي الوقت الذي وصلا فيه إلى المبنى آلمته ذراعه، وسأل مايكل: «هل رأيت تومي أخيراً؟».

«لم أره منذ فترة».

توقَّفا أمام باب تومي، أراد ديمينغ أن يركل الباب، ولكن كان من الواضح عدم وجود أحد بالداخل.

«أين تقع بنسلفانيا على أي حال؟».

«بعيدة جدّاً».

تمكن ديمينغ من رؤية الارتياح على وجه مايكل عندما عادا إلى المنزل،

وأحضر الحقيبة إلى غرفة النوم وأفرغها بهدوء بقدر المستطاع، وسمع مايكل يقول: «خرجنا للتنزُّه يا أمي».

نام ديمينغ على الأريكة، واستيقظ ولعابه سائل على خده، وبعد ذلك بفترة، وبعد عودة ليون إلى المنزل، انهمرت السماء بالمطر، وتناثرت قطرات المطر على سلالم الطوارئ، وانهمرت على أسطح المنازل فأعطت تكييفات الهواء اغتسالاً مجانياً. تسرَّب نسيم رطب وبطيء إلى غرفة النوم، وتأرجحت أطراف مايكل وهو يرى حلماً بعيداً. شاهد ديمينغ ارتفاع وانخفاض صدر مايكل أثناء نومه، وضغط بذراعه على ظهر ليون، فقد احتاج إلى أن يبقى ليون معه، ولكنهما آمنان في الوقت الراهن، ومتواضعان ومضطربان، فقد كانا رجُلَين من دونها، وقال ليون إن الأمر محيِّر، فامرأته رحلت ولا يعلم أحد أين هي، وضحك قليلاً وألقى نكتة «لقد هجرتني! أليس ذلك جنوناً؟»، ولكن ديمينغ رأى كيف تدلَّى الجلد على رقبته وتجعَّد، ودوائر بنية تحت عينيه مثل الفنجان المبلَّل على طبق ورقي «سوف أحصل على امرأة أخرى، أتسمعني؟»، قالها ليون وهو جالس في الظلام على منضدة المطبخ.

استمر الصيف طويلاً، وسمع ديمينغ ليون وفيفيان يتحدثان، فاختبأ في الغرفة الأخرى حتى لا يعرفا أنه يسمعهما. سقط حيوان فارتطم بليون بقوة في مكان عمله، فوقع ليون على الأرض الزلقة وانقلب على ظهره، فوضعوه تحت الاختبار. لقد قطع العروق الخطأ، وترك أحد الحيوانات يندفع بقوة مثل سفينة المحيط الجميلة، وشق بسكين كبيرة ملتوية ضد اتجاه الألياف، فتلقى ضربته الثانية من ثلاث ضربات، وخفَّضوا ساعات عمله، وأعطاه المالك مهلتين لسداد الإيجار المتأخر، لكن المرابين كانوا أقل تفهماً.

اتصلت ديدي صديقة أمه في العمل، زوجة كوان زميل ليون، وكانت تصرخ بسبب صالون العناية بالأظافر، وكيف تورَّط المدير في شيء غامض. قالت فيفيان: «هل تظنين أنها ذهبت إلى فلوريدا؟»، لكن ديدي كانت قد تتبَّعت رقم المطعم، وعندما اتصل ليون أخبره الملاك أنها لم تظهر.

واتصلت ديدي بالشرطة وشؤون الهجرة، وقالوا إنه لا توجد لديهم أي سجلات بخصوصها. إذاً فهي على ما يرام ورحلت برغبتها، وليست معرَّضة للخطر كما تخوَّف ديمينغ. أخبر ليون فيفيان أنه ذهب إلى أحد المحامين الذين وجدهم كوان، وكان على كوان أن يساعد في الترجمة، في الوطن يعد كوان شخصاً غريباً، حيث إنه فيتنامي صيني مولود في أمريكا، ولا يستطيع التحدث إلا ببضع كلمات باللغة الصينية، ولكن هنا يعد كوان شخصاً ذا شأن بسبب لغته الإنجليزية، ويعد ليون نكرة بسبب لغته الصينية. قاد احتياج ليون إلى كوان للجنون، ذلك الشخص الصغير ذي الصوت العالي، الذي يثبت شعره على شكل رماح صغيرة.

أراد ليون أن يجلد المحامي عندما سأله: «أكانت على علاقة بأي شخص؟ أي رجال آخرين؟ قد تظن أنك تعرف المرأة ولكنك لا تعرفها!».

وقالت فيفيان إنهم لا يستطيعون مواصلة إزعاج الشرطة دون وجود أوراق. كل ما يمكنهم فعله هو الانتظار حتى تتصل بهم. سمع ديمينغ ليون يقول كيف كان يحوِّل مدفوعات أمه إلى المرابين، وأنها كانت تقريباً ضعف ما كانت تستطيع أن تتحمَّله، وانفجر في وجه ديمينغ على العشاء قائلاً: «تلعب بطعامك مرة أخرى، لا يوجد احترام»، ولكنه في اليوم التالي أخذه لتناول الكعك المُحلَّى في المقهى الفيتنامي، وقدم له كيكة كريمة بوسطن المغلفة بشراب القيقب ومسحوق السكر، وقال: «قضيت ثلاثة أشهر على ظهر مركب قادم من فوجيان، واغتسلت بماء البحر، ونمت على الكرتون المشبع بالماء، أريدك أن تفكر في سريرك، وأن تفكر في حمَّامك، يمكنك أن تنام». ركَّز ديمينغ في الكيكة، حيث كانت الكريمة تنز خارج الكيك، ثم قال: أين بوسطن؟ قال ليون إنه عندما كان على المركب قامت قوات إنفاذ القانون بضرب رجل حتى كاد يموت لأنه سرق علبة مكرونة الرامن سريعة التجهيز من مقصورة القبطان. حاول أحد الرجال منع طاقم المركب من فعل شيء سيئ بامرأة، فقامت قوات إنفاذ القانون بركله في وجهه وألقوه في المحيط، وما زال ليون يستطيع سماع صرخات هذه المرأة.

لعق ديمينغ الكريمة من على أصابعه قائلاً: «لكن أمي أتت على متن طائرة ولم تأت على ظهر مركب». لم يرجع ليون في هذه الليلة إلى المنزل حتى الصباح، ولم يستطع ديمينغ النوم، واستيقظ كل بضع دقائق ليجد الجانب الآخر من الفراش ما زال فارغاً، وعندما سمع صوت ليون في الردهة نهض وسأله:

«أين كنت يا يي با؟».

«ابتعد عن الطريق، أحتاج إلى أن أصل إلى السرير».

قالت فيفيان: «تنبعث منك رائحة شراب، هل من اللائق أن تظل بالخارج طيلة الليل وتفعل ما تريد؟ ليتني أستطيع فعل ذلك».

فقال ليون: «اخرجي كما تشائين، أنا لا أبالي».

«لا تبالي؟! من الذي يطبخ الوجبات؟ من الذي ينظِّف قمامتك؟ من الذي يغسل ثيابك؟ من الذي يعتني بابن صديقتك بولي عندما تخرج أنت طوال الليل وتشرب وتبذر الأموال؟»، أمسكت فيفيان بأحد سراويل ليون وألقتها عليه «اغسل سراويلك بنفسك! واعثر على فتاة أخرى لتعتني بهذا الطفل!».

«هلا تصمتين؟».

أغلقت فيفيان باب الحمام بقوة وفتحته حتى تتمكَّن من إغلاقه بقوة مرة أخرى. اندفع ليون بعيداً عن ديمينغ ووقع على السرير، فنزل على وسادة أمه، وبعد عشرة أيام اختفى ليون، ورحل في منتصف الليل.

قالت فيفيان إنه ذهب إلى الصين.

شرع مايكل في البكاء: «هل سيعود؟».

«ليس قبل فترة، فقد حصل على وظيفة ويعمل لدى ابن عمنا، يعود كثير من الناس في هذه الأيام».

«لن نذهب أيضاً، أليس كذلك؟»، سألها مايكل فهزَّت فيفيان رأسها.

كان ذلك مثل الوقت الذي سقط فيه من على الأرجوحة واندفعت الرياح

منه، محدثة صوتاً مدوياً. أراد ديمينغ أن يبكي ولكنه تماسك وحافظ على سكون وجهه قدر المستطاع، ولكنه شعر وكأن على صدره صخرة كبيرة.

قالت فيفيان: «أراد أن يودعكما، ولكنك أنت وديمينغ كنتما نائمين».

عرف ديمينغ أن ذلك كان هراءً، فقد رحل ليون لأنه جبان، وغادر دون أن يودع أحداً لأنه يعرف أن عليه البقاء، ولكنه رحل لأنه شعر شعوراً سيئاً، وبينما كان ديمينغ يشاهد فيفيان وهي تواسي مايكل، ارتسم جدار صلب من حوله، وبعد ثلاثة أسابيع أبلغتهم فيفيان أنها ستخرج مع ديمينغ، كلاهما فقط، كانا سيشتريان ملابس جديدة للمدرسة.

فقال مايكل: «لماذا لا أستطيع أن آتي معكما أيضاً؟ فأنا أريد ملابس جديدة».

منذ أن رحل ليون لم يكترث مايكل وديمينغ بالذهاب عند شقة صوفيب، أو محاولة البحث عن النقود الفكة لشراء الآيس كريم من عربات «مستر سوفتي»، وظلا بالمنزل على الرغم من الحرارة المرتفعة، وفي الحمام قام ديمينغ بتكوير قبضتيه وضرب على فخذيه، كان عليه أن يتظاهر بأن الأمور طبيعية.

قالت فيفيان: «هذا الوقت مخصَّص لي مع ديمينغ، فلم نقضِ وقتاً معاً من قبل، أليس كذلك يا ديمينغ؟».

«يجب أن يأتي مايكل معنا».

«سوف آتي يا أمي».

قالت فيفيان لمايكل إن عليه البقاء بالمنزل.

«سوف أعود قريباً».

«لا، لا تذهبي».

«أغلق قفل الباب حالاً، سأعد لك عشاءً شهياً الليلة»، فبكى مايكل مرة أخرى. «أرجوكِ لا تذهبي».

«سوف أعود قريباً جداً».

«ستعودين؟ ماذا عن ديمينغ؟»

«سنعود معاً».

فتوقَّف مايكل عن البكاء. انتظرت فيفيان مع ديمينغ في الردهة حتى سمعا صوت إغلاق القفل، وكانت فيفيان تحمل حقيبة بلاستيكية. سمع ديمينغ صوت شهيق مرتفع من داخل الشقة وأراد العودة، ولكن فيفيان كانت قد وصلت إلى السلم بالفعل.

وصلا إلى الحافلة رقم (بي إكس 12) وجلسا على مقعدين في المقدمة، وتساءل ديمينغ عن المتاجر التي سيذهبان إليها.

وأخيراً قالت فيفيان: «واجه الأمر، لن تعود أمك وأنت بحاجة إلى عائلة صالحة، ولن أستطيع أن أتكفَّل بك أنت ومايكل في الوقت الراهن، أنا آسفة يا ديمينغ، ليس معي نقود، وسوف أنتقل إلى شقة أصغر، وأحصل على رفقاء في السكن. سوف أجلب لك أشخاصاً يعتنون بك حتى يدبر ليون المال الكافي في الصين ويتمكَّن من العودة إلى نيويورك. ستكون بخير، وعندما يعود ليون سنلتقي مرة أخرى».

فضاق الجدار، واستطاع بالكاد أن يتنفس.

«متى؟».

قالت فيفيان: «قريباً».

«قريباً، متى؟».

لم تجبه فيفيان.

«سأحصل على وظيفة، سأبلغ الثانية عشرة في نوفمبر».

نزلا عند شارع «جراند كونكورس»، ودخلا مبنى إداريّاً. جلس على كرسي بالقرب من الباب بينما كانت فيفيان تتحدَّث مع امرأة بلغة إنجليزية غريبة، وكان صوتها أرقَّ من العادة، وسمعها تقول: «لديَّ شهادة ميلاده».

أتت إليه المرأة، كانت سوداء وطويلة وترتدي نظارة بإطار ذهبي «ديمينغ.. انتظرنا هنا حتى أتحدث مع خالتك»، وأخذته إلى مكتب أصغر به طاولة قابلة للطي ومروحة سقف، وأعطته أقلام تلوين ومجموعة من كتب التلوين، ثم مدَّت يدها إلى أحد الأدراج وأعطته علبة عصير تفاح وكيساً من رقائق البطاطس «هذه وجبة خفيفة، يمكنك أن ترسم إذا أردت». كانت ابتسامة المرأة بسيطة ولكنها لطيفة «سوف أعود»، فتح ديمينغ أحد كتب التلوين، فوجده مخصصاً للأطفال الأصغر سناً وبه رسومات كبيرة للحيوانات، وكانت معظم الصفحات ملوَّنة بالفعل، وجميع أقلام التلوين مقسومة إلى قطعتين. رسم علامة X كبيرة على وجوه الحيوانات وقال في نفسه إن فيفيان ستأخذ العنوان الذي سيذهب إليه، وستأتي إليه وبصحبتها مايكل في غضون بضعة أيام، ربما سيذهب إلى مكان ممتع وبه ألعاب إلكترونية.

وبعد أن انتهى من العصير ورقائق البطاطس بفترة طويلة عادت إليه المرأة وبيدها الحقيبة البلاستيكية التي كانت تحملها فيفيان «ستذهب معي الآن، لدينا مكان في حي بروكلين ستمكث فيه الليلة».

ركب معها شاحنة صغيرة وجلس في المقعد الأمامي، والحقيبة على رجليه، كان بداخلها ملابسه وفرشاة أسنانه. انطلقا في الطريق السريع وعبرا جسراً، وسألته المرأة عن المدرسة وعن أصدقائه، وأعطته علبة عصير أخرى، وسألته عن أمه، فأخبرها أنه لم يرها منذ شهر فبراير.

وصلا إلى أحد الأحياء به أشخاص صينيون، وكذلك متاجر ومطاعم صينية، ولكنه ليس الحي الصيني بمانهاتن. كانت الأشجار أكثر والمنازل بواجهات ألمنيوم، والأطفال يركبون الدراجات على الأرصفة.

صفَّت المرأة السيارة في شارع جانبي، وسارا إلى منزل مكوَّن من ثلاثة طوابق. قرعا الجرس ففتح الباب رجل وامرأة، وكان كلاهما صينيّاً وشعرهما أشيب. صعد الأربعة إلى شقة، وتحدَّثت المرأة السوداء مع المرأة الصينية في المطبخ ولم يستطع ديمينغ سماع كلماتهما، في حين جلس الرجل على أريكة

في مقدمة الغرفة الباردة وقال: «استرح، وكن بخير». إلى أن سقط ديمينغ نائماً على الوسادات، بعد أن شعر بالجفاف من شدة الحرارة وركوب السيارة، وعندما استيقظ كانت المرأة السوداء قد رحلت.

فسأل الرجل: «إلى متى سأظل هنا؟».

قال الرجل: «لفترة».

أطعماه وقدَّما له الخضراوات ووعاءً مليئاً باللحم البقري المطهو على البخار، وسأل إذا كان بإمكانه الاتصال بمايكل، فأخبراه أن ليس الآن، وفتحا جهاز تكييف الهواء وتركوه لينام ويشاهد التلفاز.

ومرت الأيام وفقد ديمينغ الشعور بالوقت، وكان ينام على الأريكة ويشاهد التلفاز، ومكث وحيداً في الشقة، وفي أوقات بعد الظهيرة كان يتجوَّل في الغرف الصغيرة ويفتح الأدراج وخزائن الملابس الفارغة، ويتناول معكرونة «الشيف بوياردي» بعد أن يسخِّنها في فرن الميكروويف، وظلت غرفة نوم الزوجين مغلقة، ولم يكن هناك هاتف. أراد الخروج لكن الباب الأمامي كان مغلقاً أيضاً.

وفي صباح أحد الأيام دقَّ جرس الباب، ولم تكن فيفيان ومايكل ولكن رجل وامرأة من ذوي البشرة البيضاء، وتحدَّثا باللغة الإنجليزية مع المرأة الصينية، ونطقت المرأة البيضاء اسم ديمينغ أولاً «ديي-مينغ، ديي-مينغ». نطقت الحروف المتحركة بأسلوب مطول فصعب التعرف إلى الكلمة. قالت المرأة الصينية «ديمينغ»، فنهض ولكنه ما زال يشعر بالنعاس. حاولت المرأة البيضاء مرة أخرى وكانت أقرب هذه المرة.

واقتربا على أطراف أصابعهما «مرحباً ديمينغ». كان صوت الرجل أجش وأخنف قليلاً، وشعره متدلٍّ وبه خصلٌ صفرٌ، وعيناه زرقاوان فاتحتان ومحاطتان بخطوط، وكان شعر المرأة البيضاء قصيراً أشقر وبه أجزاء بنية، وكان لون وجنتيها ورديّاً شاحباً.

قالت: «مرحباً ديمينغ»، وجلسا على جانبيه، فلمست ذراع المرأة ذراعه، وضغطت ساقا الرجل على ساقيه. لم يقترب من الأشخاص البيض بهذا القدر من قبل إلا في مترو الأنفاق.

فسأل المرأة الصينية باللغة الصينية الشمالية: «من هؤلاء الناس؟»، فقالت باللغة الإنجليزية: «هؤلاء هم والداك البدلاء الجدد، بيتر وكاي ويلكنسون».

فقفز ديمينغ مسرعاً. كان بيتر وكاي طويلين ولكنه كان سريعاً، ونجح في قطع منتصف الطريق إلى السلالم المغطاة بالسجاد قبل أن يشعر بالأيادي عليه «توقف يا ديمينغ»، وقالت المرأة الصينية: «سيعتني بك الأمريكيان، لديهما منزل كبير، وكثير من الأموال».

«ولكن لديَّ عائلة بالفعل».

«لم تعد عائلتك هنا، وهذه هي عائلتك الجديدة، استرِح وكل شيء سيكون على ما يرام».

جلس بيتر وكاي ويلكنسون القرفصاء على السلم. قالت كاي: «ديمينغ، سوف نعتني بك، وستصبح الأمور على ما يرام»، ولفَّت ذراعيها حوله، فاحت رائحة الغسيل والصابون من قميصها، وكانت أمه قد رحلت منذ نصف عام، والآن رحل ليون وفيفيان كذلك، ولم يعد يريده أحد.

مال ديمينغ على كاي فربتت على شعره، وقالت بصوت منتصر، ورنَّت البهجة في ضحكتها وكأنها ترفع رايةً تجاه الشمس: «ستكون الأمور على ما يرام».

تبع ديمينغ آل ويلكنسون إلى خارج المنزل، ونام وهم في الطريق إلى شمال الولاية، ففاتقد آخر نظرة إلى المدينة، واستيقظ في سيارة أمام منزل أبيض كبير بشرفة مستديرة وأشجار طويلة تلوح في الأفق، في المدينة كان الطقس بعد الظهيرة ساخناً كغرفة بخار في شهر أغسطس تشعرك وكأنك تحتضر، ولكن هنا كان الطقس بارداً في الظل.

أوقف بيتر المحرك «مرحباً بك في المنزل».

- 4 -

بعد أسبوع استيقظ ديمينغ غوو ملتحفاً في سريره بغطاء مزدوج من قماش الفلانيل الأحمر، وقد خفتت بقايا لكنته الغريبة الممتزجة بمقاطع وأسماء وأفعال ملطَّخة ومشوَّشة.

فقد تغلَّبت لغة على الأخرى؛ حيث زوَّدته مدينة نيويورك بترسانة من الكلمات الجديدة، فقد كان يُخرِج الحروف المتحرِّكة كالنزيف ويشاهد وجه أمه وهو ينهار.

ولفَّ البطانيات حوله بإحكام، فكان الطقس بارداً حتى في أواخر شهر أغسطس. كان البيت الأبيض الخشبي في ريدجبورو بنيويورك، التي يبلغ عدد سكانها 6252 نسمة، وتبعد خمس ساعات شمال غرب المدينة، وكان عمرها نحو مائتي عام، وقال بيتر عنها إنها تعد أثرية، حجمه أكبر خمسة أضعاف من شقة حي البرونكس، وأكبر سبعة أضعاف من منزل الزقاق رقم (3)، ويتكون من ثلاث غرف نوم: غرفة لكاي وبيتر، وغرفة لديمينغ، والثالثة للضيوف وبها سرير ممتلئ بالألحفة والوسادات التي لم ينَم عليها أحد قط، وحمامان وطابقان وغرفة كاملة للطعام، وأخرى للدراسة والعمل على الكمبيوتر.

تسلَّل النسيم من خلال الشباك شديد الضخامة، ولم تتمكَّن أكياس الفول الممدَّدة أسفل الأبواب من درء هذا التيار الهوائي.

«أنا دانيال ويلكنسون».

كان يرتجف، فلم ينم وحده أبداً من قبل، ولم تكن له غرفة خاصة بهذه الضخامة والمساحة الفارغة.

سمع ديمينغ صوت صافرة «تووت». كان بيتر عند إطار الباب ويداه على فخذيه، كان يحب أن يصفر بشكل غير متناغم.

«صباح الخير يا دانيال».

وكان دائماً يستغرق ثانية حتى يدرك أنهما يتحدثان إليه. عند بدء الدراسة قالا إنه سيكون من الأيسر أن يكون له اسم أمريكي، على الرغم من أنه غير رسمي، وأوضحت كاي أن شهادة ميلاده لا تزال تحمل اسم ديمينغ غوو.

«حان وقت الاستيقاظ الآن، سنغادر إلى الكنيسة في غضون ساعة ونصف الساعة». انبعثت روائح الإفطار من الطابق السفلي: البيض والنقانق في الشحوم المملحة.

تقلَّصت معدة ديمينغ.

في أيامه الأولى كان لا يلقِّبهما بشيء، كان يتحدث معهما دون أن يقول لهما كاي وبيتر، أو أمي وأبي. عندما كانت كاي تنحني لمعانقته كان يتردَّد ويبتعد، كانت قبضتها قوية جدّاً، وكانت رائحتهما مثل الجبن والزهور، لاذعة ومعسولة وعذبة، ولكن في أحيان أخرى كان يتباطأ. كانت تقول له باللغة الإنجليزية: «نحن سعداء بوجودك هنا يا دانيال»، ثم تقوم بأداء كلمات باللغة الصينية الشمالية بأسلوب مشوَّه، فقد تعلَّمت بعض العبارات الصينية، وحضرت بعض الفصول الدراسية في اللغة الصينية الشمالية، واشترت قاموساً للغتين الصينية والإنجليزية، ولكن نغماتها كانت متقطِّعة فلم يفهم ديمينغ ماذا كانت تقول.

ردَّ عليها بلغة الفوزهو الصينية: «لا أعرف من أنت».

عندما كان يتحدث باللغة الصينية، كانت رجل بيتر تهتز، وتضغط كاي على شفتيها فتصبح أقل سمكاً، وكأن جسدها يمتصُّهما، وفمها يأكل بعضه بعضاً، فيحذِّره بيتر قائلاً: «باللغة الإنجليزية»، فقد كان قلقاً ألا تصبح لغة ديمينغ طلقة بما يكفي لتناسب المدرسة، كما لو أن اللغة الإنجليزية التي كان يتحدث بها ملوَّثة. اعتادت أمه أن تضربه على كتفيه بطريقة تبدو مرحة، ولكنه كان يشعر بجديَّتها عندما كان يتحدث اللغة الإنجليزية بكثرة ولا يتحدث اللغة الصينية بالقدر الكافي، وكان سلاحه المفضَّل هو اللغة التي جعلتها معتمدة عليه، فالآن أي شخص ستكون معه سيتوجَّب عليه الترجمة.

النوافذ العملاقة والفناء الخارجي بأشجاره الشاهقة، بلا أرصفة في شارع أوك، ويمكن أن تمضي ساعات دون أن تمر سيارة، وغابت الأصوات الواضحة التي تأتي من الخارج، وسُمِعت أصوات تساقط حبات الخوخ الشفافة. كان ديمينغ يقف عند النافذة ويستمع إلى تغريد الطيور الفاتر، والهدير الخافت لآلة قص عشب بعيدة. ظل الهواء يحمل طنيناً منتظماً لا يُعرف مصدره بالتحديد، ولامس الكتَّان الشفاف البني المتطاير من الخوخ رموش عينيه.

كانت هناك كومة من الألعاب البلاستيكية في أحد أركان غرفته الجديدة؛ مجسَّمات لرجال بعضلات يحملون سيوفاً، وسيارات إطفاء قوية، وسيارات شرطة بصافرات إنذار مصغَّرة وألعاب، وقال بيتر وكاي إنها كانت ملكه (لم يمتعه لعب دور الضباط؛ حيث لا توجد متعة في صراخ صافرات الإنذار)، وعند سريره كان يوجد رفّ عليه صفّ كتب؛ كلاسيكيات مكثَّفة للأطفال، ونسخ بأغلفة ورقية من الكونت دي مونت كريستو، وآخر رجال الموهيكان، وأوليفر تويست، وذكَّرته كلمة مكثَّفة بعلب اللبن التي كانت تشتريها أمه كعلاج، وقطرات السكر اللزج فوق حبوب الشوفان في وجبة إفطاره، وكانت مولعة بتناول الحلويات مثله، ولكنها لم تستسلم لها في أغلب الأحيان. كان إدواردو يعرض عليها الفطائر الرطبة المغلَّفة بغطاء بلاستيكي، والتوت الأزرق الذي يذكِّر بالفضلات، ولكنها كانت تفضل شراء الموز بدلاً من ذلك، وفي بعض الأحيان كان يوجد حليب مركَّز، وحلوى توتسي رولز، وعبوة من حلوى تويزلرز.

شعر ديمينغ بالملل وهو جالس على مقاعد كنيسة «سانت آن» بعد أن امتلأت معدته بالأومليت، وجعله القميص ذو الياقة المخططة، قميصاً مستعملاً من ابن شقيق كاي، يشعر بالحكَّة في رقبته. قف، اجلس، صلِّ. دندن القسيس وأمسك ديمينغ الزر الأزرق الذي كان في صندوق أمه، كان قد وجده داخل بنطال قصير وضعته فيفيان في أغراضه، والآن ينام ويضعه تحت وسادته، قام بفرك الحافة العليا الصلبة للزر ومركزه المستدير، وتذكَّر مترو الأنفاق وكيف كان ينطلق تحت الأرض في شارع 125، وأمه تلف ذراعيها حول رقبته وتقول «انظر!»، وحلم بالانطلاق في شارع يونيفيرسيتي مع مايكل، حيث ينحني الشارع، والمباني الشاهقة تصافح السماء، وأرجحة رجليه، ووثبات حقائب ظهورهم، ومشاركة كيس حلقات البصل مع إلروي وهونج، ودفع صوفيب في أرجاء المتنزه، ومطعم البيتزا ومحل الكعك وتناول الطعام الصيني في الخارج والمتجر الذي يبيع صفوفاً من الجينز الأزرق الخشن والفساتين بسعر 4.9 دولار، وفي المدينة التي تبعد كثيراً جدّاً عن كنيسة سانت آن، والبلدة الصغيرة التي يمكنك أن تبصق على الخريطة فتمحوها، كان تلامس الأجساد يعطي شعوراً بالدفء، وفيفيان توزِّع أواني الحساء، وصوت ثرثرة التلفاز، وتجرُّع المياه الغازية، ومسابقات التجشُّؤ مع مايكل، وكلام أمه في هاتفها المتحرِّك، ومشاركة السرير، وكانت المدينة دافئة بحيث لا تحتاج إلى البطانيات الفلانيل، أو الجوارب الصوف.

حاول أن يطوي صفحة حي البرونكس ويحتفظ بها في قصاصات صغيرة. قرأ ذات مرة في كتاب علوم قديم، ما زال يوزَّع على أنه صالح للاستخدام في المدرسة العامة (33)، في يوم من الأيام سيسير الإنسان على القمر، كانت هذه المعلومة في الكتاب بعد ربع قرن من حدوثها، أن الناس يمكن أن يكون لديهم أورام بداخلهم لمدة أعوام، تكيُّسات غير ضارة، ويمكن أن تنمو هذه التكيُّسات لتصبح سنّاً أو شعراً أو حتى أظافر.

ويمكن أن يحمل الشخص هذا الكائن الغريب دون أن يعرف، توأمه الوحش، أو كرة شعر مزدوجة، فقد ينمو كثير من الأشياء بداخله، بداخل كل

شخص. كان ديمينغ يحمل بداخله أمه وليون ومايكل وفيفيان والمدينة، فقلَّ ذلك وأصبح سلسلة من الشعرات وكرة من تقليم الأظافر وإحدى الأسنان الشاردة، مجموعة من الأورام السرية.

ركل ديمينغ مقعد الكنيسة، فاستدارت طفلة صغيرة في الصف التالي ونظرت إلى وجهه حتى وكزتها أمها بمرفقها.

تمتم القس بالصلاة، لم يذهب ديمينغ إلى الكنيسة من قبل، لذلك كان يفعل كما يفعل الآخرون، وقف وجلس وتلا بعض السطور من الكتاب الثقيل وكبت التثاؤب. الحمد لله، آمين. حاول تجاهل الناس من حوله عندما كان يسير مع آل ويلكنسون إلى سيارتهم.

تبعد مدرسة ريدجبورو المتوسطة بمسافة مبنيين من وسط البلد في ريدجبورو، وهي تحتوي على شارع رئيس واحد ومتنزَّه به علم أمريكي كبير. جلس ديمينغ في المقعد الأمامي لسيارة كاي الفضية من طراز تويوتا بريوس وهم في الطريق المؤدي إلى شارع أوك، ثم طريق هيلسايد، عبر خطوط السكك الحديدية، وإلى الجانب الغربي من البلدة، حيث كانت البيوت بعضها أقرب إلى بعض، والأفنية أصغر حجماً.

«قد يكون من الأفضل لدانيال أن يعيد الصف الخامس مرة أخرى بدلاً من صعوده إلى الصف السادس، لأن درجاته سيئة جدّاً على جميع المستويات». أشار تشيستر مدير المدرسة إلى أوراق على مكتبه، وكان له خصلات من الشعر الأبيض تبرز من فتحات أنفه مثل الأنياب العشبية «ويبدو أن هذه المدرسة، مدرسة حي البرونكس، قد أوصت أيضاً أن يحصل على دراسة خاصة».

فقال ديمينغ: «لقد ذهبت إلى مدرسة صيفية».

«إذاً سوف نحتاج إلى هذه السجلات»، ونظر تشيستر مدير المدرسة إلى الأوراق «ليس لديهم نفس الفصول الدراسية التي ندرسها هنا، ما نوع الرياضيات والعلوم التي كنت تدرسها في مدرستك القديمة أيها الشاب؟».

تعجَّب كيف يستطيع تشيستر مدير المدرسة أن يتنفَّس من خلال شعر أنفه، وتمنَّى لو أن مايكل وأصدقاءه كانوا هنا حتى يتمكَّنوا من المزاح بشأنه «مجرد رياضيات».

«والهندسة؟ وماذا عن فنون اللغة، ما الذي درسته في مدرستك القديمة؟»، ونظر إلى كاي «من أي بلد أتى في الأصل؟».

قالت كاي: «قد أخبرتك بالفعل، من مدينة نيويورك».

«ولكن ما بلده الأصلي؟».

«أظن أن أمه كانت من الصين».

«الصين، شيء مثير للاهتمام، وأنت وزوجك والداه بالتبنِّي؟».

قالت كاي: «البدلاء».

قام تشيستر بخلط الأوراق: «ربما تحتاج لغته الإنجليزية إلى بعض التحسين، ولكن أخشى عدم توافر العدد الكافي من الطلبة الأجانب في هذه المنطقة التعليمية لنضمن تدريس اللغة الإنجليزية كلغة ثانية.

«لغته الإنجليزية جيدة للغاية، لقد وُلِد هنا».

«سيكون من مصلحته أن يكون مع طلاب الصف الخامس، فالأطفال يصابون بالإحباط بسهولة، ونحن لا نريد أن تكون بدايته في بلده الجديد بداية خاطئة».

فقالت كاي: «كما ذكرت لك أنه قد وُلِد في الولايات المتحدة، ويمكنك أن تسمعه وهو يتحدَّث، فهو طلق اللسان. أنا لا أوافق على أن نؤخِّره، لأن ذلك سيقلِّل من تطلُّعاته، والأطفال قادرون على التكيُّف ويتعلَّمون بسرعة، فهو ينتمي إلى الأطفال الآخرين من نفس عمره، في الصف السادس».

«وماذا عن زوجك؟ هل يوافق على كل ذلك؟».

«معذرة؟».

قال تشيستر مدير المدرسة: «بالتأكيد زوجك له رأي في هذا الأمر».

«من منظور التطوُّر، دانيال أكاديمياً فوق مستوى صفه الدراسي، لو تتذكَّر

عالم النفس فيجوتسكي، وبصفتك معلماً فبالتأكيد تتذكَّره، فأنت على دراية أن التفاعل الاجتماعي مرتبط بشكل أساسي بعمليات التطوُّر المعرفي للطفل، وحتى إذا كانت مدرستك تطبِّق نموذجاً انتقاليّاً، يمكننا أن نأخذ في الاعتبار أن تدعيم استراتيجيات التعليم بين مجموعة زملاء دانيال سيضمن أنه يستطيع وسينجح في السياق الاجتماعي الثقافي المناسب، بمعنى آخر: في الصف الدراسي السادس».

نظر تشيستر مدير المدرسة إلى الأوراق مرة أخرى، وضحك بهدوء وقال: «حسناً، لا تدعونا نسبق الأحداث، كل ذلك الحديث عن النماذج، لست متأكداً أنني ضليع بالنماذج مثلك سيدة ويلكنسون».

«الدكتورة ويلكنسون، أنا أدرّس في كلية كارلوج».

وفي النهاية وضع تشيستر مدير المدرسة دانيال في الصف السادس. قالت كاي وهي تغادر المدرسة: «هذا الرجل أحمق تماماً».

كانت أول أسابيع لديمينغ في ريدجبورو كمن يمشي أثناء النوم، مظلمة ومشوَّشة، كما لو أنه سيستيقظ ويجد نفسه في حي البرونكس مرة أخرى، بمجرد أن ينقر بإصبعه. كانت حقيبة الملابس التي عبَّأتها فيفيان الشيء الوحيد المتبقي له من المدينة، وغسلت كاي الملابس وطوتها ووضعتها في خزانة الملابس بغرفته. أخذته إلى المجمع التجاري لشراء ما أسمته خزانة الملابس المناسبة للعودة إلى المدرسة، كانت ساحة انتظار السيارات رقعة واسعة من الأسفلت الأسود، أكبر من أي ساحة رآها من قبل على الإطلاق، وكان حجمها واضحاً بسبب فراغها، مجرد بضع سيارات في هذه الفراغات الشاسعة، وكانا يتجولان عبر المتاجر وصوت الساكسفون يتردَّد من مكبِّرات الصوت، وكان جميع الناس من أصحاب البشرة البيضاء كمن كانوا في الكنيسة وبعض الأشخاص الذين رآهم في شارع أوك.

مرا على أكشاك لبيع المجوهرات والساعات وقبعات البيسبول. قالت كاي: «لنرى، ماذا يرتدي صبي في الحادية عشرة من عمره؟»، وقفت أمام هوليستر وأبيركرومبي آند فيتش.

«هل تحب هذه المتاجر؟»:

قال ديمينغ: «لا أدري».

داخل أبيركرومبي آند فيتش، كانت هناك مجسَّمات كرتونية بالحجم الطبيعي لمراهقين يمرحون على الشاطئ، وفتيات بشعور مقلَّمة يضحكن ويلبسن البيكيني، وفتيان يمسكون ألواح التزلُّج الملامسة لجذوعهم القوية. كانت أمه تشتري ملابسه من طريق فوردهام، وكان يحصل هو ومايكل على نفس القميص بمقاسات وألوان مختلفة.

«انظر»، أشارت كاي إلى إحدى الصور الكرتونية «لا بد أنه من المؤلم الضحك هكذا»، وكشفت أسنانها واتخذت نفس وضع فتيات البيكيني ودفعت فخذيها إلى الأمام ورفعت ذراعيها. شاهدها ديمينغ وهو غير متأكِّد إن كان ينبغي عليه أن يضحك.

بناطيل كارجو، بناطيل فتيان قصيرة، قمصان كلاسيكية، بناطيل تشينو، وقمصان بولو، وسترات بقلنسوة. حملت كاي الملابس وقال ديمينغ: «حسناً»، وفي غرفة تبديل الملابس خلع بنطاله الأخضر القصير وقميصه الرمادي ذا الأكمام القصيرة والقبَّعة (اليانكيز) التي أعطاها له ليون، وكان لدى مايكل نفس البنطال القصير باللون الأزرق ونسخة مقلَّمة من القميص الرمادي ذي الأكمام القصيرة. هل يفتقده مايكل أم أنه سعيد أن السرير أصبح له وحده؟ لا بد أن ليون قد اتصل من الصين، ولكن إذا انتقلت فيفيان من السكن، فلن تستطيع أمه الاتصال بها لتخبره أين كانت.

انفطر قلبه وهو يرفع سحَّاب البنطال الكارجو، ونظر في المرآة فشعر أنه غريب ومشوَّه.

«هل يمكنك الخروج لتريني؟».

نظرت إليه كاي نظرة فاحصة موجزة «هل يعجبك؟ هل المقاس مناسب؟».

«نعم».

«إذاً هل تريده؟ وهذه القمصان أيضاً على ما أعتقد؟».

«حسناً».

أعطت كاي ورقة لأمينة الصندوق وقالت إن لديها قسيمة لشراء ملابس الأطفال البدلاء.

قالت المرأة: لا نقبل هذه الأوراق، حاولي في «وول مارت»، أو «تارجت».

«آها». ضحكت كاي.

«لا بأس».

وضعت الورقة في كيس نقودها وأخرجت بطاقتها الائتمانية، وبعد توقيع الإيصال وطي القمصان والبناطيل داخل حقيبة، سألته: «ديمينغ، هل تريد أي شيء آخر؟».

ارتبك ديمينغ من قسوة السؤال، وقال أخيراً: «ماذا عن الأحذية الرياضية؟».

طارت يد كاي إلى جبهتها «بالله عليك يا كاي، ركِّزي، الأحذية، كيف يمكنني أن أنسى الأحذية؟ لن تستطيع الذهاب إلى المدرسة حافي القدمين، لن يوافق تشيستر مدير المدرسة على هذا».

عند متجر «أثلتس فوت»، انتقى ديمينغ أغلى حذاء نايكي من على الرف، بألسنة منتفخة وشرائط حمر وسود. أعطت كاي بطاقتها الائتمانية ووقَّعت. ما الذي يمكن أن تشتريه له، دراجة نارية، أو كمبيوتر؟ صعدا إلى الطابق العلوي حيث قاعة الطعام. حملت كاي حقيبة الملابس، وحمل ديمينغ صندوق حذائه الرياضي الجديد، وتشاركا طبق بطاطس مقلية بالجبن. لعق الصلصة الصفراء الساخنة بين حواف كل قطعة بطاطس. كان يُطلق عليها البطاطس المقلية المتعرِّجة.

«هل ذهبت إلى المجمَّعات التجارية في مدينة نيويورك؟». احمرَّت بشرة كاي ربما بسبب سخونة البطاطس المقلية. نظر ديمينغ إلى العائلات التي

تتناول الطعام على المناضد الأخرى؛ زوجين عجوزين يسيران متشابكي الأيدي، ومراهقين يعدَّان النقود الفكة ويصبَّان المياه الغازية.

«لماذا أنا هنا؟».

التقطت كاي قطعة بطاطس «لأن لدينا غرفة لطفل في عائلتنا، وأنت تحتاج عائلة تعيش معها»، واحمرَّت بشرتها أكثر «هل أنت متوتِّر بسبب المدرسة؟».

«ليس تماماً».

جلست أم مع صبيَّين في نفس عمره تقريباً على منضدة قريبة، وكانوا جميعاً ناعمين وشديدي الضخامة، حتى أسنانهم كانت كبيرة وقوية تلتهم البيتزا في شراهة. نظر من غير قصد إلى عين أحد الصبية، فألمح إلى أخيه وضحك ساخراً. حدَّقت أمهما إلى كاي وديمينغ كما لو كانا واقفين في الشارع مكشوفي الظهر.

فأخذ مزيداً من البطاطس المقلية وحاول تجاهل العائلة الموجودة على المنضدة الأخرى.

أراد أن يُعجب بضحكة كاي وتصاعدها المفاجئ، والطريقة السهلة التي اشترت له الملابس بها.

وواصلت التحدث: «أعرف أنه أمر مخيف أن تكون الطفل الجديد، انتقلت عائلتي فيما مضى عندما كنت في الصف الدراسي السابع، وكان الانتقال لمسافة بلدتين فقط، ولكنني ذهبت إلى مدرسة جديدة وظننت أنها نهاية العالم، واعتقدت حرفيّاً أن حياتي ستنتهي. لم يكن ذلك بسبب حبي الشديد لمدرستي القديمة على الإطلاق، ولكنني كنت أخشى أن الجديدة ستكون أسوأ، هل تعلم أن الأمر قد انتهى بي إلى تكوين أصدقاء، وهو ما كان معجزة في حد ذاته. أقصد أنني كنت طفلة مهووسة بالدراسة، دودة كتب ترتدي نظارة طبية، وأحببت القراءة جدّاً لدرجة أنني كنت أسهر طوال الليل أقرأ الكتب وأنام في الفصل في اليوم التالي. كنت أفضِّل أن أظل بالداخل أثناء

الاستراحة لكي أقرأ، وكما يمكن أن تتخيَّل، لم أفُز بأي جوائز شعبية بسبب ذلك، ولكنك ستكون على ما يرام يا دانيال، ستكون بخير».

راح يتذكر أنه في اليوم الأول من الصف الدراسي الخامس في المدرسة العامة (33)، اصطحبته أمه وفيفيان هو ومايكل إلى خارج باب المبنى الذي يسكنون فيه، وبالقرب من المبنى تدفَّق الأطفال خارجين من مبانيهم الخاصة، مراهقين وأطفالاً صغاراً، وأخواتٍ وإخوةً، وكانت حارسة العبور سيدة من بورتوريكو، وتقف عند إشارة المرور وتقول دائماً: «صباح الخير يا أحبائي» بصوت عذب. يبدو أن مدرسة ريدجبورو المتوسِّطة تبعد أميالاً عن منزل كاي وبيتر.

سمعهما يتحدثان على الجانب الآخر من جدار غرفة نومه. قالت كاي: «يبدو الأمر مروِّعاً، لكن ربما لو كان طفلاً أصغر لكان الأمر أسهل، كان سيصبح صفحة بيضاء».

قال بيتر: «لقد انتظرنا الطفل الأصغر لمدة أعوام، حتى عندما كنا لا نزال نفكِّر في الصين».

«أعرف ذلك، ولكنني أحياناً لا أعرف كيف أتصرَّف وأنا معه».

«كوني على طبيعتك، أليس من المفترض أن يعرف الأطفال إذا لم تكوني طبيعية؟».

«أنت في عملك طوال اليوم. هل أنت متأكِّد من عدم قدرتك على العمل هنا على الأقل جزءاً من الوقت؟ لدينا دراسة، يمكنك الكتابة هناك».

قال بيتر: «لا تدعينا نخُض في كل ذلك مرة أخرى، فأنت تعرفين أن هذا الفصل الدراسي مهم بالنسبة إليَّ».

«لا يبدو الأمر وكأنهم سيقرِّرون منعك من أن تصبح رئيس قسم لأنك تعود إلى المنزل مبكراً من حين إلى آخر. التوازن بين الحياة العملية والشخصية، فأنت تعمل هناك منذ فترة طويلة جدّاً، وهم يعرفونك ويعرفون قيمة عملك، فالأمر لا يتعلَّق بالتغيير».

«ليس وفاليري موجودة في المنافسة، ليس لديها أطفال تعولهم وتزيد كتبها واحداً عن كتبي، لذا يجب أن أعمل أكثر وليس أقل».

«عزيزتي».

«حقّاً».

«لا يوجد توازن بين الحياة العملية والشخصية عندما يتعلَّق الأمر بالأوساط الأكاديمية، ويجب عليك من بين جميع الناس أن تعرفي هذا، لكن قد يختلف الأمر عند النساء، فليس لديهم نفس التطلُّعات ونفس العزيمة».

«حقاً». ضحكت كاي «ليس لدينا عزيمة! من المتوقَّع أن نقوم بجميع أعمال رعاية الأطفال، وجميع أعمال الطهي، والذهاب إلى العمل، والتدريس، وعمل الأبحاث، ونكتب كتبنا الخاصة. من المتوقَّع أن ندعم أزواجنا، وأن نتأكَّد من حصولهم على الرعاية الكافية حتى يتمكَّنوا من القيام بأعمالهم المهمة للغاية. كم أنا محظوظة لأنني سأكون تابعة إلى الأبد».

«حسناً، كنتِ تريدين ذلك، والآن حصلتِ عليه».

«آها، هذا ليس عدلاً، كنت تريد ذلك أيضاً».

ثم ساد الهدوء. إذا تركت كاي بيتر من أجل رجل آخر، هل سيضطر ديمينغ إلى العودة للمدينة؟

قالت كاي: «كنت تريد ذلك بالفعل، أليس كذلك؟».

«بالطبع».

«هل تظن أننا سنكون على ما يرام في هذا الأمر؟».

قال بيتر: «بالطبع، هذه ميزة الرعاية البديلة، يمكننا أن نجرِّب وننتظر ماذا سيحدث».

«أخشى أن أتعلَّق به أكثر من اللازم، يمكن أن ترجع الخالة أو الأم في أي وقت».

«ستتعامل مع الأمر يوماً بيوم، وليس الأمر أنني أعتقد أن النجاح في تربية الأطفال أمر بيولوجي، ولكنه شاق. لا يأتي الأمر على نحو طبيعي، على الرغم من كرهي استخدام مثل هذه المصطلحات الجوهرية، سيستغرق الأمر وقتاً، وسيتحسَّن الوضع بمجرد ذهابه إلى المدرسة، وسيكوِّن صداقات.. وسوف ترين».

«أريده أن يبوح لي بما في صدره، ويخبرني عن أمه أو عن المدينة أو أي شيء».

«لقد عانى الكثير، لا تضغطي عليه».

عمَّ الصمت مرة أخرى، وكان ديمينغ يتراجع عن الجدار عندما سمع بيتر يقول: «ربما يعود الأمر إلى الثقافة، لماذا هو أكثر تحفظاً؟».

«ربما، ربما، أوه، هل نحن مجانين؟ هل جعلناه يعيش في بلدة ليس بها طفل آسيوي آخر؟ لن ألومه إذا كان يكرهنا».

قال بيتر: «لن أقول إن الأمر سيكون سهلاً، فلو كان أبيض أو أسود أو أرجوانيّاً أو أخضر، جميع الأطفال لديهم صراعات مع الانتماء، فهم إما بدناء، أو أن آباءهم لا يملكون أموالاً طائلة».

قالت كاي: «هذا صحيح، لقد كنت دودة كتب ترتدي نظارة طبية، ولم أشعر بالانتماء أبداً إلى مسقط رأسي».

«المشكلات تؤثِّر في الإنسان وتصيبه بعمى الألوان».

«إذا سارت الأمور بنجاح، سيتوجَّب علينا أن نتأكَّد من اتصاله بثقافته، سأتحدث مع إيلين عن المخيَّم الصيفي».

«سنعتني به، وهذا ما يهم، وهو يعرف ذلك».

ضغط ديمينغ أذنه على الجدار ولكن صوت بيتر خفت مع صوت التشويش، فتسلَّل إلى السرير. كانت أمه قصيرة ومستديرة ومختلفة كليّاً عن كاي. قال لنفسه: «لا تفكِّر فيها». كانت أمه تتحدَّث وتحرِّك يديها وتدعه يشاهد التلفاز بقدر ما يشاء. قال مجدداً: «لا تفكِّر في ذلك». سمح له كاي

وبيتر بمشاهدة التلفاز لمدة ثلاث ساعات فقط في الأسبوع، وكانا يفضِّلان قناة «بي بي إس».

وكانت رائحة المطبخ كريهة كما لو أن لحماً أو لبناً فاسداً بالمكان. كدَّست كاي صحن ديمينغ بقالب اللحم والمرق وكرنب بروكسل، وملأت كوبه بالحليب البارد الخالي من الدسم. تسبَّب الحليب في آلام بمعدة ديمينغ ولكن بيتر قال إنه مفيد له، لذا كان يشرب كوباً في كل وجبة.

وكان يتأكَّد من ترتيب منضدة العشاء بالطريقة التي علَّمتها له كاي، الشوك والسكاكين بالترتيب الصحيح، دون ملاعق، والمناديل والمفارش في المنتصف، والأكواب في أركانها المناسبة، في إحدى الليالي رأى كاي تحرِّك الكوب الذي وضعه أمام مفرشها من الركن الأيسر إلى الركن الأيمن «يميناً وليس يساراً! لا تفسد الأمر مرة أخرى».

قال بيتر: «يتبقَّى يوم واحد من الصيف وسنعود جميعاً إلى المدرسة». تبدأ الدراسة في اليوم التالي في مدرسة ريدجبورو المتوسطة، وكلية كارلوج، حيث يقوم بيتر بتدريس علم الاقتصاد، وتقوم كاي بتدريس العلوم السياسية.

حشر ديمينغ قالب اللحم في جانب خده، فإذا استسلم لآل ويلكنسون سيعلق معهم هنا وسيفقد عائلته الحقيقية.

التفتت كاي تجاهه «دانيال؟».

وانضمت نظرات بيتر إليها «هل تتطلَّع إلى المدرسة غداً؟».

«أعتقد ذلك».

قال بيتر: «من فضلك انظر إلينا يا دانيال، فنحن نتحدث إليك».

ضمَّت كاي شفتيها فتجعَّدتا «نحن نحبُّك يا دانيال».

قام بتقطيع قطعة أخرى من قالب اللحم بشوكته. قالت أمه إنها أرادت أشياء عظيمة لنفسها، ولكنها أنجبته بعد ذلك، فإذا استطاع أن يحب بيتر وكاي

فقد يرحلان كذلك. لقد كانا ينتظران طفلاً أصغر سنّاً ليكون الأمر أيسر لهما، وهو الطفل الذي أراداه بشدة.

في وقت متأخِّر من الليل، تسلَّل ديمينغ إلى هاتف المطبخ بالطابق السفلي، فقد تذكَّر رقم هاتف أمه المتحرِّك، على الرغم من أنه لم يحفظ رقم ليون أو فيفيان، وكان لا يوجد خط أرضي في شقة حي البرونكس. رفع سماعة الهاتف وضغط على الأرقام وسمع رسالة آلية تخبره أن عليه أن يضغط رقم واحد. حاول مرة أخرى بعد الضغط على رقم واحد، فكان هناك صمت لمدة قصيرة، ثم رسالة أخرى. لا يمكن إجراء هذه المكالمة في الوقت الحالي. بدَّل ترتيب آخر رقمين واتصل مرة أخرى، رنَّ الهاتف ولكن تحوَّلت المكالمة إلى البريد الصوتي لرجل غريب. كان الرقم الأول هو الرقم الصحيح، فلم ينسَه ولكن أمه لم تكن موجودة.

في الطابق العلوي شكَّلت الألعاب الموجودة في ركن غرفته ظلاً. لاحظ ديمينغ أشكال شاحنة المطافئ وسيارة الشرطة، ووضع سيارة أمام الأخرى ودفعهما على السجادة، وصدم شاحنة المطافئ بسيارة الشرطة وهمس بصوت صافرات الإنذار.

قدَّمت كاي وجبة إفطار خاصة في اليوم الأول من المدرسة، فطائر التوت الأزرق مع شراب القيقب. أوصلت ديمينغ في طريقها إلى كارلوج، كانت ملامحه محايدة تماماً، ثم دخل إلى حجرة الفصل الأساسي للسيدة لومبكين ووجد مقعداً. كان الفصل الدراسي أكبر من فصول المدرسة العامة (33)، وبدلاً من الجلوس إلى الطاولات في مجموعات مكوَّنة من أربعة أطفال، كان الأطفال في ريدجبورو يجلسون على مقاعد فردية ملتصقة بمكاتب.

نادت السيدة لومبكين قائمة الأسماء وكان دانيال ويلكنسون آخر اسم. قال: «هنا». نظر إليه أربعة وعشرون طفلاً. تحقَّقت السيدة لومبكين، وكانت امرأة نحيفة، من الدفتر مرة أخرى.

في المدرسة العامة (33) كان يوجد اثنان وثلاثون طفلاً في الفصل

الأساسي، ولكن في مدرسة ريدجبورو المتوسطة كان يوجد خمسون طفلاً في الصف الدراسي بأكمله. حضر ديمينغ فصول التاريخ والعلوم وفنون اللغة، ثم جلس وحيداً إلى طاولة بالكافيتريا وتناول الطعام الذي أعدَّته له كاي؛ شطيرة شرائح الديك الرومي، وأعواد الكرفس، والتفاح الهش. كل من رآهم كانوا من نفس اللون عداه، وتسرَّب صمتهم في الهواء كأنه تهديد له.

وفي المنزل بعد اليوم الدراسي، حدَّق ديمينغ في الشارع الهادئ وسمع نفس صوت الطنين الأجوف شاعراً بضياع مقزِّز. لكم الجدار بقدر استطاعته؛ هل تسمي هذه لكمة؟ إنها مصافحة باليد! إلى أن صرخت مفاصله، وكان يصرخ أيضاً. كان المنزل خالياً، وبيتر وكاي في العمل، وعندما عادا إلى المنزل أُجبر أن يحافظ على ملامح وجهه الصارمة، ولكنه شعر كأنه يتم سلخ جلده وهو على قيد الحياة.

وفي اليوم الثاني من المدرسة أقنع ديمينغ نفسه أنهم قد جلبوه من كوكب آخر لينزل في كوكب ريدجبورو. لم يكن على علم بطول مهمته، ولكن ما كان يعرفه أنه في يوم ما سيتم إرساله إلى وطنه، وكانت هذه هي الطريقة التي ستجعله يتحمَّل الساعات الطويلة. تأمَّل ديمينغ في آمبر بيتبرغر التي كانت تجلس أمامه في الفصل الأساسي، وكانت الخُصلات البيض تنتشر في شعرها الأشقر الطويل، وبالقرب من فروة الرأس كان اللون بنيّاً مائلاً إلى الصفرة يخفُّ تدريجيّاً ناحية الأطراف، وكان جلدها مرئياً من تحت شعرها وكان لونه ورديّاً وناعماً، مثل الحيوان الصغير الذي لم ينمُ فروه بعد، وكان لون عينيها أخضر مائلاً إلى الرمادي، ووجهها سلسلة من التلال؛ الأنف والذقن وعظام الوجنتين.

كان الأطفال كبار الحجم، وكان ديمينغ ضخماً أيضاً، فقد كان أحد أكبر الأطفال الآسيويين في المدرسة العامة (33)، ولكنهم كانوا مختلفين، ولم يلحظ أبداً الطريقة التي ينظرون بها إلى الأشخاص الآخرين، لأنه لم يوجد أشخاص آخرون هناك، أما هنا فكان محل انتباههم بشكل كبير في البداية، وفيما بعد لم يعد أحد يهتم به. كان ذلك نوعاً من أنواع التلاعب بالعقل؛ أن

تكون مرئيّاً وغير مرئي في نفس الوقت، وبأكثر الأساليب المهمة. كان في غاية الوضوح للأولاد الذين أرادوا أن يسخروا منه، أما الفتيات فكنَّ ينتبهن إليه فقط عندما كان يتجوَّل وسحَّاب بنطاله مفتوح.

كان يتأمَّل أنوفهم، بين المدبَّبة والمتدلية كفاكهة ذابلة، وسواها ذات الفتحات الواسعة، والأخرى ضيقة الفتحات. كان الأولاد والبنات ينفصلون في مجموعات متباعدة أثناء الاستراحة، وكذلك المنبوذون؛ وهم الأطفال المهملون الذين لا ينتمون إلى أي مجموعة، ويتناثرون على أطراف الملعب، ورأى ديمينغ أنه من المنبوذين، الذين لم يرغبوا في الظهور، ولكنهم كانوا ملحوظين مثل القرحة المفتوحة، يبتعدون بأنفسهم لتجنُّب الأماكن ذات الكثافات العالية مثل صالة الألعاب الرياضية المفتوحة، والأركان التي تتجمَّع فيها الفتيات على الأسفلت الأسود، وملاعب كرة السلة وكرة القدم التي كانت تعد منزلاً للأولاد البارعين في الرياضة.

وحتى لو نجح المنبوذون في الاختفاء من الآخرين، لم يستطيعوا أن يخدعوا بعضهم بعضاً. كانوا يهرعون إلى أقرب الأهداف، ويسعدون بالاختفاء في دائرة الضوء على بعد قدمين إلى اليسار، ولكن لم يرغب ديمينغ في الاختفاء، فقد هيَّأه الزقاق رقم (3) وحي البرونكس، وكان كوكب ريدجبورو هو الاختبار النهائي، وكلَّفه رؤساؤه بهذه المهمة على وجه التحديد لاختبار قوَّته وصبره، وعندما ينجز مهمَّته سيلتقي عائلته الحقيقية مرة أخرى، ولكن من رؤساؤه؟ كان عليه معرفة ذلك أيضاً. كانوا يتواصلون ذهنيّاً بلغة الفوزهو الصينية، وهي اللغة التي لم يكن مضطرّاً إلى سماعها. جعلته هذه المهمة شجاعاً، لذلك خرج في فترة الاستراحة إلى الأسفلت الأسود، هناك في المنطقة المفتوحة، متحدياً أي شخص أن يعبث معه.

توقَّفت فتاة في اليوم الثالث عند طاولة ديمينغ في الكافيتريا، ممسكة بعلبة عصير تفاح وشفَّاطة رفيعة سوَّت علامات الأسنان طرفها، وشعرها الداكن مسحوب بقصة ذيل حصان قصير وسميك، ونظارتها بإطار أحمر لامع.

«من أين أتيت؟».

تنحنح ديمينغ: «من حي البرونكس، وأنت من أين أتيت؟».

قالت: «أنا من هنا» وابتعدت.

في اليوم الرابع كان موعد صالة الألعاب الرياضية. كان الأطفال يمارسون الرياضة في ريدجبورو، كرة القدم الأمريكية، وكرة القدم، وكرة السلة، والبيسبول، والتنس، والكرة الطائرة، والهوكي، وكان من المفترض أن يقوم الأولاد في ريدجبورو بالانقضاض والتصادم. راقب ديمينغ شباب كوكب ريدجبورو في غرفة خلع ملابس الذكور عندما كانوا يبدلون ملابسهم لصالة الألعاب الرياضية، وتفاوتت المشاهد من أطراف طفولية غير مكتملة في الأولاد القصيرين، مثل شون ويكر أكثر المنبوذين، إلى المخالب الغليظة ورأس فرانكنشتاين مثل كودي كامبل، وتفحَّص يدي كودي السمينتين، وفخذيه الأشبه بلحم الخنزير المشوي، والاهتزاز والعرَق على ذقن كودي.

خلع ديمينغ حذاءه والبنطال الرياضي القصير الذي اشترته كاي. مكث المنبوذون على أطراف الصفوف، وكانوا يهرولون ليبدلوا ملابسهم دون أن يلاحظهم أحد، ولكن الأولاد الآخرين سخروا منهم وصاحوا على أصدقائهم.

اشتبكت رجل شون ويكر بقماش بنطاله القصير فترنَّح، كان ولداً صغيراً ووجهه جافاً وشاحباً لدرجة أنهم أطلقوا عليه لقب «الشبح» (...).

«عليك اللعنة!».

صاح شون رداً عليه: «عليك! اللعنة!». كانت الاستجابة الجماعية لغرفة خلع الملابس هي الضحك، وذلك أسوأ بكثير من الغضب، وتسلَّل شون مبتعداً، ثم شعر ديمينغ بدفعة قوية؛ ضربة بين كتفيه، فمال إلى الأمام.

كان ذلك كودي «ما الذي تنظر إليه أيها الصيني المتخلِّف؟». كان على جانب وجهه شامة مثل الطبق الطائر، دفع ديمينغ مرة أخرى، ولكن هذه المرة انقضَّ ديمينغ على كودي ودفعه إلى الخلف. ترنَّح كودي محدثاً صوتاً مثل

أووفا. كان أقل رشاقة حتى من ترافيس بوبا، كان ضخماً ولكنه افتقر إلى الاتزان. صُدِم ديمينغ من هذا الموقف بشكل هزلي لكنه متوقَّع.

شعر بوزن عليه، كالوخز في جنبه، كوع ثم كوع آخر. صاح ديمينغ فتدحرج الوزن من عليه. استعاد كودي السيطرة على نفسه، ووقف ديمينغ: «ماذا تريد بحق الجحيم؟».

اتضح أن الوزن كان شون ويكر، وكان وجهه مزمجراً.

ابتعد ديمينغ وقال كودي مجدَّداً: «متخلِّف، صيني متخلِّف». بدا صوته مثل النحيب، بدين وبارد، مثل حيوان انقلب رأساً على عقب.

كانوا يلعبون كرة الركل في صالة الألعاب الرياضية، وهي رياضة لم يمارسها ديمينغ من قبل. عندما أتى دوره ليركل الكرة سمع حمحمةً وصوتاً يقول: «حذاء جميل». نظر إلى حذائه النايكي فارتطمت الكرة ببطنه، وعندما التفَّ ونظر حوله رأى صفّاً من الأولاد يحاولون ألا يضحكوا.

سار وحيداً إلى المنزل بعد المدرسة، فلم تكن المسافة بعيدة، مجرد نصف ساعة، ولكن المنظر لم يكن يتغيَّر أبداً، المنزل تلو المنزل والشجرة تلو الشجرة. انبسطت الشوارع الضيِّقة إلى حقول صغيرة، واسعة جدّاً، لدرجة أن النظر إليها جعله يشعر بالدوار، فشعر بالخوف من المشهد الذي لا نهاية له، وكلما ابتعد عن المدرسة، اتسعت المسافات بين المنازل حتى أصبحت أكبر من أكبر المنازل، وأصبح غير معتاد سماع أصوات السيارات، حتى إذا مرت سيارة بجانبه قفز.

سمع صوت خطوات خلفه عندما كان يعبر خطوط السكك الحديدية، فشدَّ وضع جسمه متوقعاً كودي وأصدقاءه.

وسمع صوت صبي يقول: «مهلاً»، فاندفع ديمينغ إلى الأمام، لكن لم يكن ذلك كودي، بل كان رولاند فيونتس، أحد الصبيان الذين راقبهم ديمينغ بفضول. بدا مختلفاً عن الأطفال الآخرين؛ فهو أيضاً لم يكن واحداً منهم.

كان ديمينغ قد سمع بعض الأشخاص ينطقون اسم رولاند بلكنة مبالغ فيها، ويطيلون مقاطع الكلمة وكأنهم يسخرون، وعلى الرغم من ذلك لم يستجب لهم رولاند. قال لديمينغ: «مهلاً، أنا رولاند، وأنت دانيال أليس كذلك؟».

كان رولاند فيونتس في فصل الرياضيات الذكية مع الفتاة من الكافيتريا؛ إيميلي نيدلس. كان من الممكن أن يكون مناسباً للمدينة، ولكن سرعته وعزيمته جعلتاه مشتبهاً به في ريدجبورو. كان يبرز ذقنه إلى الأمام وهو يتحرك، ومقل عينيه كالسهام أشبه بالطائر العصبي، وكانت بشرته داكنة أكثر من بشرة آمبر بيتبرغر وشون ويكر البيضاء التي تبدو كورق الكتابة، وكان شعره الداكن ناعماً وخفيفاً مثل الطفل الرضيع، أو ربما لم ينمُ من الأساس، إذا كان يمكن لطفل أن يصاب بالصلع قبل المدرسة الإعدادية.

عبرا خطوط السكك الحديدية معاً وهما يركلان الحصى، وبحسب معلومات ديمينغ، لم تمر أي قطارات هنا من قبل.

«هل أنت في الفصل الأساسي لدومبكين؟».

«نعم».

«أنا في فصل موور».

كان ديمينغ على دراية، ولكنه لم يصرح بذلك.

«أين تسكن؟ أنا أسكن في سيكامور».

قال ديمينغ: «بالقرب من هنا، في شارع أوك».

«من أين أتيت؟».

لم يبدُ السؤال مزعجاً عندما سمعه من رولاند «من المدينة، حي البرونكس». «رائع».

سأله ديمينغ: «من أين أتيت؟».

«المريخ!».

كان رولاند صغيراً وصوته أكثر الأصوات انخفاضاً من كل الصبيان، من طبقة الباريتون المبحوحة الخشنة «لا أنا من هنا.. ريدجبورو».

قال رولاند إنه يعيش مع أمه على ناصية سيكامور، وإن والده متوفَّى «ولكنني لا أتذكره، فقد تُوفِّيَ عندما كنت في الثالثة والنصف من عمري، في حادث سير».

قال ديمينغ: «والدي تُوفِّيَ أيضاً».

شعر فجأة أنه يريد أن يكون صديقاً لرولاند، أن يكون صديقاً لأي شخص «في الصين».

«هل ماتت أمك أيضاً؟ أمك الحقيقية».

خرجت الكلمة قبل أن يتمكَّن من إيقافها «نعم».

سأل بيتر على وجبة العشاء إذا كان يوم ديمينغ في المدرسة جيداً، وأجاب ديمينغ بالإيجاب قائلاً إنه تعرَّف إلى صديق، وسألت كاي إذا كان يحب مدرسيه، وقال إنهم على ما يرام، ولكنهم مملون قليلاً، فضحكت قائلة: «لومبكين».

قال بيتر: «يا له من اسم، يجب على الأطفال الذهاب إلى المدينة بسبب هذا الاسم».

بعد العشاء علم بيتر وكاي ديمينغ لعبة «جين رومي»، وجلسوا إلى طاولة المطبخ يلعبون بأوراق اللعب حتى عمّ الظلام بالخارج.

في الطابق العلوي، وفي الصمت الذي يسود غرفته، تحدَّث ديمينغ مع أمه في خياله بلغة الفوزهو الصينية، وأخبرها أنه آسف على قوله إنها ماتت.

لم تكن هناك فصول مشتركة بين رولاند وديمينغ فيما عدا صالة الألعاب الرياضية، ولكن في فترة الراحة كانا يلتهمان شطائرهما ويتخلَّيان عن الملعب من أجل غرفة الكمبيوتر، حيث كان جميع المنبوذين ومهووسي الكمبيوتر من جميع الصفوف الدراسية يلعبون الألعاب الإلكترونية، وفي بعض الأحيان

كانا يريان أشخاصاً بالداخل لم يكونا يتوقَّعانهم مثل إيميلي نيدلس أو حتى كودي كامبل.

وظلا يسيطران لمدة أسبوعين على أعلى النتائج لجميع الألعاب، ويحطِّمان أرقامهما الشخصية. بصرف النصر عن اللعبة التي ستلعبها، سوف ترى اسمين فقط: (د. غ، و) و(ر، ف. ي)، في بادئ الأمر كتب ديمينغ (د. غوو)، فسأله رولاند: «ما معنى (دال غين واو)؟» وكان في غاية التعقيد أن يفسرها له. (كان قد كتب «ديمينغ غوو» في ورقة الأسئلة في أول يوم دراسي، واستدعته السيدة لومبكين إلى مكتبها بعد الفصل الدراسي: «هل توجد مشكلة؟ هل هذه نكتة؟»)، وكلما فاز ديمينغ في لعبة أخرى يرفع رولاند كفّه إلى أعلى قائلاً: «من الرائع؟ (د. غ، و) رائع»، فكان ديمينغ يرفع كفّه ويصفع كفّ رولاند رداً على التحية ويلقي نظرة سريعة في أرجاء الغرفة، متمنياً أن يهدأ رولاند، حيث لم يكن من المأمون التباهي بهذه الطريقة في ريدجبورو، ولم تعجبه الطريقة التي يقفز بها رولاند عندما يكتب (ر، ف. ي) ويضرب بقبضته في الهواء، لكن بين المباريات كان ديمينغ يرجع إلى جدول أعلى النتائج لينظر إلى تكرار الاسم الذي كان من المفترض أن يكون اسمه.

في فصل الرياضيات كان السيد موور يرسم زوايا منفرجة، وكانت آمبر بيتبرغر تمضغ أطراف شعرها الأصفر الفاتح، فقال ديمينغ لنفسه، كن مستيقظاً، كن منتبهاً، وكانت أسهل طريقة تجعله متأكداً من أنه لن يتراخى هي أن يتذكر أنه في مهمة، وأن الجبن الرومي وقالب اللحم والبطانيات الفلانيل كانت جزءاً من تحقيقاته، فإذا استطاع أن يستقل عن الجميع، لن يتأذّى كثيراً عندما يختفون.

بعد بضعة أسابيع لم يعد يشعر أن الأرضيات الخشبية في منزل آل ويلكنسون زلقة، وعندما يقول الناس «دانيال» يرد عليهم ولا يظن أنهم يتحدثون إلى شخص آخر، ولم يعد بيتر وكاي يبدوان غير عاديين في نظره، واعتاد لون بشرتهما مثلما اعتاد الطنين المنخفض في الشوارع الخالية، ولم

يتذكَّر دوماً الاتصال برقم هاتف والدته في الليل، وعندما كان يفعل، كان دائماً يسمع الرسالة: لا يمكن إجراء هذه المكالمة في الوقت الحالي. أصبح وجهه الآن هو الذي يبدو غريباً عندما ينظر في المرآة.

وقال لنفسه إن رؤساءه قد يأتون في أي وقت ويجذبونه خارج الفصل، أو يسحبونه من مباراة كرة الركل، أو يقتربون منه في الكافيتريا وهو يأكل شطيرة زبدة الفول السوداني، دون أن يدري، لأنه لا يمكنه أبداً أن يكون على دراية. كان هناك دائماً احتمال أن تكون أمه أو ليون أو حتى فيفيان في الكافيتريا في فترة بعد الظهيرة في أحد الأيام، وعلى استعداد لاستلامه وإحضاره إلى البيت، أو طرق على باب الفصل الأساسي، دانيال ويلكنسون مطلوب وبقية الفصل يقولون «أوووو» كما لو كان في مشكلة، وتكون أمه جالسة على مقعد مدير المدرسة، ووجهها مضيء ودافئ، وتعتذر عن طول الوقت، وعيناها تدوران وراء ظهر تشيستر مدير المدرسة، وأنهما سيقفزان إلى الحافلة التالية المتجهة إلى المدينة، ويتمكَّن ديمينغ من إزالة الوبر من حلقه، وأن يرخي لسانه المغلَّف باللبن.

لم تكن أمه أو فيفيان التي أتت إلى منزل آل ويلكنسون في يوم الجمعة، ولكن امرأة ذات نمش وأنف صغير مستدير وذقن صغير، وينبت شعر من وجهها، حلزوني ولونه مثل الخبز. قالت: «اسمي السيدة بيري، ويمكنك أن تدعوني جيمي».

قال بيتر: «جيمي هي الإخصائية الاجتماعية من وكالة رعاية الأسر البديلة».

استدارت المرأة لديمينغ «هل تريد أن تريني غرفتك؟».

قالت كاي: «تقدم يا دانيال».

تبعت جيمي ديمينغ إلى الطابق العلوي وجلست على الأرض أمام السرير، ونظرت إلى الشاحنات البلاستيكية «هل هذه ألعابك؟».

«نعم».

«هل تريد أن تريني كيف تعمل؟».

«ليس تماماً».

«حسناً، لا بأس»، وابتسمت جيمي «كيف حالك في المدرسة؟ هل كوَّنت أي صداقات؟».

«نعم، رولاند».

«هل تريد أن تخبرني عنه؟».

«إنه ولد».

«أعرف أنك قد مررت بتغييرات كبيرة أخيراً، ولكن أي شيء تريد إخباري به سيكون سراً بيننا، وليس عليك أن تقول أي شيء إذا كنت لا تريد».

«حسناً».

«ما مادتك المفضلة في المدرسة؟».

«لا أدري».

«ما المادة الأصعب بالنسبة إليك، كل المواد؟».

«الرياضيات على ما أعتقد».

عندما كانت أم ديمينغ تهتز على الأرجوحة المتهالكة في الملعب الخالي، كانت تَصِرُّ بصوت يشبه العواء، كان ذلك في شهر نوفمبر الماضي قبل أن ترحل بثلاثة أشهر. انحنى ديمينغ ووضع كفيه على ظهرها، ولكنه لم يستطع أن يجعلها تعلو كثيراً، صعوداً وهبوطاً، وتنحني خلفه وتندفع إلى الأمام، وكانت سترتها كالدولار الفضي في السماء الرمادية، وكانت تصرخ بصوت قرب السحب. أخذ يدفعها حتى قالت: «كفى، إنه دورك». رفعت إحدى رجليها، ثم رفعت الأخرى، وربتت على الجزء المقوَّس من المقعد المطاطي.

جلس مرخياً رجليه «مستعد؟»، ارتفع إلى أعلى، وصوت صرير الأرجوحة يعلو وهي تبتعد عن الأسفلت المليء بالحفر الصغيرة، ثم تفتَّت المزلاق بسبب

الصدأ الشديد. شعر بكتلة ساخنة من الغذاء تندفع بداخله، ثم أدرك أنه لم يعد يمسك بالسلاسل ولكنه كان يطير، يُحلِّق كقالب طوب، وقبل أن يرتطم بالأسفلت رأى جوانب حجارة الرصف المائلة وتشوَّشت رؤيته وحجبتها الخرسانة.

استيقظ في غرفة غريبة وهو يشعر بأسوأ صداع في حياته، ممدَّداً على سرير أطفال بجواره سرير آخر يرقد عليه رجل عجوز يلبس حفاضة أطفال، ومتصل بالقسطرة الوريدية، وبلاطات السقف ملطَّخة ببقع العفن. سمع بكاء أطفال ورأى شيئاً أبيض ثابتاً؛ لافتة على الجدار مكتوباً عليها «الرعاية المركزة».

كانت أمه تقلِّب في مجلة، وعندما رأته يتحرَّك قفزت ممسكة بيده «أنت مستيقظ».

«ما الذي حدث؟».

«لقد انزلقتَ أيها الولد»، وضغطت بقوة على يده.

«انزلقت؟!».

«لقد كنت خائفةً جداً، لقد فقدتَ الوعي لدقيقة، مرَّت كأنها دهر، بم تشعر الآن؟ هل أنت جائع؟».

تحدَّثت إحدى الممرِّضات عن فترة التعافي قائلة إن ديمينغ يجب أن يستريح، وعليه أن يبتلع هذه الحبوبَ البيضَ، ويجب أن يشربها مع الماء.

نظر إلى وجه أمه المنهك والمتعب، والشامة البنية الصغيرة على رقبتها، فامتلأت عيناه بالضوء البراق المتلألئ. عندما أغمضهما رأى نجوماً مظلمة وتشكَّك فيما تذكره.

ربما دفعته بقوة شديدة، أو ربما قفز استجابةً لرغبته في الوثب والرفرفة؛ أحلام البطل الخارق.

قال ليون إن ذلك كان حادثاً، حيث كان ديمينغ ولداً كبيراً، والأولاد الكبار لا يتأذَّون بسهولة «يجب عليك أن تكون أكثر حرصاً في المرة القادمة، فالأولاد نشيطون، ومن الصعب أن نبقيك ساكناً».

استيقظ ديمينغ مرة أخرى في الشقة وكانت أمه على حافة سريره، تراقبه في الظلام.

«أمي؟». كانت الظلال الصفر لأضواء الشارع تتخلَّل الستائر، فرأى حدود أنف أمه وذقنها وشعرها الملبَّد غير المستوي من أثر النوم.

مرَّرت أظافرها على فروة رأسه وحكَّتها بلطف، وسمعها تهمس: «من المهم أن تكون قويّاً».

شاهد ديمينغ وكاي الأمهات الأخريات عبر ساحة انتظار السيارات بمدرسة ريدجبورو المتوسطة، وبناطيلهن الفضفاضة الطويلة، وقصّات الشعر الشبيهة بفطر عيش الغراب، والسترات الصوفية الفاتحة. كانت الأمهات الأخريات متماثلات، وكذلك أطفالهن، فكنَّ يحضرن اجتماعات رابطة الآباء والمعلمين، ويذهبن إلى حفلات المواليد الجدد الخاصة بهن، وكن يبتهجن عندما يكتشفن أن أولادهن وبناتهن سيكونون زملاء في الفصل في يوم ما. كان آباء ريدجبورو يعملون في المستشفى أو في السجن، ولم يكن لدى أيٍّ من الأطفال الآخرين أم أو أب يعملان كلاهما في التدريس بالكلية.

كانت الأمهات الأخريات يقفن في دائرة صغيرة عند سياراتهن، وكانت أصواتهن تنتشر عبر الأسفلت. كن يتحدَّثن عن أزواجهن وأطفالهن، ويخطِّطن فيما بينهنَّ لعطلة الأسبوع المقبل. لاحظ ديمينغ نظرة جائعة في وجه كاي بينما كانت تهز مفاتيحها. قالت كاي: «أعتقد أنهن يناقشن طريقة عمل سجلات القصاصات أو وصفات الكعك، والتصويت للجمهوريين أو لمن سيصوِّت له أزواجهن».

كانت كاي منبوذة مثله، وكانت مثله لا تريد تكوين صداقات مع أمهات مثل أم كودي كامبل وآمبر بيتبرغر، ولكن على عكس ديمينغ، لم يكن لكاي أصدقاء، بغض النظر عن زملاء بيتر في العمل في كارلوج؛ على الأقل فإن لديه رولاند.

وبدلاً من الأصدقاء كان لكاي وبيتر كتبهما التي يقرآنها على السرير بالليل، كان كلاهما يترك للآخر المقالات التي تم قصها من المجلات الإخبارية على

الوسادات، ويعلِّمان الفقرات ويكتبان الملاحظات في الهوامش: أعتقد سيعجبك هذا. كنت أفكر بك! هل تعلم؟ كانت الرفوف الطويلة في غرفة المعيشة مكدَّسة بالكتب المجلَّدة بالكرتون، عن موضوعات مثل الحرب وعلوم الاقتصاد والهيئة الانتخابية. كان أكثر شيء إثارة في المنزل هو نظام الاستريو الموجود منذ أيام وحدة بيتر القصيرة، والسماعات الصفر بلون الخردل، وجهاز ضبط الصوت عالي الدقة باللون الفضي، وفوق كل ذلك يأتي تاج المجد: جهاز تشغيل الأسطوانات الملفوف بقطعة قماش ناعمة، ومجموعة أسطوانات صغيرة موضوعة في الخزانة الموجودة تحت جهاز تشغيل الأسطوانات ومعها ما يشبه الممحاة لتنظيف الأسطوانات.

كان ديمينغ وحيداً بالمنزل في إحدى الأمسيات، فجلس على ركبتيه أمام الاستريو، وتحدَّى نفسه وقبِل التحدي، وفتح باب الخزانة. كانت أغلفة الأسطوانات لامعة وعليها صور لفرق موسيقية لم يسمع عنها من قبل، وكانت داخل الجيوب الكرتونية أسطوانات سود صلبة وملساء مكسوَّة بحلقات مستديرة، مثل الأشجار الغريبة عندما تقطع جذوعها إلى شرائح.

وأغلق ديمينغ الخزانة عندما رأى سيارة بيتر تقف في الممر.

وضع بيتر حقيبته على الأريكة «كيف كان يومك في المدرسة يا دانيال؟» نهض ديمينغ من على الأرض «كان جيداً».

«ألا تريد اختيار أسطوانة لنستمع إليها؟».

فتح ديمينغ الخزانة مرة أخرى مدركاً أن بيتر يشاهده، وأخذ الأسطوانة التي كان ينظر إليها، للمطرب جيمي هندركس، هل لديك الخبرة، وكانت الكلمات مكتوبة بشكل يوحي بتأثير المخدرات، كما لو أن للحروف أصابع وأرجلاً، وكانت الصورة على الغلاف لرجل أسود يقف مع رجلين من ذوي البشرة البيضاء.

«أمسك بها من الأطراف، فأنت لا تريد أن تخدش سطح الأسطوانة». رفع بيتر غطاء جهاز تشغيل الأسطوانات، ووضع ديمينغ الأسطوانة، دارت الأسطوانة ببطء ونزلت الإبرة من تلقاء نفسها محدثة طقطقة ثابتة.

أدار بيتر زر الصوت إلى أعلى بحركة دائرية واحدة، ثم بدأت النغمات الموسيقية الافتتاحية. ملأت الموسيقى الغرفة بالألوان، وكانت مثل اللكمة المصحوبة بتكشير. تأرجح ديمينغ بجوار السماعات. قام بيتر بلف زر الصوت إلى أعلى، ووقفا يستمتعان بالصوت.

«ماذا؟» فتحت كاي الباب الأمامي وهي تحمل مفاتيح سيارتها، وشعر ديمينغ بتدفُّق النسيم داخل المنزل، وكأن الجيتارات كانت تشجِّعه. قالت: «الصوت مرتفع بالفعل».

خفض بيتر الصوت، وعندما غادرت كاي قال لديمينغ: «أمك لا تقدِّر الموسيقى بنفس الطريقة التي نقدِّرها بها».

قام ديمينغ بعد المدرسة بالاستماع إلى أغنية «هل لديك الخبرة»، على سماعات الرأس الخاصة ببيتر، التي كانت فضية ومنتفخة بسلك أسود حلزوني، وهو مستلقٍ على أرض غرفة المعيشة. كان يحصي ضربات القلب خلال الوقفات القصيرة بين الأغاني، متذوِّقاً الحكَّة اللذيذة التي تصدرها الإبرة عند نزولها، وتسلُّل اللحن على أطراف أصابعه من خلف الستائر. كانت الأسطوانة أصلب من الأسطوانات المدمجة البلاستيكية ولكنها أنعم. كان يجب الاحتفاظ بهذه الأسطوانات كأنها كنز، وكانت خدوشها المستديرة مثل اللغة الغامضة أو الوشم غير الواضح. سار ديمينغ في ممر مدرسة ريدجبورو المتوسطة، وكلمات الأغنية تتردَّد في ذهنه كالحلقات المجنونة. أين تذهب يا غوو بهذا المسدس في يدك؟ ترجم هذه السطور إلى لغة الفوزهو الصينية وكان يضحك بسخرية والأطفال الآخرون ينظرون إليه. أعاد السطر باللغة الصينية الشمالية عند مرور مجموعة طلاب من الصف الثامن، فنظر بعضهم إلى بعض متندِّرين: «ما هذا؟!». نقلت سماعات الرأس الأشكال والنغمات الموسيقية إلى مجرى دمه. حرَّك قرع الطبول المنتظم بعض مشاعره.

فقد افتقد الموسيقى وتاق إليها. كانت المدينة بمثابة أغنية طويلة وزاهية مليئة بالألوان اللانهائية، ورقص هائل من مزيج إيقاع الحافلات وطبول

القطارات وأجهزة الاستريو العابرة، وكان غيابها في ريدجبورو صارخاً؛ فقبل أن يجد الأسطوانات كان يشغِّل راديو الساعة الصغير في غرفته، ويوجِّهه نحو النافذة لاستقبال الإشارات الضعيفة من المحطة التي كانت تبث موسيقى التكنو المشوَّشة، وأخرى تبث موسيقى إسبانية مشوَّشة، ولكن الاستقبال كان ضعيفاً، وتسبَّب في ظهور واختفاء صوت الأغاني. لم تكن هناك أصوات كافية في ريدجبورو لإخراج أي ألوان إلا تلك الأضعف والأكثر ضبابية.

أعطاه بيتر سماعات أذن صغيرة ونَسخ له أسطوانتين مدمجتين، وأعطته كاي مشغِّل الأسطوانات المدمجة القديم الخاص بها وحزمة بطاريات، ولكن ديمينغ كان يفضل سماعات الرأس القديمة لأنها كانت عازلاً أكبر له عن العالم. أصبحت الشوارع الفارغة والأشجار الضخمة مضحكة عند اقترانها بالموسيقى التصويرية، وجعلته بطلاً لأفلام الحركة بدلاً من الولد المنبوذ، وتفجَّر كوكب ريدجبورو. تحوَّلت الأزهار الرمادية تدريجيّاً إلى خطوط متذبذبة ومثلَّثات راقصة، وتخلَّلت الطبول الوترية الكهربائية الزرق خط إيقاع بنياً مغطى بجيتار برتقالي صلب، وأصوات الغناء الفيروزية تتسلَّل إلى الجليد الناعم. قام بالتشغيل وإعادة التشغيل، ثم التشغيل وإعادة التشغيل من جديد، وعندما كان يسير في شارع أوك كان يغمض عينيه متظاهراً أنه في المدينة مع أمه.

تخيَّل أنها كانت تشبهه وكان يشبهها، وكانا يشبهان الأشخاص الآخرين الذين يقابلانهم في الشوارع والقطارات، فكان طفلاً مختلفاً تماماً في المدينة، ولم يعرف أبداً مدى الإرهاق عندما يكون المرء ظاهراً.

عاد من المدرسة في اليوم التالي متوقعاً ألا يجد أحداً بالمنزل كالعادة، ولكن عندما فتح الباب سمع أصواتاً. كانت كاي في غرفة المعيشة وكان التلفاز مفتوحاً، وهي تغرف شرائح التفاح في وعاء زبدة الفول السوداني. كان التلفاز يعرض مسلسلاً تلفزيونيّاً، والمشهد لامرأة كبيرة توبِّخ امرأة أصغر أمام نافذة تطل على الشاطئ.

قال ديمينغ: «إن التلفاز يعوق التطوُّر». كان قد سمعها هي وبيتر يقولان ذلك من قبل.

«على الأقل أحدهم يستمع لي، عكس طلاب الجامعة. لم أستطع أن أكمل الدوام في المكتب فهربت من العمل. لا تخبر أحداً». ربتت كاي على الأريكة «انظر، هاتان المرأتان على وشك أن تكتشفا أنهما متزوجتان بنفس الرجل، تعالَ وشاهد معي. تناول شرائح التفاح وزبدة الفول السوداني، سنلهو بعقولنا معاً ونصبح زوجين من الحمقى البُلهاء».

جلس ديمينغ وهو يشعر بالرفاهية في الضوضاء. أصوات الكيبورد المرحة على الإعلانات التجارية للمنظفات أمطرته بموجات قوس قزح. كان لون الأريكة أخضر داكناً منقوشاً، ووسائدها ناعمة وبراقة.

«كيف حالك بالمدرسة؟».

«بخير».

«سأتحدث إلى تلك السيدة لومبكين بخصوص حصولك على مساعدة إضافية في الرياضيات، وبعد العشاء دعنا نراجع واجبك المدرسي».

قال ديمينغ: «أنا أكره الرياضيات».

«إنها ليست بهذه الصعوبة، أعرف أنك تستطيع أن تتجاوز ذلك، ويجب عليك أن تتخطَّى الحاجز الذهني الذي يقول: أنا أكره الرياضيات، أنا سيئ في الرياضيات».

«ولكنني أكرهها وأنا سيئ فيها».

التقطت كاي زبدة الفول السوداني وأمالت شريحة التفاح بداخلها، وكشطت جوانب الوعاء البلاستيكي «كانت أمي تعتقد أن الفتيات سيئات في الرياضيات بالطبيعة، بل حتى سيئات في الدراسة، وما زالت لا تفهم طبيعة عملي فعلاً، وكان والدي أكثر تشجيعاً، ولكنهما افترضا أن خالك جاري سيكون الشخص الذي سيذهب إلى الكلية ويعمل في مهنة محترمة مثل الحسابات أو الصيدلة، ولكن جاري تخرَّج بالكاد في المدرسة الثانوية، ويعمل الآن في هوم ديبوت خارج مدينة سيراكيوز، وهي المدينة التي نشأتُ فيها، وسوف نذهب إلى هناك في عيد الشكر، كما أنه طلَّق مرتين».

«ما هوم ديبوت؟».

«إنه متجر كبير لبيع الأدوات، والأخشاب»، ومضغت التفاح بصوتٍ مرتفع «كانا قاسيين مع جاري، بل قاسيين مع كلينا. أتعرف، مرّ والدك بصعوبات أيضاً، كان عليه ضغوط كثيرة عندما كان صغيراً. كان والده محامياً محترماً، وأراده أن يتولَّى أعمال المحاماة الخاصة به، لكن والدك أراد أن يسافر كثيراً ويرى العالم، وحصل على منحة دراسية للذهاب إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي، لكنَّ والديه لم يسمحا له بالذهاب، وقالا إنه يجب عليه الذهاب إلى دارتموث لأن هذه الكلية التي ارتادها والده، وكان تمرُّده الوحيد هو الالتحاق بالأوساط الأكاديمية بدلاً من القانون، ولم يسامحه والده أبداً على ذلك». قامت كاي بتعديل وضع قدميها، اليمنى على اليسرى «على أي حال، أعتقد ما أريد قوله هو أنك قد تكون موهوماً داخليّاً، أقصد أنه قد تم إخبارك بأنك لست جيداً في الرياضيات، أو حتى بأنك لست جيداً في المدرسة. لذا يجب عليك أن تقول لنفسك: يا نفسي هذا ليس صحيحاً».

غرف ديمينغ كتلة من زبدة الفول السوداني بسبَّابته، قطع المسلسل الدرامي إعلان تجاري تصاحبه موسيقى ممتعة ومرحة؛ طفلان ووالداهما يهرعون إلى قلعة، وحيوانات عملاقة وأشخاص بالغون يرتدون ملابس مثل الدمى يمرون بجانبهم، وكُتِب على الشاشة: عالم ديزني.. المملكة السحرية.. أورلاندو، فلوريدا.

انثالت زبدة الفول السوداني من بين أصابعه، بينما كان يحملق في الشاشة، حيث كانت أمه تريد أن تأخذه إلى عالم ديزني.

«هل تريد أن تذهب إلى هناك؟»، سألته كاي.

قد تكون أمه تنظر إلى هذه القلعة في الوقت الحالي، وتومي بجانبها. قال: «لا، هذا غباء».

«حسناً، الحمد لله».

بحلول شهر أكتوبر، أصبح أطول بمقدار ربع بوصة من شهر أغسطس،

وذلك وفقاً لمخطَّط النمو الذي رسمته كاي بالقلم الرصاص على جدار غرفة الطعام، وعندما نظر في المرآة، وجد أن حدود فكِّه قد برزت، وحواجبه صارت أكثف، ولم يعرف إذا كان وجهه ما زال يشبه وجه أمه، فليس معه صور لها، وليس عنده دليل.

كانت والدة رولاند، السيدة ليسيو، تعمل في كارلوج أيضاً في قسم الموارد البشرية، وهي عبارة أربكت ديمينغ. كانت تتجنَّب متجر «فود ليون»، وتجلب البسكويت وأباريق عصير الفاكهة لرولاند وله. كان بإمكانهما مشاهدة ثلاثمائة قناة على التلفاز في منزل رولاند، ولكنهما كانا يلعبان جراند ثفت أوتو 2.

وبعد أن عرض ديمينغ على رولاند مشغِّل الأسطوانات المدمجة وسماعات الرأس وأسمعه جيمي هندركس، أصبحت جراند ثفت أوتو لعبة مهجورة. ظلا يستمعان لأشرطة الكاسيت الموضوعة في صندوق أحذية أيام الأحد لمدة شهر، وكان رولاند فيونتس الأب المُتوفَّى قد ترك تلك هذه الأشرطة، وفي غرفة رولاند أعادا تشغيل حياة أبيه على مشغِّل أشرطة قديم، وتناقشا ما إذا كانا يفضِّلان الغناء أم العزف على الجيتار، وأيهما كان أفضل، أوزي عندما كان يعزف منفرداً أم مع فريق بلاك ساباث (وكان ديمينغ محباً للكلاسيكية ويفضل بلاك ساباث على الدوام). عندما وُلد رولاند كان والداه في أوائل العشرينيات. كانا قد تقابلا في الكلية، وانتقلا للعيش في واشنطن العاصمة ومونتريال، وانتهى بهما المطاف في ريدجبورو بطريقة ما. استمع رولاند وديمينغ إلى شرائط آدم آنت، ذا رامونس، ذا كلاش، إيه سي دي سي، ذا بيكسيس، نيو أوردر، جانس أديكشن، وهناك كانت ساعات البحث على شبكة الإنترنت عن الفرق الموسيقية ذات الصلة، ومع كل أغنية كان عليهما اكتشافها، فلم يتعلَّما شيئاً من قبل.

عندما كانا يستمعان إلى شريط يضم أغاني متنوعة جمعته أم رولاند لوالده قبل أن تلد رولاند، وغلافه من أحد الملصقات لقصاصات المجلات، مكتوب عليه حياة الترف، قال ديمينغ: «هذا أخضر يانع».

قال رولاند: «أجل، أنيق للغاية».

«لا، الجيتار بلون العشب».

لم يمر أي وقت دون أن تتداخل الأصوات والألوان والمشاعر، فعندما لا يتسبَّب إيقاع قرع الطبول في استحداث اللون البنفسجي الذي يملؤه بالرضا، وعندما لا تقوم نغمات الكوردات المتآلفة المتتالية بتصوير الألوان الفاتحة الترابية، يجعله ذلك يشعر كأنه يحبس طائراً ذهبيّاً صغيراً. لم يكن الأمر يتعلَّق بالموسيقى فحسب، ولكن أيضاً بصرير القطارات والعواصف الممطرة، والأصوات العارضة، والضجيج الجماعي. كانت الألوان والتركيبات تظهر أمامه، وتقفز في الوقت المناسب للإيقاع، وكان يشعر بوميض الألوان في عقله، وبإحساس تلقائي نحو النغمات بشكل غريزي كالتنفس، وكان اللون الأحمر لبيانو ورليتزر يجعله يريد التقيؤ، بل كان يشعر بالاشمئزاز إذا فكر في إمكانية أن يكون بأي لون آخر، وكانت الأغاني الدعائية القصيرة الخاصة بتاجر سيارات مستعملة تؤدي إلى أخبث تعارض للألوان الخضر، حتى إنه لم يشغل التلفاز على مدار أحد مواسم الصيف خشية أن تقفز هذه الأغاني الدعائية في وجهه، وعندما سمع أحد المقاطع الرئيسة المكون من سطرين لإحدى الأغاني من مكبر صوت (بوم بوكس) في طريق فوردهام، انبعثت فيه الألوان الزرق الموازية للنهر الموجود في ميانيانغ تماماً، لدرجة أنها لازمته كالوسواس لسنوات، إلى أن تعقَّب الأغنية واستمع إليها حتى تضاءلت بداخله، وتعلم أن يؤلف الموسيقى ويطابق النغمات بظلال الألوان والمشاعر، ويترجم كل ذلك إلى لحن، وكان هذا أنقى وأسخف أشكال التواصل. كان يبرع في صنع أغانٍ توصل المعنى الذي يريد قوله بالضبط، ولكن كان هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفهمها، وكان باقي العالم يسمع مجرد أصوات. كانت جهوده تضيع سدى، ولكنه كان يمتلك الموهبة.

وكان يطارد الموسيقى باشتهاء حتى جعل اليأس يمل. لماذا لم يكن لدى الأشخاص الآخرين نفس الاحتياج؟ وكيف يعقل أن تفضِّل كاي الاستماع

إلى الأصوات المنخفضة المعدَّلة لإذاعة الراديو الوطني العام في سيارتها، في حين أنها يمكنها ببساطة أن تختار اقتحام عالم هندركس المتفجِّر، أو الزوايا الساطعة للمطرب برنس، أو سطوع الشمس للمطرب ديفيد بوي، (كان ديمينغ يرى الماء عندما استمع لأغنية «الصوت والرؤية» الماء، الماء، الماء)، وعندما يكبر لن يكون بهذا الملل في سيارته. كان الإفراط في الاستماع إلى أغنية جيدة أفضل عنده من التهام شوكولاته «هيرشيز» بمختلف أشكالها (حبيبات، أو مستر جود بار، أو شوكولاته بالحليب، أو كراكل، أو سبشيال دارك). قام هو ومايكل بفعل ذلك بالضبط في إحدى الأمسيات الرائعة في حي البرونكس أثناء غياب أميهما. كانت الموسيقى لغة قائمة بذاتها، ولاحقاً ستصبح لغته الثالثة من نصف التون الناقص للنغمة السابعة، إلى النغمة السابعة للسلم الكبير، إلى النغمة السابعة للسلم الصغير، نغمات عذبة تتقلَّب مثل نغمات اللغة الصينية، وكانت اللغة الإنجليزية الأمريكية كالنغمة الخامسة الحرة للسلم الكبير، ولغة الفوزهو كالنغمة السابعة والتاسعة المائلة.

كان يؤلِّف أسماء الفرق الموسيقية وهو يسير عائداً إلى المنزل، ويصمِّم أغلفة الألبوم وكلمات الأغاني مثل: «قتلت الأسد القوي»، و«عقول على مسمار». ابتهج رولاند عندما عرض عليه ديمينغ القائمة، وكان يكتب أسماء الفرق الموسيقية الزائفة على واجهات كراساته، وعندما سأله الأطفال الآخرون عنهم تظاهر بالصدمة قائلاً: «ألا تعرفون هذه الفرقة الموسيقية؟»، فيهزون رؤوسهم «دانيال، هل أحضرت الألبوم الجديد عن هوس الموتى؟ لقد أحببت الأغنية الأولى «عقول على مسمار»». كان رولاند يغني الكلمات التي كتبها ديمينغ بقوة في منتصف الردهة بالقرب من مكتب تشيستر مدير المدرسة: عقول على مسمار/ تجشؤ لذيذ لذيذ/ قلب على مسمار/ اللعنة، هذا مؤلم. أراد ديمينغ أن يصحِّح الكلمات لرولاند، فقد كانت قلب على سكين وليس مسماراً.

قال رولاند بصوت مرتفع دون أن يوجِّه كلماته إلى شخص بعينه: «لقد سمعت أنهم سيعزفون في دانكن دونتس الشهر المقبل، هوس الموتى! سوف

أحضر التذاكر، فلا أريد أن تنفد جميعها».

أتى كودي كمبل الذي كان يلعب كرة القدم مع رولاند إلى ديمينغ في الفصل الرئيس وقال: «لقد سمعت عن الفرقة الموسيقية التي تعزف بها، فرقة رولاند. هوس الموتـ......ـى!».

قال ديمينغ: «هذه فرقتي الموسيقية وليست لرولاند، أنا الذي أنشأتها».

في شهر نوفمبر سأل بيتر وكاي ديمينغ عن الهدية التي يريدها في عيد ميلاده، فقال: «جيتار كهربائي». استيقظ في صباح يوم عيد ميلاده الثاني عشر ووجد بطاقة إرشادية على المنضدة المجاورة له، وعليها ملحوظة بخط يد بيتر: حان الوقت للاستماع لبعض أغاني هندركس.

قال بيتر وهو يصفِّق بيديه: «هذه لعبة البحث عن الكنز، تذهب إلى المكان الذي تعتقد أنه تمت الإشارة إليه في البطاقة من أجل أن تجد الدليل التالي، وهكذا ستقودك الأدلة إلى هدية عيد ميلادك».

قالت كاي: «إنها إحدى عادات آل ويلكنسون، كل عام في أيام أعياد ميلادنا نقوم بعمل البحث عن الكنز بعضنا لبعض، في عيد ميلادي الأخير قام والدك بوضع أدلة قادت إلى أحد المطاعم بالقرب من سيراكيوز، والآن حان دورك».

نزل ديمينغ إلى الطابق السفلي ورفع الغطاء من على جهاز تشغيل الأسطوانات، وكان فوق القرص الدوار بطاقة أخرى مكتوب عليها «ما الكلمة التي تأتي بعد «مفاجأة» هجائيّاً؟» أخذ القاموس من على رف الكتب، وقلَّب في صفحاته إلى أن وقعت البطاقة التالية.

وبعد أن قادته البطاقات إلى خزانة المفارش، وخزانة الأواني الصينية، وغسالة الصحون، تتبَّع دليلاً يقول ضع جواربك في السلة الكبيرة، وفتحها فوجد صندوقاً ملفوفاً بورقة فضية، ويعلوه عقدة بلاستيكية. كان الصندوق كبيراً، ولكن ليس بالحجم الكافي للجيتار.

أحضره إلى غرفة نومه «افتحه»، صاح بيتر.

كان حاسوباً محمولاً جديداً لونه أبيض براق «إنه ملكك»، قبَّلته كاي على خده «كل عام أنت بخير يا دانيال».

ثقب ديمينغ الغلاف البلاستيكي بظفره. التصق البلاستيك بالكرتون ثم ارتفع ببطء، فتح الصندوق ورفع غطاء الكمبيوتر، ثم أوصله بالكهرباء، كان يتمنى أن يكون مايكل موجوداً هناك حتى يتمكَّنا من مشاهدة مقاطع الفيديو معاً، وكان ينتظر لإظهار كل شيء لمايكل: الكمبيوتر المحمول، والأسطوانات، والأشرطة، ومشغِّل الأسطوانات المدمجة، والبلدة المليئة بالأشخاص البيض. أين كان مايكل، ولماذا لم يكن هنا؟ لكنه دعا رولاند إلى العشاء في عيد ميلاده مع بيتر وكاي في مطعم «كازا مارجريتا» بالمجمع التجاري على الطريق السريع، وتناولوا «الفاهيتا»، وشربوا عصير الكوكتيل «فيرجين مارجريتا» والمظلات الورقية مطوية في الثلج الذائب، وقام النُّدُل بأداء أغنية عيد الميلاد، ونفخ ديمينغ الشمع الموجود على كعكة الآيس كريم. عندما رأى رولاند الكمبيوتر المحمول، همس بتبجيل جعل ديمينغ يشعر بالفخر: «والداك رائعان».

لم يكن ديمينغ بائساً في ريدجبورو ما دام لا يفكر في أمه، ومع ذلك كان دائم الشعور بالانزعاج والخوف والتذكير بأنه يجب أن يظل منتبهاً. كان الشعور بالخوف يتراجع في بعض الأحيان، حتى إنه كان ينسى وجوده، وفي أحيان أخرى كان يشعر بالخوف الشديد، لدرجة أنه بالكاد يستطيع منع نفسه من الصراخ. كان هؤلاء الناس غرباء، ولم يستطِع الوثوق بهم، مثل اليوم الذي ظهرت فيه خادمة صينية على التلفاز، وكانت امرأة ترتدي فستاناً ضيقاً، وتضع مكياجاً رمادياً على عينيها، وتتكلَّم اللغة الصينية الشمالية بطريقة سيئة، فتوقَّفت كاي عن الكلام، وكان الصمت في الغرفة صاخباً جدّاً، حتى إنه شكَّل ستارة حمراء داكنة، واحمرَّت كاي خجلاً وغيَّرت القناة بسرعة وأخذت تثرثر عن الشتاء والتزلُّج، في حين عرض التلفاز إعلاناً تجاريّاً به امرأة شقراء تضع صحن أصابع السمك في فرن الميكروويف. لو كان ليون أو أمه أو فيفيان هناك لضحكوا معاً على الخادمة الصينية، ومزحوا حول المقاطعة التي أتت

منها، وكيف يمكنهم أن يجدوا وظيفة مثلها، أو عندما طلبت منه كاي أن يحضر جالوناً من اللبن من متجر فود ليون بينما كانت تنتظره في سيارتها، وأقسم لها ديمينغ أنه سمع أحد الأشخاص يصدر ضجيجاً مثل أفلام الكونغ فو: هاي- يا! وعندما أخبر كاي عن الصوت قالت: «ربما سمعت بالخطأ؟ ربما كانوا يغنون إحدى الأغاني، أو يخبرون صديقاً عن فيلم ما؟»، أو عندما كانوا في منزل رولاند يأكلون طعاماً صينياً سيئاً، دجاجاً مقزِّزاً في مرق أحمر، وأخرج رولاند قطع اللحم وتساءل: ما هذا؟ فمزحت أمه قائلة إنها قطة، أو كلب، وهل ما رأوه هناك كان الذيل؟ فشعر ديمينغ بالبرودة الشديدة والتورُّط. احذر، فهم ليسوا في صفك، من المهم أن تكون قويّاً.

«هل يمكنني الحصول على جيتار في العام القادم؟»، كانوا في طريقهم إلى المنزل بعد العشاء في مطعم كازا مارجريتا وبعد أن أوصلوا رولاند. إذا حصل على الجيتار سيتمكَّن مع رولاند أن يكون لديهما فرقة موسيقية حقيقية.

قال بيتر: «لا تدعنا نتحمَّس باندفاع»، فإنه من الجيد الاستماع للموسيقى كهواية، ولكنك يجب أن تركِّز في مدرستك».

«ماذا لو تحسَّنت درجاتي؟».

«يجب أن تشعر بالمسؤولية أكثر من ذلك يا دانيال، ولا تطلب مزيداً عندما لا تستطيع أن تكون ممتنّاً حتى لما تمتلكه بالفعل».

«ولكنني ممتن».

فالتفتت كاي «استمتع بالكمبيوتر المحمول الذي لديك أولاً، وعِش اللحظة».

كانا يتحدثان على السرير مرة أخرى. قال بيتر: «التقديرات التي يحصل عليها ضعيف وضعيف جدّاً، يجب أن نبحث عن مدرس خصوصي، طالب من كلية كارلوج».

قالت كاي: «هذه فكرة جيدة».

«عليه أن يكون أكثر جدية، يا إلهي، أحياناً أنظر إليه وأفكر، ما الذي نفعله

مع هذا الولد الصيني البالغ من العمر اثني عشر عاماً؟ وفي ريدجبورو؟ على الأقل جيم وإيلين في مدينة نيويورك. كيف أمكننا أن نفكِّر في جلب طفل من الصين إلى هنا؟ أخبرني دانيال قبل أيام أنه سمع شيئاً، لا أدري، عنصريّاً في متجر فود ليون. كنت مرعوبة، وعندما نخرج معاً الآن أشعر بالريبة. هل ينظر الناس إلينا لأن شعري أشقر وشعره أسود؟ أم أن هناك شيئاً أبشع؟ يقودني ذلك إلى جنون الشك والريبة».

«نحن نتعلَّم، نحن نتعلَّم».

«أقصد، هل يجب علينا طهي الطعام الصيني، أم نبدأ في فصول اللغة الصينية الشمالية مرة أخرى؟ فكما تعلم، لا أريد أن أصبح تلك المرأة البيضاء».

«أنتِ لا تفعلين أي شيء خطأ، وليس من السهل الاعتناء بطفل بديل. كان ذلك تغييراً كبيراً في حياتنا، وتعديلاً هائلاً».

«حدِّث ولا حرج، في بعض الأحيان أريد القيام بأحد تلك الأيام الماراثونية في الكتابة مثلما اعتدتها، ولكن يوجد هذا الولد الذي يحتاج إلينا، ويجب أن أجهِّز له وجبات الطعام وأشتري له الملابس، وأتأكَّد من إمداده بالحب والرعاية، وأن أتحلَّى بالصبر حتى لا أفسد عليه حياته أكثر مما هي عليه بالفعل. أخشى أن أكون كبيرة جدّاً لأتعلَّم كيف أكون من هذا النوع من الأمهات التي تعطي كل شيء. حتى لو كنت أماً بديلة، وأنا هنا أعني الأمومة كفعل، إذا كنت لا تعي ذلك».

فقال بيتر: «حسناً، إذا كنتِ كبيرة جدّاً فأنا أيضاً كبير جدّاً، أتعرفين.. في أحد الاجتماعات منذ أيام قال لي ويل بانوف إن دانيال محظوظ أنه معنا، وأننا تحلَّينا بالشجاعة عندما أخذنا صبيّاً كبيراً، فقلت له: بل إننا المحظوظون أنه يمكث معنا».

تنهدت كاي «أعلم أنك تحاول أن تكون لطيفاً، ولكن الأمر مختلف بالنسبة إلى الرجال. كل هذه الكتب والمقالات التي قرأتها عن جميع التطلُّعات الأمريكية غير الواقعية بخصوص الأمومة، وبالجانب الأشبه بالضحية، ولكن

الواقع أسوأ بكثير مما توقعت. يمكنك أن تعمل كل ما تريد، ولكن لا تشعر بالسوء أبداً حيال ذلك، فأنت لم تُربَّ بهذا الأسلوب».

«لا؟ أعتقد أنني أعرف القليل عن التطلُّعات العائلية».

ثم ساد الصمت لفترة طويلة.

وأخيراً قال بيتر: «قد يبدو ما سأقوله قاسياً، ولكن بصراحة مهما كان الذي سنفعله سيكون أفضل مما مرَّ به من قبل. تتذكَّرين ماذا قالت الوكالة، وكيف رجعت أمه وزوج أمه إلى الصين، فنحن أول بيت مستقر يعيش فيه».

«أعرف ذلك، ولكنني أشعر كأنني أحبس أنفاسي، فما زال من الممكن أن تعود خالته، سوف أشعر بتحسُّن كبير عندما ينتهي كل هذا، بطريقة أو بأخرى».

«سوف نعرف أكثر الشهر القادم في جلسة الاستماع».

«أريد أن أعامله كابني الحقيقي، وليس كمجرد طفل بديل، ولكن يوجد احتمال أن الأمر لن ينجح».

«تذكَّري أن جيمي قالت إنه من غير المحتمل أن يكون هناك استئناف بما أنه لم تكن هناك أي اتصالات من عائلته، وبعد ستة أشهر يمكننا البدء في الإجراءات».

عادت إلى الصين؟ إجراءات؟ من هم جيم وإيلين؟ إذا كانت أمه قد ذهبت إلى أي مكان، من المفترض أن يكون فلوريدا وليس الصين. حبس ديمينغ أنفاسه في غرفته المظلمة، وتساءل إذا كانا سيقولان مزيداً عنها، أو إذا كانا يعرفان أشياء عنها لا يعرفها هو، فقد كانا يخفيان الأشياء عنه. كان محقّاً لعدم ثقته بهما.

قالت كاي: «هل قرأت المقال في الجريدة اليوم؟ وجدوا طفلاً بمفرده في إحدى محطات الحافلات في مدينة بوفالو؟ أنا متأكِّدة أن أمه كان لديها أسبابها لفعل ذلك، أيّاً كانت هذه الأسباب، صحة عقلية أو مصاعب مالية».

قال بيتر: «كل ما يهم أننا نعتني بدانيال في الوقت الراهن، وليس إذا ما كنا آسيويين أو صينيين أو أياً ما كان؟».

«لكن هل تعتقد أننا لم نستعد بالقدر الكافي؟ حتى لو كنا نخطِّط منذ سنوات؟».

«كان من الممكن أن نكون قد قرأنا جميع الكتب الموجودة ولا يزال ذلك غير كافٍ لإعدادنا».

قالت كاي: «إنني أفكر في أمه باستمرار، على الرغم من أنني لا ينبغي أن أفعل ذلك على الأرجح. كيف كانت تبدو؟ ماذا كان اسمها؟ ولا يبدو أنه يمكنني أن أسأل دانيال، فهو لا يقول أي شيء عنها. يرجع ذلك بالتأكيد إلى الثقافة، ولكن يبدو أيضاً أنه خائف منا».

«لن يكون كذلك على الدوام».

«أتمنَّى ذلك، سوف نحبه حبّاً جمّاً، وسنجعل كل شيء أفضل».

«أن نقتله بلطفنا ومثل هذه الأشياء؟».

قالت كاي: «ولكن ليس القتل الفعلي، فأنا مسالمة».

انتظرهما ديمينغ ليقولا مزيداً، ولكنهما توقَّفا عن الكلام.

كانت كاي مخطئة، فهو لم يكن خائفاً منها. كان خائفاً أن يكتشف ما الذي حدث لأمه بالفعل.

سأله رولاند بشكل صريح، وقال الكلمات التي لم يقلها أحد غيره: «هل من الغريب أن تكون طفلاً بديلاً؟ هل سيتبنَّاك آل ويلكنسون؟»، كانا يسيران من المدرسة إلى المنزل عبر طريق هيل سايد ومكتبة ريدجبورو والكنيسة الميثودية، وكانت الأرصفة وعرة بجذور الأشجار.

«التبنِّي»، كان هناك مصطلح مشابه في اللغة الصينية، إلا أن ديمينغ لم يعتقد أن الوقت الذي يقضيه مع بيتر وكاي يمكن أن يكون أي شيء إلا فترة

مؤقتة مبهمة، مثل إقامته مع يي غونغ التي كانت فترة مؤقتة مبهمة، حتى اسم دانيال ويلكنسون كان يبدو مثل الزي الذي سيرتديه لفترة زمنية غير محدَّدة إلى أن يعود إلى اسمه الحقيقي وموطنه الحقيقي في كوكبه الأم. أين كان هذا الموطن الحقيقي؟ لم يعد متأكداً.

قال: «هذا أمر غريب، هل تفتقد أمك الحقيقية؟».

«نعم».

«أنا أفتقد أبي نوعاً ما، حتى لو كنت لا أتذكَّره».

توقَّفا عند الناصية «هل ستأتي معي؟».

«لقد تذكَّرت الآن أنني يجب أن أساعد أمي في أمر ما».

وركض ديمينغ لمسافة ثلاثة مبانٍ في شارع أوك. كان يعرف أن لديه ساعة ونصف الساعة قبل عودة بيتر وكاي إلى المنزل. أحضر الكمبيوتر المحمول الخاص به وفتح قاموساً على الإنترنت.

طفل بديل: هو طفل تتم رعايته بشكل مؤقَّت أو تتم تربيته من قبل أشخاص غير أبويه أو أبوين بالتبنِّي.

التبنِّي: عملية بموجبها يتولَّى شخص ما الرعاية الأبوية عن شخص آخر، وبذلك تنتقل بشكل دائم جميع الحقوق والمسؤوليات من الأب أو الأبوين الأصليين، ويهدف التبنِّي إلى إحداث تغيير دائم في الحالة، من خلال رادع قانوني.

استغرق الأمر دقيقة لتحليل وتفسير اللغة، ولكنه عندما فعل ذلك بدا الكمبيوتر وكأنه يتمدَّد.

وكان يفكِّر في مسألة «مؤقت، أو دائم».

فتح درج خزانة الملفات بجوار المكتب، وهو درج بذراع معدنية طويلة مكدَّس بالحافظات الخاصة بالضرائب، ووثائق متعلِّقة بالملكية، وبحث خاص

بكتاب بيتر حول شيء يسمَّى التجارة الحرة. كانت توجد حافظة ضخمة محشورة بين أعمال كاي ووثائق التأمين على الحياة مكتوباً عليها التبنِّي/ الرعاية، سحب ديمينغ الحافظة حتى انفلتت وتدفَّقت محتوياتها على الأرض.

لا بد أن هذه مزحة، جلس على الأرض والتقط كتيباً ملوَّناً عليه عنوان جمعية «هدية الحياة، طفلك في انتظارك». موضوعاً عليه صور غير واضحة لأطفال بعيون كبيرة وواسعة، وكذلك صور لأشخاص بالغين يحملون أطفالاً ذوي بشرة داكنة، ومكتوب على عناوين الصور أن الأطفال أتوا من إثيوبيا ورومانيا والصين، كما تحدَّث الكتيب عن التبنِّي الدولي، وكيف أعطى المنزل للطفل غير المرغوب فيه، ومنح الآباء بالتبنِّي طفلاً خاصاً بهم.

ألقى باقي الحافظة، واستمع إلى أصوات في الطابق السفلي، أو خطوات أو إغلاق الباب الأمامي، وقام بتصفُّح نسخة مطبوعة من رسالة بريد إلكتروني مؤرَّخ بأكثر من أربع سنوات مضت.

عزيزتي شارون،

قد حضرت ندوة جمعية هدية الحياة المعلوماتية يوم السبت الماضي مع زوجي بيتر، وبعد سنوات من مشكلات الخصوبة، أصبحنا مهتمين جداً أن نصبح أبوين قريباً، فقد تزوَّجنا منذ أكثر من عشرين عاماً ونحن أكثر استعداداً لاستكمال عائلتنا، ومنزلنا الحبيب في ريدجبورو جاهز لاستقبال طفل.

ولدينا أصدقاء مقرَّبون قاموا بتبنِّي طفل صيني، لذلك نحن على دراية بالعملية ومهتمون بالتبنِّي من الصين أيضاً.

أعلم أن هناك دولاً مانحة لا تسمح بالآباء والأمهات «الأكبر سناً» لأول مرة (أنا وبيتر بلغنا السادسة والأربعين من عمرنا)، فنحن لا نمانع أن نتبنَّى طفلاً صينياً أكبر سنّاً، حيث نعرف أنهم أيضاً (مثلنا والدين «كبار السن») «يصعب إيداعهم». قد سافرنا أنا وبيتر كثيراً وكلانا يعمل بالتدريس على المستوى الجامعي، لذا فإن لدينا الخبرة في التعامل مع الشباب، ونحن نعتقد أن التبنِّي الدولي سيكون مناسباً لنا.

أتطلَّع لسماع الرد.

المخلصة،

كاثرين ويلكنسون

كما رأى سجلات طبية وتصريحات جنائية وتحريات الهوية ووثائق توضِّح أن منزل آل ويلكنسون آمن لتربية الأطفال، وكذلك بريداً إلكترونياً من مدير جمعية هدية الحياة يقول إن بعد إرسال الدول للقيود الجديدة على التبنِّي الدولي، قد يرغب كاي وبيتر في التفكير في التبنِّي المحلِّي أو الرعاية ثم التبنِّي، وتصفَّح تقارير من إخصائيين اجتماعيين توضِّح أن آل ويلكنسون كانا محترفين مستقرين، وأنهما جاهزان مادياً وعاطفياً لأن يصبحا والدين محبين، وكذلك أوراقاً توضِّح أنهما أتمَّا فصول التدريب الإلزامي وتم اعتمادهما من قبل المحكمة للرعاية والتبنِّي، وعندما رأى حزمة أوراق وعليها عنوان تقرير الاستماع الأوَّلي للاستدامة؛ بخصوص موضوع ديمينغ غوو، توقف. كان التقرير مؤرخاً منذ شهرين، وأعاد قراءة بعض الجمل مرتين، ولكن في النهاية استطاع أن يفهم، حتى لو تمنَّى ألا يفهم.

الأم الحقيقية والأب المفترض هجرا الطفل منذ ستة أشهر وعادا إلى الصين. قامت مقدمة الرعاية فيفيان تشنج بالتوقيع على نموذج التنازل.

بعد الرعاية المؤقَّتة في بروكلين، تم وضع الطفل قيد الرعاية البديلة مع آل ويلكنسون بناءً على إشارة كاي ويلكنسون بمهارتها في التحدُّث باللغة الصينية الشمالية.

ويخطِّط الوالدان البديلان لتقديم التماس إنهاء الحقوق الأبوية للأم على أساس التخلِّي.

ولا يوجد خطة لإعادة الشمل مع العائلة الحقيقية.

الهدف المتوقع من تخطيط الاستدامة: الإلحاق للتبنِّي.

كان هناك كثيرٌ من رسائل البريد الإلكتروني والوثائق ورزم من الأوراق

القانونية والنماذج المكدَّسة، لكن ديمينغ لم يتمكَّن من تحمُّل قراءتها، كما أن بيتر وكاي سيأتيان إلى المنزل في أي لحظة. قام بتكديس الأوراق مرة أخرى في الحافظة، ثم حشر الحافظة في خزانة الملفات وأغلق الدرج.

إنهاء. استدامة. تخلَّت عنه أمه، وعادت إلى الصين. أراد أن يتقيأ؛ قام بإغلاق نافذة المتصفح، وبدا الكمبيوتر المحمول بشعاً وكبيراً للغاية وجديداً.

وسألهما عند وجبة العشاء إذا كان طفلاً بالتبنِّي.

قالت كاي: «حسناً، في الوقت الحالي نحن والداك البدلاء، وهذا يعني أنك تعيش معنا مثل أي طفل يعيش مع عائلته، لأنك تحتاج إلى مكان آمن لتمكث فيه، ونحن نريدك أن تعيش معنا لأطول مدة تريدها. نحن نريد أن نتبناك، هل تحب ذلك؟».

هزَّ ديمينغ كتفيه.

قال بيتر: «لن يحدث ذلك الآن. قد يستغرق هذا وقتاً طويلاً». سأل ديمينغ: «ولكن ماذا حدث لعائلتي الحقيقية؟».

فقال بيتر: «نحن عائلتك الحقيقية».

قالت كاي بتجهُّم: «أرادت أمك أن تعتني بك، ولكنها لم تستطع». أصبحت المنضدة ضبابية ومذاق الطعام أصبح جافاً.

«إذاً فهي تركتني».

كان ينتظر أن يقولا له شيئاً عن أمه بعد أن سمعهما يتحدثان في غرفتهما في تلك الليلة، ولكنهما ظلا يتصرفان كما لو أن كل شيء كان على ما يرام.

«لقد أحبتك»، وأعادت كاي طي منديلها.

«ونحن أيضاً نحبك». تبادل بيتر نظرة قلق مع كاي.

قال ديمينغ: «لقد رأيت ذلك».

سأله بيتر: «ماذا رأيت؟».

«لا يهم».

فقد هجرته أمه إلى الأبد، وكذبت عليه فيفيان بشأن عودتها إليه قريباً. التهب جلده وكانت أضواء المطبخ ساطعة للغاية وألواح الأرضية واسعة جدّاً وخشبية. كان المزيج في حروف (د. ج، و) يعد أغنية واحدة في حلقة، وخليطاً بين التخلّي لفترة والهجر الدائم. شعر بالدوار، وسُحِب إلى رائحة النشادر في ممرات المدرسة العامة (33)، والأرضيات الرمادية الزرق وخزانات الملابس المعدنية المنبعجة.

قالت كاي: «تبدو متعباً يا دانيال، هل أنت بخير؟ هل تريد أن ترتاح بالطابق العلوي؟».

وضع ديمينغ يده على المنضدة ليحافظ على اتزانه، وضغطت كاي بأصابعها على جبهته «بيتر، إنه دافئ حقاً لا بد أنها الإنفلونزا أو شيء كهذا، فهي منتشرة في أرجاء كارلوج ونصف الطلبة عندي يعانون المرض».

أخذ بيتر قضمة أخرى من دجاجته «دانيال، اصعد إلى أعلى واسترِح».

قالت كاي: «يمكنه بالكاد أن يقف، قمْ واحمله».

ترك بيتر شوكته وسكينه، وقف ورفع ديمينغ، وحمله إلى الطابق العلوي، وكان يصدر صوتاً مرتفعاً من أثر المجهود. لفَّ ديمينغ ذراعيه حول رقبة بيتر، وساقيه حول وسط بيتر. كانت خطوات بيتر بطيئة وغير واثقة، وكل خطوة تعدُّ نضالاً صامتاً.

في الحادية عشرة صباحاً كانوا في الطريق منذ ما يقرب من خمس ساعات. ضرب بيتر بيديه على عجلة القيادة عندما توقَّفت السيارة فجأة على طريق فرانكلين روزفلت، وسار ببطء خلف شاحنة رقائق البطاطس وسيارة أجرة صفراء، وكان ديمينغ في المقعد الخلفي يعد المخارج. لم تكن أي من الطرق السريعة التي سلكوها من ريدجبورو مألوفة، وكان يقرأ اللوحات الإعلانية للأثاث، وخصوصاً الخاصة بمتجر كان يحبه هو ورولاند يدعى «سوفا كينغ».

كان آل ويلكنسون في أول رحلة عائلية على الطريق إلى مدينة نيويورك، وذلك لزيارة عائلة هينينغس التي كان لديها ابنة في سن ديمينغ. قالت كاي إنها ستكون صديقته، وأخبرته: «ستكون هذه رحلة جيدة لأبيك، فهو بحاجة إلى الابتهاج». لقد طلبوا من فاليري ماكليلان أن تتولَّى رئاسة قسم العلوم الاقتصادية في كلية كارلوج في الخريف بعد تقاعد ويل بانوف، وفي اليوم الذي اكتشف فيه بيتر الأمر، رآه ديمينغ وهو يدفع صندوق القمامة البلاستيكي على حافة الرصيف ووجهه محمر، صائحاً: «اللعنة عليها»، عندما اشتبكت عجلة الصندوق بفرع شجرة في الممر.

حاول ديمينغ أن يتذكَّر أول رحلة إلى شمال الولاية مع كاي وبيتر منذ أحد عشر شهراً، عندما كانا لا يزالان غريبين، في البداية نظر من النافذة محاولاً أن يحفظ الطرق حتى يتمكَّن من معرفة طريق العودة، ثم نام بعد ذلك، والآن لم يعودا غريبين، فهما كاي وبيتر، أمي وأبي، وكان هذا آخر يوم سوف يراهما فيه، فقد اعتاد أن يتحدث الكبار معه بصوت مرتفع وببطء، وكأنه كان أصمَّ، وكونه الشخص الوحيد أصبح ذلك أقل رعباً؛ فالرعب أصبح شيئاً طبيعيّاً. لم يعد يتخيَّل أن أمه ستعود إليه، ولكن كلما اقتربوا أكثر إلى المدينة كان يحدِّق في المباني العالية التي تلوح في الأفق، شاعراً بغصَّة في حلقه. الطرق المرصوفة الملساء، وأبواق السيارات الشرسة، ومواسير حنفيات إطفاء الحريق، وبرك المياه الغامضة ذات الروائح الكريهة، وبخار الماء الرطب الذي يندفع من شبكات الأرصفة كأن الأرض تلهث، وأصوات الضربات المطاطية الشديدة على خرسانة ملاعب كرة اليد، والانغماس العارض عندما تسير على باب معدني فوق بدروم أحد المطاعم.

كانوا في شهر يوليو، وكان بيتر وكاي قد تقدَّما بطلب التماس للتبنِّي، وعندما يوافق عليه القاضي، سيذهبون جميعاً إلى المحكمة لتوقيع الأوراق، في الشهر الماضي اشتريا لديمينغ دراجة نارية صفراء للطرق الترابية وخوذة مماثلة، وكان يتجوَّل بها مع رولاند في أرجاء البلدة ليكتشفا الشوارع الصغيرة الموجودة في ضواحي ريدجبورو، والتي كانت لا تزال حصباء وغير مرصوفة،

ولها أسماء مثل «باجور لين»، و«ميكر رود»، وهي شوارع لن يراها مرة أخرى أبداً، وأتقن ديمينغ بعض الحركات البهلوانية على دراجته مثل السير على العجلة الخلفية، وقام هو ورولاند بابتكار خشبة مسرح من جذع شجرة وتناوبا القفز من عليها على حشد من المشجعين غير المرئيين. ابتعد عن النافذة ولكن عندما مروا عبر لافتات طريق «كروس برونكس إكسبرس» عاد مرة أخرى. بعد أن أخبرته كاي أنهم سيزورون آل هينينغس، اتصل بهاتف أمه المتحرك لأول مرة منذ أكثر من شهر ولكنه سمع نفس الرسالة: لا يمكن إجراء المكالمة.

على الرغم من ذلك قام بتجهيز ملابس إضافية.

انطلقت شاحنة رقائق البطاطس، فقال بيتر: «أخيراً»، شاهد ديمينغ المباني البنية وهي تتلاشى خلفهم، وتنفَّس قرب الزجاج فارتسمت دائرة صغيرة من البخار فقام بمسحها بإصبعه.

عادت الأصوات والألوان أمام مبنى سكني رمادي في شارع إيست توينتي فرست. صياح انخفاض حافلة عند توقُّفها، والموسيقى التصويرية للسيارات المارة، وموسيقى الهاوس، وأغنية قديمة على نغمات الكيبورد الراقصة وكلماتها «أبعد ظهرك عن الجدار»، وأغنية باللغة الإسبانية بأصوات الأبواق البهيجة وأغلظ نغمات آلات النفخ «باص توبا»، حيث تملأ السماء بقع فاتحة وساطعة بسرعة. كان الجو هنا أكثر سخونة من ريدجبورو، ودخل ديمينغ في دائرة بطيئة تدور في اتجاه الساعة، عصفت بها النغمات الرنانة لشاحنة آيس كريم قريبة، وكانت نغمات متردِّدة وحزينة ذكرته بحلوى «راينبو شيربت بوش أبس» التي كان يتناولها مع مايكل، والسائل الحلو الذي كان يجعل ألسنتهم زرقاً، وتمكَّن من سماع ضحكات مايكل المرتعشة وحديث أمه وفيفيان المفاجئ بلغة الفوزهو الصينية.

اصطدمت به امرأة تتحدَّث في هاتفها المتحرك وهي تسير، ففرك ديمينغ ذراعه، وقال رجل مار: «بعد إذنك»، وهو مندفع في سيره، فارتدَّت كاي إلى الخلف.

خرج رجل أبيض بصوت مدوٍّ وشعر خفيف من باب المبنى الأمامي، تبادل هو وبيتر الصفع على الظهر كما لو أنهما كانا يحاولان طرد الطعام العالق في الحلق. لم يرَ ديمينغ بيتر مع أحد أصدقائه من قبل، فأعجبه المشهد.

«لا بد أن هذا دانيال». قبَّل الرجل كاي على وجنتها ومد يده لديمينغ «أنا جيم هينينغس».

قال بيتر: «أنا والسيد هينينغس كنا في المدرسة معاً، وكنا رفيقين في السكن عندما كنا طلبة جدداً».

قال جيم وهو يغمز: «أنا وأبوك كنا حريصين على الاستذكار طوال الوقت».

فتح حارس العقار الأبواب الزجاجية للردهة، وتبع ديمينغ كاي إلى داخل المصعد، في حين ذهب جيم مع بيتر ليركنا السيارة.

قال حارس العقار: «الطابق العشرون».

ضغط ديمينغ على الزر، انطلق المصعد إلى أعلى ووصل أخيراً إلى غرفة كبيرة مشمسة تفوح منها رائحة إعداد القهوة، وزجاجات شراب مكدَّسة على طاولة، وشريط زخرفي معلَّق بين جدارين وعليه حروف براقة لعبارة «يوم مكسب سعيد».

قام بتفحص الغرفة، فكان المصعد هو الباب الوحيد الذي رآه، ولكنه كان يرن عندما يفتح، فكان عليه الانتظار حتى ينام الجميع، وثبت فتاة من نفس عمر ديمينغ إلى الغرفة، وكان شعرها يتخطَّى إبطيها، وعيناها تختلسان النظر من خلف أطراف شعرها المتدلِّي على جبهتها «ستخرج أمي في غضون لحظة».

«آنجل، لقد كبرت كثيراً»، انحنت كاي وعانقتها.

قالت الفتاة لديمينغ: «أنا آنجل هينينغس»، كانت أول شخص صيني يراه منذ عام تقريباً.

قالت كاي: «أخبر آنجل اسمك». قال ديمينغ: «دانيال».

سارت امرأة إلى الغرفة وكانت ترتدي قميصاً بأكمام قصيرة وبنطالاً من الجينز «كاي» كان شعرها داكناً مموَّجاً وبه بعض خصلات بيضٍ، وصوتها رخيم ومخملي، ذكَّرت ديمينغ ببقرة كارتونية في أحد إعلانات الحليب.

عانقتها كاي قائلة: «أنا سعيدة برؤيتك يا إيلين، هذا دانيال». طوَّقت إيلين ديمينغ وهي تعانقه، وكانت رائحة شعرها مثل شامبو التفاح.

«يمكنك أن تناديني إيلين يا دانيال، ما صفَّك الدراسي؟ السادس مثل آنجل، أليس كذلك؟».

قال ديمينغ: «في الصف السابع».

«الصف السابع؟».

قالت كاي: «سينتقل إلى الصف السابع في الخريف، مدرسة ريدجبورو الإعدادية».

تركت إيلين معانقته وقامت بتفحُّصه من على بعد ذراع «في المدرسة الإعدادية بالفعل؟».

كان فم ديمينغ جافاً، كان من المفترض أن يكون مع رولاند في نفس الفصل الدراسي في شهر سبتمبر، ولكنه لم يكن متيقناً أين المدرسة التي سيذهب إليها الآن.

رنَّ جرس المصعد، وسمع ديمينغ جيم يقول: «تبدو لغته الإنجليزية مقبولة للغاية».

فقال بيتر: «مثل أي فتى صغير من نيويورك».

«بيتر!»، ولفَّت إيلين ذراعيها حوله.

«من يريد القهوة؟ فرأسي سينفجر منذ ليلة أمس. أمك تحتاج إلى جرعتها من الكافيين الآن». سارت إيلين إلى المطبخ وهي لا تزال تتحدث «كانت آنجل متحمسة جداً لحفلتها بيوم المكسب، وكذلك نحن بالطبع، مع كل هذا الشراب، من المؤسف أنكم لم تستطيعوا الحضور».

قالت كاي: «أعلم ذلك، أعلم ذلك، كنا نتمنَّى الحضور بالفعل، ولكن ليلة أمس كانت الرحلة ستصبح شاقة مع الازدحام المروري في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن يمكننا أن نحتفل بيوم المكسب لدانيال، ويمكنكم أن تأتوا».

قالت إيلين: «أوه، ينبغي لكم ذلك، بالتأكيد ينبغي لكم». قالت كاي وهي تتحدث مثل إيلين: «أوه سوف نفعل».

ألقى ديمينغ نظرة سريعة على آنجل، ولكنها كانت تقفز من قدم إلى أخرى وتنظر إلى لافتة يوم المكسب، وسأل: «أين سأنام الليلة؟»، كانت هناك أريكة يسهل من خلالها الوصول إلى المصعد.

قالت إيلين: «أوه، سنكتشف ذلك لاحقاً، هل أنت متعب؟ هل تحتاج إلى قيلولة؟»، فهزّ رأسه بالإيجاب.

«إيلين».

شدَّت آنجل أمها من قميصها «هل يمكنني أن أُري دانيال غرفتي؟».

كانت غرفتها أصغر بكثير من غرفته، ولون الحوائط وردياً فاتحاً، وفرش السرير وردياً، واللوح الأمامي للسرير على شكل قلب، وكانت الملابس ملقاة على الملاءات غير المرتبة، والألعاب مبعثرة على الأرض، ودمى الحيوانات المحشوَّة مكدَّسة بارتفاع أربعة صفوف. قام ديمينغ بإزاحة القمصان والجوارب جانباً كي يصل إلى منتصف الغرفة.

كانت آنجل تحمل جهاز آي بود وردياً صغيراً بسماعات رأس بيض «هل تريد الاستماع؟».

جلسا على الأرض وأخذ كل منهما سماعة أذن. اندلعت الموسيقى بصوت متضخِّم في أذن ديمينغ اليمنى، بدقَّات الطبول الإلكترونية الرديئة، وامرأة تغنِّي بصوت مصطنع ذي جلبة.

هزَّت آنجل ذقنها «متى يحل عيد ميلادك؟».

«في الثامن من نوفمبر».

«ليس لديَّ عيد ميلاد حقيقي لأنني متبنَّاة، ولكنَّنا قرَّرنا أن يوم ميلادي يمكن أن يكون في الخامس عشر من مارس. متى يحلُّ يوم المكسب الخاص بك؟».

«ما يوم المكسب؟».

«ألا تعرف؟ جميع الأطفال الذين تم تبنِّيهم لديهم يوم، إنه يوم مثل عيد ميلادك، ولكنه ليس عيد ميلاد. إنه اليوم الذي انتقلت فيه إلى عائلتك الأبدية».

وبدا يوم المكسب أقل متعة من يوم عيد الميلاد، فإنه يوحي كأنما تم اصطياده «لم تتم إجراءات التبنِّي الخاصة بي بعد، فأنا طفل بديل».

«وماذا يعني ذلك؟».

«إنه مثل التبنِّي ولكن بشكل مؤقَّت». نظر ديمينغ إلى آنجل، كانت بشرتها بنية فاتحة، وأنفها واسعاً وأفطس، وكان أحد أنيابها مفقوداً. أخرج مشغل الأسطوانات المدمجة من حقيبة الظهر «هل تحبين هندركس؟».

«من؟».

«جيمي هندركس، إحدى أغانيه تحمل نفس اسمك». قام ديمينغ بفصل سماعات الأذن من الآي بود ووصَّلها بمشغل الأسطوانات المدمجة الخاص به، ثم وصل إلى أغنية «آنجل» وضغط على زر التشغيل. تدفَّقت أصوات الجيتار والصنوج داخل آذانهما، وكان غناؤه مصاحباً للأغنية. سأكون بجانبك غداً، ثم خشي أن تظن آنجل أنه يغني لها، وأنه معجب بها، فتوقَّف عن الغناء «هل أعجبتكِ؟».

«أجل إنها على ما يرام».

«إنه أعظم عازف جيتار في تاريخ الكون».

قامت بفتح صندوق مظهرةً قطعة بلاستيكية صفراء مقوسة «هل تريد أن

ترى مثبت التقويم الخاص بي؟ يجب أن أضعه أثناء النوم، من المفترض أن يحافظ على أسناني في مكانها الصحيح. إنه يؤلم نوعاً ما، لديَّ كثير من الأسنان، لكنني اضطررت إلى أن أخلع إحداها». كان يخشى أن تضع المقوِّم البلاستيكي في فمها، والأكثر رعباً أن تطلب منه أن يجربه، ولكنها أغلقت الصندوق وألقته على الأرض، فسقط على دمية ببغاء محشوة.

أراد ديمينغ أن يخبر رولاند بخروجه مع إحدى الفتيات، وأن يجعل الأمر يبدو أفضل مما هو عليه. كان لديه رقم هاتف رولاند على قطعة ورق، وسيتصل به لاحقاً ويشرح له الأمر، وكان عليه أن يفعل نفس الشيء مع بيتر وكاي.

قالت آنجل: «يجب عليك أن تسأل أبويك عن يوم المكسب الخاص بك عندما يتم تبنِّيك، بهذه الطريقة سوف تحصل على الهدايا. لقد حصلت على قرص مدمج من صديقتي ليلي، وعلى قميص بأكمام قصيرة من صديقتي الأخرى ليلي. لديَّ ثلاث صديقات باسم ليلي وصديقة أخرى اسمها جايد، وجميعنا تم تبنِّينا من الصين».

نهض ديمينغ، وتمكَّن أن يرى من النافذة أسطح مبانٍ أخرى أصغر في الحجم، وامرأة تسقي الزرع، وزوجين يأخذان حمَّام شمس.

قالت كاي: «هذا هو الجزء الشمالي، حيث يوجد مبنى إمباير ستيت، هل ترى المبنى المرتفع هناك؟».

«أعرف ما مبنى إمباير ستيت، وحيِّ البرونكس، وكذلك الجزء الشمالي». لم يستطع رؤية حي البرونكس من المكان الذي يقفان فيه، ولكن تأكيد آنجل على الاتجاه الذي يواجهانه ساعده على تحديده، كان لديه خطة.

«حي البرونكس بعيد».

«اعتدت أن أعيش هناك».

«مع بيتر وكاي؟».

«لا قبل أن أقابلهما».

«ظننت أنك ولدت في الصين مثلي».

«لقد ولدت في مانهاتن، أنا من هنا».

كان حاجبا آنجل متقاربين للغاية ومتناثرين وداكنين ومتموِّجين. حاول ديمينغ استدعاء كلمات اللغة الصينية الشمالية المفقودة قائلاً: «هل ظننتِ أنكِ ستمكثين إلى الأبد عندما أتيتِ إلى هنا؟».

فرفعت وجهها وقالت: «أنا لا أعرف اللغة الصينية».

قال ديمينغ بانزعاج: «أوه».

أصرَّت كاي على أن يمسك يدها، كانت مهمَّته أن يرشدها في طرقات المدينة ليتأكَّد أنها ستكون بخير، وتعوق طريقهما امرأة عجوز ممسكة عصاً، فحاول ديمينغ أن يجعل كاي تسير بشكل أسرع، وتباطأ بيتر خلفهما، فقال: «هيا يا أبي».

سار ديمينغ متعثراً، وكانت الروائح الكريهة تنبعث من أكياس القمامة الموجودة على حواف الرصيف، وعندما كان غير منتبه داست قدمه بقعة من روث الكلاب، فحكَّ حذاءه على الرصيف. كان هناك رجل ذو شعر أشقر وقصة ذيل حصان عند الناصية، وكان يسمح لكلبه بالتبول على جميع أرجاء الرصيف.

كانوا في طريقهم إلى الحي الصيني لتناول وجبة الغداء، ويمرُّون بالأشخاص الصينيين الذين كانوا يتتبَّعونهم من وجه ديمينغ إلى يد كاي إلى وجهي كاي وبيتر، ومن وجه آنجل إلى جيم وإيلين، ولم تستطع آنجل فهم اللغة الصينية «كاي، هذا هو المكان الذي يصنعون فيه أفضل الكعكات». أشارت إلى واجهة متجر لم يتعرَّف إليها ديمينغ، لا يمكن أن يكونوا بعيدين عن شارع روتجرز.

وقال: «كان هناك مكان لتناول شاي الفقاعات».

قالت آنجل: «هذا هو المكان الذي رقصت فيه رقصة الأسد، اسم معلمي ستيف، واسم جماعتنا براعم اللوتس».

قالت إيلين: «إن هذا لشيء مهم، رقصة الأسد ورقصة المروحة وجميع الرقصات المختلفة التي لا أستطيع أن أحصيها. إن تواصل الأطفال مع حضاراتهم يعد أمراً في غاية الأهمية، وبهذه الطريقة سيعرفون كيف يظلون صينيين».

قالت كاي: «أجل، هذا في غاية الأهمية».

قالت إيلين: «لم يفُت الأوان لتسجيل دانيال في المعسكر، سوف يكون في آخر أسبوع من شهر أغسطس، وسيكون حدثاً عظيماً بالنسبة إليه، فلديهم جميع أنواع الأنشطة الثقافية للأطفال.

أرسلي إليَّ المعلومات في رسالة بريد إلكتروني، فقد كنت أنوي أن أسألك عن هذا الموضوع».

ومرُّوا بسوق أرضيته مبلَّلة وبه دلاء بلاستيكية تحتوي على سرطانات البحر، وكانت هناك بطتان مشويّتان معلقتان على إحدى النوافذ، ولونهما بني، وممزوجتان بالمرق. أخرج بيتر الكاميرا الخاصة به وتحسَّس إعدادات الضبط بارتباك، ووجَّه العدسات ثم نظر بتجهُّم إلى الشاشة «ما رأيك أن نلتقط صورة عائلية؟». قال جيم ذلك وهو يأخذ الكاميرا من بيتر.

أسرعت آنجل إلى النافذة وأبرزت مفاتنها لتتخذ وضع التصوير، فقالت إيلين: «لتفعليها يا آنجل، افعليها».

«هيا يا آل ويلكنسون!».

تجمَّعوا على الرصيف أسفل البط المشوي والنافذة المبلَّلة، وكان بالداخل رجل يرتدي مريلة بيضاء ويقطع اللحم، بينما لفَّت إيلين ذراعيها حول آنجل، ولفَّ بيتر وكاي أذرعهما حول ديمينغ.

صاح جيم: «كيف يعمل هذا الشيء؟»، فانفصل بيتر وذهب لمساعدته، ومرَّرا الكاميرا ذهاباً وإياباً «حسناً، فليبتسم الجميع، واحد، اثنان، ثلاثة...».

وقف ديمينغ أمام بيتر، وكان الناس يحدِّقون فيهم، وضغط جيم على زر

آخر «صورة أخرى، ابتسم يا دانيال في هذه الصورة، هيا.. أنت في إجازة، من المفترض أن تكون الإجازات للمتعة».

قالت إيلين: «ابتسم»، فأجبر ديمينغ نفسه على الابتسام، وغنَّت آنجل: «تشييز!»، وجذبته كاي نحوها، ثم همست: «لا بأس، ليس عليك أن تبتسم»، ولكنه ابتسم وكان سعيداً أنها في صفه.

وفي أحد المطاعم بشارع موت، أعطاهم النادل قوائم الطعام باللغة الإنجليزية، ونظر إلى ديمينغ وآنجل، وبدأ يوزِّع عيدان تناول الطعام، ثم توقَّف وسحب أدوات المائدة الفضية بدلاً من ذلك، ووضع شوكة معدنية متلألئة على مقبضها بقعة ماء أمام ديمينغ على المنضدة.

قالت إيلين: «أعطني عيدان تناول الطعام من فضلك».

وقالت كاي: «وأنا كذلك».

فقال جيم: «عيدان تناول الطعام لنا جميعاً».

وضع النادل عيدان تناول الطعام ودوَّن طلباتهم وابتعد، سمعه ديمينغ يتحدث مع نادل آخر بلغة الفوزهو الصينية عن نقل الطاولات معاً لمجموعة أكبر من الزبائن. حفَّزت الكلمات ركناً ساكناً في عقله، وقريباً سيتحدث لغة الفوزهو طوال الوقت.

خرجت الصحون بسرعة، وكانت رخوة، أعيد تسخينها؛ كعكة اللفت، والبروكلي، وزلابية الجمبري. أحدثت آنجل ثقوباً في جانب إحدى قطع الزلابية، وحتى حلقة البخار الوحيدة التي خرجت كانت باهتة.

وتمتمت كاي وهي تغرف الطعام في صحن ديمينغ: «لذيذ». كان مذاق اللحم سيئاً، ولم تكن والدته لتأكل طعاماً بهذا السوء.

قالت إيلين: «هذا المكان يعد من الأماكن التي لا يعرفها كثير من الناس، نحن نأتي هنا منذ سنوات».

استدار جيم إلى ديمينغ قائلاً: «لا بد أنك تفتقد هذا الطعام الصيني الأصيل يا دانيال».

قال بيتر: «لقد ذهبنا إلى مطعم السور العظيم ذات مرة».

تذكَّر ديمينغ وجبتي «التيمبورا» و«الباد تاي» اللتين اختارهما من على طاولة البوفيه في المطعم الموجود بالمجمع التجاري، حتى ملاك المطعم لم يبدوا صينيين.

قالت كاي: «لا يؤخذ السور العظيم في الحسبان، ودانيال يعرف ذلك».

قال بيتر: «حسناً، حسناً، عندما يتعلَّق الأمر بالطعام الصيني الأصيل، فإن ريدجبورو ليست مثل مانهاتن، فهي أشبه بالصحراء الثقافية».

قالت إيلين: «عليك إعادة صياغتها، فكِّر فيها على أنها ملاذ ثقافي».

قال جيم: «قيلولة ثقافية».

قالت كاي: «ولكننا تناولنا طعاماً صينياً رائعاً عندما سافرنا إلى فانكوفر ولندن. كان كافياً لتدليلنا مدى الحياة».

قضم بيتر كعكة اللفت قائلاً: «هذا الذي نأتي إلى نيويورك من أجله».

قالت آنجل: «ومن أجل رؤيتنا!».

«كنت على وشك قول هذا، وذلك أهم ما في الموضوع، غالباً أكثر أهمية من الزلابية».

قالت آنجل: «غالباً؟».

لوَّحت إيلين بيدها وقالت: «يا شباب، هل نحضر الحلوى؟ حساء الفاصوليا؟». توقَّف النادل عند طاولتهم، وسألهم باللغة الإنجليزية: «ماذا تريدون؟».

قبل أن تتمكَّن إيلين من الرد، أسرع ديمينغ بالتحدث بلغة الفوزهو الصينية «تقول إنها تريد أن تطلب حلوى الفاصوليا الحمراء، هل فهمت هذا؟». كان

قد نسي متعة الحروف المتحرِّكة المندفعة، وإخراج الألفاظ بطريقة مبهجة، وكان يعرف أن نغماته كانت نقية كما تعلمها في الزقاق رقم (3).

قال النادل: «أجل، نعم بالطبع».

«عظيم، فلتحضرها، هذه الأبقار الأمريكية تريد طبقين».

«لك هذا».

تركت إيلين عيدان تناول الطعام قائلة: «إنه يتحدث اللغة الصينية الشمالية بطلاقة!».

كره ديمينغ ابتسامات جيم وإيلين العريضة ومبالغتهما في الحديث، وكيف يتحدثان إليه وإلى آنجل كما لو كانا طفلين صغيرين، وكيف لم يلحظ بيتر وكاي ذلك. كان يشعر بسخرية الآخرين منه، وأنهم جميعاً كانوا يعتبرونه وآنجل كائنات للتسلية.

قال: «هذه ليست اللغة الصينية الشمالية، إنها لغة الفوزهو».

قال بيتر: «أتعرفين، إنها اللغة العامية المحلية».

قالت كاي: «دانيال، لا تتحدَّث بهذا الأسلوب مع السيدة هينينغس»، فقال ديمينغ: «لكنها مخطئة، إنها غبية».

قال بيتر: «دانيال!».

فواصل دانيال «هذه ليست اللغة العامية المحلية، إنها لغة تسمى الفوزهو الصينية».

ضحك جيم: «إنها كلها صينية بالنسبة إلينا أيها الأحمق».

قال ديمينغ: «أنت لا تعرف، أنت حتى لا تهتم!».

قالت إيلين: «أنا آسفة يا دانيال، إنه خطئي، لقد اختلط عليَّ الأمر، اعتقدت خطأً أنها اللغة الصينية الشمالية، لأنني درستها في الكلية».

فقالت كاي: «اعتذر للسيدة هينينغس يا دانيال».

فقال بأسى: «آسف».

ثم قالت كاي لإيلين: «إنه حساس للغاية».

قالت إيلين: «لا بأس. من الواضح أن ذلك كان في عصور ما قبل التاريخ عندما كنت فتاة صغيرة في الكلية، ولكن كان تخصُّصي في دراسات شرق آسيا، لذا كان لزاماً عليَّ أن أعرف أفضل من ذلك».

قالت كاي: «ذكريني أن أطلب منك المساعدة في لغتي الصينية الشمالية المزعجة؛ حيث إن دانيال يضحك عندما أتحدث إليه باللغة الصينية».

قالت إيلين: «أنا لا أفعل ذلك».

فقالت كاي: «بالطبع»، فنظرت إيلين إليها وابتسمت «ستتحدث في هذا الأمر لاحقاً».

قال جيم: «لقد درست التمويل الدولي في الكلية، ولطالما شعرنا بالجاذبية الشديدة تجاه آسيا، ولذلك كان من المنطقي أن نتخذ قراراً بالحصول على فتاة صغيرة من هناك».

فقالت إيلين: «لم نحصل عليها، لقد كنا مرتبطين بخيط القدر الأحمر بالفعل!»، وبالغت في أسلوب نطقها للكلمات «لا بد أنك تعرف قصة خيط القدر الأحمر يا دانيال، إنها قصة آسيوية قديمة».

«لم أسمع عنها قط».

«قصة خيط القدر الأحمر! يُروى أن الناس المقدر لهم أن يكونوا مربوطين معاً بخيط أحمر غير مرئي، وهكذا ارتبطنا أنا وجيم وآنجل بذلك الخيط الأحمر، ووجدنا أنفسنا مقترنين في عائلتنا الأبدية».

فقالت آنجل: «ألا تعرف هذه القصة؟».

«قلت لم أسمع بها قط»، ولم يستطع أن يصدق عندما رأى بيتر وكاي يومئان برأسيهما تصديقاً على كلام إيلين وجيم «هل تسمحون لي بدقيقة؟».

دخل إلى الحمام وغسل يديه بصابونة متسخة ونظر إلى المرآة الملطَّخة، فرأى بشرة مثل بشرة آنجل، وعينين وأنفاً وشعراً مثل آنجل.

يمكنه التسلُّل إلى الخارج الآن. كانت هناك محطة مترو أنفاق ليست ببعيدة، كانوا قد مروا عليها في أثناء سيرهم، ولديه في جيبه ورقة نقدية فئة خمسة دولارات تكفي لثمن تذكرة المترو وتزيد. يمكنه الآن العدو مسرعاً من طريق فوردهام وشارع يونيفيرسيتي، ثم يتسلل إلى الردهة ويركض إلى الطابق العلوي، ويطرق الباب كالمجنون إلى أن يُفتح، وحينها سيصعق أي من كان هناك عندما يراه، وسيظلون جميعاً يصيحون ويصرخون. يمكن أن يكون مايكل وفيفيان ما زالا هناك، أو أن تكون أمه وليون قد عادا إلى المنزل.

اندس خلسة وسط عائلة في طريقها للخروج، وكانت هذه العائلة مكونة من ثلاثة أجيال من الآباء والأطفال ورجل عجوز مثل جده يي غونغ، وتماشى مع سرعة خطواتهم للوصول إلى الباب ومنه إلى الرصيف.

سمع كاي تقول: «إنه مستاء ويشعر أنه تم التخلص منه».

وسمع بيتر يهمس، لكن ديمينغ تمكن من معرفة ما يقوله من إنصاته إليهم عبر جدار غرفة النوم: «قد اعتاد أن يجذب انتباهنا بالكامل».

لا بد أنهم رحلوا عندما كان في الحمام. اكتشفه بيتر أولاً «دانيال، ها أنت ذا، هل كنت تبحث عنا؟».

فشعر بالإحباط، لقد انتهت اللعبة، سار في اتجاه آل ويلكنسون واقتربت منه كاي ووجهته حتى أصبح محصوراً بينها وبين بيتر، فقالت: «إيلين وجيم ما زالا بالداخل يأخذان النقود الفكَّة».

خرجت آنجل وأشارت إليه: «لقد اختفيت».

لن يكون هناك حي البرونكس، ولن يضطر إلى الاتصال والتفسير «لقد ذهبت إلى الحمام».

جلست آنجل مع ديمينغ في غرفتها، بينما جلس الكبار في غرفة المعيشة يتجرَّعون الشراب.

فسألته: «ماذا حدث لأمك الحقيقية؟».

«كانت ستذهب إلى فلوريدا، وكنت سأنتقل للعيش معها هناك، قد تكون رجعت إلى الصين».

«قال جيم وإيلين إنهما وجداني في دار للأيتام في الصين، فدفعا المال وحصلا عليَّ، وحصلت على دمية «باربي تعود إلى الوطن» وإلى عائلتي الأبدية»، وكان ديمينغ قد لاحظ دمية «باربي تعود إلى الوطن»، وهي دمية لونها فاتح غير مبتسمة، وشعرها طويل وأشقر، ولون عينيها أزرق، ومغلفة بالبلاستيك، وكانت موضوعة على رف بجوار سرير آنجل، وتحمل باربي دمية طفلة رضيعة أمامها بأسلوب يوحي كأنها مصابة بمرض، ودمية الطفلة الرضيعة شعرها أسود وعيناها مستطيلتان سوداوان، من المفترض أنها صينية، ومرسوم على الصندوق «بيت أبيض محاط بسياج من الأوتاد»، ولافتة مكتوب عليها «مرحباً بك في بيتك!».

«إنها من المقتنيات ولا تباع. صديقتي ليلي ليس لديها واحدة، لأن والديها مكثا في فندق مختلف عندما ذهبا إلى الصين، وغضبت أمها للغاية».

وكز ديمينغ دمية نمر بإصبع قدمه «هل تؤمنين بذلك حقاً؟ خيط القدر الأحمر وكل هذه الأشياء؟».

«لا أدري، أعتقد ذلك».

«هذا هراء».

«حقّاً؟».

قالت آنجل بتمهل: «هراء». كان يتململ أسفل دمية «باربي تعود إلى الوطن» بنظرتها المميتة. «هل تشعر بالحر؟ ممكن أن أطلب من إيلين أن تخفض درجة حرارة المكيِّف».

«ربما تكون أمي الحقيقية في حي البرونكس الآن».

«هل تقصد أنها هناك الآن؟».

«ربما يكون يي با هناك، أو خالتي، أو أخي - ابن خالتي».

«هيا بنا نذهب».

«وكيف نذهب؟».

«أعرف كيف نذهب».

وضع يده في جيبه وقال: «لديَّ خمسة دولارات».

«انتظر».

انطلقت آنجل في الغرفة وراقبها ديمينغ بحذر. لو كانت ستخبرهم عنه، أو ستحضر بيتر وكاي، كان مستعدّاً لأن يطرحها أرضاً، لن يكون ذلك صعباً، فهو أضخم منها، فنهض على كاحليه في وضع الاستعداد، بينما كانت تفتِّش في خزانة ملابسها وأخرجت زوجاً من الجوارب الوردية، وقالت: «دانيال، انظر» كان بداخل الجوربين رزمة عملات ورقية فئة العشرين دولاراً، فجلس ديمينغ على كعبيه ضاحكاً.

قالت آنجل: «لقد سرقتهم من جيم، فهو لا يهتم».

لم تكن هناك غرفة ضيوف أو غرفة للاستذكار في شقة عائلة هينينغس، لذا كان على كاي وبيتر أن يتراصا على مرتبة هوائية في غرفة آنجل، بينما انتقل ديمينغ وآنجل إلى أرضية غرفة المعيشة، وكانا ينتظران سقوط إيلين وجيم من تأثير الشراب الذي تجرعاه بمناسبة يوم المكسب، وأن يقهر شروق الصباح كاي وبيتر، وعندما تصاعدت أصوات النوم من كلتا الغرفتين، قاما بتكديس المناشف أسفل الملاءات على شكل أطفال صغيرة، وبدآ بالتحرك. أدخلت آنجل كود نظام الإنذار لإبطال فاعليته، ووضعت المفاتيح في كيس نقودها الوردي، وكان ديمينغ خلفها مباشرة يحمل حقيبة ظهره بيده، وقاوم

رغبته في أن يهمس لبيتر وكاي قائلاً الوداع. قاما بتخطّي المصعد ونزلا على السلم عشرة طوابق، وانطلقا من مخرج الخدمات، وعند الناصية نادت آنجل على سيارة أجرة. افترض ديمينغ أنهما سيستقلان مترو الأنفاق، ولكن آنجل رفضت قائلة إنها ستتكفّل بالأمر.

قالت آنجل للسائق: «سنذهب إلى حي البرونكس، أعطانا والدنا النقود».

قال ديمينغ: «عند تقاطع شارعي يونيفيرسيتي ودبليو 190. عائلتي تعيش هناك». شعر ديمينغ بعد أن قال ذلك بقشعريرة تنتشر داخل جسده، وسمع همساً داخليّاً، لا يمكن إتمام المكالمة، ولكنها لم تكن لتهجره. ضغط سائق السيارة الأجرة على زر الراديو «هل من الممكن أن ترفع صوت الموسيقى؟»، بعد أن سأله ديمينغ، امتلأت السيارة بقرع الطبول. كان ديمينغ يكرّر أمي، أمي، أمي، وقام بتوجيه السائق بعد أن انعطفوا من الطريق السريع ودخلوا حي البرونكس. لاحت لافتة مطعم «كيندي فرايد تشيكن» وهاجةً في الأفق، وظلال خطوط السكك الحديدية لمترو الأنفاق، والصعود المؤلم للأرصفة عند منعطف المباني، ومتجر الأحذية الرياضية، ومتجر المشروبات الكحولية، ومتجر البقالة. بدا كل ذلك على سابق عهده. استمر كل شيء من دونه في هذه الأشهر الأحد عشر الماضية. انسَ بيتر وكاي، وانسَ رولاند وريدجبورو، فقد عاد إلى وطنه. سأله السائق: «هل تريد أن أنتظر؟»، ولكن ديمينغ كان قد خرج بالفعل من الباب.

«انتظر لمدة خمس دقائق»، فتحت آنجل كيس النقود الخاص بها وأعطت السائق ورقتين نقديتين من فئة العشرين الخاصة بجيم.

لم يستطع ديمينغ أن يبطئ للحظة، فصعد على الرصيف وخطا على العشب المبقّع ببول الكلاب، وعبر من خلال ساحة المبنى، مروراً بالشرخ المغطى بالشريط اللاصق بإحدى نوافذ الطابق السفلي، وسحب الباب الأمامي ففُتح. كانت آنجل تلاحقه، وصعدا سلالم الطابق الأول، وكان مشمع فرش الأرضيات يصدر صفيراً تحت أرجلهما، وصعدا إلى الطابق الثاني، مروراً بثرثرة أجهزة التلفاز، واقتربا أكثر الآن، وعندما قفزا إلى بسطة الدرج

الأخيرة رأى ديمينغ حصيرة لمسح الأرجل مكتوباً عليها كلمة «مرحباً»، لونها أخضر وبها خيوط وتشبه العشب الذابل. كان شعوره بالقشعريرة صحيحاً، فلم يكن عند ليون وأمه حصيرة ترحيبية.

«إنها هنا، هنا». قفزت آنجل من الإثارة متوقعةً أن تشاهد لم الشمل الرائع، وقالت: «هيا»، خطا ديمينغ فوق الحصيرة التي كان يعرف أنها لا تخصها، وطرق الباب، ورأى نفس طبقات الطلاء البني، ونفس الانبعاجات. طرق الباب مرة أخرى.

وقال: «مرحباً».

ظهر انشقاق الضوء تحت الباب وخلف الحصيرة، وسمع وقع خطوات وتمتمة، وعلى الرغم من فقدانه أي أمل، تخيَّل أمه تقف في الضوء ومن خلفها ليون وفيفيان ومايكل، وقام بنقل حقيبة الظهر إلى الذراع الأخرى.

فُتح الباب «نعم؟». حدَّقت امرأة قصيرة ببشرة مجعدة من فتحة الباب، ولكنها أبقت على سلسلة الباب مغلقة.

وكانت آنجل تلهث.

فقال: «أنا ديمينغ».

«نعم؟ وبالتالي؟» وبدأ الباب يُغلق برفق.

«كنت أعيش هنا، هل تعرفين أين ذهبت عائلتي؟».

فقالت المرأة: «لا أدري».

جاء رجل أصغر بلحية صغيرة على ذقنه من خلفها وقال: «أمي، من بالباب؟» ردَّت عليه المرأة باللغة الإسبانية. أخذ الرجل مكان أمه خلف سلسلة الباب وقال: «ما الأمر؟».

ابتلع ديمينغ ريقه بصعوبة ثم قال: «إنني أبحث عن عائلتي، كانوا يعيشون هنا، هل كنت تعرفهم؟».

«لا، هذا المكان كان خالياً عندما انتقلنا إلى هنا».

«متى أتيتم إلى هنا؟».

«في سبتمبر.. هل أنت بخير؟».

وكان الرجل يغلق الباب «حسناً يا غلام، لقد تأخر الوقت».

فقال ديمينغ: «وماذا عن تومي؟ هل ما زال بالجوار؟».

فُتح الباب بمقدار بوصة «نعم، قد تزوج تومي، بفتاة بولندية».

«بولندية؟»، أُغلق الباب، وغُلِّقت الأقفال.

همست آنجل: «أنا آسفة».

نزل ديمينغ السلالم إلى سيارة الأجرة التي تنتظرهما وركبها ببطء، وجلست آنجل بجواره، ثم قالت للسائق: «اذهب إلى تقاطع شارعي توينتي فرست وماديسون».

قال ديمينغ: «هل من الممكن أن تخفض صوت الموسيقى!».

- 5 -

بعد مرور عشرة فصول شتاء، كان هناك مبنى شاهق جديد على ناصية شارع روتجرز بالحي الصيني، حيث كان يعيش ديمينغ وأمه قبل حي البرونكس، وعند المبنى زوجان من أصحاب البشرة البيضاء يتحدثان مع حارس العقار الذي يرتدي زياً موحداً، ولكن بالنظر إلى ما بعد المبنى، بدا كل شيء كسابق عهده؛ نفس المباني بواجهاتها البنية المحمرَّة، والغسيل المعلَّق، وكانت الشقة القديمة في 27 شارع روتجرز أصغر من شقة رولاند، ولكنها كانت تعد منزلاً لديمينغ وأمه وستة آخرين من رفقاء السكن.

كان دانيال ويلكنسون أطول بمقدار قدمين ونصف القدم، وأثقل بمقدار مائة وخمسين رطلاً من ديمينغ غوو، ولغته الإنجليزية أفضل والصينية أسوأ. جعلت ريدجبورو دانيال خبيراً في تبادل الأنفس مثل الحواة؛ فقد اعتاد أن يرى ديمينغ ويفكر في نفسه على أنه دانيال، مثل عرض الشرائح الذي يعرض بالتناوب نفس الشريحتين، فقد أراد أن يخرج ديمينغ من المبنى، لأنهما كانا كمن يرقص تلك الرقصة القصيرة التي يقوم بها الناس عندما يحاول بعضهم تخطِّي البعض الآخر على الأرصفة، ولكنهم يظلون يسيرون في نفس الاتجاه نتيجة لتوقُّعهم الزائد للحركة التالية لكلٍّ منهم.

لم يكن لدى ديمينغ الندبة الموجودة على ساعده الأيمن التي تعرَّض لها دانيال من التزلج مع رولاند في الصف الثامن الدراسي، فحينما كان ديمينغ يكبر في الحي الصيني وحي البرونكس، هل كان دانيال في حالة بيات شتوي نائماً في كوكب ريدجبورو؟ أم كانا يكبران معاً ولكن في طريقين مفترقين من بعد حياته في المدينة؟ كان دانيال في طور السبات داخل ديمينغ حتى سن المراهقة، والآن أصبح ديمينغ ورماً ككرة الشعر في أمعاء دانيال، أم أن ديمينغ لم يغادر شارع روتجرز وكان هنا طوال الوقت.

فُتح الباب الأمامي لمبنى 27 بشارع روتجرز مُصدِراً صريراً، وخرجت منه امرأة تحمل باقة من أكياس البقالة، فأخرج دانيال هاتفه متظاهراً بأنه يكتب رسالة، خشية أن يبدو وكأنه يتسلَّل. كان يعلم أنه لن يكون ديمينغ، ولا يمكن أن يكون ديمينغ، إلا أنه شعر بالإحباط الشديد.

تجمَّعت الأصوات من حوله أسفل جسر مانهاتن، وكان بائعو الخضراوات والفواكه يتحدثون هنا بلغة الفوزهو الصينية وكان يعرف ما يقولون، فلم تكن الكلمات أصواتاً بلا معنى، ولكنها كانت جملاً تحمل شكلاً ومضموناً، فكانت الكلمات مزروعة بداخله، ووجدت مقرّاً سابقاً تسكن فيه، فعزمت على البقاء. أخذ يكرِّرها إلى أن أصبح واثقاً من أنها الكلمات الصحيحة واتجه إلى البائعين.

«أنت»، نادى على رجل يقوم بوزن الخضراوات ويرتدي معطفاً أزرق مترهِّلاً وقبعة من النسيج وبنطالاً من الجينز، وكانت أسنانه ملطَّخة من أثر التبغ وعلى إحداها تاج ذهبي، ولحيته رمادية، فقال الرجل بلغة الفوزهو: «ماذا تريد؟».

قال دانيال: «مرحباً».

«ما موطنك؟».

«نيويورك».

«أأنت صيني؟».

«بالطبع أنا صيني».

وبحث عن محفظته، ظهرت الكلمة المقابلة لبطيخ وتذكَّرها، وأخذ يركِّز إلى أن استرجع باقي الجملة «أعطني بطيخة، إنها طازجة أليس كذلك؟ إنه بطيخ جيد أليس كذلك؟»، تذكَّر ما يكفي للمساومة وتخفيض السعر الذي قاله الرجل حتى وصل إلى خمسة وعشرين سنتاً، وحينها شعر أنه قد وُلِد من جديد.

قال الرجل: «إذا خفضت السعر أكثر من ذلك ستتضوَّر عائلتي جوعاً، شكراً لك»، ولكن بدت السخرية من خلف وجهه العبوس.

قبل دانيال بانتصار البطيخة، ثم أشار إلى كومة من الخضراوات وقال: «وهذه أيضاً، أعطني نصف رطل من البروكلي».

حمل مستلزمات البقالة وذهب إلى شقة رولاند. كان ذلك في تمام الساعة الواحدة من يوم الثلاثاء، وكان ضوء الشمس ساطعاً جداً في فصل الشتاء، لدرجة أنه اضطر إلى أن يحوِّل نظره بعيداً، ولم يكن لديه أي خطط للمتبقي من فترة بعد الظهيرة. لم يسمح لنفسه لمدة سنوات بالتفكير في تلك الأيام التالية لعدم عودة أمه إلى المنزل، بعد أن تركه ليون وفيفيان مع أشخاص غرباء، والآن تخيَّل أن أمه تنتظره في شارع القنال بالسيجارة، وتذكَّر طريقة مشيتها التي تشبه البط وهي تشق طريقها عبر الجليد، وكذلك صلابة يدها وهي تمسك بيده. هو أطول منها في الوقت الحالي، ولكنه سيشعر بالأمان في يدها. ذات مرة عندما كان يتحدَّث مع آنجل عن عائلتيهما الحقيقيتين، سألته إذا كان لا يزال يريد أن يجد أمه، فقال: «لا، ليس بعد الآن»، كان كافياً بالنسبة إليه أن يتقبَّل رحيلها، ولكن لم تسنح له الفرصة أن يسألها لماذا عادت إلى الصين، فقد كانت تكره ميانيانغ، أو لماذا آل به المطاف في ريدجبورو.

توقَّف عند الناصية وأخرج هاتفه، ورد على رسالة البريد الإلكتروني التي أرسلها إليه مايكل من عدة أشهر، وضغط على إرسال قبل أن يغيِّر رأيه.

أنا الشخص الصحيح، كيف حالك؟

قام بطهي البروكلي بالبخار وتقطيع البطيخة إلى شرائح في مطبخ رولاند، وكان الطعم ألذ من شطائر البوريتو المهلهلة في مطعم «تريس لوكاس»،

وأرخص من تناول الطعام بالخارج. كان رصيده في البطاقة الائتمانية 2.079.23 دولار بفائدة قيمتها 8٪، ذلك بخلاف العشرة آلاف دولار المدين بها لآنجل. كانت رؤية فاتورة شركة بطاقات الائتمان كل شهر تجعله مهموماً للغاية، وقام بإنشاء سحب تلقائي من حسابه البنكي للحد الأدنى للسداد، كانت اثنين وعشرين دولاراً في الشهر الماضي. لم يتحدث إلى آنجل منذ أشهر، والآن سيضطر إلى أن يتقابل معها يوم السبت في حفل عيد ميلاد والدها، وكذلك سيقابل بيتر وكاي.

كان يمارس لعبة البوكر «تكساس هولديم» في أيام المدرسة الثانوية مع شباب آخرين في الحفلات، وكان لديه موهبة الاستماع إلى رواياتهم في حين يخفي حكاياته، فقد جعلته السنوات التي قضاها مع بيتر وكاي كاتماً ممتازاً للأسرار. سمع عن لعب البوكر عبر الإنترنت عندما كان في السنة الثانية بجامعة بوستدام، وحينما كان يتباطأ في كتابة الأوراق الدراسية، كان يلعب عدة مرات، ليس بالشيء الكثير، وخلال فترة الصيف في ريدجبورو حصل على وظيفة طلاء منزل مكون من خمس حجرات على أطراف المدينة، عرف أن لديه موهبة فك شفرات الأنماط عبر الإنترنت، فعرف اللاعبين الذين يطوون أوراقهم ولا يراهنون إلا عندما يكون لديهم أوراق جيدة، واللاعبين المتهورين الذين يراهنون بغباء ويقامرون بكثرة، وعندما عاد إلى المدرسة في الخريف التالي، قابل شخصاً اسمه كايل وكان يكسب أموالاً حقيقية، وكسب ألف دولار في إحدى الليالي.

وبدأ دانيال يلعب لمدة ست أو سبع ساعات يوميّاً، مسابقة محددة قصيرة تلو الأخرى، أو مسابقة مفتوحة بأسلوب الفائز يحصل على جميع المكاسب، وفي وقت متأخر من إحدى الليالي خرج من غرفته في المدينة الجامعية للذهاب إلى الحمام، وسمع أصوات شرائح اللعب وخلط أوراق اللعب عندما كان يملأ زجاجة الماء على الحوض، فنزل مسرعاً إلى القاعة واستأنف اللعب مرة أخرى، وأخذ يطقطق على الطاولة لرفع قيمة الرهان، ويطوي ورق اللعب ويراهن بثلاثة أضعاف على الأوراق غير المكشوفة وقبل التوزيع، ويشاهد

نقوده وهي تزيد، ومرت ساعات غير معلومة إلى أن سمع غلق الأبواب والأصوات وكان جسده متشنِّجاً ويشعر بالألم، ولعب في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه، وفي مرحلة ما أصبحت الإضاءة العلوية ساطعة بشكل مؤلم، وبدأ ضوء الشمس يسقط على لوحة المفاتيح. كان يشرب ويتبوَّل في العلب الفارغة، وراهن بجميع شرائح اللعب الموجودة في وعائه ثم أدرك أنه كان يلهث بصوت عالٍ، وفي اليوم التالي سمع أشخاصاً يصيحون باسمه من مسافة بعيدة جدّاً، ففتح الباب ووجد رفقاءه من قاعة اللعب يتفقَّدونه ويطمئنون إذا كان لا يزال على قيد الحياة، وكانت أوراق اللعب كأنها تتحرَّك عبر وجوههم.

وعندما اتصل به بيتر وكاي لسؤاله إذا كان يذهب إلى فصوله الدراسية، أكد لهما أنه يفعل ذلك. كان باستطاعته أن يكسب 4000 دولار من لعب مسابقات البوكر في ليلة واحدة، ثم يخسر هذا المبلغ في ثلاثين دقيقة، وفي مرحلة ما، كان لديه في حسابه 80.000 دولار. لم يبد ذلك مالاً حقيقيّاً، ولكنه كان كذلك. كان بإمكانه أن يسحب هذا المبلغ ويصرفه نقداً، ولكن كانت هناك دائماً لعبة أخرى، وواحدة بعدها.

كان كل ما يحتاج إليه هو مكسب واحد كبير، ولكن الرقم الذي يشكِّل هذا المكسب الكبير كان يتغيَّر عندما يصل إليه، وأغلق الحساب عندما وصل إلى الصفر، ثم فتحه في اليوم التالي. مر يومان كاملان دون أن يلعب وسافر مع بعض أصدقائه إلى مونتريال لحضور إحدى الحفلات الموسيقية، وبعدها أراد أن يشتري لنفسه جيتاراً جديداً وملابس جديدة ويعود إلى الموسيقى، لعبة إضافية أخرى وسيكون مستعداً.

حصل على قرض شخصي ليسدِّد رسوم الفصل الدراسي التالي؛ حيث إن درجاته انخفضت بالقدر الذي لا يؤهله للحصول على المساعدة المالية، ثم خسر أموال القرض في يوم واحد، واقترض ما استطاع من أصدقائه، عشرين من هنا وخمسين من هناك، وفتح حسابات بطاقات ائتمانية جديدة ثم تخطَّى الحد الأقصى لها. كلما اهتزت ثقته بنفسه زادت خسارته، وكلما

زادت خسارته أصبح لاعباً أكثر تهوراً. اقترض ألفي دولار من كايل ووعده بالسداد في غضون أسبوعين، ولكنه عرف أن الأمر قد انتهى عندما استمر في الخسارة، وشعر بالإنهاك عندما سمع صافرة الإنذار بنفاد وقت المراهنة، لذلك راهن بنصف الشرائح الموجودة في وعائه عندما كان ورقه سيئاً (2ـ7)، وكانت هذه مفاجأة، لكن الانتحار كان دافعاً أيضاً.

وسدَّد لكايل مائتي دولار، فقال كايل: «أين الباقي؟».

بدأ كايل وصديقاه ـ أخوان ضخمان بدوا وكأنهما يرفعان السيارات من أجل التسلية ـ يأتون إلى غرفته عدة مرات في اليوم للسؤال عن المال، فتوقَّف دانيال عن مغادرة غرفته أو فتح الباب، والآن أصبح مديوناً بقيمة 10.000 دولار.

كانت آنجل ترتاد مدرسة في ولاية آيوا، وعملت بوظيفة نادلة طوال فصلي الصيف والخريف، وكانت تعمل في الليل وفي العطلات الأسبوعية لادخار المال لفصل الربيع الدراسي بالخارج في نيبال، حيث كانت ستقوم بالتدريس للفتيات في المدرسة، ثم تقضي فصل الصيف في السفر حول جنوب شرق آسيا. كانت مولعة دائماً بالفن المعماري، ومهووسة بتخطيط المدن والفروق في وسائل المواصلات العامة، وكان دانيال يتهرَّب من الرد على مكالماتها لأسابيع، ولكنه أجاب في إحدى الليالي وأخبرها عن سلسلة الخسائر التي يتعرَّض لها وعن المال الذي اقترضه من كايل، وقال أخيراً: «أحتاج منك معروفاً، وسوف أسدِّد في خلال أسبوع». كانت متردِّدة ولكنها وافقت على أن تحوِّل له مبلغ عشرة آلاف دولار. سوف يزيح كايل عن عاتقه، ويسدِّد حساباته مرة أخرى، ثم يأخذ قرضاً آخر ويسدِّد لها أموالها.

ولكن بعد أن سدَّد لكايل، لم يكن قد خطَّط لحسابه الائتماني وتم إغلاقه ورُفض طلب القرض، فقرَّر أن يلعب مرة أخيرة حتى يستطيع الحصول على ما يكفي لسداد أي شيء لآنجل على الأقل، ولكنه لم يخطِّط أيضاً لهذه الخسارة السيئة، فقد كان يكسب أغلب الأدوار بورقتي لعب أس في أوراقه غير المكشوفة، وخسر خسارة كبيرة لصالح لاعب يدعى ريتش دانجر الذي قام

بسحب زوجين من ورق اللعب من على الطاولة. لم يكن يتوقَّع مدى غضب آنجل، أو أنه إن لم يسدِّد لها المال سوف تتصل ببيتر وكاي وتخبرهما عن المقامرة، على الرغم من أنها لم تذكر المال الذي اقترضه منها، في الوقت الذي وصل فيه الخطاب من العميد، كان قد وصل بالفعل إلى ريدجبورو ويحضر جلسة تابعة لبرنامج «جامبلرز أنونيموس» للتخلُّص من إدمان المقامرة في مرآب في ليتل تاون، وأخبر آنجل أنه سيعوِّضها، وأنه سوف يتغيَّر.

فقالت: «لقد أفسدت كل شيء، لا تتصل بي مرة أخرى».

وتمنَّى الآن لو كان يستطيع إخبارها أنه بعث الرسالة إلى مايكل وذهب إلى شارع روتجرز. لم يكن الأمر مجرد أنها الشخص الوحيد الذي يعرفه وتم تبنيه أيضاً (عندما ذكر مسألة التبنِّي لصديقته السابقة كارلا مودي، تنهَّدت وقالت: «هذا أمر رائع للغاية»)، ولكن الحديث مع آنجل كان مختلفاً عن التفاعل مع أي شخص آخر في نفس عمره، فقد كانت على طبيعتها ولا تتظاهر. عندما كان يتحدث معها عن الموسيقى لم تدَّعِ أبداً أنها تعرف أكثر مما تقول، ولم ينتبْهُ الشعور بالملل من الاستماع إليها على الإطلاق، حتى عندما كانت تتحدَّث باستفاضة عن الاختلافات بين نظام مترو الأنفاق في مدينة نيويورك ونظيره في لندن، أو عندما كانت ترسل إليه صوراً للقطط التي قالت إنها سوف تشتريها ولم تفعل، أو عن الوقت الذي نفد فيه البنزين منها هي ورفيقتها في السكن عندما كانتا في رحلة طويلة غير محددة الوجهة وضلَّتا الطريق في أحد حقول الذرة. ربما لأنهما تعارفا منذ سنوات طويلة، فكانت تقريباً بمثابة أخته، وأخبرته في إحدى المرات الأخيرة التي تحدثا فيها أن والديها يريدانها أن تحضر الفصول التمهيدية لكلية الطب: «ولكن يمكن أن أتقيَّأ إذا اضطررت إلى تشريح جثة»، لذلك قلت لإيلين إنني آسفة، فردَّت: «حسناً، ولكن هكذا سينتهي بكِ المطاف أن تصبحي إخصائية اجتماعية أو شيئاً من هذا القبيل في العائلة»، وقالت إنني أتخلى عن مواهبي، فقلت لها: «أقصد، على محمل الجد، تمالكي نفسك يا إيلين».

فضحك وقال: «أنا أيضاً ابن أستاذي جامعة متزمِّتين».

«إذاً فكلانا البطة السوداء، حتى إذا كان هذا المصطلح عنصريّاً، كما لو أنه من المفترض أن البط الأبيض هو الصالح».

«لنقلب الأمر ونقول إن البطة البيضاء سيئة، أنا البطة البيضاء»، فقالت: «ولكنك كنت دائماً تعاملهما بطريقة جيدة جدّاً».

«والديَّ؟ لا، فأنا لست الابن الذي يريدانه».

بدت آنجل متفاجئة «إذا كان هذا صحيحاً فلن تشعر بالاستياء حياله، أنا متأكدة أنهما فخوران بك حتى لو لم يصرِّحا بذلك».

أخبرته أنها أخذت جرعة زائدة من الحبوب المنومة عندما كانت في المدرسة الثانوية، فذهبت بها إلين وجيم إلى طبيب كان يقول عنها إنها عدوانية «لم أخبر أي أحد عن هذا الأمر من قبل».

لم يحذف دانيال رقم هاتفها من قائمة جهات الاتصال، وكان محتفظاً بسجل جميع رسائلهما النصية، وآخر رسالة كانت منذ أربعة أشهر، وفتح رسالة خالية وكتب «إنني أفتقدك»، ثم حذف أول كلمة وآخر حرف وغيَّرها إلى: «أفتقد الحديث معك، وأعمل على سداد أموالك، شكراً لإخبار والديَّ بشأن البوكر، أنا جاد في هذا»، ثم حذف كل ذلك وكتب «هل ستذهبين إلى حفل عيد ميلاد والدك يوم السبت؟»، وضغط على إرسال، والآن لم يعودا صديقين، ويبدو أنه فقد القدرة على أن يكون مخلصاً، وبضغطة واحدة حذف جميع الرسائل التي كانت بينه وبين آنجل، المئات من الرسائل، ثم حذف اسمها ورقمها من على هاتفه، ثم تفقَّد بريده الإلكتروني، لم يرد مايكل بعد، وعندما رن هاتفه، كانت كاي من تتصل، وقالت: «سنراك يوم السبت، لا تنسَ أن تحضر النماذج».. استعاد النماذج الخاصة بكلية كارلوج وسواها.

تتيح استمارة الغرض الفرصة لتوضيح أي ملابسات مساعدة من الممكن أن تكون قيمة إضافية إلى الطلب المقدَّم منك بصفتك طالباً محولاً إلى كلية كارلوج. هذه فرصتك لمخاطبة لجنة القبول بشكل مباشر، وأن تخبرنا عن نفسك بطريقة لا يمكن أن تتوافر في نسخ المستندات الأخرى أو معلومات الطلب.

ثم شرع في الكتابة..

بعث إليه مايكل الرد بعد ساعتين واقترح أن يقابله غداً في مقهى ستاربكس بالقرب من ميدان كولومبوس، وفي اليوم التالي ذهب دانيال مبكراً بعشرين دقيقة وتجوَّل حول المبنى ثلاث مرات قبل أن يتخذ القرار بالانتظار بالداخل، وطلب قهوة وجلس بطاولة قريبة من الباب، وكان ينظر في كل مرة يُفتح فيها الباب.

مرت دقيقة منذ آخر مرة نظر فيها دانيال إلى هاتفه. الساعة 3:42 م. لا توجد مكالمات لم يُرد عليها أو رسائل جديدة. كان من المفترض أن يتقابل مايكل مع دانيال الساعة الثالثة والنصف، ومايكل بنفسه هو الذي اقترح الساعة الثالثة والنصف في مقهى ستاربكس بالتحديد الموجود عند تقاطع شارعي سيكستيث وبرودواي، ووافق دانيال على مقابلة مايكل بدافع الفضول، ولكنه قرَّر الاحتفاظ ببعض الشكوك الصحية، فمهما كان ما سيقوله مايكل، فلن يغيِّر حياته. شرب القهوة بسرعة، إذا لم يظهر مايكل في خلال عشر دقائق سيغادر ويتخلَّى عن الأمر.

وفُتح الباب مرة أخرى، ودخل رجل أبيض سمين يرتدي قميصاً طويلاً بأكمام قصيرة، ممسكاً بيده ابنته التي تشبه نفس بنيته، ولكن قبل أن يُغلق الباب مباشرةً، دخل شخص آسيوي طويل يرتدي معطفاً أزرق وحذاءً رياضيّاً أبيض وحقيبة ظهر كبيرة فأمسك الباب ثم دخل.

نظر مايكل حوله، وابتهج عندما رأى دانيال، ثم شقَّ طريقه عبر الطاولات والكراسي، فوقف دانيال وتبدَّدت شكوكه، وتعانقا بقوة. كان مايكل أطول بمقدار بوصة من دانيال، ووقفا في منتصف ستاربكس يربِّت كل منهما على ظهر الآخر.

«ديمينغ» خلع مايكل معطفه وسحب كرسياً: «آسف على التأخير. كان أستاذي يتحدَّث معي ولم يتوقَّف عن الكلام». كان صوت مايكل أكثر انخفاضاً ولم يعد صوتاً طفوليّاً، لم يستمع دانيال من قبل إلى مايكل بصوته البالغ، ولم يرَه مايكل منذ سن الحادية عشرة.

«لم يناديني أي شخص باسم ديمينغ منذ زمن طويل».

دقَّق مايكل في ملامحه وقال: «أنت تبدو مختلفاً، وجهك أنحف على

الرغم من أن ملامحك لم تتغيَّر. أعتقد أننا لو تقابلنا في الشارع لمررنا دون أن يتعرَّف أحدنا إلى الآخر».

«أنت تبدو مختلفاً، أيضاً». اختفت الملامح الخارجية لمايكل المهووس بالدراسة، ولكن جوهره ما زال كما هو، وكان به ألفة لا يراها إلا الذي عرف مايكل عندما كان طفلاً «ولكنك نفس الشخص».

«من الغريب أن يكون لك اسم آخر، هل تفضِّل دانيال أم ديمينغ؟».

«أعتقد، دانيال».

ثنى مايكل يديه أمامه وكأنهما كانا في مقابلة عمل «إذاً، لا بد أنك في السنة الثالثة من الكلية».

«كنت في جامعة ولاية نيويورك بشمال الولاية، ولكنني في إجازة لبعض الوقت»، وبدأ يفشل في المقابلة بالفعل «وأين تسكن؟».

«في الجنوب، «ليتل إيتالي»، الحي الصيني. سأنام الليلة عند صديقي رولاند في شارع هيستر. لدينا فرقة موسيقية وأنا أعزف الجيتار، وكنا نعزف في الحفلات الموسيقية في أرجاء المدينة.

«يمكنني أن أتفهَّم ذلك تماماً، أتذكَّر أنك اعتدت أن تتوسَّل إلى أمهاتنا للسماح لنا بالوقوف والاستماع إلى العازفين في مترو الأنفاق، وكنا نقف لفترات طويلة جداً لدرجة أننا فوَّتنا القطار»، ثم ضحك مايكل «ما اسم الفرقة الموسيقية الخاصة بك؟».

«سايكيك هارتس، وأنا أعمل على الأغاني الخاصة بي أيضاً، أغنِّي وأعزف الجيتار منفرداً، أعزف أغاني قصيرة، تتناول تقريباً المشاعر والأفكار الداخلية وما إلى ذلك». كانت هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها عن هذا الأمر بصوت مرتفع.

«فلتخبرني عن موعد حفلتك الموسيقية التالية، سوف أحضر».

«حسناً». تخيل دانيال شخصاً مثل مايكل في إحدى حفلات الشقق، شخصاً غير مناسب للمكان أكثر منه «وأنت في جامعة كولومبيا، ألست كذلك؟».

«نعم، وكنت في مدرسة بروكلين تيك الثانوية»، وضع مايكل هاتفه على الطاولة «لقد تأخرت لأنني كنت أقدم طلباً للمنحة الدراسية، ولا بد أن أطرح مشروعاً بحثياً في علم الوراثة، وأحاول أن أقرِّر الاختيار بين مشروعين. أحدهما من النوع الذي يقوم به الأستاذ المشرف على المشروع، وهو الأستاذ الذي كنت أتحدث معه من قبل، وهو يكتب التوصيات الخاصة بي، لذا إذا قرَّرت المضي في هذا المشروع قد تكون لديَّ فرص أفضل، ولكن يوجد مشروع آخر، ليس بنفس الأولوية، لذا ففرص النجاح أقل، وهذا هو المشروع الذي أريد أن أعمل عليه».

«متى آخر ميعاد للتقديم؟».

«في غضون أسبوعين، تمنَّ لي التوفيق».

التقت عيناهما للحظة. أراد دانيال أن يتأمَّل في مايكل بالقدر الذي يحتاج إليه، في محاولة منه لمطابقة الشخص الذي يجلس أمامه على الطاولة مع الطفل النحيف الذي كان ملتصقاً به في حي البرونكس. لقد تشاركا نفس السرير لمدة خمسة أعوام «كيف حال أمك؟».

«إنها بخير، على أفضل حال، تزوَّجت تيموثي منذ بضع سنوات، وانتقلنا للعيش معه في بروكلين بحي «صنست بارك»، وأنا ما زلت هناك وأذهب إلى المدرسة، ولكنِّي أتمنى أن أنتقل قريباً». ناوله مايكل هاتفه، وعرض صورة لعائلة تقف في فناء عشبي، وفيفيان وتيموثي يضعان ذراعيهما حول مايكل «هذه الصورة من الصيف الماضي». كان لدى تيموثي كرش صغير وشعر خفيف، وكان شعر فيفيان قصيراً ومموجاً ومجعداً.

ألقى دانيال نظرة خاطفة على الصورة ومرَّر له الهاتف «هل ما زلت على اتصال بليون؟».

«خالي ليون؟ نعم، نعم هو ما زال في فوزهو. لقد تزوَّج ولديه ابنة الآن،

ويعمل لدى إحدى شركات التصنيع. لقد تحدَّثنا بضع مرات، ولكنه ليس من الأشخاص الذين يستخدمون الهاتف بكثرة، ولكنه بخير». أمسك مايكل بسوار ساعته، كانت ساعة ضخمة فضية، من النوع الذي قد يرتديه رجل في منتصف العمر «لم نمكث في الشقة لمدة طويلة بعد رحيلك، انتقلنا للعيش مع عائلة في الحي الصيني، ثم انتقلنا إلى حي كوينز، وحصلت أمي على وظيفة في المبنى الذي يعمل به تيموثي».

«آها». كان هناك جزء صغير داخل دانيال يتمنى أن يكون ليون قد وجد أمه وأنهما يعيشان معاً، ولكنهما لم يستطيعا أن يتصلا به لسبب منطقي، على الرغم من أنه لم يتمكَّن من توقُّع ماذا قد يكون ذلك السبب!

قال مايكل: «لقد وجدت هذه الأوراق خلال أعياد الكريسماس عندما كنت أساعد أمي في تنظيف الصناديق في شقتنا، وكان هناك ذلك النموذج الذي وقَّعت عليه لنقلك طوعاً إلى رعاية الخدمات الاجتماعية، ومكتوباً فيه أن الإلحاق سيكون لفترة زمنية غير محدَّدة».

لم يقل دانيال أي شيء وتذكَّر الأوراق التي رآها في مكتب بيتر وكاي، والتقرير من جلسة الاستماع. هل ذُكِر به أي شيء عن توقيع فيفيان لنموذج التنازل؟ كما لم يتذكَّر أي شيء عن الفترة الزمنية غير المحدَّدة.

قال مايكل: «أعرف أن ذلك كان إخفاقاً، كما كان هناك ذلك النموذج الذي يوضِّح أنها ذهبت إلى المحكمة لجلسة الاستماع بعد أسابيع من رحيلك، ووافقت على إلحاقك تحت الرعاية مع بيتر وكاي ويلكنسون».

كان هناك صوت خارج من سماعات ستاربكس لامرأة تغني بصوت كالنهيق على أنغام آلة الأكلال، وكان دانيال كالذي يسقط من اللوح الأخير لإحدى الألعاب الإلكترونية، ويهبط إلى المستوى الأول بعد أن فقد بالصدفة أغلب القفزات البسيطة، فلم تخطِّط فيفيان وليون للعودة إليه على الإطلاق، وكان التفكير في ذهاب فيفيان للمحكمة بعد تسليمه إلى الزوجين الصينيين، والتوقيع بالتنازل عنه لآل ويلكنسون، يصيبه بالغثيان.

«أنا آسف، فقد أردت أن تعرف ماذا حدث». هزَّ مايكل رأسه «كنت أفكر فيك أنت وأمك طوال الوقت، فقد كانت أمّاً رائعة. ذات مرة وأنت غير موجود، ولا أدري أين كنت، أخذتني إلى مطعم «بورجر كينغ»، لأنها كانت تشتهي البطاطس المقلية، واشترت لي بطاطس مقلية أيضاً، وفي طريقنا إلى المنزل مررنا على قطعة الأرض الفارغة المليئة بالحمَام وقالت بجدية شديدة: مايكل، في الصين نأكل تلك الحمامات، ولكن نطهوها بالبخار لأن لحمها سميك؛ كانت شهيَّة حقاً، أنت تعرف؟».

«أعرف أنها كانت كذلك، ولكن كيف وجدتني؟».

«بحثت على جوجل عن بيتر وكاي ويلكنسون، ووجدت موقعاً إلكترونيّاً به مقال من تأليف كاي ويلكنسون، وفي سيرتها الذاتية كتبت أن لديها ابناً اسمه دانيال، ووجدت صورة ملف تعريفي لشخص يبدو صينياً اسمه دانيال ويلكنسون، ويمكن أن يكون أنت، وذُكر في الملف التعريفي جامعة ولاية نيويورك في بوستدام، فبحثت بهذه المعلومات وعرفت بريدك الإلكتروني».

«تبّاً، أنا سعيد أنك فعلت هذا».

«وأنا سعيد أنك بعثت لي الرد. عندما وجدت هذه الأوراق ظننت أنه من الممكن أن يكون انتهى بك المطاف مع عائلة سيئة، أو قد يكون حدث لك أي مكروه»، ونظر مايكل بعيداً «في صباح ذلك اليوم، آخر مرة رأيتك فيها، لو كنت أعرف أين ستذهب لحاولت أن أمنع أمي، فقد ذهبتما معاً وعندما عادت إلى المنزل ولم تكن معها، شعرت بالرعب».

بعد أن ذهب مع آنجل في سيارة الأجرة إلى حي البرونكس، ووجد العائلة التي لم تكن عائلته، ذهب دانيال إلى ريدجبورو وبكى في الليل لمدة أسابيع، وذهب مع بيتر وكاي إلى المحكمة بعد أربعة أشهر، ووافق القاضي على التبنِّي، وقَّعوا الأوراق، ثم هنأهم القاضي على أنهم أصبحوا عائلة إلى الأبد، وتسلَّم شهادة ميلاد جديدة مدرجاً فيها بيتر وكاي باعتبارهما والديه الحقيقيين، واسمه فيها دانيال ويلكنسون.

سأل مايكل: «وماذا أخبرتك أمك؟».

«في ذلك الوقت؟ قالت إنها وجدت عائلة أخرى لتعيش معها وسيهتمون بك، وفي البداية قالت إن هذا الوضع لن يدوم طويلاً. أما أنا فكنت غاضباً ومرعوباً، خصوصاً بعد أن دام الوضع طويلاً، أتعرف؟ لم يبدُ الأمر صحيحاً على الإطلاق، ولكنني لم أستطع فعل أي شيء، فلم أعرف كيف أجدك، وبعد أن وجدت النماذج، وبمرور أعياد الكريسماس كنت أسألها ولكنها كانت لا تريد أن تتحدث بهذا الشأن، ولكنني ظللت أزعجها حتى قالت أخيراً إنها فعلت ذلك لأنها لم يكن لديها خيار آخر، فقد كنا مفلسين، وقالت إنها فعلت أفضل شيء لصالحك».

«أفضل شيء»، ثم ركَّز دانيال في قراءة قائمة المشروبات الخاصة الموجودة أعلى ماكينة تسجيل النقود «فينتي لاتيه». بدت الكلمات غريبة، وكأنها لم تكن باللغة الإنجليزية، وكانت رائحة القهوة والسكر الصناعي تسيطر على المكان وتغمره «هل يعلم ليون أنني أصبحت متبنَّى؟».

«أعتقد أن أمي أخبرته، ولكنني لست متأكداً».

أسند دانيال وجهه على يديه، وضغط ما بين حاجبيه، وكان يفكِّر في عبارة: إلحاق غير محدد المدة «لا أستطيع أن أصدق».

«لقد كنت مثل أخي، تعرف ذلك؟».

«نعم».

«حاولت البحث عنك في جوجل، ولكن لم تظهر أي نتائج عن ديمينغ غوو».

«حسناً، فأنا لم أعد هو».

«والداك، أعني بيتر وكاي ويلكنسون، هل كانا أبوين صالحين؟».

«بالطبع، ولكنني فقدت عائلتي بالكامل».

«هل وصلتك أي أخبار عن أمك؟».

«لا، وأعتقد لم تصلك أي أخبار كذلك».

هزَّ مايكل رأسه «لكن أمي تريد أن تراك».

«ماذا؟».

«تريدك أن تأتي وتتناول معنا وجبة العشاء».

راقب مايكل وجه دانيال منتظراً رده. مثلما اعتاد أن يفعل عندما كان صغيراً، مستعداً أن يحزم أمتعته ويهرب إلى فلوريدا دون أي تردُّد.

«هل أنت جاد؟» ثم أضاف: «مستحيل».

استقل دانيال مترو الأنفاق في مساء يوم الجمعة وذهب إلى صنست بارك، بروكلين، الحي الصيني، وبينما كان يسير في شارع (8)، تعرف إلى الحي الذي كان يعيش فيه الزوجان الصينيان، حيث أتى بيتر وكاي ليأخذاه. لم يكن يعرف كيف سيمر هذا العشاء دون أن يقول شيئاً بشعاً لفيفيان، ولكن الفرصة المواتية لإخراج ما بداخله دفعته إلى الذهاب.

كانوا يسكنون في أحد الشوارع المرقَّمة المتفرعة من شارع (8)، في النصف السفلي من منزل مخصَّص لعائلتين، في شقة مكونة من غرفتي نوم ونافذة أمامية كبيرة تطل على الشارع، فاحت من المنزل رائحة الأرز ولحم الخنزير والثوم. خلع حذاءه وسترته وأزاحهما جانباً، وبادل مايكل العناق، ورأى فيفيان تسير نحوهما ببطء مرتديةً خُفَّ حمَّام من الفرو أرجواني اللون، وبدت أسمن مما كانت عليه من عشر سنوات. لم يتذكَّر أن أسنانها كانت بهذا البياض من قبل.

«ديمينغ! أنت لم تتغير»، قالتها بلغة الفوزهو الصينية «ضخم وطويل وبصحة جيدة، تماماً مثل أمك».

كيف تذكر أمه بعد ما فعلته؟ «أهلاً فيفيان».

«هل ما زلت تحب لحم الخنزير؟».

«بالطبع».

«لقد أعددت لحم خنزير وسمكاً». أشارت فيفيان إلى المطبخ وقالت:

«سنأكل حالاً». جلس مايكل ودانيال على أريكة بنية داكنة في مواجهة شاشة تلفاز عريضة ورف عليه تماثيل صغيرة لحيوان وحيد القرن. سأله دانيال:

«هل تتذكَّر هذه الأريكة التي كانت عندنا؟».

فقال مايكل: «لقد تخلَّصنا من هذا الشيء، كان عليها تلك الزهور العملاقة بألوان تشعرك بالرغبة في التقيُّؤ. أتتذكَّر عندما ضربني أحد الأطفال فذهبت أنت وأشبعته ضرباً؟».

«ثم ذهبت أمك وضربتني ضرباً موجعاً»، فضحك مايكل «نعم، يبدو ذلك صحيحاً».

«لقد أحببت تلك الشقة بالفعل».

«هل تذكر ذلك الفتى صوفيب؟ لقد سمعت أنه في السجن، والوقت الذي قُتِل فيه هؤلاء الرجال في المتنزَّه؟».

«لا أتذكَّر ذلك».

كرَّر ديمينغ الأسماء بذاكرته وحاول أن يطابقها على الوجوه، الأطفال في المدرسة العامة (33)، وحقائب الظهر الضخمة خاصتهم. حاول أن يتذكَّر صوفيب، والمتنزه، أي متنزه؟ وانزعج من عدم دقة ذاكرته متسائلاً عن أي شيء آخر قد يكون نسيه، وكم كان مخطئاً بشأن والدته وليون وحتى نفسه.

«أتذكر تومي.. جارنا؟ كنت أعتقد أن أمي هربت معه».

انفجر مايكل ضاحكاً وقال: «هذا الرجل، مستحيل».

«سمعت أنه تزوَّج».

«يا إلهي، لم أفكِّر فيه منذ أعوام».

وصل تيموثي حاملاً معه صندوق مخبوزات أبيض ملفوفاً بخيط أحمر، وقال: «لا بد أنك ديمينغ، لقد سمعت كثيراً عنك». حملت لغته الإنجليزية نغمات اللغة الصينية، وكانت حروفه المتحرِّكة دافئة ومقوَّسة.

طهت فيفيان طاجن توفو باللحم البقري والمشروم، وخضراوات بالثوم، ونودلز، وقطع لحم خنزير مقرمشة، وسمكة كاملة على البخار. كانت الروائح تدعو للطمأنينة، وهي روائح لم يشمها دانيال على مدار سنوات. أعطاه تيموثي صحناً، وسأله باللغة الإنجليزية: «هل ترتاد المدرسة يا ديمينغ؟».

لم يكن متأكداً إذا كان يريد أن يُنادى بديمينغ «أنا أدرس الاتصالات في جامعة ولاية نيويورك، وأعزف الموسيقى أيضاً، الجيتار، واسمي الآن دانيال».

«دانيال، إذاً فأنت تحب الفنون والعلوم الإنسانية. مايكل مهتم أكثر بالعلوم».

«ما طبيعة عملك؟».

«أعمل محاسباً قانونيّاً، وهكذا تقابلت مع فيفيان»، وتحوَّل تيموثي إلى اللغة الصينية الشمالية: «كانت فيفيان تعمل في المكتب الموجود عبر القاعة».

كانت فيفيان تقطع الخضراوات قائلة: «كنت أنظِّف المكتب»، وبدا ذلك كأنه سيناريو قد سرداه من قبل «كنت أعيش أنا ومايكل مع أصدقائنا في حي كوينز، لم يكن لدينا أي نقود».

فقال تيموثي: «تقابلنا في مصعد العمل في أحد الأيام».

قالت فيفيان: «كان ذلك منذ زمن بعيد، والأمور أفضل بكثير الآن، حيث يذهب مايكل إلى جامعة كولومبيا، وديمينغ يرتاد الكلية كذلك، ستكون أمك فخورة بك».

أخرج ديمينغ شوك السمك، وأراد أن يسأل فيفيان عما تعرفه، فربما كانت أمه تريده على الرغم من كل شيء، أو ربما لم تكن تعلم أن فيفيان ستتخلَّى عنه. استغرق ثانيتين وثلاثاً وأربعاً، محاولاً تجاهل التعبير السار الذي قالته فيفيان، بينما كان يملأ صحنه مرة أخرى، والفضل الذي كانت تستحقُّه بالتأكيد هو طهي الطعام بشكل جيد، لإطعام ذلك الطفل اليتيم الذي يتضوَّر جوعاً. لم يستطع الانغماس في جودة مذاق الطعام، ومدى شعوره بالألفة لوجوده هنا.

ناوله تيموثي صحن الخضراوات وقال: «ديمينغ، أقصد دانيال، هل ما زلت تتحدث اللغة الصينية؟».

فأجابه دانيال باللغة الصينية الشمالية: «نعم، ما زلت أتحدث اللغة الصينية».

«لهجتك أمريكية، وأنا كذلك».

قالت فيفيان: «لا زال مايكل يتحدَّث الصينية بإتقان، بل إنه يستطيع أن يكتب باللغة الصينية»، وكشفت النقاب عن محتويات صندوق المخبوزات، فظهرت كعكة إسفنجية بيضاء منفوشة، وطبقة من الكريمة البيضاء مرصَّعة بشرائح الفراولة، وتظاهر دانيال بأنه كان يرى مشهداً من التلفاز، يُروى بالصوت الرسمي المذكَّر للأفلام الوثائقية. تعتني أنثى الحيوان فقط بصغارها البيولوجيين، وترفض أي أطفال لم تلدهم لأنهم يمثلون تهديداً لوحدة العائلة.

قام مايكل بجمع أدوات المائدة الفضية بعد أن انتهوا من تناول الحلوى، وأخذت فيفيان الصحون إلى المطبخ، فنهض دانيال، فقال له تيموثي: «اجلس، اجلس»، لكن دانيال أمسك بالصحون وتبع فيفيان. كان ديمينغ أطول منها بكثير، واستطاع أن يرى جذور الشعر البيضاء في شعرها الخفيف، وكانت لديها نقطة صلعاء كالأطفال في منتصف رأسها.

تكلَّم معها باللغة الإنجليزية بسرعة، وكانت لغة فيفيان الإنجليزية أفضل بكثير مما كانت عليه منذ عشر سنوات، ولكنه ما زال لديه اليد العليا «لماذا فعلتِ هذا؟».

كانت تنقل الطعام في أوعية بلاستيكية وتضغط على الأغطية لتتأكَّد أنها محكمة الإغلاق «فعلت ماذا؟».

قام بفتح الصنبور وصب الصابون على الإسفنجة «لقد قلتِ إنكِ ستعودين من أجلي قريباً، ولكنك وقَّعتِ على نموذج للتنازل عني لصالح غرباء، ولأجل غير مسمَّى!».

«لا أعرف ما الذي تتحدث عنه»، فتحت فيفيان الثلاجة وأعادت رصَّ الأوعية، وسحبت بقايا الطعام الأخرى لإفساح المجال، ثم أزاحت علبة عصير برتقال وأمعنت النظر في المنضدة.

«لقد تسبَّبتِ في اعتقادي أن أمي هجرتني، وأنها كانت لا تريدني». تفحَّصت فيفيان جالوناً من الحليب وقالت: «كان يمكن أن يتم ترحيلك من البلاد».

«كيف هذا؟ أنا مواطن أمريكي»، والتفت ليتأكَّد أن مايكل وتيموثي لا يزالان عند الطاولة «ماذا تعرفين عن أمي؟ أين هي؟».

وكان وجه فيفيان مختفياً خلف باب الثلاجة «أنا لا أعرف أي شيء». قام بمسح الصحون وحكَّها بشدة حتى آلمه جلده «لقد ذهبتِ بالفعل إلى المحكمة، وتخلصتِ مني إلى الأبد. لقد أفسدتِ حياتي بالكامل».

«أنا لم أفسد أي شيء، لو فعلت شيئاً آخر لما دخلتَ الكلية، ولم تكن لتعيش في مانهاتن، وتعزف على الجيتار. إذا مكثت مع أمك لكنت فقيراً الآن، وكنت ستعود إلى القرية».

«هي هناك الآن؟ في مينيانغ؟».

كانت كلمات فيفيان هادئة وعميقة «لا أدري».

لم يُضِفْ ذلك إليه شيئاً، لم يكن هناك تفسير لغياب أمه أو لعدم اتصالها به. نظر دانيال إلى فيفيان وحدَّق فيها بقوة متحدياً أن تواجهه.

«هل ماتت؟».

وأخيراً استدارت قائلة: «لا».

«كيف تعرفين؟».

«من ليون».

سار إلى مترو الأنفاق بعد أن عانق مايكل وصافح تيموثي باليد. قال مايكل: «أراك قريباً، لا تنسَ أن تخبرني بموعد حفلتك الموسيقية التالية».

كان في جيب دانيال ظرف أعطته له فيفيان وهو يغادر، لم يتجاوز مسافة منتصف المبنى من المنزل، فتوارى تحت مظلة أحد المتاجر وفتحه. كان بداخله ورقة نقدية فئة مائة دولار، وقطعة ورق مكتوب عليها مجموعة من الأرقام يمكن أن تكون رقم هاتف دولي في الصين، ومكتوب بها، ليون.

وضع دانيال الظرف في جيبه وأخذ يضحك ضحكةً مهتزة إلى أن ارتجف. كما لو أنه من المفترض أن تعوِّضه المائة دولار عن كل شيء، وسار حتى نهاية واجهات المتاجر المغلقة في آخر المبنى وانعطف يساراً، ووصل إلى مدخل صنست بارك. كان الهواء ساخناً والأشجار في فترة الإزهار، وشقَّ طريقه أعلى التل، فوق الشوارع وواجهات المحلات، وكانت هناك عائلة تندفع إلى أسفل الممشى، والأب يدفع عربة أطفال مربوطاً بمقبضها بالون أحمر فضي. شاهد دانيال أفق مانهاتن، وتعرَّف إلى قمة مبنى إمباير ستيت، ونظر إلى بريق الجسور، وظهرت المدينة من هذه النقطة المميزة هشَّة ومتلألئة، وامتدَّت آخر أشعة الشمس عبر القناطر كأنها تهدئها للنوم، وترسم الظلال على قمم المباني. بغض النظر عن عدد المرات التي شاهد فيها محيط المدينة، كان يندفع بداخلها. حصل على رقم ليون، وأمه على قيد الحياة. كان ليون يعرف مكان أمه، فكانا على تواصل. جعله هذا الاحتمال يشعر بالمرونة، وارتعدت ركبتاه فانثنى متجشئاً الثوم والفراولة والكعك، ثم شعر بالبرد. عندما دسَّت فيفيان الظرف في يدي دانيال قالت له أيضاً: «لقد سدَّدت ديون أمك، وعندما رحل ليون كانت لا تزال هناك أموال مستحقَّة، من برأيك سدَّد هذه الديون؟ إذا لم أسدِّد لكنت مِتُّ الآن».

لم يتمكَّن من أن يتخذ قراراً بكره فيفيان، أو الامتنان لها، وكل ما استطاع أن يفعله دانيال عندما أخذ الظرف هو قول «أشكرك».

غرس كعبيه في الوحل وسار إلى أسفل التل، إلى الجانب المنحني للمتنزَّه، أبطأ في البداية ثم أسرع قافزاً برجليه إلى أعلى كالنغمات الموسيقية الصغيرة، سيذهب إلى المنزل، وسيتصل بليون، فاندفع بشدة كأنه يطير.

الفصل الثاني

الجائزة الكبرى

- 6 -

في الليلة التي عدت فيها إلى حياتي كنت أسير في نفس الشارع القديم بمدينة فوزهو، متجهة من «وورلد توب» لتعليم اللغة الإنجليزية إلى مطعم المأكولات البحرية الذي يتناول فيه يونغ دائماً وجبات العشاء مع العملاء. كان قد عرض أن يقلّني ولكنني رفضت، حيث أردت أن أقضي تلك الدقائق العشرين الثمينة بمفردي، وكنت أرتدي بدلتي الرمادية وحذائي الجلدي، وبدوت مثل أهل المدينة. شعرت أن حياتي أصبحت راقية، وهو أمر كنت أتوق إليه، ولكنني ما زلت أريد أحياناً أن أنسفها ثانية، وأغيِّر اسمي مرة أخرى، وأنتقل إلى مدينة أخرى ثانيةً، وأستأجر غرفة في مبنى لا يعرفني فيه أحد، وعندما كنت أفكِّر في جميع مناسبات العشاء التي حضرتها في مطعم المأكولات البحرية، وجميع المناسبات التي سوف أحضرها، كنت أشعر بالفراغ والهلاك اللانهائي.

عندما تسير في فوزهو تشاهد راكبي الدراجات الهوائية، والدراجات البخارية، وأكياس القمامة، والأثاث المحطَّم، وأهل المدينة، والمهاجرين، وكلهم يكافحون لعدم وجود مساحة كافية على الرصيف. كنت أسير لأتخلَّص من آثار الحياة التي تجمَّدت من حولي دون أن أنتبه، وأحببت الشعور بقرب

الماضي وكيف يمكن أن يعوضني بحياة جديدة. جميع الطرق التي سلكتها، وجميع المنعطفات غير المهمة التي اتخذتها ومن الممكن أن تغير وجودك بالكامل. كان من الممكن أن أصبح أي شخص يعيش في أي مكان، ولكنني كنت في الأربعين من عمري واتخذت بالفعل جميع اختياراتي، اتخذتها لنفسي، وبالطبع ليس من السهل تغيير المسار الآن.

لم يرَ يونغ أنه بحاجة إلى السير وعنده سيارة جيدة للغاية، ولم يكن لديه فضول استكشاف المدينة التي عاش فيها طيلة حياته، وقال إنه لو أراد المغامرة فلن يتجوَّل حول مجموعة من المباني الإدارية، ولكنه سيذهب في رحلة إلى هونج كونج أو بانكوك أو شنغهاي، على الرغم من أنه لم يفعل أيّاً من هذه الأشياء أيضاً.

قام بوس تشينغ أخيراً بتكليف زميلي في العمل بوغينغ لعمل أبحاث السوق من أجل نشر وورلد توب في مدن أخرى، وشعرت بحسد شديد جداً يمكنني أن أشم رائحته، وذهب هذا الأحمق بوغينغ إلى تاي زهو في الأسبوع الماضي، وفي الأسبوع الذي يليه انطلق إلى زهانغ زهو. أردت أن أسافر، ولكن بوس تشينغ لم يطلب ذلك لأنه يفترض أن السفر بهذا الشكل كان غير مناسب ومسؤولية يُكلَّف بها موظف أحدث مني. كره يونغ السفر بغرض العمل، ولكنني كنت لأستغل الفرصة وأستقل القطار فائق السرعة لرحلة مدتها ثلاث ساعات إلى شيامن، وأجلس بجوار النافذة وأشاهد الرافعات والحفارات ذات العجلات الخلفية، وانتشار الأسمنت كالبيضة المتصدِّعة عبر مقاطعة فوجيان، وتنبسط الحقول لتصبح مثل قواعد المنازل، وتتجسَّد القرى في شكل بلدات، وكل هذا مصحوبٌ بطنين سرعته مائتان وخمسون كيلومتراً في الساعة.

كانت هناك حشود هائلة خارج مطعم «بيتزا هت» تنتظر الدخول، وهو المكان الذي تناولت فيه مع يونغ أول عشاء لنا منذ سبع سنوات. ذهبنا بعد آخر صف لتعليم اللغة الإنجليزية للمسؤولين التنفيذيين، وكان من أسوأ الطلاب

عندي، وأخبرني حينها أن زوجته تُوفِّيَت صغيرة السن بسبب مرض سرطان الدم، وأنهما لم ينجبا أطفالاً، وأن ذلك لا يمثل مشكلة بالنسبة إليه، وقال إنه اشترى شقة جديدة وسدَّد كامل ثمنها نقداً، وحاول أن يكون لطيفاً. قال: «أنا رجل أعمال عصامي»، ولكنني كنت أعرف أنه لم يكن بإمكانه الحصول على التصاريح والتراخيص لبدء عمل تجاري دون إقامة مدنية. ذكَّرني هذا بالشباب الأغنياء الذين اعتدنا أنا وديدي رؤيتهم في نيويورك، ببناطيلهم الجينز البالية وشعرهم غير الممشَّط. أخبرت يونغ أنني كنت أعيش في أمريكا فقال: «لا بد أنك درست اللغة الإنجليزية في الجامعة». لم أصحِّح له المعلومة، ولم أؤكدها أو أنكرها، وقال إنني ذكية ومجتهدة ولطيفة، ووقعنا في الحب بهذه النسخة من بولي، وكانت وظيفتي المكتبية ولغتي الإنجليزية والبدلة التي ادخرت أشهراً لأشتريها كافية لرجل المدينة هذا أن يؤمن بأصالتي، لذلك لم أكن لأخذله، وها نحن بعد سبع سنوات، صار الوهم والحقيقة نفس الشيء. بولي: المرأة التي عاشت بالقرب من ويست لايك وارتادت الجامعة، وقرَّرت ألا يكون لديها أطفال، إلا أنني كنت أشعر أن هذا أمر مؤقت، وسيُفضح أمري يوماً ما.

فقد انتزعوني من الشقة في الطابق الثاني عشر وألقوا بي مباشرة في مركز احتجاز المهاجرين «أردسل فيل».

تزوَّجنا بعد ستة أشهر من أول وجبة عشاء، أخذت حبوب منع الحمل وقرَّرت أن أخبر يونغ عنك في النهاية وأقول له إنك تقيم مع أقاربنا في أمريكا، ولكن مرت شهور وبدا أنه قد فات الأوان، وأصبح إفشاء السر شيئاً خطيراً، فقد يغضب الشخص في أي وقت، هل أخبره الآن؟ قد يكون الأمر أسوأ من عدم إخباره على الإطلاق.

تأخَّرت لمدة عشر دقائق، وعندما دخلت إلى قاعة الطعام قال يونغ: «كانت زوجتي في العمل».

فقلت: «كنت أسير من العمل إلى هنا، وليس في العمل».

جلس فو ـ رجل أصلع قدَّمه لي يونغ بصفته وكيل مشتريات «وول مارت»

- بين يونغ وغاو، شريك يونغ في مصنع النسيج، وجلست في المقعد الخالي بجوار لوجين زوجة غاو.

كان يونغ يضع أزرار القمصان الفضية التي اشتريتها له في الذكرى السادسة لزواجنا، وكانت الشقوق تحيط بعينيه وفمه. ظهرت على ملامحه بقايا الوسامة، وكان جماله يكمن بداخله، وجاذبيته تعكس المصاعب التي قد نجا منها بالفعل، رغم أنه كان يضحك على هذا لأنه لم يكن لديه الحنين إلى الماضي، ويحب أن يقول: «بالكاد أتذكَّر أي شيء قبل سن الثلاثين»، وربما كان يكذب. كان يتظاهر أمام زملائه في العمل أن نجاحه تحقَّق بأقل مجهود، على الرغم من أنه قبل أي اجتماع مهم كان يتدرَّب أمام المرآة على ما سيقوله ويكتبه في سطور ويحفظه، وكنت أساعده.

أتى الطعام سريعاً، صحناً مكدَّساً بالجمبري، وآخر بقطع الإسكالوب والخضراوات، وآخر بقنديل البحر والمحار وأذن البحر. صبَّت لوجين الشاي وسألت: «كيف حال العمل؟»، كانت إحدى أسنانها الأمامية ملطَّخة ببقعة أحمر شفاه، ولكنَّني لم ألِفت انتباهها إلى ذلك.

«مستوى التسجيل لدينا قياسي». أخذت الجمبري ومزَّقت رأسه ووضعته في الصحن، فنظرت عينه تجاهي «يريد الجميع تعلُّم اللغة الإنجليزية».

«لا أحتاج إلى اللغة الإنجليزية»، ومضغت لوجين قطعة إسكالوب كبيرة «نحن نمارس أعمالنا في شنغهاي». كانت لوجين من سكان الشمال ولم تغفر لزوجها عودته إلى إقليمه الأصلي لإدارة أحد المصانع، أما غاو فكان يحب التفاخر بلغتها الصينية الشمالية ولهجة شنغهاي التي تتقنها بنغماتها الأصلية الأنيقة. كانت لوجين تطهو وجبات معقَّدة عديمة النكهة في حفلات العشاء المقامة بمنزلها في غيانغبن، وكان غاو يتجرَّع الشراب تلو الآخر إلى أن تنتفخ بطنه ويضطر إلى إرخاء درجة من حزامه، ثم درجة أخرى. كان الرجال في هذه الحفلات يشتكون من أهالي سيشوان الذين اعتادوا العمل بأجور زهيدة، ولكنهم لم يعودوا يتنقَّلون إلى فوزهو بأعداد كبيرة، وبدلاً من ذلك يذهبون

إلى المصانع الجديدة في شنجن. كان يونغ من النوع الذي يحب أن يشتكي من كونه رئيساً، ولم تكن شكواه فعلية، بل كانت تفاخراً متقناً؛ حيث كان مصنع «يونغتكس» يعمل بشكل جيد للغاية، وليس هناك ما يدعو إلى القلق.

أمَّا نقاشات النساء في هذه الحفلات فكانت أسوأ، لأنه كان من المتوقَّع أن أشارك فيها. ما أفضل المدارس الخاصة؟ أي الشغالات تنظِّف المنازل بسعر أرخص وتتصف بالأمانة؟ وكُنَّ يمرِّرن كتالوج تجديد المنازل المشتمل على صور كثيرة لخزانات المطابخ غير المجسَّمة، وكانت اللقطات مأخوذة بأوضاع مثيرة مثل عارضات أزياء ملابس السباحة، وصور الأواني الفارغة على المواقد البراقة وأمهات وآباء وأبناء مبتسمين، وجميعهم من ذوي العيون الداكنة والشعر الأسود، وبشرة شاحبة وسيقان طويلة (أين يمكن العثور على هؤلاء الأشخاص في فوزهو؟)، وكنت أقلِّب الصفحات وأتذكَّر الأريكة البلاستيكية في شقتنا بحي البرونكس، وتلك الليالي التي كنا نتناول فيها النقانق والنودلز سريعة التجهيز، وكانت تكفي وتزيد، أو الليالي الأخرى عندما كنت أرحل إلى مدينة جديدة تاركةً كل شيء أعرفه، وأشعر بالخوف والرعب مما فعلته.

كان يونغ يحتسي كأسه الثانية، وغاو وفو الثالثة. قال غاو: «تبلغ صادراتنا لكل سنة مالية ستة ملايين دولار، وقمنا بتسليم طلبات الكريسماس مبكراً في العام الماضي، وكانت تكلفة الإنتاج لوول مارت ربع سعر البيع بالتجزئة».

التفت يونغ تجاهي قائلاً: «عملت زوجتي في مدينة نيويورك لفترة طويلة، وهي الآن مدرِّسة لغة إنجليزية وتقوم بأعمال الترجمة الدولية الخاصة بمصنع يونغتكس».

نظر إليَّ فو، فتحوَّلت إلى صوت المدرس وقلت: «لقد رأيت المصانع في أمريكا، إنها لا تستطيع منافسة يونغتكس».

فسأل فو: «كيف تبدو المباني في نيويورك؟».

«شاهقة وجميلة وساحرة».

نظرت لوجين إلى صحنها وحكَّت فخذها قائلة: «وماذا عن الطقس؟».

«حار ومشمس في الصيف، وتتساقط الثلوج في الشتاء».

قال فو: «يمكن لفوزهو أن تكون من أعلى المدن في التصنيف، لكن المؤثِّرات السيئة تسيطر عليها، وبها كثير من الغرباء».

قالت لوجين: «عمالة رخيصة».

وقال غاو: «يتكدَّس اثنا عشر شخصاً في غرفة واحدة، إذا كنت تعيش هكذا، فلا تتوقَّع أن تُعامل أفضل من الهوام».

قد كرهت أن أسمع مثل هذه الترهات ولكنِّي كنت أكبح نفسي، كما أن يونغ سألني هنا كي أعطي انطباعاً جيداً لوكيل مشتريات وول مارت، ففي المرة التي دافعت فيها عن عمَّال سيشوان، لم يحصل يونغ على الصفقة، وظل قلقاً على مدار أسابيع من أن يفقد الشقة، وألا يتمكَّن من تحمُّل تكاليف الانتقال إلى غيانغبن كما أراد، وشعر أنه الانهيار المحتمل ليونغتكس، وقال: «لا أعرف لماذا تشعرين بالقلق»، وعندما رأيته خائفاً بالفعل، وسمعت صوته يرتجف، كنت على وشك أن أخبره أنه يبالغ في ردة فعله، وأنه لن يحدث أي شيء من هذا. كانت أسوأ مخاوف يونغ أن يتم كشفه على أنه محتال، وارتكاب بعض الأخطاء الفادحة التي قد تؤدي إلى هبوط مكانته، وكانت المدينة مليئة بأشخاص على هذا النحو، كان من السهل أن تكسب المال، ولكن من الأسهل أن تخسره، ولأن يونغ لم يعتَد ذلك، فلم يستطع أن يتخيَّل أنه يمكن أن يحيا بأقل من هذا المستوى.

أخرجت هاتفي من حقيبتي، ووجدت على الشاشة رسالة جديدة من رقم غير معروف، ولكنَّني لم أسمع رنين الجرس. استأذنت وخرجت إلى ردهة المطعم، ثم اتصلت بكود الوصول إلى بريدي الصوتي، فسمعت صوت رجل يقول: «مرحباً». أسلوب كلامه كان بطيئاً ومتردِّداً بلغة الفوزهو الصينية، ولكن لهجته كانت غريبة ولا يمكن تحديد هويَّتها، هذه الرسالة موجَّهة إلى بولي غوو.

في البداية ظننت أنه أحد العملاء ولديه شكوى بخصوص وورلد توب، أو تطوُّر آخر في تجديدات مطبخ يونغ اللامتناهية.

«أنا ابنك ديمينغ».

فأسرعت دقات قلبي، واستمعت إلى الرسالة مرة أخرى. كان صوتك عميقاً كالرجال، ولكنَّ به شيئاً مميَّزاً على الرغم من لغتك الصينية السيئة: أنا بخير. نيويورك هي المكان الذي أعيش فيه، ليون أعطاني رقمك، فقد وجدت ليون، ومايكل وجدني قبلها. هل أنتِ بخير؟ أود أن أتحدَّث إليك.

وتركت لي رقم هاتف وقلت إنه يمكنني الاتصال بك في أي وقت، وضعت أصابعي في فمي وعضضتها، واندفع الألم إلى ذراعيَّ. هل أنت على ما يرام؟ وكيف وجدتني؟ فأنا لم أتحدث إلى ليون منذ سنوات، وعندما نظرت إليَّ المضيفة أخرجت أصابعي وحاولت أن أبتسم، وقلت: «مكالمة عمل».

أردت أن أعثر عليك لفترة طويلة. أخبرني ليون أن عائلة أمريكية قد تبنَّتك، وأنها ترعاك بشكل جيد، وأكَّد لي أنك في أيدٍ أمينة. حاولت جاهدةً أن أصدقه، لأن الطريقة الوحيدة للمضي قدماً في حياتي كانت التصرُّف وكأنك قد اختفيت إلى الأبد، وأنه من الأفضل لنا أن نستمر في الحياة التي نعيشها، لكن لو كان بيدي الخيار، ولم يكن بمقدوري فعل أي شيء، لم أكن لأتركك على الإطلاق. استمعت إلى الرسالة مرة أخرى وحفظت الرقم في هاتفي. إذا تجاهلت لهجتك السيئة وقواعد اللغة غير السليمة، فإنك تبدو بخير ولا توجد أي علامات على أنك مريض أو غير سعيد.

عندما عدت إلى الغداء بدت صحون الطعام الكبيرة بشعة وفاسدة.

رفع غاو وفو كوبيهما، وقال يونغ: «نخب النجاح». كرَّرت النخب ولكن كانت يدي ترتجف.

قال يونغ وهو يقود الشاحنة إلى أعلى التل: «انبهر فو بالوقت الذي قضيتِه في نيويورك».

تحقَّقت من الهاتف ولم أجد مكالمات جديدة «أتمنَّى أن يوقِّع على الصفقة».

«أتمنى ذلك أيضاً».

أوقفنا السيارة في مرآب المبنى وصعدنا إلى الطابق الثاني عشر. كان البلاط بارداً ولطيفاً خلال فصل الصيف الرطب، وشعرت بالقشعريرة في أقدامي، فرفعت درجة الحرارة من منظم الحرارة الرقمي. كان البرد كالبطانيات البنية الخشنة، والتفَّ الصقيع حول عظامي. أخرجت زجاجة ماء بلاستيكية من صندوق في المطبخ، وحاولت تجاهل غبار الأخشاب وأقمشة البناء المثنية عبر الطاولات، وطرأت ذكرى إلى مخيلتي، في مطبخ شقة البرونكس. كان عمرك حينها ست أو سبع سنوات، واقفاً وقطعة من ملابسك على وجهك لإخافتي، ثم دخلت ضاحكاً مبرزاً ذراعيك كالوحش وقلت: «يوو يووو يووو». حاولت أن أقبض على الصورة في ذهني، ولكنها تلاشت بعيداً، وسرعان ما فقدت السيطرة على الذكريات، فانتقلت ما بين أمور كثيرة بينك وبين ليون إلى طلاء الأظافر إلى ستار هيل إلى أردسل فيل. أزلت مكياج وجهي، أبدلنا ملابسنا وارتدينا البيجامات وجلسنا على الأريكة كل منا يتكئ على الآخر، وشاهدنا حلقة من مسلسل كوري تاريخي تقع أحداثه في العصور الوسطى. مسح يونغ على شعري، وفركت يديه. كان هذا هو الوقت المفضل بالنسبة إليَّ في اليوم، عندما نجلس معاً في البيت ولا نقلق بشأن ما نرتدي أو ما نقول.

في نيويورك كان الوقت مبكراً في الصباح. هل ما زلت تشبهني؟ كم يبلغ طولك؟ اعتدنا أن نلعب «الغميضة» في بنسيون شارع روتجرز، وكنت تختبئ بينما أتجوَّل وأسأل رفقاء السكن «هل رأيتم ديمينغ، أين هو؟»، إلى أن تضحك فأقول: «أعتقد أنني سمعت صوتاً!»، ثم تخرج من مخبئك أيها السمين، وتشير إليَّ وتصيح: «لقد أضعتِني!».

على الأرجح تسكن أسرتك بالتبنِّي بالقرب من سنترال بارك، في أحد المباني ذات الطوب الكبير، والاسم مطلي بالذهب من الخارج، وهناك حارس عقار يرتدي زياً رسمياً.

عندما انتهت حلقة المسلسل، واختفت البطلة وحبيبها من جيش الملك، ذهبت أنا ويونغ إلى الفراش. لدينا مرتبة كبيرة ومتينة، وملاءات سميكة

وناعمة. جلس بجانبي، وقال: «يا له من يوم طويل». بمجرد أن يستغرق في النوم سأذهب إلى الشرفة وأتصل بك.

«أجل، الحصول على الراحة بالليل سيكون شيئاً لطيفاً».

كانت شقتنا هادئة وخالية من الأصوات إلا همهمة الثلاجة وبعض الطنين الغامض الذي يداعب المكان، مما يجعل حياتنا مستقرة ومعتدلة. نظرت إلى السقوف العالية والحوائط النظيفة التي علَّقت عليها رسومات ذات أطر لأشكال تجريدية باللونين الأزرق والأخضر الزاهيين. لقد أحببت المنزل الذي صنعناه معاً، والطريقة التي كان كلانا يترك بها ملاحظاتنا السرية للآخر، ووجدت واحدة هذا الصباح في حقيبتي مكتوباً فيها: «سنتناول بطاطس على العشاء الليلة»، وداخلها مزحة تشير إلى شكل رأس غاو، وأحببت أرضيتنا الخشبية والنافذة الكبيرة المطلة على المدينة، وفي يوم صافٍ يمكنك أن ترى أمواج المحيط، وعندما شاهدت الماء أول مرة من شرفة يونغ، عرفت أنني يجب أن أعيش هنا.

يا له من إحساس مريح أن التقيته، أن يكون لديك من يعود إلى المنزل ويزيح عن عاتقك المشكلات اليومية، وكنت أشغل وقتي بتحضير دروس اللغة الإنجليزية لوورلد توب، والتفكير في الأماكن التي سنتناول فيها العشاء، والمهام والمحادثات والممتلكات، حتى لم يعد لديَّ الوقت لأفكِّر فيك. هذا ما يمكن أن يحدث في مدينة مثل هذه، يمكن أن تأتي امرأة من حيث لا تدري وتصبح إنساناً جديداً. يمكن للمرأة أن تُنسِّق مثل باقة الزهور الصناعية، وتنحني بهذه الطريقة وتلك، ثم تمعن النظر فيها من بعيد فتجدها أصبحت مهندمة.

كانت الكذبة كبيرة ولا يمكن الكشف عنها ليونغ الآن، أن يكون لديَّ ابن يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، وبطريقة ما لم أتحدَّث عنه من قبل، فلا يمكنك أن تُسقِط طفلك من قصة حياتك، وكأن الأمر لم يكن كبيراً. عارض يونغ إيداع لوجين وغاو ابنتهما في مدرسة داخلية، ومقارنةً بهذا، كان ما فعلته أمراً لا يغتفر. لم أرد أن أفكِّر في هذا الأمر ولا أن أتذكره، إذا اتصلت بك

واكتشف يونغ أنني كنت أكذب بشأن إنجاب طفل، كان سيغضب غضباً شديداً ويهجرني، وحينها سأضطر إلى التنازل عن حياتي.

كنت مرهقة، وأخرجت زجاجة الحبوب المنوِّمة وأخذت واحدة. من دونها كنت سأستغرق في الأحلام بالبطانيات البنية والكلاب، وأنت تشير إليَّ من داخل مترو الأنفاق وهو يغادر المحطة بمجرد وصولي إلى الرصيف، لكن هذه الحبة كانت تدفعني إلى أسفل وتهبط بي بسرعة إلى الأمان، وكنت أستيقظ كل يوم بلا أحلام، والساعات بين ذهابي إلى السرير وسماع منبِّه الساعة ـ صفير عاجل من الشاطئ بينما أصارع كي أسبح إلى السطح ـ كانت هباءً منثوراً، وكانت تفصل بين الساعة الحادية عشرة مساءً والسادسة صباحاً ثوانٍ معدودة.

لفَّ يونغ ذراعيه وساقيه حولي، وتمدَّدنا معاً كما كنَّا نفعل على مدار الأعوام السبعة الماضية، وضعت رأسي على صدره، وأنا أتخيَّلك تضحك مع مايكل وأنا أتحدَّث مع فيفيان عند المنضدة.

وقال: «أعلم أن الفوضى تعم، ولكن ستنتهي قريباً».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

«المطبخ»، ونظر بغطرسة قائلاً: «تحدَّثت مع المقاولين عن الخزائن، وقالوا إنهم سيحضرون طلبية خاصة».

«حسناً، رائع، شكراً لك»، ثم قبَّلني قائلاً: «تصبحين على خير».

سحبت قناع النوم على عيني. يمكن ليونغ النوم في ضوء النهار الساطع، ولكنني أصررت على الستائر الثقيلة في غرفة النوم. كنت أشعر أحياناً أن قدرته على النوم ملء جفنيه إهانة شخصية لي.

واستمعت إلى صوت نفَسه العميق المنتظم، إلى أن بدأ مفعول القرص المنوم. كنت مرهقة للغاية للحديث الآن، سوف أنتظر وأتصل بك في يوم آخر، فقلت: «تصبح على خير»، ولكن يونغ لم يقُل أي شيء، فقد نام بالفعل، وسمعت صوتي فقط وأنا أتحدث إلى نفسي في تلك الغرفة المظلمة الهادئة!

- 7 -

كان المنزل في الزقاق رقم (3) هادئاً مثل غرفة نومنا عند ويست لايك. اعتاد أبي أن يقول إن النساء يثرثرن أكثر من اللازم، وإنه من الأفضل لبعضهن ألا يتكلمن على الإطلاق، لذلك فقد نشأت معتادةً حبس الكلمات بداخلي، وأدركت فيما بعد الكمّ الهائل الذي تخزَّن بداخلي، وكانت الجمل تنسكب مني مثل الصنبور المكسور في المبنى السكني للمصنع، وحتى عندما انتقلت إلى أماكن أبعد ورأيت الأطفال يخوضون في الأنهار المتدفِّقة من صنابير إطفاء الحريق، والمياه تغمر الشوارع كأنها بلا نهاية، كنت أرى نفسي عندما كنت صغيرة، ولكنني انجرفت في تيار جائح.

ديمينغ، إذا كنت تعرف المزيد عني ربما لن تلومني كثيراً، ولربما فهمتني أكثر من ذلك. يمكنني أن أكون صريحة إلى أبعد مدى، حتى لو لم يكن هذا ما تريد أن تسمعه.

ماتت أمي وأنا في السادسة من عمري، بمرض السرطان. لا أتذكرها ولم تكن معي صورتها، ولا أي شيء، في المنزل المكون من غرفتين الذي كنت أعيش فيه مع جدك، لم يكن هناك سوى شيئين فقط يخصَّانها: سترة زرقاء

ومشط رمادي، وعندما يخرج يي با إلى النهر، كنت أمشِّط شعري بالمشط وأرتدي السترة، وهي معطف من القماش به رائحة ضعيفة لأوراق الشجر وفروة الرأس، وكلما ارتديته كانت الخيوط تتفكَّك أكثر، إلى أن سقط الزر السفلي في أحد الأيام، وهو زر أزرق داكن بأربعة ثقوب صغيرة. عندما سقط وجدته يحاول الهرب من الغرفة ولكنني أحكمت أصابعي عليه، واحتفظت به آمناً في الحقيبة التي وضعت فيها المشط.

سألت يي با: «هل كانت ذكية؟ هل كانت جميلة؟ ما نوع السمك المفضل لديها؟».

وكان يقول: «بالتأكيد، بالتأكيد».

فقرَّرت أنها كانت امرأة قصيرة بشعر مموَّج، لأنني كنت قصيرة وشعري مموجاً نوعاً ما. كانت إحدى الأمهات في القرية صوتها مثل الجرس الرنان، تقول وهي في سوق المنتجات: «تعالَ إلى هنا يا باو باو، لا تلعب في الوحل»، وعندما كنت أشعر بالحزن لعدم وجود أمي، وهذا لا يحدث كثيراً، أتظاهر أن هذه المرأة أمي وتنادي اسمي (بيلان، حينها كان اسمي بيلان) بدلاً من باو باو.

كان أبي يحب أن يقول أشياء مثل: «عندما كنت صبيّاً، كانت عائلتي فقيرة للغاية، وكنت أشارك أخي حتى في حبة الأرز الواحدة، وكان الناس يئنُّون طوال الوقت، لكن في هذه الأيام أصبح الناس ناعمين ومدلَّلين، فأنتِ لا تعرفين شيئاً عن المعاناة».

كانت ميانيانغ قرية فقيرة وفي مقاطعة فقيرة، لكن مقارنةً ببعض زملائي في المدرسة الابتدائية، كنا نأكل بشكل جيد. كانت الأسماك التي يصطادها يي با تُكمل الخضراوات التي تطرحها قطعة الأرض المخصَّصة لنا على مضض، وكان يدفع بنصيبه إليَّ عندما لا يكون هناك طعام كافٍ، ويقول: «انظري ماذا يفعل يي با من أجلك؟». كنت أحاول أن أعيد إليه الطعام، ولكنه قال: «يجب عليك أن تأكلي كل قضمة، فلا يمكن أن تهدري الطعام والناس تتضوَّر جوعاً».

كان يأخذني معه في مركب صيده في الأيام الجيدة، نستيقظ مع شروق

الشمس قبل ارتفاع درجة الحرارة بكثير، مبكراً جدّاً لدرجة أن دوامات الضباب كانت تعوق مسارنا، وكان يي با يحمل وعاءً من الشاي، بينما أسير بجواره ويدي ممتلئة باللحم البقري المقدَّد، وملمس الأرض تحت قدميَّ مثل الإسفنج. قال: «إنه يوم حظنا، هل ترين كيف تبدو السحب مثل شبكة العنكبوت؟ هذا يعني أن المياه ستكون ودودة». على الجانب الغربي من ضفة النهر كانت المياه مرئية فقط بين مجموعات القوارب الطويلة، وتتسبَّب أصغر الأمواج في سلسلة من الدقات الخشبية، حيث يضرب قارب جانب القارب المجاور، فيضرب جانب القارب الذي يليه، في سلسلة جوفاء من الضوضاء المنعكسة. كان قارب يي با أخضر داكناً، وبه خطوط بنية من أثر تقشير الطلاء، ورقعة مجوَّفة على شكل قبضة اليد في الدفة، وضربة من صخرة غير مرئية، ساعدته في فكها ودفعناها إلى التيار، وكنت أغنِّي «محظوظ، محظوظ، محظوظ»، وأشاهد الأمواج ترتطم بالخشب مثل المئات من الألسن الصغيرة، ثم يخفت الشاطئ تدريجياً، وينتشر اللون الأزرق في جميع الاتجاهات، ويملأ الإطار المحيط بي، والسماء كبيرة جدّاً، حيث تشعرني وكأنها ستبلعني، وتغمرني السعادة.

وفي يوم أقل جمالاً، تطوِّقني الجبال وتحاصرني، وتنتشر التلال الشاهقة في كل مكان، وتهز السحب ألسنتها قائلةً: فتاة سيئة، فتاة سيئة.

وفي هذا الوقت كانت مغادرة القرية تجعلك محل ريبة. ربما يمكنك المغادرة للزواج بفتى في قرية أخرى وتعود إلى المنزل في الإجازات، وأنظر إلى مدى بدانة وسعادة أولادي، بخلاف ذلك تظل بالداخل، ويبدو أن يي با لم يرغب في أن يكون صياداً ويمكث عالقاً في ميانيانغ، لكن لم يكن هناك خيارات أخرى لسكان الريف، فهو لم يتجاوز الصف الدراسي الرابع على الرغم من أن أخاه الأصغر وصل إلى الصف السابع وانتقل إلى بلدة مجاورة، وهكذا مكث يي با في نفس المنزل الذي تربَّى فيه مع والديه، وأخبرني عن الشوارع المرصوفة في البلدة التي يعيش فيها شقيقه، وصور شنغهاي التي شاهدها في إحدى المجلات. سألته إذا كان يمكننا الذهاب إلى هناك، فقال: «لا». فسألته: «إذاً من يعيش هناك؟»، قال: «الأغنياء والكسالى».

كان لدينا دجاجة، مهمتي كانت جمع البيض ونثر الغذاء، وكنت أتبختر حول الحشائش بجدائلي التي تشبه القرون الصلبة، وأهز رأسي إلى الخلف وإلى الأمام، وكان هايفينغ ابن الجيران يترك واجباته المنزلية ويخرج مسرعاً لينضم إليَّ فأقول له: «هيا نفعل مثل الخيول»، ثم نرمح ونصدر أصوات الصهيل.

وكان لديَّ صديقتان، فانغ وليلينغ، نلعب بعد المدرسة عند النهر، وكنت أشير إلى نقطة بعيدة وأقول: «هذا قارب أبي»، حتى لو لم أكن أعرف إذا كان قاربه أو قارب شخص آخر، أم أنه صخرة كبيرة، وكنا نركض ونرفع أذرعنا تحت الشجرة الموجودة في ساحة القرية، وندع أوراق الشجر تقبِّل أطراف أصابعنا.

قلت لك دائماً ألا تكون مثلي، فقد تركت المدرسة في الصف الثامن. غبية. طلبت من أحد الصبية أن يعطيني سيجارة، وكان طالباً أسوأ مني ولكن والديه كانا من الكوادر (فسمعته يقول: «البنات لا يُدخِنَّ»، وكان هذا تحدياً لا يمكنني مقاومته)، استنشقت الدخان فحرق رئتيَّ، ولكنِّي حبسته بالداخل وقاومت السعال وأخرجت الزفير على نحو سلس ومنظَّم، فخرج الدخان من شفتي على شكل حلقة كاملة. عاقبني المعلم وو وترك الصبي. ملت على مكتبه وضربني بعصاه الخشبية على ظهري، وعندما نظرت إلى وجوه زملائي المذهولة، ضحكت. رأيت من قبل أولاداً يبكون عندما تعرَّضوا للضرب، ولكن لم يكن هذا بالأمر الكبير بالنسبة إليَّ.

لم أعد إلى المدرسة بعدها، ومرَّ فصل الصيف ببطء شديد. طال شعري وأصبح وجهي أنحف، وكنست الغرف حتى صارت الأرضية فائقة النظافة. كانت القرية بأكملها خاملة في هذا الصيف، كالبركة الراكدة في يوم رطب. بهتت وتمزَّقت الأشرطة البلاستيكية المعلَّقة عبر الزقاق، وبدا البائعون، بزحافاتهم وبطارياتهم وملابسهم الداخلية الخشنة المغلَّفة بأكياس بلاستيكية منفصلة، كأنهم استسلموا لعدم بيع أي شيء، وأصبح بيض دجاجتنا أصغر كأنها كانت تصارع لتخرجه.

ولم تمطر السماء لأسابيع، كما أصبح العشب مرقَّعاً وتحوَّل إلى اللون

البني، ويي با يشكو من قوارب الصيد التجارية التي تأتي من فوزهو بشباكها الكبيرة التي يمكنها أن تبتلع جميع الأسماك، وحصل على وظيفة تعليب الأسماك في أحد المصانع الجديدة، فقام بتأجير قاربه لصياد أصغر في السن، لكن المصنع أُغلق وانتقل إلى المدينة فاضطر إلى أن يعيد باقي إيجار الصياد ويسترجع مركبه مرة أخرى، في خلال الأشهر الثلاثة التي عمل بها في المصنع كنا نتناول اللحم البقري على العشاء مرتين في الأسبوع، والتوفو المجفَّف للوجبات الخفيفة، وحصلت على قميص برتقالي جديد، ورغم ذلك كنت خرقاء ومزَّقت الكُم أثناء مشاجرة مع ليلينغ وفانغ. افتقدت مضغ التوفو، كنت أترك القطع في جانب فمي لأكافئ نفسي بسيل من الملح.

انتقلت فانغ إلى البلدة للعيش مع إحدى عماتها، وكنت أطلب من ليلينغ وأنا في بيتها أن تسمح لي بالنظر في كتاب قديم به صور للمواقع الوطنية، وصور بالأبيض والأسود لشلالات المياه الملبَّدة بالضباب، والكثبان الرملية العملاقة، ومعابد بكين والسور العظيم. جميع الأماكن التي أردت الذهاب إليها، وكانت تقول وهي تشاهدني: «اقلبي الصفحات ببطء»، وبعد أن اجتازت ليلينغ اختبار دخول المدرسة الثانوية، قالت إنه يمكنني أن أحصل على الكتاب، فلم تعد تحتاجه بعد الآن، ولكن عندما نظرت إلى الصور في المنزل لم تعد تُلهمني.

كنت أغسل الملابس بعد ظهر أحد الأيام في نهاية فصل الصيف، حينها كنت في الخامسة عشرة من عمري. لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك حتى يبرد الطقس، وكانت الملابس بحاجة إلى الغسيل، على الرغم من عدم جدوى غسلها في مثل هذه الرطوبة. ملأت الأحواض البلاستيكية وعصرت الملابس وعلَّقتها قطعة تلو الأخرى، وكانت الملابس الداخلية ليي با وقمصاني ذات الأكمام القصيرة، ترفرف كالمربعات على الحبل بألوانها الرمادية والحمر والبيض. سمعت صوت صرير خافت فنظرت ووجدت جارنا هايفينغ، كان أطول من آخر مرة رأيته فيها، يحدِّق بي مستقلّاً دراجة هوائية.

قال: «بيلان، هل ترغبين في الركوب؟»**.**

كان يي با يُطلِق عليه الفتى الجبان، وقال: «هذا الولد ناعم كالوسادة»، عندما سمعنا والديه يوبِّخانه بقسوة لفشله في اجتياز اختبار دخول المدرسة الثانوية، ولكنني شعرت بالأسى حيال هايفينغ نوعاً ما، فكثير من أطفال ميانيانغ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الصف التاسع الدراسي، فكانت فرصة الذهاب إلى الجامعة والانتقال من طبقة الفلاحين بالنسبة إلينا جميعاً مثل الطيران إلى القمر الملعون.

التصق شعر هايفينغ الداكن بوجهه بسبب حر الصيف، وكان شعره خفيفاً من فوق جبهته، مما جعله يبدو أكبر من سنه. كانت أطرافه طويلة ونحيلة، ولكن لديه عضلات متوسِّطة في سمَّانتيه وساعديه، مستديرة بقوة وغير مرئية، ومفاجئة!

لم يكن لديَّ أي شيء مهم للقيام به، فقفزت على رفِّ الدرَّاجة وقمت بموازنة الجنبين، كنت أهشُّ الناموس من على وجهي، ودغدغ العشب الطويل قدميَّ. قاد هايفينغ الدراجة وكانت السماء واسعة ومشرقة، وأصدرت العجلات أصوات الصرير، بينما كنا نندفع داخل الحقول. شممته، وكانت رائحته مثل الملح.

وقلت: «هيا نذهب إلى النهر»، وكنا في طريقنا بالفعل.

تحدَّثنا عن عائلتنا في اليومين الأول والثاني من ذهابنا إلى النهر، أخبرت هايفينغ أن أبي غضب لأنني لم أهتم باختبار دخول المدرسة الثانوية، على الرغم من أن يي با لم يقل ذلك. قال هايفينغ إن والديه غضبا، ولكنه شعر بالارتياح.

«أكره المدرسة». أحسست بشعور عظيم عندما قلتها بصوت مرتفع.

فقال: «وأنا كذلك، أساعد أبي في زراعة المحاصيل، فهذه الأرض ستصبح ملكي يوماً ما».

قال هايفينغ إنه أُعجب بي عندما قاومت المدرس وو «قد كنتِ شجاعة للغاية، ولم تبكِ حتى عندما ضربك على ظهرك».

«لم تؤلمني الضربة». لا أتذكَّر أن هايفينغ قد ضُرِب في المدرسة، فهو لم يكن مشاكساً، لكنه لم يكن طالباً جيداً كذلك، في الواقع بالكاد أستطيع أن أتذكر أنه كان معنا في الفصل «هل أنت صديق رو؟»، سألته على الرغم من عدم تذكُّري أنني رأيتهما معاً «ماذا يفعل في فصل الصيف؟».

«لا أدري».

«إذاً فمن أصدقاؤك؟».

«كنت صديقاً لغوانغ في الصف الرابع، ولكن عائلته انتقلت من هنا». قلت له في اليوم الثالث: «دعنا نقُم بشيء مختلف».

واتكَّأت وقبَّلته، فلم يقل أي شيء.

(...).

كان يهرع إلى منزلي كل يوم بعد أن ينهي عمله مع والده. أعجبني الاهتمام، ولكن لم أشعر بنفس الإثارة تجاهه. كانت عضلات هايفينغ جميلة، ولكنه كان واضحاً للغاية ومبدياً للامتنان، فكنت أصده في بعض الأيام، ولكن في الوقت الذي انتهيت فيه من واجباتي المنزلية، وبالكاد بدأت فترة بعد الظهيرة، وأردت أن أتحدث إلى أحد، وعندما عاد هايفينغ في اليوم التالي، قفزت إلى الدراجة دون أن أنطق بكلمة واحدة.

استلقيت بجانب النهر، وشاهدت السماء والسحب المنجرفة، وشاهدت نفسي أنطلق إلى الشمس. لا تفعل الفتيات الأخريات ذلك، كنت غير كل البنات. قال هايفينغ: «أنتِ جميلة للغاية»، وأخبرني عن مدى حبّه لي، وكيف أن شفتيَّ تشبهان قمة قلبين مقسومين، حتى إنه أحب الشامة الموجودة على جانب رقبتي.

وفي صباح أحد الأيام حاصرتني أم هايفينغ في الزقاق وأمسكتني بقوة من رسغي، وقالت: «ابتعدي عن ابني»، فتخيَّلت السيدة لي وهي تجلس القرفصاء فضحكت، أمسكت شحمة أذني ولفَّتها، فانهمرت دموعي فجأة شاعرة بالإهانة.

غضب هايفينغ عندما اكتشف أن أمه تحدثت معي وقال: «ليس لديها

الحق في فعل هذا، ليس لديها الحق»، وكان يعدو على ضفة النهر ويسير على الحشائش. قصَّ شعره مما أوضح مدى بروز أذنيه حول وجهه.

«لا بأس». افتقدت المقدرة على الذهاب إلى النهر بمفردي، فأخبرت هايفينغ ذات مرة أنني أريد فعل ذلك، فتراجع إلى الخلف وظهرت نظرة ألم على وجهه، ولم أستمتع حتى بوحدتي.

«سوف أراكِ في أي وقت أريد، لا يمكنها أن تخبرنا ماذا نفعل، يمكن أن تكوني زوجة ابنها في يوم من الأيام، فماذا ستقول في ذلك الحين؟».

وقفت وفردت ملابسي وقلت: «لا بد أن أذهب إلى المنزل» (...). كنت دائماً أرجع إلى المنزل قبل أن يعود يي با من النهر، وأحرص على أن أذهب مع هايفينغ عند الجزء المخفي من ضفة النهر خلف الأشجار والحشائش، ولكن إذا أمسك بنا أبي، أو أخبرته والدة هايفينغ أن ابنته تتسكَّع مع ابنها، فربما يضع حداً لهذا الأمر، أو حتى يبعدني عن هنا.

بدأ الأمر على أنه شائعة: توقفت المدينة عن ترحيل المهاجرين الريفيين. لا يمكن للقرويين الحصول على إقامة دائمة، ولكن يمكنهم شراء تصاريح إقامة مؤقتة والحصول على وظائف أفضل من الصيد والزراعة. غادر ولدان أكبر سناً من الزقاق رقم (5) إلى فوزهو، عاصمة المقاطعة، وعادا إلى المنزل يتفاخران بالمباني ذات الطوابق الستة والنساء اللواتي يرتدين بناطيل مثيرة. بعد ذلك غادر مزيد من الأولاد للعثور على وظائف في المصانع هناك. لم تضطر أي فتاة إلى مغادرة القرية إلى المدينة بعد، ولكنني كنت أعلم أن الرحيل من أجل كسب المال سيبدو أقل ريبة من الرحيل لأُصبح شخصاً جديداً. لم أذهب إلى فوزهو من قبل على الرغم من أنها على بعد بضع ساعات، ولم أكن واثقة كيف سيبدو العمل في المصنع، ولكن ما أعرفه فقط هو أنني سأجني المال، ولن أضطر إلى الجلوس مع يي با في وجبات العشاء الصامتة وأشاهد فمه وهو يمضغ الأكل بتجهُّم.

وعندما سألت هايفينغ إذا كان يرغب في الانتقال إلى المدينة، بدا مرتبكاً ثم منزعجاً، وقال: «لا، أنا أحب المكان هنا».

فأخبرته أنني أفكر في الذهاب «إلى فوزهو؟ الأولاد فقط يمكنهم الذهاب».

في سوق المنتجات سمعت آباء زملائي السابقين في الفصل يتحدثون عن أبنائهم، وكيف يرسلون إلى الوطن مائتين وخمسين يواناً شهرياً، فقالت إحدى النساء ما زال ابنها في المدرسة للآخرين: «ألا تشعرون بالقلق على أبنائكم وهم بمفردهم في مدينة كبيرة؟ يوجد هناك جميع أنواع الفتيات اللواتي يعشن في عنابر سكنية ولا يوجد إشراف».

أسرعت إلى المنزل وأنهيت جميع الأعمال المنزلية المتبقية، وأعلنت على العشاء: «سأذهب إلى المدينة للعمل في أحد المصانع».

فقال يي با: «لا يعمل في المصانع إلا الأولاد».

«إنهم يوظِّفون الفتيات أيضاً، لديهم في المصنع الذي يعمل به ابن السيدة غيا عنابر منفصلة للفتيات، ويكسبن ثلاثمائة يوان في الشهر».

كانت الغرف داخل شركة فوزهو لتصدير الملابس تصدر همهمة مئات المحركات لماكينات الحياكة، والبخار على النوافذ من الحرارة الحارقة للحديد المسطَّح. كانت وظيفتي قصَّ الخيوط الزائدة من الملابس. أجلس طوال اليوم على منضدة طويلة في الجانب الجنوبي من الطابق الرابع، وأقص الخيوط من أكوام الجينز الأزرق. آلمتني يدي بشدة ولكنني كنت أعمل بجد حتى لو كان الجو حارّاً للغاية، لدرجة أنني كنت أشعر كالخضراوات التي تُحمَّر في مقلاة، وكان العرق يقطر على النسيج، ولكن لم يكن لديَّ الوقت لأمسحه. لم أستطع أن أترك المقص لثانية واحدة كي ألاحظ طريقة تسرُّب الشمس من خلال النوافذ، أو أتعجَّب من وجود عديد من الظلال الزرق المختلفة على قطعة قماش دنيم مربعة، واصلت ملابس الجينز في القدوم، ولو تأخَّرت للحظة كانت تسبُّني الفتيات الموجودات على آخر الخط، ويقوم فورمان تونغ بالخصم من أجري.

امتلأت المدينة بفتيات مثلي، وهنَّ فتيات أقسمن ألا يعدن إلى الوطن مرة أخرى. أردت أن أشق طريقي إلى مصنع أفضل به عنابر أكبر للنوم، وفي النهاية أحصل على شقتي الخاصة مثلما فعلت ابنة عم صديقتي تشينغ.

لم تكن فوزهو مثل صور بكين التي شاهدتها في كتاب ليلينغ القديم، حيث تتفرَّع الأزقة إلى شوارع مغمورة بعوادم الدراجات البخارية، والطرق السريعة ممتلئة بالحفر الصغيرة، والهواء يعجُّ بأصوات المناشير الكهربائية والمطارق، وتنام كل ست عشرة فتاة في غرفة واحدة مقسَّمة إلى صفَّين من الأسرَّة ذات الطابقين، والحوائط مزيَّنة بصور مقطوعة من المجلات للفنانين والمطربين والمناظر الطبيعية للجبال والبحيرات. تتدلَّى دُمى الحيوانات المحشوَّة من أعمدة السرير، ودُمى الدببة بالألوان الخضر والوردية، وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً كنا نقف في طابور الحمام ونشتكي من طول فترة الدوام الممتدة لثلاث عشرة ساعة، كما لو كنا نساء أكبر في السن، ونتناقش حول آلام الكتفين ونقلِّد فورمان تونغ. كنت بارعة في التقليد، وأتكئ على السرير وأقول: «هيا أيها الكسالى، هيا أيتها السلاحف!»، فتتفق زميلاتي في السرير على أن هذا مثله بالضبط «ليس سريعاً بما يكفي! لقد فوتِّ خيطاً!»، فتضحك الفتيات الأخريات ضحكاً صاخباً.

أرسلت إلى المنزل مائتين وسبعين يواناً في شهر، ومائتين وأربعين في الشهر التالي. قال يي با عبر الهاتف: «هل جنيتِ هذا المبلغ فقط؟»، فقلت: «سأحاول أن أرسل أكثر، على الرغم من أن المال الذي حوَّلته كان ضعف ما يكسبه يي با من قاربه، وعندما اتصلت لأخبره أنني حقَّقت ثلاثمائة يوان في ثلاثة أسابيع قال: «أعتقد أنني علَّمتك بشكل جيد». أخبرني الجيران فيما بعد أنه كان يتفاخر بي، ويقول إنني أعمل بجد أكثر من أي صبي، وعندما اكتشفوا كم كنت أجني، لم يعودوا يقولون إنه من غير المناسب للفتيات أن يعشن بمفردهن في المدينة، وسمحوا لبناتهم بالذهاب، بل أرغموهن على ذلك.

وسرعان ما اشترى يي با جهاز تلفاز، أكبر تلفاز في الزقاق رقم (3)، وعندما كان يعود إلى المنزل بعد يوم سيئ في البحر يجد أربعة أو خمسة أطفال ممدَّدين أمام التلفاز وأفواههم مفتوحة وهم يشاهدون مسلسلاً تاريخيّاً غامضاً، وبحلول الليل يرتفع هذا الحشد إلى تسعة أو عشرة أو أحد عشر أو أربعة عشر طفلاً، يقشِّرون الفول السوداني بأسنانهم ويلقون بالقشر على

الأرض، وعندما يمشي يي با خارج المنزل يتفتَّت القشر وينحشر في أقدامه، وتخيَّلته يقول: «عودوا إلى منازلكم»، ولكنه لا يعني هذا في الواقع، فقد شعر بالحزن عندما اشترى آباؤهم أجهزة التلفاز من الأموال التي يرسلها الأبناء الأكبر من المدينة، وعادت لياليه هادئة مرة أخرى.

وبعد شهرين من مغادرتي ميانيانغ، وصل هايفينغ إلى المدينة بعد أن أرسله والداه، وبينما كنت أقصُّ الخيوط، كان يضع البكرات البلاستيكية في شرائط الكاسيت بأحد مصانع الإلكترونيات على الجانب الآخر من الطريق السريع، ونادراً ما كان لدينا نفس أيام العطلات، وعندما وصل في البداية، كان يتصل بي على الهاتف المشترك الموجود بعنبر النوم كل أسبوع، على الرغم من أنه نادراً ما توصل إليَّ. لم أفكر فيه كثيراً، كنت أفتقده فقط في الأوقات القليلة التي كنت فيها بمفردي وأشعر بالقلق لأنني لم أكسب ما يكفي ليي با.

وغالباً كنت أقضي وقت فراغي مع شوان وتشينغ. كان لدى ثلاثتنا بناطيل جينز متماثلة، زرقاء اللون وضيِّقة وبها نجمة فضية على كل جيب من جيوب الظهر، وكنا ننزل إلى الشارع في فترات ما بعد الظهيرة ونشبك أذرعنا، ونتحرَّك بشكل متزامن كأن العالم قد خُلِق فقط من أجل مشاهدتنا، وكنا نرقص على أغاني شرائط الكاسيت التي تشغلها تشينغ على جهاز الووكمان، وكانت أغاني موسيقى البوب عن الحب الحقيقي وتفتيت القلوب، وحفظت كلمات الأغاني؛ كتبتها في مفكرة وردية جميلة. انطلقت أصوات الموسيقى من سماعات كبيرة لأحد المتاجر، به رفوف شرائط كاسيت ملوَّنة، وكانت أغنياتي المفضَّلة عن الفتيات اللواتي تلقَّين معاملة سيئة من الصبيان، لكنهنَّ سعيدات الآن وهن بمفردهن.

كانت شوان أجمل فتاة في غرفة سكننا، شعرها كثيف وشفتاها منفوختان، ولديها عاشق من سكان المدينة، رجل يقرب عمره من الثلاثين، أما حبيبها الذي مكث في القرية من أجل المدرسة الثانوية فلم يكن يعلم بأمر الرجل الأكبر سنّاً. سألتها لماذا لم تترك حبيبها فقالت إن عليها الاحتفاظ بخياراتها، لأن عاشقها من

المدينة لديه خطيبته بالفعل التي تملك إقامة مدنية، وأنها لا تريد الزواج به على أي حال، فقد اشترى لها السترات والأحذية المدبَّبة، وكان يعطيها أموالاً لتنفقها فكانت ترسلها إلى أشقائها الأصغر سنّاً، انبهرت بمدى واقعيتها (...).

وفي إحدى الليالي عدت متأخِّرة إلى السكن، وكانت تشينغ وشوان قد خرجتا لتناول الطعام من دوني، واستمعت إلى رفيقات سكن أخريات يتحدَّثن عن الحصول على وظائف في مصانع أحدث. كانت الغرفة حارَّة ومكدَّسة، ومر وقت طويل جداً منذ أن استنشقت هواءً نقياً أو شاهدت البحر.

نزلت إلى الطابق السفلي وانتظرت أمام كشك الهاتف، وتوصَّلت إلى هايفينغ بعد أن مررت بثلاثة أشخاص على الجانب الآخر من الخط.

«بيلان لقد مرت شهور منذ أن تحدثنا».

«لقد اتصلت بي يا هايفينغ، لقد اتصلت بي. أتستطيع أن تقابلني الأسبوع القادم؟» (...).

«لقد افتقدتك بشدة»، وقبَّل هايفينغ وجنتيَّ وكتفيَّ «حبيبتي». دخَّنت إحدى سجائره بينما كان نائماً، ونظرت من النافذة الملطَّخة على سقالات البناء لأحد المباني الأخرى تحت الإنشاء، ثم غادرت مبكراً إلى السكن.

تأخَّرت دورتي الشهرية لمدة شهرين على التوالي. لا أدري كيف أخبرك عن مدى رعبي حينها، وساءت مهارتي في القص لدرجة أن فورمان تونغ قال إنه سيفصلني عن العمل لو لم أتحسَّن. قال هايفينغ في غرفة الفندق الصغير أشياء مثل: «عندما نعود إلى القرية»، و»عندما نعيش معاً كزوج وزوجة». ظللت مستيقظة أثناء الليل، وتصوَّرتُ المسيرات الطويلة عبر القرية مرتدية ثوب الزفاف الذي يؤجَّر بالساعة، مهترئاً عند الإبط من عرق العروس الأخيرة والتي قبلها، والجيران يهمهمون عن ليلة الزفاف القادمة. إذا أخبرت هايفينغ أنني حامل سيتصرَّف وكأن الزواج أمرٌ محتومٌ، وسيتوقَّع أنني سأكون سعيدة، أو الأسوأ من ذلك، ممتنَّة، وتوقَّعت الأمر حتى النهاية، كل سنوات عمري: القرية، الزقاق رقم (3)، والأطفال، وأنا وهايفينغ نتبادل الكره حتى الموت.

وفي يوم دفع الرواتب استعرت جهاز الووكمان من تشينغ وذهبت إلى متجر الموسيقى، واشتريت شريطاً بالنقود المفترض أن أرسلها إلى يي با. سرت وسرت حتى وصلت إلى الطريق السريع، أتت حافلة وفتحت بابها فدخلت. سألني السائق إلى أين أريد الذهاب، وقبل أن يُغلق الباب قفزت إلى الخارج، وحتى وقتنا الراهن، فعلت كل ما أريد دون التفكير في التبعات. تباً! وسرت بمحاذاة الطريق السريع. مرَّت الشاحنات مطلقةً أبواقها ومخلِّفةً وراءها سحباً من الأتربة. اصطحبت بعض النساء المتزوِّجات أولادهن إلى المصنع، وغفا الأطفال على أكوام بناطيل الجينز من المقاسات الكبيرة في انتظار شحنة إلى المخازن الأمريكية، لكنني أردت العودة إلى الوطن، إلى القرية حيث يقوم يي با بالاعتناء بي.

بالطبع كنت وحيدة، ولكن كان يجب عليَّ أن أعرف حلّاً أفضل من أن أقابل هايفينغ في الفندق الصغير. كنت أعلم أننا نخاطر، لكن لم أفكر أن الأمر سينتهي بي وأنا حامل. ما الفرص المتاحة الآن؟ ولكنَّني وقعت في الفخ، وأثبتُّ أن أبي كان محقاً. كان يي با يعتقد أن أي مكروه يحدث لامرأة هو خطؤها، مما جعلني أشعر بالغثيان. إذا ظلَّت المرأة دون زواج، فذلك خطؤها لأنها قبيحة أو مستقلة، وإذا أخلصت المرأة بشدة لزوجها، فهذا خطؤها لأنها عاطفية ويائسة. إذا عرف الزوج فتاة غير زوجته، فذلك خطأ الزوجة لأنها تسبَّبت في إبعاده عنها، وخطأ كلٍّ من عشيقته وزوجته لأنهما سمحتا له باستغلالهما. لو أخبرت يي با، عندها سيكون هو والجيران مقتنعين أن هذا ما كان دائماً وراء تبجُّحي، فتاة من شأنها أن تفعل ما كان متوقعاً منها بالضبط.

وفي الوقت الذي عدت فيه إلى المهجع، كان الظلام قد حلَّ وآلمتني أقدامي. كانت تشينغ غاضبة مني وظنَّت أنني سرقت الووكمان الخاص بها، وهكذا انهرت وأخبرت صديقاتي.

قالت شوان: «عليك إجراء العملية، إن الأمر ليس بهذا السوء، فقد فعلتها ذات مرة، إنها مؤلمة، ولكنك ستتغيبين عن العمل يوماً واحداً، وسوف نأتي معكِ».

وقالت تشينغ: «يوجد مستشفى على الطريق السريع».

اتصل هايفينغ بالسكن وسأل عني، ولكنني لم أعاود الاتصال به، ولم أتحدَّث إليه مطلقاً مرة أخرى.

في المستشفى جلست امرأة ترتدي نظارة مستطيلة على مكتب يعوق الباب المؤدي إلى غرف الفحص، وقالت: «بطاقة الهوية» لم تتمكَّن شوان وتشينغ من الحصول على إجازة من العمل، وقلت لهما إنني سأكون على ما يرام بمفردي، لكنني كنت أتمنى أن يكونا قد أصرا على القدوم، حتى لو كانتا ستفقدان أجر اليوم، كنت لأفعل نفس الشيء من أجلهما.

سلمَّتها بطاقة هويَّتي، فتجهَّمت وقالت: «لست مؤهلة لتلقي الرعاية الطبية هنا لأنك غير مسجلة بصفتك شخصاً من المدينة، فإقامتك ريفية، لذلك يمكنك فقط الذهاب إلى مستشفى في المناطق الريفية، عليك الذهاب إلى مستشفى في منطقة قريتك».

عدت إلى المبنى السكني وسقطت على سريري، وضربت دمية الدب البرتقالية الخاصة بتشينغ بقدمي. لم أتمكَّن من تذكُّر آخر مرة كنت فيها وحيدة، على الرغم من أن كل يوم كنت أشعر بالوحدة أكثر من اليوم الذي قبله. تقلَّصت معدتي بسبب الروائح الكريهة الصادرة من عرق الأجساد الكثيرة الموجودة في مساحة صغيرة. كنت واهنة وأبعدت طاولة القص وكأن ظل النافذة ينسدل فوق عيني، وفاتتني بعض الخيوط، وثقبت بعض البناطيل دون قصد، وأصبحت أكوام الجينز أكبر وأطول.

بعد ذلك فصلني فورمان تونغ من العمل. أكدت لي شوان وتشينغ أنني لو ذهبت ببطاقة هويتي إلى مستشفى ريفي فلن يستطيعوا إبعادي. قلت لهما إنني سأعود إلى المدينة في الأسبوع التالي لأجد وظيفة أخرى، وفي آخر صباح لي بالمصنع، تسلَّلت لاسترداد حقيبتي عندما كان الجميع في أعمالهم (...) وتركت مفكرتي المكتوب فيها كلمات الأغاني، ومجموعتي الصغيرة من شرائط الكاسيت، فلم يكن لديَّ جهاز تشغيل شرائط لأسمعها.

وأخذت حافلة صغيرة مباشرة إلى المستشفى الريفي وأظهرت بطاقة هويتي: «أنا من سكان الريف».

«هل سيقابلك خطيبك هنا اليوم؟».

«لست مخطوبة».

«هل لديك حبيب؟».

«بالتأكيد...»

«تشير بطاقتك أنك في الثامنة عشرة من عمرك فقط، ولا يمكنك الحصول على تصريح زواج إلا عند سن التاسعة عشرة، ويكون صديقك في الحادية والعشرين، وبعد الزواج يجب أن تكوني في سن العشرين لتحصلي على تصريح بالولادة».

«حسناً، هل يمكنني إجراء العملية اليوم؟».

«ليس دون موافقة الأب، ودون وجود التصاريح المناسبة للحمل، عادةً تكون هناك غرامات، ولكن بما أنك تحت السن القانونية للزواج» نظرت الممرضة إلى الردهة وأشارت إلى أحد الأبواب «من فضلك، اجلسي على أحد المقاعد داخل هذه الغرفة، سأعود خلال دقيقة».

انتظرت ولكن لم تعد الممرضة، وكلما مر الوقت زاد قلقي، فقد رأيت أفراد تنظيم الأسرة يسحبون النساء الحوامل إلى المستشفى، ثم ترجع النساء إلى المنزل مقهورات وأصغر حجماً لكن دون أطفال، كما سمعت عن توقيع غرامات على المتزوجين بسبب الحمل دون تصريح، وإجبارهم على سداد ما يعادل خمس سنوات من متوسط راتب المقاطعة، أما بالنسبة إلى غير المتزوجة، ربما تكون الغرامة أكثر حدَّة، على الرغم من أنني لم أسمع أبداً عن أي امرأة في ميانيانغ تعلن الحمل دون تدخُّل الأب، وإذا أخبرت هايفينغ، ربما تُأخذ مقاساتي لثوب الزفاف.

سمعت رنين هاتف وخطوات وأصواتاً وصنبوراً جارياً، وعلى الطرف الآخر من الممر اثنان من الممرضين يدفعان سريراً، عليه شخص يلهث

ومربوط بالسرير. أردت أن أخطو إلى الردهة وأعلن أنني حامل دون تصريح، فلا يضطرون إلى القدوم إلى الزقاق رقم (3) وإجباري على الذهاب إلى المستشفى. هأنذا! إلا أن الممرضة قد ذكرت الغرامات، وحتى سداد ما يعادل سنة واحدة من متوسط راتب المقاطعة سيؤدي إلى إفلاسي ويي با. كانت الطريقة الوحيدة لتجنُّب المصاريف هو طلب تصريح زواج بهايفينغ، حتى لو كنا تحت السن القانونية، أو يمكنني المغادرة قبل عودة الممرضة.

كان الممر خالياً، فسحبت نفسي من على الكرسي وركضت عكس الاتجاه الذي ذهبت فيه الممرضة، ونزلت الدرج ثم خرجت من المستشفى حتى وصلت إلى محطة الحافلات. كانت السماء زرقاء وفي غاية الصفاء، ومذهلة في سكونها، لدرجة أنني أردت أن أبكي.

أصبحت القرية مختلفة بعد سنتين. انتشرت القصور، وبنيت بأموال أولئك الذين ذهبوا إلى أبعد من فوزهو، إلى أماكن مثل نيويورك ولوس آنجلوس. قصور ذات أسقف صدفية، ونوافير عليها تماثيل من الجبس للسمك الذهبي، وبوابات مثل المفارش المعدنية، وشرفات من أربعة طوابق، ونوافذ كبيرة بحجم البحيرة.

قال يي با: «ذهب الجميع إلى أمريكا». أخبرته أن المصنع منحني إجازة بما أننا قمنا باستيفاء طلبات الموسم، غاصت عيناه أكثر إلى الداخل، وكانت رائحة السمك تفوح من بنطاله، وبعد أن اعتدت تناول الطعام في غرفة بها مائة شخص يتحدَّثون في نفس الوقت، أصبحت وجباتنا الهادئة أمراً غريباً.

وبعد مرور ثلاثة أيام، طهوت الخضراوات، وجمعت بيض الدجاجة، وكنست الأرضيات، وفركت الغسيل. افتقدت المدينة، وبخاصةٍ خلال فترات بعد الظهيرة المشمسة اللامتناهية، كنت أعرف أنه يجب عليَّ أن أفعل شيئاً قريباً، ولكن أستيقظ كل صباح متجمِّدة وغارقة. كان من الممكن أن آكل ملعقة من سم الفئران، ولكنني لا أرغب في الموت، أو أذهب إلى المستشفى وأجرب حظِّي مع ممرضة أخرى، لكن ماذا لو قابلت شخصاً أقل تعاطفاً ووقع عليَّ غرامة بست سنوات من الدخل، أو أصر على إخبار يي با؟

لقد عفَّى الزمن على ميانيانغ. ممرات الأزقة الملتوية، وقوارب الصيد بشباكها المتدلية، والدهانات المقشَّرة لجوانب المنازل، والستائر الخضر الباهتة المتدلية من نوافذنا. كل ذلك قد انتهى، مثلي.. كان هناك رسمٌ بالطباشير على جدار أحد المنازل لقطَّة كبيرة وقطَّتين صغيرتين. تذكَّرت قطة ضالة رأيتها في المدينة، محاطة بمجموعة قطط صغيرة لونها وردي مثل الدم، وكانت مستلقية ومقهورة وراضية، بينما القطط الصغيرة تتدافع بعضها فوق بعض كي ترضع.

سرت إلى أحد القصور الجديدة وضغطت بوجهي على البوابة، كانت رائحة البلاط مثل المطر والوحل، فابتعدت ببقعة تراب على أنفي، وعند النهر ضغطت بعصا على الوحل وخدشت الأرض، في محاولة أن أرى ما الذي تحت الماء. الجانب السفلي لأوراق الشجر الميتة والأسماك، ومررت على حوض السفن حيث يجلس الصيادون (...) متحدثين عن الفتيات الذين يدَّعون علاقاتٍ بهن، وكز أحدهم زميله بالمرفق عندما مررت من أمامهم، وقال إنه يحب أن تكون فتياته ممتلئات، فأسكته صديقه قائلاً: «هذه ابنة غوو الكبرى أيها الأبله!»، وفي سوق المنتجات، رأيت زوجة المعلم وو، رئيسة مجموعة تنظيم الأسرة تساوم أحد البائعين على شراء الكرنب، فأسرعت عائدة إلى الزقاق رقم (3).

ومر أسبوع وكنت أنام طوال الوقت، كنت أنام على المنضدة، أو بينما أقف عند الحوض، وأستيقظ على صوت شديد، أو عندما ترتجف قدماي. سيطر عليَّ النوم، وشعرت أن النوم قد دمَّرني، ولكن قبل أن أستسلم بلحظات، وصلت الحقائق المظلمة. لقد أخفقت، سأضطر إلى أن أتزوَّج هايفينغ.

استيقظت على صوت أم هايفينغ ويي با يتحدثان بالخارج في الزقاق.

قالت أم هايفينغ: «لا بد أنها مرهقة من كل ذلك العمل، قال لي هايفينغ إنهم يعملون ثماني أو تسع ساعات في المصنع».

فقال يي با: «ثمانٍ؟ هذا لا شيء».

«إن المدينة قاسية جداً بالنسبة إلى فتاة صغيرة، ولكنني كنت واثقة أنها

ستعود إلى البيت عاجلاً أم آجلاً. كثير من الناس يسافرون إلى الخارج الآن، الأفضل أنها عادت إلى الوطن».

«لقد نضجت، وتعرف إلى أين تنتمي».

«كان المصنع مجرد مرحلة، تختبر فيها حريتها».

وضحكت أم هايفينغ «يمكنك أن تكون سعيداً أنها انتهت».

فجلست على السرير، كان يي با يأخذ المال الذي أرسله ولا يشتكي، وسمعته يقول لها: «هل سأدعوكِ زوجة أخي قريباً؟».

فقالت أم هايفينغ: «ليس بهذه السرعة».

«أريد مهراً كبيراً».

«من قال إن مهري ليس كبيراً!».

ومر أسبوعان، وعاد شاب أمريكي مذهل إلى ميانيانغ، وسوف يقيم حفلاً، وهو لم يولد أمريكيّاً مذهلاً، ولكنه كان مجرد قروي مثلنا جميعاً، ولكنه أصبح أمريكيّاً عن طريق السفر بالقطار إلى كونمينغ، ثم سار عبر الجبال البورمية، ثم طار من تايلاند إلى أمريكا، وهناك استقر في وظيفة في أحد مطاعم لوس آنجلوس، وتزوج أمريكية ـ كانت صينية ولكنها تمتلك أوراقاً شرعية ـ ثم حصلت على الجنسية، وادَّخرت أموالاً كافية لسداد ديونه، وأخيراً عاد إلى الوطن في زيارة. كانت عائلته تقيم حفلاً في القصر الذي بناه لهم. أخبرت يي با أنني أفضل أكل روث الدجاج على الذهاب إلى الحفل، فقال إن الأمر سيبدو سيئاً إذا ذهبت كل العائلات إلا نحن.

كنت أعرف هذا الأمريكي المدهش في المدرسة باسم غينغ، وكان ولداً متنمِّراً ومرتبطاً بأولاد الكوادر، وكان يحب أن يتسلَّل خلف الفتيات متحرِّشاً بهن، وفي الحفل قام بتصرف حقير وتظاهر بعدم التعرف إليَّ ويي با، وقفنا في غرفة معيشة أمه بالقرب من تمثال من الرخام الصناعي لولد صغير يداعب ظبياً، وكان التمثال يدور على قاعدة مستديرة تعمل بالبطاريات مطلية

بالذهب. رأيت حواجبه ترتفع، وتبعها انتقال محسوب لملامح الإدراك، ثم استقرت ملامحه على فراغ هزلي «أوه، هذا صحيح، أنتِ بيلان! من المدرسة الابتدائية، تذكَّرتك الآن!».

«كيف حالك يا غينغ؟».

«جون، اسمي الآن جون». كان يكبرني بعامين فقط ولكن ظهرت التجاعيد حول فمه.

«ما أخبار أمريكا؟».

«أوه، إنها جنة.. عالم آخر».

سأله يي با: «ما مقدار الديون التي عليك الآن؟».

«قليلة جداً، بدأت بخمسة وعشرين ألفاً، على الرغم من أن المعدل الحالي أكبر هذه الأيام، لكن السفر أيسر وأسرع، إذا رغبت في معرفة المزيد يمكنني أن أقدمك إليها، فهي موجودة اليوم».

وأشار غينغ جون إلى امرأة بشعر باهت كاليرقة فوق شفتها العلوية، تتحدث مع أحد الجيران. كان يي با قد ذكر امرأة ذات شارب تقوم بإعدادات سفر الأشخاص إلى الخارج، وكيف أنها مسؤولة، على نحو غير مباشر، عن القصور الجديدة في القرية. قلت لا شكراً، فلم أرغب أن أمنحه الشعور بالرضا، ولكن يي با قبل أن يأخذ ورقة صغيرة مكتوباً بها رقم هاتف هذه السيدة.

ونام يي با عندما رجعنا إلى المنزل. لاحظت ثقباً في جوربه، وهو جورب كان قد أصلحه عدة مرات، وتجوَّلت في الغرفة، فشاهدت نفس الأواني والكراسي والقدور الموجودة منذ طفولتي، التي كانت أمي تستخدمها قبل موتها، لكن الأواني الآن متشقِّقة والقدور محترقة من أسفل. كان من الممكن أن أظل هنا، وأنجب الطفل وأعتني بيي با، وأجعله يعتني بي. رأيت منزل هايفينغ من النافذة، كان هناك ضوءٌ بالداخل، وظل السيدة لي تتحرَّك في مطبخها، فابتعدت كي لا تراني، سيعود هايفينغ إلى المنزل قريباً.

رأيت نفسي في بلد جديد ولديَّ شقتي الخاصة، مثل ابنة عم تشينغ في فوزهو. قالت شوان إن المرء يستطيع العيش الذي يريده في أي مكان بأمريكا، بغض النظر إذا كان لديك إقامة ريفية أو مدنية، وكذلك لا يهتمون بأشياء مثل تصريح الحمل.

ناهيك عن الديون، فكانت فلكية لدرجة أنها تبدو غير واقعية، مثل الأموال الوهمية التي تُحرق بجوار القبور في إجازات تشينغ مينغ. انس الرحلة الشاقة، التي بدت غير حقيقية أيضاً، أمَّا المسافات والوجهات فلم تكن سوى كلمات فارغة بالنسبة إليَّ، سوف أذهب إلى مكان لا يستطيع هايفينغ الوصول إليه.

عندما أخبرت يي با أنني سأرحل، تنهَّد تنهيدة طويلة ثم قال: «أنت أيضاً؟ يرحل الجميع عداي، في الوقت الذي ستعودين فيه إلى الوطن، ستكون جنازتي».

«لا تقل هذا».

وأخبرته أنني سأرسل إليه المال، وعندما تستقرُّ الأمور سيلحق بي.

فلوَّح بيده مستبعداً ذلك «سأكون بخير هنا».

وأجريت المكالمة في الصباح، وسألتني المرأة ذات الشارب ما إذا كنت مستعدة للرحيل في أي وقت، فقلت نعم.

استغرق الأمر بضعة أسابيع لجمع المال، شاهدت السيدة وهي تعد دفعتي المقدمة على ضفة النهر، وهي ما تعادل ثلاثة آلاف دولار أمريكي، قد اقترضتها من أقاربي، حيث كانوا على يقين أنهم سيتحسَّن وضعهم وسيزيد دخلهم مع وجود شخص أمريكي في العائلة، أما باقي المبلغ (السبعة والأربعين ألفاً)، فاقترضتها من المرابين، لأحصل على خمسين ألف دولار أمريكي في القرية، كان الأمر سيستغرق أربعين عاماً، أي ما يعادل حياتي العملية، ولكنني كنت آمل أن أسدِّد هذا المبلغ في نيويورك خلال خمس أو ست سنوات.

قادتني شاحنة صغيرة باتجاه الغرب إلى غوانغشي، ركبت قطاراً إلى فيتنام، وآخر إلى شقة مكتظة في بانكوك، حيث تسلَّمت جواز سفر يابانيّاً

مزوَّراً، أعيده بعد الوصول إلى أمريكا، وحلَّقنا من بانكوك إلى أمستردام، ثم إلى تورنتو، حيث أكَّدت أنني لاجئة، وتبعت امرأتين أخريين في صندوق في مؤخرة شاحنة، نقلتنا إلى منزل في نيويورك، وعندما رفعوا غطاء الصندوق، كان بنطالي غارقاً في البول ولساني مسلوخاً من العض. نظرت إلى الأضواء ووجدت الرفوف مزوَّدة بحزم عملاقة من ورق الحمَّام والمياه المعبأة في زجاجات، والسيارات في المرأب كانت أكبر من أكبر السيارات في فوزهو، والمرأب نفسه كان أكبر من الغرفة الرئيسة لمنزلنا في الزقاق رقم (3)، وسمعت الموسيقى وأدركت أن الكلمات كانت باللغة الإنجليزية. حاولت الجلوس، وصرخت: «أنا هنا».

والآن أصبحت مدينة بسبعة وأربعين ألف دولار للمرابين في الصين، يتم تحويلها مرتين شهرياً، إذا أردت تجنُّب معدل أكبر في الفائدة. كنت أعرف ما الذي يحدث لمن لا يسدِّد بالقدر الكافي، أو من لا يسدِّد على الإطلاق. تهديد واحد، ونصل سكين لامع من رجال المرابين، وإما السداد، أو الاختفاء إلى الأبد.

لقد تغيَّرت في مدينة نيويورك، ولم أعد بيلان. اقترحت إحدى الفتيات الأخريات في شقة بانكوك اسم بولي، وهو اسم إنجليزي ويشبه بيلان بعض الشيء، وهكذا أصبحت بولي، ولست بيلان التي تعمل في ورديات لمدة ثلاث عشرة ساعة في مصنع ملابس، نفس العمل الذي كانت تقوم به بيلان في الصين، فيما عدا أنه يجني ثمانية أضعاف المال.

بولي التي كانت تسدِّد إيجاراً باهظاً جداً لتنام في كيس مبطَّن للنوم على الأرض، في الموضع الذي يمنح لأقل رفقاء السكن أقدمية. لم أكن أعتقد أنني سأعيش في قصر مثل الذي شيَّده غينغ جون لعائلته، ولكنني لم أتوقَّع أنني سأعيش في مكان غاية في القذارة مثل شقة شارع روتجرز، في مبنى متكدِّس تشعر فيه بعقدة النقص، وأن الأمور لم تكن أبداً على ما يرام، وتهبُّ الرياح بتيار ثابت محمَّل بالأكياس والعلب والقناني البلاستيكية على الرصيف، في غرفة تتكوَّن من ثلاثة أسرة بطابقين مرصوصين بشكل متقارب جداً، بحيث

لا يمكن للمرأة أن تخرج إلا بالزحف إلى آخر المرتبة. عدت من العمل إلى المنزل منهكة للغاية، ومتعبة من الجلوس لمدة ثلاث عشرة ساعة، وبعد فترة لم أعد ألاحظ الفجوات المتعرِّجة في الحوائط، أو بلاط الأرضيات المقشَّر الذي انكشفت من تحته قطع الأسمنت المفتَّتة القذرة، أو الصراصير أو سقف المطبخ المستمر في التقطير، كما لم يعد يزعجني أن أضع يدي في خزان المرحاض عندما أرغب في دفق الماء. لا بد أن غينغ جون قد عمل لسنوات لشراء القصر ذي الظبي الرخامي.

وصلت إلى نيويورك في أواخر فصل الصيف، وكنت ألعب لعبة عند تقاطع الطرق، أسير في اتجاه أول إشارة مرور خضراء تفتح، وبهذه الطريقة سرت في معظم شوارع حي مانهاتن، وعندما كنت أضل طريقي، كنت أحاول أن أظل تائهة لأطول فترة ممكنة، وأدخل في منعطف تلو الآخر حتى ينتهي بي الشارع إلى الطريق السريع أو إلى النهر، أو إلى أن أسأل أول شخص يبدو صينياً عن الاتجاهات، وبغض النظر عن التعب الذي أصابني، كنت أشعر باليقظة عندما أسير. كان سكان نيويورك متباينين للغاية، ويتحرَّكون بسرعة تفصلهم بوصات قليلة بعضهم عن بعض، في حين يتمكَّنون من تجنُّب الاحتكاك البدني، وفي يوم دفع الرواتب كنت أبذِّر وأركب مترو الأنفاق، وكان أفضل ما في الموضوع عندما أصعد الدرج إلى الشارع، وعند الدرجة قبل الأخيرة أقوم بتوقُّع ما سأراه عندما أصل إلى الرصيف؛ هل ستكون المباني في هذا الحي عالية وبنية أم قصيرة ورمادية؟ أي نوع من الناس يقطنونه؟ وكيف تبدو المتاجر؟ وأتصوَّر نفسي في هذا الحي، في هذه الشقة، في تلك السيارة.

كانت نيويورك أكثر ضجيجاً من فوزهو، وكانت الأصوات مختلفة؛ أجهزة إنذار السيارات، وصخب مترو الأنفاق، وأصوات الموسيقى المدوِّية تخرج من نوافذ الشقق، وبها كثير من المطاعم التي تقدم طعاماً لم أسمع عنه من قبل. كنت أتناوب الطهي مع زملاء السكن، إحداهن تضع الفلفل على اللحم البقري، وصديقة أخرى تقوم بقلي الخضراوات وبالكاد تضع بعض الملح، أما أنا فأعددت كرات السمك، وعلى الرغم من أن المكونات لم تكن بنفس جودة

المكونات الموجودة في الوطن، تسبَّب المذاق في ألم بصدري. كانت حياتي الجديدة غير مستقرة أو آمنة، لكن كل يوم جديد يأتي باحتمالات مختلفة.

كانت ديدي أكثر زميلة توافقت معها في السكن، فقد أتت من قرية قريبة من شيامن، وانتقلت إلى نيويورك منذ ما يزيد على العام بقليل، وعرفتني على أفضل الأماكن لشراء الخضراوات والأسماك واللحوم، وأخذتني إلى مقهى في شارع باي يارد يبيع حساء السمسم الأسود الحلو مع الزلابية الطرية، وكنا نحتسيه بجوار الأطفال الصينيين المولودين في أمريكا، وهم يتبادلون المزاح بصوت مرتفع باللغة الإنجليزية العامية. لم تغادر ديدي الحي الصيني إلا عند الاضطرار، وتقول: «لدينا كل ما نحتاج إليه هنا، فلماذا تذهبين بالقطار إلى كل هذه الأحياء الغريبة؟».

في كل هذه الأوقات كنت معي، وما تمنيته خلال الساعات الطويلة في الصندوق من تورونتو لم يتحقَّق، ولكنك كنت على قيد الحياة، وأقوى من ذي قبل، وتركل بقوة أكبر، اعتدتك ولكنني كنت مرهقة.

سألتني إحدى زميلات السكن: «متى ستلدين أيتها الفتاة؟ غداً؟».

ربما يتسبَّب الطقس البارد في صلابة الناس، ولكن عندما رأيت انعكاس صورتي على نافذة أحد المتاجر بدوت وكأن حجمي تضاعف، هذا الجسد ليس لي بالتأكيد.

هذه بولي وليست بيلان، التي ذهبت إلى عيادة مجانية في شمال المدينة، وكانت هناك طبيبة صينية تتحدث اللغة الصينية الشمالية.

«هل يعلم أبواك بهذا؟»، وسلَّمتني قميصاً ورقيّاً.

«ليس لديَّ آباء».

كان شعر الدكتورة قصيراً، ومقصوصاً عند مؤخِّرة عنقها على شكل رأس سهم، وعيناها داكنة وعطوفة «كم تبلغين من العمر آنسة غوو؟ ستة عشر؟».

جلست إلى طاولة معدنية طويلة، عليها غطاء ورقي أيضاً. برزت قدماي

من القميص الورقي وحملقت في دائرة من الوحل على الأرض، وأخبرت الطبيبة اسمي وعنواني وتاريخ ميلادي، فدوَّنت هذه البيانات في نموذج «لماذا تهتمين بعمري؟ فأنا لا أحتاج إلى تصريح من أي شخص لأكون هنا؟».

«أنت محقة، لا تحتاجين».

كان هناك مجسَّم بلاستيكي على الطاولة يبدو أن بداخله أعضاء، أردت إزالته ووضعه على مكتب الطبيبة، ونظرت إلى النموذج مرة أخرى قائلة: «ثمانية عشرة، آسفة، فأنت تبدين أصغر بكثير، كيف أتيتِ إلى نيويورك؟».

«جئت بمفردي».

«لا بد أن ذلك كان شاقاً؟».

«ليس بالأمر الصعب، فلم أكن خائفة».

فتحت الطبيبة فمها وكأنها ستتكلم ثم أغلقته. قالت: «ارقدي، أسرع قليلاً.. هذا جيد».

تم وخزي أولاً بالأصابع، ثم بلسان معدني بارد، وسألتني الطبيبة عن مسقط رأسي.

«مقاطعة فوجيان، وأنتِ؟».

«تشيغ يانغ».

فسألتها: «وهل أحضرك والداك إلى هنا؟».

«أتيت هنا للدراسة الجامعية، وبعد انتهاء كلية الطب مكثت للعمل».

مرَّرَت جهازاً مربعاً متصلاً بكابل على بطني وأشارت إلى شاشة تلفزيونية بها صورة بالأبيض والأسود لفقاعة غير واضحة «يبدو بخير».

فقلت: «لا أريده»، على الرغم من أنني عشت معك لعدة شهور، فكان من الصعب أن أكون متيقِّنة تماماً.

نظرت الطبيبة إلى النموذج مرة أخرى وقالت: «أوه، لم تذكري هذا»،

وأطفأت شاشة الفيديو «يمكنك الجلوس الآن»، والتفتت إليَّ «لقد تخطيت سبعة أشهر من الحمل».

عدت بالذاكرة إلى الخلف، وحاولت أن أتذكَّر عدد الشهور التي انقضت منذ أن ذهبت إلى الفندق مع هايفينغ، ولكنني بالكاد أتذكر وجهه.

فقالت الطبيبة: «تسعة وعشرون أسبوعاً أو ثلاثون»، وبدا وجهها حزيناً «لا يمكننا إنهاء الأمر بعد أربعة وعشرين أسبوعاً أو ستة أشهر أنا آسفة».

«إذاً سوف أذهب إلى عيادة أخرى».

«هذا هو القانون، لن يقوموا بالأمر كذلك».

كانت فخذاي مبتلَّتين على الطاولة، وبطني ملطَّخة بالسائل.

وسالت مادة لزجة بين أرجلي.

«يمكنني أن أقدم لكِ بعض المصادر، أود أن أحوِّلك إلى طبيب آخر حتى تتلقي الرعاية المناسبة».

«هل يجب عليَّ أن أنجب الجنين؟».

شعرت بالبرودة في بطني، وخفضت الطبيبة صوتها وقالت: «اسمعي، لا تخافي، لديهم مستشفيات جيدة هنا». كانت لهجتها الصينية الشمالية مدنية ومصقولة «كما يمكنني أيضاً أن أزوِّدك بالمعلومات عن التبنِّي».

«لم أقل إنني خائفة».

فرجعت الطبيبة إلى الخلف. كانت صحبة من الشعر الأشيب تبدو على صدغها، وخاتم زواج ذهبي في إصبعها. جلست هادئة في ذلك الثوب الورقي، وصارت الشاشة بيضاء مرة أخرى، فقد سافرت آلاف الأميال فقط لأعلم أنه ليس هناك فرق بين مستشفيات المقاطعات بمتطلَّبات بطاقات الهوية والسن وتصاريح الزواج، وبين هذه العيادة في نيويورك بقوانينها الغبية الخاصة بأربعة وعشرين أسبوعاً مقابل ثمانية وعشرين؛ مجرد أربعة أسابيع.

«هل أنت بخير؟».

فأومأت برأسي وأنا أنظر إلى رجلي. أعطتني ورقة بها أرقام هواتف، وكتيبات عدة باللغتين الإنجليزية والصينية، وعدتها بالعودة لإجراء فحص آخر وشراء الفيتامينات.

غادرت العيادة في فترة بعد الظهيرة، وكان الطقس بارداً وغائماً، ونمت في مترو الأنفاق واستيقظت في نهاية الخط عند بروكلين، وهو حي مليء بالأشخاص ذوي البشرة البيضاء ويتحدثون لغة غير الإنجليزية. بمجرد خروجي من المحطة سمعت أصوات طيور النورس، وشممت رائحة المياه المالحة، ثم مشيت إلى أطراف المدينة وخلعت حذائي وشمَّرت بنطالي الجينز، وخطوت داخل المحيط لأول مرة، ثم تقدمت إلى الداخل. جعلتني المياه الباردة ألوي أصابع قدميَّ وارتطمت الأمواج بقصبتي ساقيَّ بشكل أعنف وأسرع من المياه الزرقاء الداكنة في القرية، إلا أن البحر هنا كان أكبر وأكثر صفاءً وأشد غضباً وظمأً وجمالاً في نفس الوقت، ولا يختلف عن نيويورك نفسها. تقدَّمت خطوة أخرى، ووصلت المياه إلى وسطي، ارتجفت أسناني، ولكن الشعور بالبرودة بدأ يتلاشى.

ولم يعد لديَّ خيار فقد أخفقت، ويجب أن ألد الجنين، أو بالأحرى، يجب أن تلد بولي الجنين.

سمعت صوتاً ينادي من على الشاطئ، لوح إليَّ رجل بيده وكان يقفز إلى أعلى وإلى أسفل، ثم لحقته امرأة، وصاحا وأذرعهما تحثّني على العودة.

لم تكن المياه شديدة البرودة، فصحت باللغة الصينية الشمالية: «لست خائفة».

وتحول الوقوف في المحيط الأطلنطي إلى تحدٍّ، تحدٍّ بالنسبة إلى بولي، الفتاة التي تتحدَّى الصعاب وبوسعها فعل أي شيء، وكانت نيويورك بمثابة هدية موازية من الحياة، وعدم واقعية وجودي هنا أضافت إلى أكثر الأشياء رعباً طبقة من الكوميديا السريالية. ظلت بيلان في قريتها تطعم الدجاج والقطط الضالة وتغسل الكرنب، بينما عاشت بولي خارج البلاد بكيان

إضافي. يمكن أن تتزوج بيلان من هايفينغ أو أي فتى قروي آخر، بينما ستسير بولي عبر المباني اللانهائية في المدن الجديدة. يمكن أن تنجب بولي طفلاً (...)، وقد يُسكِّن الطفل من حدة آلام وحدتي، الوحدة التي تتدفَّق عندما كنت أرى الأزواج والعائلات والناس يضحكون مع أصدقائهم. يمكنني أن أربِّي طفلي على أن يكون ذكيّاً وظريفاً وصلباً.

أريدك أن تعرف أنك كنت مرغوباً، فقررت أنني أريدك.

اعتقد يي با أن الرجال فقط يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، ولكنه كان مخطئاً، وقفت على أصابع قدميَّ في المحيط، منتشيةً ببعد المسافة التي قطعتها للقدوم إلى هنا، وأنجبتك بعد شهرين، وشعرت بالإنجاز الذي حقَّقته وأنني أقوى من أي رجل.

وسمَّيتُك ديمينغ. سمحت لي رفيقاتي في السكن بالبقاء، على الرغم من شكواهن من بكائك الذي يمنعهن النوم في الليل، وفي المقابل قمت بزيادة حصتي في الإيجار قليلاً. حاولت أن أودعك للرعاية النهارية مع الغرباء فلم أستطع، ليس هذا فحسب، بل تركت العمل واتصلت بالمرابين وأخذت قرضاً إضافيّاً مكنني من عدم العمل لمدة ستة أشهر.

لم يخبرني أحد أنه يمكنني أن أمنح شخصاً آخر مثل هذا الحب، وعندما كنت أفكر في أي مكروه قد يصيبك يشتعل الحب قليلاً في قلبي، مثل الطفح الجلدي، ولكن عندما أحملك وأنت هادئ، كان الحب يشعُّ مثل ضوء الشمس الذي يتخلَّل أوراق الشجر، فقد وقعت في الحب! كنت أنظر إليك وأداعبك وأمرح معك وأفكر، هذا إنسان قد تسبَّبت في وجوده. لم أعد أشاهد برامج الجريمة مع زميلاتي في السكن، فقد جعلت العالم يبدو مكاناً خطيراً.

كانت ديدي تعمل في صالون للعناية بالأظافر قائلة إنها ستحاول أن تجد لي وظيفة، ومنحتنا مرتبتها وأخذت كيس النوم. لا أدري إذا كنت تتذكَّر ديدي، ولكن صوتها كان حادّاً وشعرها منكوشاً من الأمام، وعندما كنت تصدر ضجيجاً تحملك فتهدأ وتخرج فقاعات من لعابك، فتمسحها بأسفل قميصها وهي رابطة

الجأش، وبعد أسابيع من النوم لساعة أو لساعتين فقط في المرة، كنت أستجيب لصراخك بشكل تلقائي، وكنت أسمع صرخاتك حتى وأنا نائمة.

لكن الأمر كان مرهقاً، فما مدى احتياجات الطفل، وكيف كنت تسحب شعري وتجذب قميصي وتمسك بجسدي لأنك كنت تمتلكه، أيضاً. كانت زميلاتي في السكن يقلن انظرن كيف يريد أمه، وتداعبك اثنتان منهن وتمرحان معك، فتظهر شظية من الخوف: ماذا لو كنت مطالبة دائماً بالتضحية بنفسي، وأن أكون مهيأة ومستعدة ومتاحة بشكل مستمر؟ ما الذي فعلته بنفسي؟ وبعدها: ماذا دهاني؟ كانت ديدي تحب الأطفال، فقد كبرت وهي ترعى أشقاءها الصغار وأبناء أخواتها وأبناء إخوتها، ومع ذلك وجدت أنه أمر غريب عندما كنت أنطلق وأسير في أرجاء الأحياء لمدة ساعة وأدخن سيجارة: «تخرجين وحدك؟ وليس إلى مكان بعينه؟ لكن لماذا؟»، وكانت دائماً تعرض أن ترعاك.

وتبدأ ديدي في حديثها: «عندما أتزوَّج، وعندما أنجب أطفالاً...».

سألتها ونحن نعد العشاء في إحدى الأمسيات: «كم عدد الأطفال الذين ترغبين في إنجابهم؟».

«اثنان أو ثلاثة، هل ترغبين في المزيد؟».

«واحد يكفيني».

«واحد فقط؟».

أخبرت ديدي بشأن هايفينغ «أعتقد أنني أردت أكثر من مجرد البقاء معه». صببت الزيت في المقلاة وأدرت المقبض الذي يشعل لهب الغاز.

«تمتلكين روحاً حرَّة ولكنك عملية، مثل أختي الموجودة في بوسطن، ستتزوج ذلك الرجل من أجل بطاقة الإقامة، ولكنني تقليدية، وسأتزوج شخصاً أحبه».

قد أسعدني أنها تلقِّبني بالروح الحرة.

كنت أتصل بيي با مرة في الشهر، فيسأل: «كيف أحوال نيويورك؟».

«رائعة، ماذا عن ميانيانغ؟».

«كما هي»، ثم أخبرني عن منزل الجيران الجديد والسجاد الذي يدغدغ أصابع قدميه.

فقلت: «سأحاول أن أجني مزيداً من المال حتى أتمكن من إرسال بعضه إليك».

«تحتاجين إلى مالك أكثر مني، أستطيع الاعتناء بنفسي».

قامت اثنتان من زميلاتي في الغرفة بإنجاب أطفال في نيويورك وأرسلتاهما للبقاء مع أقاربهما في الصين. قالت هيتي، وهي مصفِّفة شعر ذات شعر أشعث: «لا يتذكرون أي شيء عندما يكونون أطفالاً». كانت تطوي ملابسها وتضعها في صندوق تحتفظ به تحت سريرها «إنهم لا يفتقدوننا، ماذا تتذكَّرين عندما كنتِ في نفس عمره؟ لا شيء، أنا متأكدة». كان لهيتي ابن يبلغ من العمر ثلاث سنوات ولم ترَه منذ سنتين ونصف السنة، فهو يعيش مع والديها في قريتها، ويعمل زوجها في مكان يسمى إلينوي «سأحضر ابني عندما يكون كبيراً بما يكفي لدخول المدرسة، بعد سنتين».

أما مينغ، وهي نادلة تدخِّن بشراهة، لم ترَ بناتها منذ خمسة أعوام. كن يعشن مع عائلتها بالقرب من نانبينغ. قالت بصوتها الأجش: «سوف تحاولين الإبقاء عليه معك، ولكنك لن تستطيعي، فقد حاولت الاحتفاظ ببناتي أيضاً، ولكنه كان أمراً مستحيلاً، فمن الذي سيرعاهن؟ فنحن جميعاً نعمل، وإذا استأجرتِ جليسة أطفال فلن تستطيعي سداد ديونك. يجب عليكِ أن تركزي في هذا وإلا ستفشلين، ثقي بي». كانت تُخرِج العنب من كيس بلاستيكي وتمضغه وهي تتحدث «أتريدين عنباً؟».

وأمسكت الكيس فأخذت منه بعض العنب «لا أريد أن أرسله إلى القرية». جلست على سرير ديدي. «لا يوجد سوى والدي هناك، وليس لديَّ أم لتساعده».

قالت مينغ: «الأجداد يعاملونهم أفضل من معاملتهم لك، فهم يعرفون أن الأطفال سيرحلون مرة أخرى، وكبر السن يُليِّن الناس».

فقالت هيتي: «فلترسليه إلى الوطن، هذا هو السبيل الوحيد». قالت مينغ: «إنه بمثابة جليسة أطفال مجانية».

وضحكت المرأتان، ولكن لم يكن الضحك من القلب، ولكنه مجرد ضحك باهت.

في أضيق الفترات الزمنية بين القيلولة والإطعام، كنت أحملك وأستكشف المدينة، ونتجوَّل في جنوب مانهاتن، حيث دفَّأت الشمس مياه النهر. وكان هناك سياج ولا يمكن السير مباشرةً في الماء، لأن المدينة كانت غير آمنة وأرادت احتواء نفسها، فأقاموا الحدود لإبقاء سكانها قريبين. لم أقتنع بهذا الكلام، فأنا أومن أنه يمكننا الرحيل عندما نريد. كان الشتاء قادماً، ولكن أشعة الشمس سخَّنت فروة رأسي، وغنيت: «ما ما ما» بصوت صافٍ وحادٍّ كطيور الصباح، وكنت تتلوَّى فرحاً، ودار الحب حولنا مثل الريش.

في بعض الأيام كنت أنظِّفك وأغير حفاضتك المليئة بالغائط، وأُلبِسك حذاءك وجواربك وقبَّعتك وسترتك، ثم أسحبك في عربة الأطفال وأنزل بك ثلاث مجموعات من السلالم، وبمجرد أن ننعطف عند الناصية تبدأ بالنحيب، فقد حان وقت العودة والصعود بعربة الأطفال المجموعات الثلاث من السلالم، ثم أغيِّر حفاضتك وأنظفك وألبسك ثيابك مرة أخرى، ومن ثم أكون قد فقدت الرغبة في الخروج. كنت تقوم بوخزي لرغبتك في أن تريني نفس الشيء للمرة العاشرة، مثل قميص وردي لإحدى رفيقات السكن أو عملة معدنية وجدتها، وكنت تبكي وتضرب بمعلقة على أرض المطبخ. كنت قد أصبحت بولي منذ فترة قصيرة، وكانت بولي قد ابتعدت بالفعل، فهناك أشياء كثيرة جدّاً في العالم لن أراها مطلقاً.

ومرت الأسابيع والشهور بشكل ضبابي، واختلطت في يوم واحد طويل ورطب، ولم أستطع أن أحصل على قسط كافٍ من النوم، وتكوَّن الجليد

على زجاج النوافذ، وامتنعت الشمس عن السطوع بكامل استدارتها. أصبح الطقس بارداً جداً ولا يصلح للخروج الآن، واصطحاب طفل لركوب مترو الأنفاق لأمر مرهق، فمكثنا بالداخل لعدة أيام، نتحرك بين غرفة النوم والمطبخ والحمام وغرفة النوم، محاصرين في القفص. أنشدت أغاني سخيفة عن الدجاج والسمك الذهبي، وقصصت لك الحكايات عن مراكب الصيد وشجر التين الهندي والمعلم وو. كنت أشاهد التلفاز عندما تكون رفيقاتي بالسكن في أعمالهن، وأصبح الممثلون في أحد البرامج الإسبانية أقرب أصدقائي، يتعاركون ويتحرَّكون بدقة كالساعة، منهم نساء صغيرات هزيلات يرتدين الكعوب العالية والفساتين القصيرة، ورجال يشرقون في قمصانهم ذات الياقات والبناطيل المكوية. أردت أن يكون لي غرفة نوم خاصة مثل الممثلين، وأن أتمدَّد على سرير كبير يكفي لأربعة أشخاص، وشعرت أن الشقة تزداد في الصغر.

وأتى فصل الربيع، ثم فصل الصيف، ومضى عام تقريباً على وجودي في نيويورك، وأصبحت أطول وأثقل وأكثر نشاطاً وفضولاً، وبمجرد أن استطعت الزحف كان لزاماً عليَّ أن أراقبك طوال الوقت، وإلا ستدسُّ يدك في المرحاض ثم تضعها في فمك، أو تبحث عن قطعة طعام عفنة في ركن الغرفة وتأكلها، وتقدم لي صرصوراً ميتاً كأنك تعطيني ورقة نقدية بقيمة عشرين دولاراً، ونفدت أموالي، ولم أرغب في الحصول على قرض آخر، لكن إذا عدت إلى العمل سأضطر إلى أن أدفع لأحدهم كي يرعاك. قد كانت رفيقاتي في السكن على حق، فالديون كثيرة وأنا متأخِّرة في السداد، ويجب أن أرسل أي نقود إلى يي با. كان راتب ديدي في صالون العناية بالأظافر يوفر الطعام لعائلتها بالكامل في قريتها، وحتى غينغ جون اشترى منزلاً لأمه.

وسألت ديدي رئيستها في العمل إذا كانوا سيوظفون فنيّاً آخر للعناية بالأظافر، فقالت لها إنهم لا يحتاجون إلى أحد الآن، ولكن ربما لاحقاً. لم أستطع تحمُّل كل هذا، فيجب أن أسدِّد القروض، وسيستغرق ذلك سبع أو ثماني سنوات أخرى، أو أقل لو حصلت على وظيفة براتب أعلى (...) كانت وظيفة النادلة من أفضل الوظائف، خاصة في مطعم ياباني أو تايلاندي، حيث

يدفعون أكثر من المطاعم الصينية، على الرغم من أن جميع المطاعم كان يديرها صينيون، لكن الحصول على وظيفة نادلة كان صعباً دون علاقات جيدة.

حصلت على وظيفة في أحد المصانع بدوام أقصر، كنت أخيط القمصان لمدة ست ساعات في اليوم، وكانت تكفي لسداد الحد الأدنى إلى المرابين، وارتفعت فائدة القروض، وما زلت مدانة بالكثير. كان النوم يغلبني وأنا أنظِّفك في حوض الاستحمام، أو عندما كنت أنتظر إحدى زميلات الغرفة لتستخدم الحمام أولاً، ومرت أيام دون أن أستحم. أصبحت رائحتي كريهة كرائحة الأقدام، ولم يكن هناك من يداعبك باستثناء ديدي، والآن تسرع زميلاتي في السكن إلى خارج الغرفة عندما تبدأ في البكاء.

قالت ديدي إنها سترعاك عندما أكون في المصنع، وحاولت أن أوفِّق مواعيد دوامي لتتزامن مع الأوقات التي لا تعمل ديدي فيها، ولكن كنت أضطر إلى البقاء في المنزل عندما لا أستطيع فعل هذا. أخبرتني هيتي عن جليسة أطفال فقمت بزيارتها، ووجدت اثني عشر طفلاً داخل شقة مكونة من غرفتين تفوح منها رائحة العفن، وكان معظمهم يبكي وبعضهم يسعل، وجلست المرأة تدخن بينما أحد الأطفال يصفع آخر على وجهه، فلم أكن لأتركك في مكان مثل هذا، ولم أستطع حتى أن أسدِّد لها من راتبي. تخيَّل ماذا سيكون وضع جليسة أطفال أرخص.

وبحلول فصل الخريف مرضت أم ديدي، وكانت هناك فواتير طبية يجب سدادها في الوطن، واحتاجت ديدي إلى العمل لساعات إضافية في صالون العناية بالأظافر.

قلت: «لا توجد مشكلة، يمكنني أن آخذه معي إلى العمل».

وبمجرد أن دخلت إلى المصنع، بدأت تبكي. لا أستطيع أن ألومك، حيث كانت الغرفة مكدَّسة ومن دون نوافذ، ربع حجم الغرفة التي كنت أعمل بها في المصنع بمدينة فوزهو. تناغم نحيبك مع محرِّكات ماكينات الخياطة، فقرَّبتك منِّي في محاولة لتجنُّب النظرات البغيضة للنساء الأخريات.

وضعت حقيبة بها حفَّاضات وزجاجات تحت ماكينتي، فقالت المرأة على يساري باستهجان: «كيف تفكرين؟ لقد أنجبت الأسبوع الماضي».

وضعت بعض القصاصات من القماش في صندوق فارغ وأجلستك بداخله، وتمنَّيت أن تغطي الضوضاء على بكائك.

كانت هناك كومة من القمصان بانتظاري، ووظيفتي تطريز الحواف. أطوي القماش وأمرِّره من خلال ماكينة التطريز، وهي وظيفة تتطلَّب التركيز والأيدي الثابتة، أشياء كنت أتفاخر بها دائماً؛ طي، ضغط، حياكة، طي، ضغط، حياكة. كل قميص يقرِّبني من سداد جميع ديوني.

واليوم كانت الساعات التي تمرُّ عادةً بضجر خامد، تزحف أبطأ من ساعات أطول يوم في تاريخ الدراسة، وكنت أفكِّر باستمرار متى يجب عليَّ إطعامك، وأين يمكنني أن أفعل ذلك، فلم تكن هناك أوقات راحة في دوام الساعات الست. نظرت إليَّ المرأة التي تجلس على الماكينة المجاورة بنظرات مرتابة عندما كنت تبكي بلا توقُّف، كما لو أن الضوضاء والسخونة صرَّحا لك بالبكاء بصوت أعلى، فانزلقت يدي، وانحرف الخيط إلى جانب ماكينة التطريز، وتمزَّق القماش بشدة.

فألقيت القميص التالف والتقطت واحداً جديداً، وبمنتصف الوقت طار عقلي وانتفضت يداي من قلة النوم، وانحرفت الإبرة مرة أخرى عن مسارها «اللعنة على ذلك».

أحدثت المرأة المجاورة جلبة شديدة كصياح دجاجة، وطبقاً للساعة الموجودة على الجدار، مرت عشر دقائق فقط.

غنَّت وهي تقذف بقميص آخر: «تنظرين إلى الساعة بدلاً من العمل».

فغنيت ردّاً عليها: «ليس من شأنك». نجحت في إكمال ثلاثة قمصان، ولكن كثرة المنحنيات أنهكتني، ونظرت إلى الساعة مجدداً. أخذت المرأة المجاورة كومة جديدة من القمصان، ولم أكن انتهيت من أول كومة بعد، وتحوَّلت

تنهُّداتك إلى فواق مصحوب بسرعة التنفس، فانحنيت إلى أسفل، وعندما رأيتني رفعت ذراعيك إلى أعلى، فقلت: «ديمينغ الصغير، أمك هنا بجانبك».

كان الجو ساخناً بأسفل، ومليئاً بالغبار. رأيت تحت المنضدة أقداماً تضغط على دواسات الماكينات، امرأة ترتدي جوربين غير متماثلين، وأخرى ترتدي حذاءً رياضيّاً مثقوباً من الجانب. قبّلتك وقلت: «أمك مشغولة الآن»، بنبرة مطمئنة، تمنيت لو كانت مثل نبرة ديدي «اهدأ للحظة وسوف أطعمك قريباً».

وضعتك بأسفل ورجعت على كرسي، وأخيراً هدأت. كانت المرأة الجالسة بجواري قد بدأت في كومها الثالث بالفعل، ولكنني على الأقل أنهيت كوماً.

طي، ضغط، حياكة. طي، ضغط، حياكة، ثم بدأت تبكي مرة أخرى، أسرعت بالتطريز حتى نهاية القماش وألقيت بالقميص على كومة القمصان المنتهية، وقلت: «انتظر»، ولكنك كنت تصرخ. بحثت عن الزجاجة، وكافحت كي أرفعك في حين أبقيك داخل الصندوق، وضعت يداً خلف رقبتك، والزجاجة تحت إبطي الأيمن، فسحبت الزجاجة، وآلمتني ركبتيَّ من جلسة القرفصاء، ثم نزعتك بقوة فاختلَّ توازني ووقعت إلى الخلف فارتطم رأسي بالجزء السفلي من الطاولة، وانزلقت الزجاجة من يدي فوقعت داخل الصندوق، ثم استقرت على ساقيك، فصرخت، وقمت أنا بفرك رأسي، وهكذا وجدتني كبيرة العاملات، تحت المنضدة مع طفل يبكي وصندوق من القماش الملطخ باللبن الصناعي!

عندما خرجت سرت بجوار المبنى، ثم عبرت شوارع جراند وبيت وماديسون وبيك، وكلينتون وهنري وإسكس وشيري، وأطلقت السيارات أبواقها في حين كنت أسير بتعرُّج في منتصف الشارع وأنت مربوط على صدري، ثم شارع مونتجومري وجاكسون وواتر.

لم أكن أعرف أين أذهب، توقَّفت عند سياج من السلك لأحد الملاعب، لم يكن هناك أطفال في هذا اليوم من أواخر شهر سبتمبر، مجرد أطواق معوجَّة لكرة السلة، وراية ترفرف أمام مدرسة ابتدائية، وصفٌّ من المباني الشاهقة في

الخلفية. منحتني كبيرة العاملات راحة لبقية دوامي من دون أجر، وقالت إنه يمكنني الاحتفاظ بوظيفتي لو أتيت غداً من غير الطفل.

وعاود عقلي احتساب القدر القليل الذي سأجنيه هذا الشهر، حتى إذا عملت أربعاً وعشرين ساعة في الدوام لن يكفي هذا لسداد الإيجار والقرض وجليسة الأطفال، وكانت أم ديدي مريضة.

ثم نظرت إلى المياه، بأمواجها الرمادية المتلاطمة، وأصوات السيارات المكتومة على الجسر أعلانا، وصف المقاعد المهجورة في فترة ما بعد الظهيرة في يوم من أيام العمل، والبواخر التي تطفو عبر النهر.

كنت مرهقة للغاية، كل ما أردته أن أكون بمفردي في غرفة صامتة مظلمة.

أرسله إلى الوطن، هذا هو الحل الوحيد.. ركلتني كأنك تريد أن تتحرَّر، لا أريد أن أخبرك ما قمت به.

بسرعة قبل أن أغير رأيي، نظرت حولي للتأكَّد من أنه لا يمكن لأحد رؤيتي، ووضعت الحقيبة على الرصيف تحت المقعد وأدخلتك فيها. كانت الحقيبة أطول منك وأضلاعها من البلاستيك الصلب المعزول، وعندما نهضت كنت أخف وزناً وأكثر ارتياحاً.

وركضت.

«أنا آسفة، أنا آسفة».

ثم سمعتك تشهق، فاعتصرت جسدك إلى جسدي.

ركضت تقريباً لمسافة جادتين من المباني قبل أن أصل إلى ممر المشاة. كان ضوء إشارة المرور يتحول من الأصفر إلى الأحمر، وحافلة تشق طريقها ببطء عبر تقاطع الطرق. لو ظل اللون الأصفر للحظة إضافية، أو لم تكن هناك حافلة، هل كنت واصلت الركض؟

ولكنَّني عدت، ووجدت الحقيبة هناك، وأنت ما زلت بداخلها، فمسست شعرك، فقلت مرة أخرى: «ماما.. ماما!».

اتصلت بيي با وأخبرته أنني أنجبت ولداً وسأرسله إلى القرية حتى أسدِّد ديني، وإلى أن تصير كبيراً بما يكفي لتذهب إلى المدرسة في نيويورك.

أصدر يي با صوتاً كأنه يتنحنح: «همم، تقطعين كل هذه المسافة إلى أمريكا لينتهي بكِ المطاف وأنتِ حُبلى»، وقال إنه سيعتني بك وسيقبل أي أموال أرسلها إلى الوطن «ولكن لأعتني بولدك، فهو بحاجة إلى المال ولست أنا».

أرادت أخت ديدي، التي تزوَّجت في بوسطن بصديقها المولود بأمريكا، أن تزور أمها في الصين. أخذت قرضاً آخر وعرضت عليها أن أسِّدد تكاليف الطيران عن أختها إذا أخذتك إلى يي با.

وحزمت حقيبة بها ملابسك ووسادتك وصورة لكلينا في كشك سياحي بالمتحف البحري «ساوث ستريت سيبورت». كان وجهي مظللاً بالشمس في الصورة، وبدوت أنت قلقاً وتشعر بالحر، وفي الخلفية كان هناك مجسم كرتوني لتمثال الحرية وسيارة أجرة صفراء بها مربعات، ومبنى إمباير ستيت، وجميعهم في مجمع مبانٍ واحدٍ.

بقيت مستيقظةً في الليلة السابقة لسفرك وحفظت ملامح وجهك، ثم غلبنا النوم ونحن متجاوران، في الصباح كانت عيناي ورديتين من البكاء، وأعطيتك لأخت ديدي، وكنت ما زلت نائماً. ذهبت ديدي معك وشقيقتها إلى المطار في شارع إيست برودواي، ولكنني لم أذهب معهما، فلم أستطع أن أتحمل رؤيتك تبكي بين ذراعي امرأة أخرى وأتيقَّن أنك ستكون بخير، وأنني سوف أراك مرة أخرى.

استلقيت بعد رحيلك ووضعت وجهي على الوسادة في نفس الموضع الذي كنت نائماً عليه، الموضع الذي كان دافئاً للغاية منذ دقائق، أصبح الآن بارداً.

ربتت مينغ على كتفي وقالت: «بولي، مهلاً» ثم هزت ذراعي «لقد فعلتِ الصواب».

لم أصدق هذا حينها.

- 8 -

في النهاية لم يتوقَّع أن الأمر سيكون بهذا اليسر. أجاب ليون على الهاتف بعد الدقة الثانية، وشعر عند سماع صوته أنه تعرَّض للضرب بيدين عملاقتين. «ديمينغ! تبدو وكأنك شخص بالغ! كنت أنتظر اتصالك، قالت فيفيان إنها ستراك».

كان دانيال وحيداً في شقة رولاند في تمام الساعة العاشرة من ليلة الجمعة، ولا زال منتفخاً من الطعام الذي تناوله في وقت سابق عند فيفيان، وفي مدينة فوزهو، كان صباح يوم السبت، بفارق توقيت ثلاث عشرة ساعة في المستقبل «هل أخبرتك فيفيان أنها تنازلت عني لعائلة بديلة لتتبنَّاني؟»، كان قد بحث في القاموس عن كيفية نطق الكلمات باللغة الصينية.

«أخبرتني بعدها بكثير، بعد أن وصلت إلى الصين بفترة طويلة».

«لأنها تعلم أنها كانت مخطئة».

كانت هناك فترة توقُّف قصيرة في الطرف الآخر من الخط. حكَّ دانيال ذراعه من الداخل، وأنصت إلى الصفير المضطرب للُمبرد.

ثم قال ليون: «كنت أتمنى أن نتمكَّن من البقاء معاً».

«كنت أتمنى ألا ترحل». لم ينادِ ليون بيي با، قال ليون إن لديه ابنة الآن، وإنها قد تزحف إليه الآن لسماع كلمة من دانيال.

ثم سعل ليون وقال: «لديَّ رقم هاتف أمك، على الأقل كان رقمها منذ سبع سنوات، عندما تحدَّثت إليها آخر مرة».

إذاً تقرير جلسة استماع الاستدامة كان صحيحاً، فقد عادت إلى الصين.

«هل رأيتها؟».

«كانت على وشك الزواج حينها، وتعمل في مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية».

«اللغة الإنجليزية؟ زواج؟ ماذا تعني، هل رأيتها؟».

قال ليون: «لم أرَها، تحدثنا فقط عبر الهاتف».

«هل ذهبت إلى فلوريدا؟».

«لم تقل ذلك في الواقع، ولكنني أعلم أنها لم تكن لتتركك أبداً عن عمد».

«هل أخبرتها أنني صرت مُتبنَّى؟».

«أجل».

تمدَّد دانيال على الأرض، ورأى كرة من الأتربة تحت الأريكة، وجورباً كان يبحث عنه. منذ أن تحدَّث إلى مايكل، قام بحبك قصة جديدة ـ قد افترق ديمينغ عن أمه بسبب مكائد فيفيان الشريرة، فهما ضحيتا مأساة عائلية. قال ليون إن أمه لم تتركه عن عمد، ولكنها لم تتصل به كذلك، فهي لم تبحث عنه، ولكن هل بحثت عن ليون؟

قال ليون: «تعالَ لزيارتنا، سأصحبك إلى مطعم صيني حقيقي، ليس مثل هذا الطعام المصطنع السيئ الذي يقدِّمونه في نيويورك. بالمناسبة لغتك الصينية مزرية، ماذا حدث؟ هل نسيت كيف تتحدث؟».

فقال دانيال: «أنا لا أتحدث بها، بعد رحيلك».

لم يتصل بالرقم الذي أعطاه له ليون مباشرةً، فلم يرغب أن يتصل ويجدها لا تريد التحدث إليه.

وفي ظهيرة اليوم التالي قام دانيال بكيِّ قميصه الجيد الوحيد على طاولة المطبخ، وضغط على الحواف وفرد الياقة. لم يكن لديه بناطيل سوى الجينز، ولكنه ارتدى البنطال الرمادي الداكن بدلاً من الأزرق، وسيَفي حذاؤه ذو الرقبة بالغرض، ثم وضع نماذج كلية كارلوج في جيبه، واستمارة الغرض من التقديم التي طبعها من على طابعة رولاند.

قامت إيلين وآنجل باستئجار مطعم إيطالي في حي ويست فيليدج بمناسبة عيد ميلاد جيم هينينغس، وهو حي طالما ضلَّ فيه دانيال طريقه، حيث تتحوَّل الشوارع الواقعة غرب محطة مترو الأنفاق من بنايات بأرقام منتظمة إلى أسماء من طراز قديم مثل: بيري وجين وهوريتو. لا توجد متاجر متعدِّدة الفروع في هذا الجزء من الحي، مجرد مطاعم ومحال صغيرة عليها لافتات بحروف مقيدة، ومقارنة بالحي الصيني، كانت الشوارع شبه خالية في فترة بعد الظهيرة من شهر مارس في الخامسة والنصف. بعد أن عاد دانيال من حيث أتى عقب اتخاذه لمنعطف غير صحيح، مرَّ برجل أبيض يسير بكلبه، وقد انحنى وكلبه على جانب الطريق من شدة الرياح، وامرأة ترتدي معطفاً داكناً ضخماً، وتتحرَّك بمشايتها ذات العجلات ببطء على الرصيف، وتساءل أين تعيش أمه الآن، وهل ما زالت في منزل الزقاق رقم (3)! سلالم الطوارئ هنا مطلية باللون الأسود الباهت، على النقيض من المباني الزجاجية الشاهقة بوسط المدينة، ولا يوجد أي مبنى أعلى من خمسة طوابق، وشاهد نجفاً وأرفف كتب طويلة بداخل النوافذ الأمامية الكبيرة، ومطابخ بها طاولات خشبية مستديرة ونباتات معلَّقة، وغرفة لا تحتوي إلا على بيانو كبير في إحدى الشقق. حتى المظهر الخارجي لطوب المباني يبدو وكأنه تم كشطه وصيانته وصقله كي يلمع، ولم تلقَ هذه المباني أو المباني الفارهة بوسط البلد استحسان دانيال، فكلتاهما بدت مدروسة وغير صادقة.

وكلما اقترب أبطأ في مشيته، إلى أن وجد نفسه يقف خارج المطعم وينظر

إلى لافتة مكتوب عليها بخط اليد: «مغلق، حفل خاص». كانت الأجزاء السفلية من الحروف مقتربة بعضها من بعضها، وكأنه رأى فتياتٍ يتخذن وضع التصوير، وأرجلهن مثل أصابع الحمام. لم ترد آنجل على رسالته النصية، فتح الباب، لم يكن المطعم كبيراً وكانت الغرفة مزدحمة. أخذ أحد أكواب الشراب المرصوصة على قطعة قماش بلون الكريمة، ورأى كاي وبيتر يتحدثان مع جيم وإيلين. كانا يرتديان ملابس غير رسمية أكثر من المدعوين الآخرين، الذين بدوا في نسختهم الأكثر رسمية بقليل من ملابسهم المعتادة. ارتدى بيتر سترة رياضية بدلاً من الصوفية، وارتدت كاي تنورة بدلاً من البناطيل القصيرة. أشارا إليه فسار إليهما دانيال بخطوات قوية في حذائه ذي الرقبة العالية، وهو يشعر بموجة من الإعزاز تجاههما، فعانقهما ورحب بهما، ولم يظهر عليهما الغضب، فكانت علامة جيدة له. إذاً فلم تخبرهما آنجل عن المال الذي اقترضه منها. لم يكن قد رأى إيلين وجيم منذ سنوات، وأصبح جيم أصلع، وشعر إيلين الطويل المجعد أشيب. صافح دانيال جيم وتمنَّى له عيد ميلاد سعيداً، وقبلت إيلين دانيال على خده فصلصلت المجوهرات من تحت وشاحها الباشمينا الصوفي «أنت أيها الغريب، كنت في نيويورك طيلة هذا الوقت ولم تخبرنا، سوف تتناول العشاء معنا في أقرب وقت ممكن».

أشار جيم عبر الغرفة وقال: «آنجل عند طاولة المقبِّلات». رأى رجلاً آسيوياً حليق الرأس ذا حاجبين كثيفين، ويبدو وسيماً مثل لاعبي الركبي يضع ذراعه حول آنجل، وهي تضحك، وكان هذا الشخص ضخماً جداً ووسيماً للغاية. امتدَّت سترة بزَّته على كتفيه العريضتين، وارتدت آنجل فستاناً أزرق فاتحاً بأكمام قصيرة وحزام مماثل. كانت وما زالت أصغر من الحجم العادي، وشعرها مقصوص أسفل كتفيها بقليل، وبدا الشخص وكأنه يمكن أن يكون صينيّاً أو كوريّاً، لكن دانيال لم يكن ذكيّاً أبداً في تخمين هذه الأشياء. قال جيم: «هذا هو تشارلز صديقها الحميم»، ونظرت كاي إلى دانيال.

قالت إيلين: «إنه في السنة النهائية لنفس البرنامج الخاص بها، قابلناه أول مرة في عطلة الشتاء».

وقال جيم: «لديه رأس جميل على كتفيه، وهو مؤدب للغاية ومتحدث لبق».

ففكر في الأشخاص الذين تحدثت عنهم آنجل، كان هناك صديق حميم سابق، وأصبح من أفضل أصدقائها؛ إنه زميل في العمل كانت معجبة به.

نادتها إيلين: «يا آنجل، انظري من هنا!».

رأت آنجل دانيال وقالت شيئاً لتشارلز فتجهَّم. ناداها جيم: «يا آنجل».

عبرت الغرفة ويدها في يد تشارلز، وعندما عانقها دانيال أحجمت، فقال: «أهلاً، من الجيد أن أراك».

فقالت وهي تنظر فوق رأس دانيال: «هذا صديقي الحميم تشارلز».

صافح دانيال هذا الشخص فشعر كأن زلزالاً قد ضرب يده. بدت بزَّته غالية الثمن «تشرَّفت بلقائك، منذ متى وأنتما معاً يا شباب؟»، سمع موجة من الأصوات خلفه، كان جيم وإيلين يرحبان بزوجين آخرين ثم جُذِبا بعيداً وسط الحشد.

توجهت آنجل إلى تشارلز قائلة: «علينا العودة إلى طاولتنا».

ربّتت كاي على ساعد آنجل وقالت: «آنجل، لم تتح لنا الفرصة للدردشة، كيف حالك بالمدرسة؟ سمعنا أنك من المفترض أن تذهبي إلى نيبال؟».

«كان من المفترض ذلك، ولكن أموالي سُرقت».

فقال بيتر: «سُرقت؟ وفي ولاية أيوا؟».

«حتى في ولاية أيوا».

فالتفت دانيال إلى تشارلز وقال: «إذاً، ما موطنك؟».

ضحك تشارلز بحدة وقال بصوت مرتفع: «اللصوص في كل مكان، ليس من الضروري أن توجد في نفس المكان الذي يسرق منه أحدهم».

فتجرع دانيال شرابه.

قالت كاي: «يا له من أمر بشع، هل أمسكوا من فعل هذا؟ وما الذي حدث بالتحديد؟».

«انظري يا أمي، الطعام قادم».

فقال تشارلز: «ما حدث هو أن ذلك اللص كان يعرف ما يفعله تماماً».

وقالت آنجل وعيناها تلتقيان عيني دانيال: «بالفعل، كان يعرف».

فجذب دانيال بيتر وكاي من مرفقيهما قائلاً: «يجب أن نذهب قبل أن يصير الطعام بارداً».

قالت كاي: «لم يصل الطعام بعد».

وساروا إلى المنضدة عبر الغرفة. قالت كاي: «هذا أمر عجيب للغاية، ما الذي تقوله آنجل وصديقها؟!».

فقال بيتر: «تقول شيئاً عن اللص؟».

خلع دانيال معطفه وعلَّقه على الكرسي المجاور لكاي، وأخرج الاستمارات الخاصة بكلية كارلوج وأعطاها لبيتر.

فقال بيتر: «حسناً».

ابتسمت كاي ابتسامة عريضة فتجعَّد وجهها بالكامل، فبادلها دانيال الابتسامة. كان دانيال لا يزال يشعر بالشبع من وجبة العشاء التي تناولها عند فيفيان الليلة الماضية، ولكنه أكل الزيتون المتبَّل وسلاطة الجرجير ومعكرونة لنجويني واللحم الضأن مع الباذنجان، وطلب كوباً آخر من الشراب، وعندما قام النُّدُل بإبعاد الصحون، رأى آنجل تغادر الغرفة منفردة. ربما لو اعتذر لها بشكل مباشر فلن تخبر بيتر وكاي من اللص، فاستأذن وأخذ كوباً آخر من الشراب وهو يعبر الغرفة، وقفت آنجل أمام المدخل مع امرأة شعرها قصير ترتدي سترة بيضاء، أحد موظفي المطعم، وسمعهما تتحدثان عن الشموع والكعك.

وقال: «آنجل».

فتوقَّفت في منتصف الجملة، وغمرت وجهها الدهشة.

فقالت المرأة: «هل هناك مشكلة؟».

قال دانيال: «لا».

فقالت آنجل للمرأة: «كنت أقول إننا سنخفض الإضاءة ثم نغني، سيروق له هذا».

انتظرها حتى أنهت حديثها، وعندما استدارت لترحل مع المرأة اعترض دانيال طريقها.

فقالت: «حسناً، ماذا تريد؟».

«هل وصلتكِ رسالتي النصية؟».

فشبكت ذراعيها أمام صدرها وقالت: «أي رسالة؟».

«آسف على كل شيء».

«بالتأكيد أنت كذلك».

«هل يمكنك أن تسدي لي معروفاً؟ من فضلك لا تخبري والديَّ عن المال، ولا والديك».

فتذمَّرت قائلة: «ولم لا؟ هل أنت خائف؟».

«لا أريدهما أن يعرفا، فأنا أعمل على إصلاح الأمور، عليك أن تصدقيني».

«هل تريدهما أن يعتقدا أنك مثالي؟ إذاً كان عليك ألا تفسد الأمور بهذا السوء من البداية».

«هما يعرفان بالفعل أنني فاشل، وأنا أحاول أن أحسِّن من الأوضاع».

«تعرف أنه لا يمكنك إرضاء الجميع، أليس كذلك؟ بمن فيهم أنا».

«أقسم أنني سأسدِّد لكِ مالك».

«يجب عليك أن تقدر حجم أخطائك، ولا تتوقَّع مني أن أفعل ذلك نيابة عنك»، التفت فتركت الغرفة.

اعترضت إيلين طريقه وهو متجه إلى الطاولة، وقالت إن عليهما أن يحدِّدا

موعداً لتناول العشاء، وأنها ستحصل على رقم هاتف الشقة لاحقاً، وكان والداه سيمكثان الليلة عندهم، وسيتناولون القهوة هناك بعد الحفل «سيكون لديك مزيد من الوقت للتحدث مع آنجل عندما نعود جميعاً إلى شقتنا، هل قابلت تشارلز على الأقل؟».

«يبدو لطيفاً».

«إنه يخطِّط لدخول كلية الحقوق»، وانحنت إيلين لتقترب منه: «أتعلم، أنا متأكدة أنهما لا يريدان أن أقول هذا، ولكنني سأقوله على أي حال، لأنك تعرفني وتعرف ثرثرتي. يشعر والداك بالحزن لأنك لن تعود إلى المدرسة. أعرف أن الأمر يبدو وكأننا حفنة عجائز من الطراز القديم نريد أن نسيطر على حياتك، لكن صدِّق أو لا تصدِّق، لقد كنت صغيرة من قبل أيضاً، وأعرف كيف تسير الأمور، لكن في هذه الحالة يجب أن أقول إن والديك يعرفان ما يتحدثان عنه، ولكن هل فكرت أن تقترح عليهما مدرسة في المدينة إذا كنت لا ترغب أن تكون في شمال الولاية؟ أعني أنني أحب والديك، ولكنني أتفهَّم لماذا يُفضل شاب في مثل عمرك أن يمكث هنا بدلاً من أن يذهب إلى ريدجبورو. يمكنك دائماً أن تمكث معي وجيم، فكِّر في الأمر، هل ستفعل؟».

سمع صوت آنجل عبر الغرفة، سمعها تضحك. يجب عليه أن يرسل إليها رسالة أخرى، وأن يستمر في المحاولة حتى تمنح صداقتهما فرصة أخرى، فقد قالت إن عليه أن يقدِّر حجم أخطائه، ألا يعد ذلك علامة على الاهتمام؟ فقال لإيلين: «سوف أذهب إلى كارلوج، لحضور الفصل الدراسي في الصيف». تسبَّب ما قاله في سقوط كتفيه، ولكن فات الأوان، فقد أعطى المقال لبيتر.

صفقت إيلين وقالت: «رائع!».

واعتذر لكاي وبيتر لأنه لم يتمكَّن من الالتحاق بهما في شقة آل هينينغس، ولكن عليه أن يذهب إلى العمل في الصباح، على الرغم من أن الدوام التالي له لم يكن قبل يوم الاثنين.

قال بيتر: «سنراك قريباً، محاضرات الصيف تبدأ خلال شهرين، لذا استعد

أن تعود إلى المنزل قبل بضعة أسابيع من المحاضرات لتستقر وترتب أمورك. سيكون الأسبوع الأول من شهر مايو أفضل».

وقالت كاي: «أنا سعيدة لأنك قرَّرت فعل الصواب».

يجب عليه فعل كل ما يستطيع في المدينة في الشهرين التاليين قبل أن يغادر، بدءاً من الليلة. سيتقابل مع رولاند وأصدقائه، فهو يستحق أن يمضي ليلة بالخارج.

كان تقريباً قد بلغ الناصية قبل أن يرى تشارلز يدخن سيجارة أمام صنبور إطفاء الحريق. كرهت آنجل التدخين على الدوام، وكانت تقول إنه شيء بشع. لا بد أنها قد غيَّرت رأيها.

قال تشارلز: «هلا».

«أهلاً يا رجل».

«أريد أن أتحدث معك للحظة».

فتوقف دانيال: «حسناً».

قذف تشارلز سيجارته على الرصيف وسحقها بقدمه، وأخرج علبة علكة من جيبه، وألقى واحدة في فمه.

«هل يمكنني الحصول على قطعة؟».

فقذف له تشارلز العلبة: «احتفظ بها، جدياً».

«شكراً».

كانت العلكة خضراء مربعة، ولاذعة قليلاً وبها مواد تحلية صناعية. أراد دانيال أن يبصقها على الفور ولكنه بدلاً من ذلك بلعها.

قال تشارلز: «أعلم ما فعلت».

«لقد فعلت كثيراً من الأشياء، هل شاهدت عرضي في إحدى الليالي الماضية؟».

«أحترم قرار آنجل بعدم تصعيد الأمر إلى المحاكم لمحاولة استرداد أموالها، على الرغم من أنني لا أتفق معها، ولكن من الأفضل لك ألا تكلمها مرة أخرى».

«انتظر، تمهَّل».

«هل ستنكر هذا الأمر؟ أعرف أنك سرقت منها عشرة آلاف دولار، وهي ألطف شخص أعرفه، وأنت قد استغللتها».

«لم أسرق».

«إذاً فلتقل ذلك لوالدَي آنجل، فهما يتحدَّثان مراراً وتكراراً عنك كصديق مقرب، وكيف تربَّيتما معاً مثل الأخ وأخته. يا له من أمر شائن، يجب عليك أن تخبرهما وإلا سأقوم أنا بذلك».

فهرول دانيال تجاه مترو الأنفاق. لم يستطع أن يرضي الجميع، ولكن أكثر ما أراده هو ألا يشعر هذا الشعور البشع تجاه نفسه.

وعندما خرج من المحطة في شارع القنال، رنَّ هاتفه، فأسرع ليجيب راجياً أن تكون هي، ولكنه كان بيتر: «ألقيت نظرة أنا وأمك على النماذج، ما خطبك؟ تعلم أننا لا يمكننا أن نقدم هذا المقال. لا أريد حتى الذهاب إلى كارلوج، ولذلك لا أدري لماذا أكتب هذا. ما هذا الكلام التافه؟ قد منحناك فرصة أخرى لا تستحقها بكل وضوح، وهذه هي طريقة ردك للجميل؟».

أدخل دانيال يده في جيب معطفه وسحب قطعة ورق، ثم قام بفردها تحت أحد مصابيح الشارع. إن الفصول الصغيرة وتدريس الفنون الحرة التي تقدمها كلية كارلوج، لا سيما برامج الاقتصاد والعلوم السياسية ذات أعلى تصنيف، ستمكنني من تحقيق أهداف مستقبلي المهني. شعر بخيبة الأمل، ولكن غمره الارتياح لعدم ضياع المقالة «آسف يا أبي، كانت مجرد مزحة، دعني أمر عليك وأسلمك المقالة الحقيقية».

«ناهيك عن ذلك، فقد كنت وقحاً في أسلوب تعاملك مع آنجل في الحفل. أعرف أنك تشعر الآن أنها خانت صداقتكما لأنها أخبرتنا عن لعبك للقمار،

لكن على الأقل كان يمكنك أن تكون متحضِّراً معها، فقد كانت قلقة بشأنك يا دانيال، ولذلك أخبرتنا، كي نساعدك».

«أين أنت الآن؟ هل ما زلت في المطعم؟ أم عند جيم وإيلين؟ سوف آتي وأسلمك المقالة، فهي معي وقد كتبتها بشكل جيد».

«لا تشغل بالك، فقد اتخذت قرارك بكل وضوح».

«أبي!».

«هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وقد أفسدت الأمور بما يكفي».

فقال: «هل يمكنني التحدث إلى أمي؟».

ولكن بيتر كان قد أغلق الخط بالفعل.

فتوارى في حانة بشارع جراند وطلب شراباً. كانت الحانة صغيرة ومظلمة بشكل لا يوصف، وبها جهاز جوك- بوكس لتشغيل الأغاني، فسمع أغنية «هيلز بيلز» لفريق إيه سي دي سي، وفتحة ماكينة ألعاب إلكترونية في الركن تومض باستمرار تجاهه. أدار ظهره ونظر إلى هاتفه، وتصفَّح بعض الرسائل ثم حذفها، ورأى ملحوظة كان قد حفظها منذ شهور عدة عندما كان في بوستدام، وبها اسم وعنوان نادٍ غير شرعي للعب البوكر تحت الأرض في المدينة. كان كايل قد أخبره أنه يحتاج إلى مائتي دولار للاشتراك في اللعب، وعنوانه في شارع لافييت على بعد مبنيين.

فحذف الملحوظة وأكمل شرابه، وسيذهب إلى شقة جيم وإيلين ليعطي والديه مقالته الصحيحة، على الرغم من أنه لا يعرف العنوان. سار في اتجاه الشرق واستمر في عبور إشارات المرور الخضر، ومكث في شارع جراند ثم رأى مصرفاً، فدخله لسحب بعض المال. مر إصبعه فوق زر مكتوب عليه 50 دولاراً، ولكنه ضغط على الزر المكتوب عليه 500 دولار، وهذا هو الجزء الأكبر من حسابه، وشاهد العملات الورقية وهي تندفع إلى الخارج.

وعند ناصية شارعي لافييت وجراند تطرَّق عنوان نادي البوكر إلى ذهنه، فاتجه نحو الجنوب حيث يمر شارع هوارد عبر شارع هيستر. لم يكن الوقت قد

تأخر، فما زال بإمكانه الانعطاف والذهاب إلى شارع رولاند مباشرة والاتجاه إلى المبنى الذي كان ضيقاً ولا يوجد به حارس عقار، ولكن به مجرد جهاز إنتركوم للاتصال الداخلي، وتحقَّق من هاتفه فلم يجد رسائل جديدة. كان مرعوباً من مدى احتمال فشله، وعدم رغبته في إيقاف نفسه، والتوقع المتزايد لاحتمال انهياره، والسقوط بشكل قوي ومباشر إلى الهاوية؛ فقد كان يعرف من اللحظة التي غادر فيها الحانة إلى أين سيذهب بالتحديد. ضغط على زر الاتصال الداخلي، فسمع صوت شخص يقول: «ماذا؟»، فقال له كلمة المرور، وللحظة راوده أمل ضعيف أن تكون كلمة المرور خطأ، ولكن الباب أصدر طنيناً وفُتِح.

كان النادي شقة من غرفة نوم واحدة بها منضدتان مكدستان بشرائح لعب البوكر، وتلفاز كبير به مباراة جارية لكرة السلة والصوت مكتوم، وطاولة عليها دلاء من الشراب. أعطى دانيال الخمسمائة دولار إلى امرأة ترتدي بدلة سوداء وانتظر حتى يتاح مقعد. كان جميع اللاعبين الآخرين رجالاً، بأعراق وأعمار مختلفة، وكانت ملابسه أفضل منهم جميعاً، واقترب من منضدة واستعد للعب.

في أكثر الأوقات سكوناً، قبل شروق الشمس، عمال تنظيف الشوارع وشاحنات جمع القمامة على وشك الظهور، جلس دانيال على مقعد بمحاذاة نهر إيست ريفر، تلطمه رياح غير منتظمة على وجهه، بعد أن جعلت معطفه يرفرف. كان لديه قبعة بعد مغادرة المطعم في أول الليل، منذ ساعات طويلة، ولكنه فقدها في الطريق، وكذلك أضاع مقالة كلية كارلوج، التي كان ينوي تسليمها لكاي وبيتر، على الرغم من أنها كانت محفوظة على جهاز الكمبيوتر الخاص به، ويمكنه إرسالها بالبريد الإلكتروني إذا أراد ذلك.

كان يريد تناول الإفطار والقهوة، ولكن نفدت أمواله، فقد كان الرجال أكثر قسوة مما يبدو عليهم، وعرف مبكراً أن التغلب عليهم كان مستحيلاً، ولكنه واصل اللعب على الرغم من محاولتهم إخفاء الإثارة. ظنوا أنه عندما يخسر الكثير سيتحطَّم، وكانوا بانتظار العرض الكبير، وهو انهياره المحتوم، لكنه شعر مع كل خسارة وكأنه يزيح ثقلاً من على كاهله، ويتخلَّص من قطعة

ملابس غير مريحة، حتى إنه في نهاية الليل لم يكن يبكي بل يبتسم، وعندما غادر سمع أحدهم يقول للآخر «مجنون».

فشعر بنشوة متوحِّشة، أثبتت هذه الليلة إخفاقاته، وحرَّر نفسه من الاضطرار إلى مقاومة عجزه عن الارتقاء إلى أمنيات بيتر وكاي، فلم يكن يريد الذهاب إلى كارلوج، ولم يكن أبداً ليصبح هذا النوع من الرجال الذين يحظون باحترام آنجل، مواطن على خلق يتقدَّم لكلية الحقوق. يا إلهي! إنه لشيء عظيم أن يستعيد نفسه مرة أخرى.

تمكن أن يرى من مقعده الأضواء المتلألئة على الماء، ووميض السفن وهي تتحرَّك باتجاه المحيط، وسمع أصوات خوار المراكب الأرجوانية من بعيد، والاتصالات البحرية المنخفضة والهادئة. هذا هو المكان الذي كان يأتي إليه مع أمه سيراً من شقة شارع روتجرز. أخبرته ذات مرة أنها عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تحب الذهاب إلى النهر في مدينة ميانيانغ، حيث قالت: «كنا نشاهد كيف تذهب الأمواج إلى لا شيء، وهذا هو المكان الذي أريد الذهاب إليه، بعيداً جداً للغاية»، لم يسألها من قبل عن هويتهما.

كانت السماء وردية عند أطرافها، وتشكَّلت السحب على هيئة رخام بلون الباستيل الفاتح، وانقشع الليل إلى أجزاء صغيرة. ضم دانيال أصابع قدميه داخل حذائه. حسناً، لقد فعلتها، وذهبت بعيداً جدّاً عنه.

سطعت الشمس فتمزَّق الليل إلى شرائط برتقالية وصفرٍ، وأصبح النهر أزرق بلوريّاً. انتابته موجة غضب وأراد أن يتحدث إليها ويخبرها عن مدى حنقه، فاتصل بالرقم. رن الهاتف، وعند الدقة الخامسة عرف أنها لن تجيب فاسترخى. لم تعرف المرأة على رسالة البريد الصوتي المسجلة نفسها بالاسم، ولكنه عرف أنها أمه على الفور. كان صوتها أجش وجهوريّاً، إلا أن نغمات كلماتها كانت متقطِّعة ومنمَّقة، لغة صينية شمالية لا تشوبها شائبة، ولا يتذكر أنه سمعها تتحدَّث هكذا من قبل.

فترك رسالة باسمه ورقم هاتفه. إذا لم تتصل، سيكون هذا هو الدليل الدامغ الذي يحتاج إليه.

- 9 -

أدرك دانيال قبل أن يكملوا أول أغنية أنهم قد تألَّقوا، وأنه وصل إلى تلك المنطقة المنشودة من الأداء المتحرِّر عندما لم يكن واعياً أنه على خشبة المسرح، فقد تدربوا كثيراً، ولم يشرب الخمر في هذه الليلة. لم يكن ذلك سر النجاح، ولكن السر هو إيمانهم بقدرتهم، حتى لو كانت الأغاني سيئة ودون المستوى. بعد أن انتهوا من أداء الأغاني، كأنه استيقظ ليجد نفسه على خشبة المسرح مع رولاند، غارقاً في عرقه والغرفة تهتز من حوله بأوراق بنفسجية وأرجوانية، ودوي الهتافات والتصفيق.

وعندما نزلوا إلى الأرض، شعر دانيال بأيادٍ تطرق على ظهره وكتفيه، وسمع أصواتاً لم يستطع التعرف إليها «اللعنة، إنك تعزف ببراعة»، وتبع رأس رولاند وسط الحشد، وكانوا يتوقَّفون كل بضع خطوات ليتلقوا المجاملات من أشخاص آخرين. نظر إليه رولاند وابتسم، كان دانيال ملاكماً محترفاً، محاطاً بحاشيته بعد أن فاز بالضربة القاضية، وقد عاد من الخلف ليحقِّق الانتصار، ويُظهر لهم من يكون.

وعندما كانوا في الحانة ينتظرون خافيير وفريقه ليواصلوا، رأى دانيال

هاتش، مسؤول حجوزات جوبيتر، وتعرف إليه، وكان يرتدي معطفاً من الكتان لونه بيج وبنطالاً من الجينز باهت اللون. اعترض شخص آخر طريق رولاند، وقال هاتش لدانيال: «لم أعتقد أن لديك مثل هذه الموهبة بعد آخر مرة».

«أنا مليء بالمفاجآت».

«لقد أعجبني ما فعلتموه بالصوت يا شباب، لعله من الممكن رفع صوت المغنِّي والطبول بشكل أكبر، وإزالة التشويش وزيادة تردُّد صدى الصوت، أنت تعرف هذا».

«سوف نرى ما يمكن فعله، شكراً».

أمَّا ياسمين صديقة رولاند التي تعزف آلات الثيرمين والميلوديكا وأغاني النحيب الغريبة، وكانت دائماً تناديه دارين أو ديفيد، أو حتى عندما نادته يا توماس بشكل مربك، لكمته على ذراعه قائلة: «أداء مذهل يا دانيال».

فقال لها مبتسماً: «لأول مرة تقولين اسمي بشكل صحيح».

وتساءل الناس عن الفِرَق التي عزف معها من قبل، ومنذ متى وهو يعرف رولاند. أخبر أحدهم دانيال ـ وكانت حدقتا عينيه شديدتي السواد، وفتح عينيه فبدت كالرخام ـ أن سايكيك هارتس تشبه شرائح اللحم الشهي، فقال دانيال: «انتظر، صديقي هنا وأريد أن أسلم عليه، سوف أعود». يا له من إحساس جميل أن تكون الشخص الذي يعتذر ويبتعد.

وفي غضون أسبوع تغير كل شيء، فقد رتَّب مع رولاند لمزيد من العروض، وقال هاتش إنه سيحضر العرض الذي سيقام في منطقة بحي جوانوس يوم 15 مايو، وإذا سارت الأمور على ما يرام، فسيضعهما في الحسبان ليقدما العروض الافتتاحية للحفلات اللاحقة من هذا العام.

كان الصيف وشيكاً، وبدت المدينة كأنها تهذي بالدفء والهواء الرطب الرنان، وغرَّد هاتف ديمينغ بأصوات الرسائل المتواصلة: ما الذي حدث في تلك الليلة، كيف سارت الأمور في الليلة الماضية، وحتى إذا كانت الموسيقى

التي يعزفها ليست من النوع الذي يرغب في عزفه، وحتى لو تسبَّب ذلك في عدم إيجاد وقت للعمل على أغانيه الخاصة. على الأقل هو يعزف الموسيقى ويذهب إلى العروض والحفلات، ويسدِّد ثمن مشروباته وانتقالاته من بطاقته الائتمانية، ويُصدَم كل مرة يستخدم فيها بطاقته، ولكن يقول لنفسه إنه سيهتم بهذا الأمر لاحقاً، فهو يستحق الآن أن يستمتع بحياته قليلاً، لأنه قد فعلها، ووصل إلى قمة الأداء الرائع، وفي عرض سري بقبو في حي «بوشويك»، عندما كان يشاهد فرقة موسيقية تغني بكلمات عن الحيوانات، ومكتوبة بأسلوب قصائد الشعر المعقَّدة، أو عندما كان يحتسي الشراب في فترة بعد الظهيرة يوم الأحد مع رولاند وجافي ونيت، أثناء استماعهم لفرقة ليتوانية تعزف موسيقى الميتال، كان ينظر حوله ويعتقد أنه لن يكون هناك مزيد من حفلات الدرجة الثانية المتملقة، وأن هذه هي الصفقة الحقيقية، وأنها مجرد مسألة وقت حتى تتحقَّق له الحياة التي كان يرجوها.

وفي المستقبل سيتعجَّب من هذه الحياة كأنها كانت وهماً، ولكن أخيراً كان قلَّما يختلي بنفسه، ولم يعد لديه الوقت ليسهب في التفكير في طيف أمه، أو بيتر وكاي، اللذين لم يتصلا به، على الرغم من أنه لم يتصل بهما أيضاً، ولا بآنجل.

قام كاتب من إحدى المدونات الموسيقية بعمل لقاء بأسلوب الأسئلة والأجوبة مع فريق سايكيك هارتس، أرسلها بالبريد إلى رولاند، فقام بملئها ثم أعاد إرسالها إلى دانيال.

س: رولاند، أنت متمرِّس في هذا المجال، وعزفت مع عدد من الفرق الموسيقية المختلفة. ما تقييمك للعمل مع دانيال؟ هل تتشاركان في كتابة الأغاني والإنتاج؟

رولاند فيونتس (ر، ف): حسناً، أنا ودانيال أصدقاء منذ الصف السادس الدراسي، واشتركنا في بعض المشروعات التي سبَّبت لنا الحرج (سأتركه يقرِّر ما إذا كان يرغب في التحدُّث عن أيامنا مع موسيقى البانك وفريق «سترايت إيدج فور إيفا!» ضحك بصوت مرتفع)، لكن ميزة العمل مع شخص تربطك به علاقات

تاريخية هو أن تواصلنا على خشبة المسرح له طبيعة لا مثيل لها من الناحية العملية. إنه بمثابة العمل مع العائلة. على الرغم من أنني أقوم بكتابة وإنتاج أغاني سايكيك هارتس، فإن دانيال ويلكنسون لديه بصمته عليها جميعاً، فهو يقوم بتغييرات رئيسة مجنونة وألحان من عالم آخر، وهو حتى لا يفكر فيها، بل يراها.

دانيال ويلكنسون (د، و): رولاند شخص ذو بصيرة حقيقية، فقد وُلِد ليكون قائداً، وأي شخص شاهده على خشبة المسرح يستطيع أن يؤكد هذا.

س: اتسمت الأغاني الأخيرة للفرقة بأنها أكثر قوة ونشاطاً من ذي قبل، هل كان هذا التحوُّل في الأسلوب متعمداً؟

ر، ف: التحرك في هذا الاتجاه الجديد كان قراراً أساسيّاً، وشعرنا أنه سيفيد المشروع ويظهر نقاط قوَّتنا.

كانت شقة خافيير ممتلئة بالكاميرات وأجهزة الفيديو، وكان قد التقط لهما صورة على سطح منزله وقت الغسق، وعندما ظهرت الصورة بجانب اللقاء، شعر دانيال بالدهشة لرؤية التركيز الواضح على رولاند، بينما قبع في الظلال، أم أنه مصاب بداء الريبة؟ وعندما ذهب إلى عمله في مطعم تريس لوكاس أعطى هاتفه لإيفان ليعرض عليه اللقاء، واتفق معه أنه كان خارج دائرة التركيز، فقال إيفان: «إنهم يستغلونك، ويجب عليك أن تحذر»، في تلك الليلة فتح دانيال الرابط من على الكمبيوتر المحمول الخاص به ونظر إلى الصورة عن كثب، فانتابه الشعور بالضجر والغثيان.

هذا الإحساس الذي شعر به كثيراً في عامه الأول في ريدجبورو، أو مع كارلا مودي، الذي صاحبها لبضعة أشهر في السنة الأولى في كارلوج، عندما كان يستيقظ في منتصف الليل ويجدها نائمة إلى جواره ويقول لنفسه: أنت معها لمجرد عدم رغبتك في البقاء وحيداً، وفي الآونة الأخيرة شعر به في سبتمبر الماضي عندما كان في غرفة السكن الجامعي لفتاة معجب بها منذ أسابيع، في الوقت الذي كان لا يزال يذهب فيه إلى الفصول الدراسية (...).

عندما عاد رولاند إلى المنزل سأله: «هل شاهدت المقابلة؟».

فنظر دانيال إلى صديقه ذي الابتسامة المفعمة بالأمل وأغلق جهازه المحمول. لم يكن يريد أن يفعل مثل إيفان، ويصيح أنه يتم استغلاله. كانت سايكيك هارتس في طريقها للازدهار، وهو ورولاند يمضيان في سبيلهما إلى حدث كبير «إنه رائع، وكذلك الصور».

جلس دانيال مع ثاد ورولاند على سجادة مستطيلة برتقالية مبقَّعة، واستمعوا إلى الأغاني التي سجلوها على شريط، وكان ثاد يدير استوديو في الطابق السفلي بمبنى مكون من ثلاثة طوابق في حي ريدجوود، حيث عاش مع عشرة آخرين من رفقاء السكن. قرأ دانيال الملاحظات المكتوبة على غلاف شريط الكاسيت من الداخل فوجد الجمل التالية: جميع الأغاني من تأليف رولاند فيونتس.

«اسمع».

أعاد ثاد الشريط من البداية «أحب هذا»، فأومأ رولاند برأسه «يوجد خلل بالصوت».

كان الجدار مرقَّعاً بألواح من الخشب الرقائقي، ومبطَّناً بملصقات لحفلات المطربين ومنسقي أغاني الفيديو، وورش إصلاح الدراجات الهوائية، وتجمُّع لمكافحة الإحلال الطبقي في أحد المتنزهات القريبة، وأرفف طويلة مكدَّسة بالميكروفونات ومضخِّمات الصوت، وطبول بجميع الأحجام، وصناديق مليئة بالآلات المتهالكة، وبوق منبعج، وهارمونيكا فضية وناي بلاستيكي، وبيانو بجوار جهاز تسجيل رباعي المسارات ماركة (تاسكام)، وشاشة ماركة (آبل)، ويعرض برنامج شاشة التوقُّف صوراً لحيوانات السمندر تتحوَّل تدريجياً إلى قرود، وبينما يقومون بالتسجيل، كان هناك عازف طبول ـ زائر من برلين ـ يغفو على الأريكة بجوار البيانو، ويستيقظ بشكل دوري للتدخين، وعندما ألمح دانيال أن استوديو التسجيلات قد لا يكون أفضل مكان للنوم قال: «هذا أمر جيد، قد أصابتني اضطرابات الرحلات الجوية الطويلة».

وضع دانيال ملاحظات شريط الكاسيت جانباً، وكانت هناك كابلات متشابكة ممدَّدة بجوار صناديق كارتونية مليئة بشرائط الكاسيت لتسجيلات فرق موسيقية (مالنخوليا) أخرى، وفيما بعد عندما سيكون الدليل الوحيد

على وجوده هنا هو عرض سايكيك هارتس، سيتم إيداع شريط الكاسيت في أحد هذه الصناديق، جميع الأغاني من تأليف رولاند فيونتس.

قال رولاند: «أريد أن أقدِّم صوتاً أكثر اكتمالاً، متعدِّد الطبقات، ربما نحتاج إلى عازف طبول، أو حتى عازف جيتار آخر».

فقال ثاد: «يمكنني أن أتفهَّم ذلك تماماً، نجعله أقوى، فهناك مزيد من إيقاعات الجيتار»، واستدار رولاند إلى دانيال: «ما رأيك؟».

انتزع دانيال زائدة جلدية من إصبعه السبابة، وحدَّق بالملصقات وتخيَّل أمه تشاهد أحد فناني موسيقى الصخب التجريبيين وهو يتعامل مع الأصوات على كمبيوتر محمول، وارتسم على وجهه تعبير ما هذا الهراء. لماذا كان يفكر فيها؟

«رائع». كان يواجه مشكلة في زيادة الحماس ليتماشى مع رولاند وثاد، فأصدقاؤهم يقرؤون كتباً عن الإحلال الطبقي وعدالة توزيع الغذاء، ويتحدثون عن أهمية التوعية الاجتماعية والمساحات الآمنة، إلا أنهم جميعاً كانوا طلاباً جامعيين أو متدرِّبين من دون أجر، يتحمَّل آباؤهم تمويل بطاقتهم الائتمانية، ولم ينشأ أي منهم في المدينة، أما صوفي رفيقة ثاد بالسكن ذات جدائل الشعر التركوازية، فكانت تطهو وجبات مكوِّناتها مأخوذة من صناديق النفايات، سألت دانيال إذا كان على دراية بنماذج الطعام الاشتراكية بما أنه قد وُلِد في الصين، فأخبرها أنه وُلد في مانهاتن، فقال ثاد: «من الغباء أن تترك الدراسة وترفض حماس والديك الأكاديمي، يا له من احتيال، الكلية وكونك أستاذاً جامعيّاً، وكل هذه الأشياء». شعر دانيال بعدم الارتياح من أن يتكلم شخص آخر عن والديه بأسلوب مهين وسأله: «كيف تعرف أنهما أستاذان بالجامعة؟»، فقال ثاد: «أخبرني رولاند»، وكان رولاند قد أخبر دانيال أن ثاد تكفَّل بأموال (مالنخوليا) من مصروفه الشهري الذي يأخذه من والديه، فقال دانيال: «سمعت أن والدك مدير تمويل وقائي»، قال ثاد: «نعم، وهو سخيف بشكل مزرٍ». حسد دانيال الأشخاص الواثقين من أصولهم، والذين يمكنهم اتخاذ قرار بكره آبائهم.

طرق أحد رفقاء السكن الآخرين الباب وهو يصيح أن هناك انفجاراً بالمطبخ بسبب عطل في جهاز إعداد الطعام. كانوا يعدون صلصة البيستو للتدوين الصوتي الخاص بصوفي، وكانت يد هذا الشخص تنزف في أرجاء المكان. هل يعرف ثاد مكان حقيبة الإسعافات الأولية؟ فوقف ثاد ونفض التراب من على بنطاله الجينز: «سوف أعود».

قال رولاند لدانيال: «ما رأيك في تسجيل الأغاني؟».

مزَّق دانيال قطعة من الجلد الميت بأسنانه «جيدة، على ما أعتقد»، ونظر إلى الملصقات مرة أخرى. عندما كان منتشياً من المخدرات، في فترة المدرسة الثانوية، في حفل بإسطبل كودي كامبل، ظن أنه يرى خفافيش فشعر بالهلع حتى أخبره كودي أن ما يراه ليس خفافيش ولكن ظلال أدوات البستنة. قال كودي: «اهدأ». كان شيئاً مضحكاً وهزلياً أن يفكر في الإسطبلات والخفافيش وكودي كامبل في هذا الطابق السفلي العشوائي في حي كوينز.

«هل تتذكَّر كودي كامبل؟».

«ماذا، ذلك الغبي السمين؟».

مضغ قطعة من الجلد «لا أدري إذا كان بإمكاني فعل هذا».

«بالطبع يمكنك ذلك، فالعروض الماضية كانت رائعة، والعرض الأول كان ضربة حظ».

«لا أقصد العروض».

لكن كيف يمكن لرولاند أن يفهم؟ اسم عائلته وبشرته البنية الفاتحة جعلا من رولاند شخصاً مشبوهاً في ريدجبورو، لكنه كان ضعيفاً بشكل واضح أيضاً، كان وأمه يمتلكان وجهين مدببين ونحيلين، وشعراً رقيقاً داكناً. أثناء أدائهم للعروض في البلدات التي يجهلهم فيها الناس، كان هناك بعض الصبية الذين ضايقوا رولاند وهم يقلدون الغناء بالإسبانية ـ النوع نفسه من الصبية الذين كانوا يرمون الكونيتشي وا على دانيال ـ ثم كان هناك الوقت الذي أوقفهم فيه شرطي إلى جانب

الطريق السريع خارج ريدجبورو، وخالفهم بسبب السرعة بتهمة زائفة، حيث إن شاحنة البريد القديمة التي كان رولاند يقودها بالكاد تستطيع الوصول إلى الحد الأقصى من السرعة. أخضع الشرطي رولاند لاختبار الرصانة على الرغم من أنه ودانيال لم يكونا ثملين، ارتعب دانيال وهو جالس في مقعد الراكب، منتبهاً إلى الخوف في ظهر رولاند، بينما كان واقفاً على الطريق السريع ويداه خلف رأسه، والشرطي يقول شيئاً عن المكسيكيين السكارى. حين أطلق سراحهما، كان رولاند يقود مباشرة باتجاه ريدجبورو، وكانت تلك إحدى المرات القليلة التي رأى فيها دانيال صديقه عاجزاً عن الكلام. حين تحدث رولاند أخيراً قال: «علينا أن نخرج من هنا». لقد خرج رولاند، وكذلك فعل هو. حتى الآن، لم يتحدث رولاند أي لغة أخرى عدا الإنجليزية، لم يكن لديه أي اسم آخر سوى اسمه، كان يعرف طوال حياته من والدته وأين يمكن أن يجدها.

استغلَّ رولاند ما ميَّزه في ريدجبورو ـ الأب اللاتيني الميت، والأم البيضاء الأرملة ـ لمصلحته. بدا مختلفاً بقدر ما يستطيع. كان يرتدي ثياباً غريبة جاذباً تحديقات الناس التي التهمته.

«هل كنت تأخذنا أنا وثاد على محمل الجد؟ لقد كنت أتفوَّه بالهراء. ثاد دائماً ما يتفوه بالهراء. لم يكن علينا أن نحضِّر أغاني جديدة أو أي شيء لا تريده».

«لست متأكداً من أن هذا هو الاتجاه الذي أريد أن تتقدم موسيقاي من خلاله. لا أريدها أن تكون متعدِّدة الطبقات».

«ماذا تريد إذاً؟». انطلقت نغمة أكثر حدَّة من صوت رولاند «هذا عمل مشترك».

«لا يبدو الأمر هكذا، هذا هو الصوت الذي تريد صنعه، كي ترضي هاتش. لا أحد يكتب الأغاني سواك».

«تستطيع أن تكتب أغنية وستكون موضع ترحيب بالغ».

كان دانيال غاضباً للغاية وساقه ترتعش «كل ما يشغل بالك هو كيف تصبح محبوباً ويعجب بك الناس».

بدا رولاند مذهولاً، الشعور نفسه الذي راوده عندما كانا يسيران في واشنطن سكوير بارك «وكأنك أنت غير معنيٍّ بذلك؟ بربك. لقد كنت أحاول مساعدتك».

«مساعدتي؟».

«كان بإمكاني العثور على أي شخص آخر ليعزف في الفرقة، وكأنه ليس من عازفي جيتار متميزين في المدينة؟ لكنك كنت تحتاج مبرراً لترحل بعيداً عن المدينة».

دفع دانيال كوب قهوة فارغاً بقدمه «أنا لست مشروعك الخيري».

«الجميع يحبونك أنت.. وأنت فقط».

قال رولاند «هل تعرف عدد المرات التي غنيت فيها على المسرح؟ في كل مرة كنت أصاب بالتوتر، في إحدى المرات تقيأت في الحمام قبل فحص الصوت».

كان ذقن رولاند يهتز في أثناء تحدثه، وهي صفة قديمة من طفولته، شعر دانيال بومضة من عاطفة مفقودة تجاه رولاند الصغير الذي كان يعيش في ريدجبورو، ولم يستطع أن يتخلى عن صديقه الأقرب.

«إذاً سوف نعزف مع ياسمين في الأول من مايو، فكر بذلك كتمرين، ثم سنقوم بالعرض الكبير في الخامس عشر من مايو، وسيحضر هاتش بذاته، فلدينا أسبوعان من أجل الاستعداد لكل شيء».

«انتظر»، قال دانيال، «أي يوم هو؟».

«الاثنين».

«أعني تاريخ اليوم». نظر إلى هاتفه. إنه السابع والعشرون من أبريل، وجد مكالمة فائتة قبل ساعة، من الشخص الذي كان يفكر فيه. «انتظر، سأعود».

تجوَّل عبر متاهة من الممرات، بجوار المطبخ، حيث بنظرة سريعة لمح طاولة مطبخ ملطَّخة بصلصة البيستو والدم، وصوفي وثاد يضمدان يد أحدهم، ووجد باباً يفضي إلى كثير من الحصى. كان الليل لطيفاً، والقمر الذي ما زال هلالاً صغيراً يشع على واجهة المبنى البلاستيكية، فتح هاتفه واتصل بالرقم المحفوظ باسم «أمي وأبي».

كان سعيداً أن كاي التي أجابت وليس بيتر «أمي»، قال: «عيد ميلاد سعيد».

«لقد اتصلت بك في وقت مبكر، لكنني لم أترك رسالة».

«أعرف، لقد رأيت اتصالك».

«والدك لا يعرف شيئاً عن هذا، ولست بصدد إخباره، لكنني تحدثت مع عميد كلية كارلو وهي على استعداد للاجتماع بك، سيكون باستطاعتك الانضمام في الخريف».

«انتظري».

«طلبتْ أن تذهب إليها بعد أسبوعين، يوم الجمعة بعد القادم. الخامس عشر من مايو، عليك أن تكون هنا بحلول الظهيرة».

«لا أعرف ـ كيف أبي؟ ماذا سوف تفعلون من أجل عيد ميلادك؟ هل جعلك تبحثين عن الكنز؟».

«نحن بخير. لقد بحثنا عن الكنز هذا الصباح. الدليل الأول أتى بالبريد، لقد وضعه في مظروف كان يبدو كفاتورة! ثم جعلني أسير على طول الشارع كي أجد دليلاً في أزهار توليب عائلة لوتن، والآن يطهو لي العشاء».

«أخبريه أنني لم أكن أعني ذلك، في المقالة».

سمع صوت بيتر يصيح «عزيزتي؟» وقالت كاي إن عليها الذهاب.

الأول من مايو، أسبوعان قبل العرض الكبير، غنَّت فرقة سايكك هارتس بضع أغانٍ في الهواء الطلق تحت طريق بروكلين كوينز السريع، في افتتاح ياسمين قام دانيال بدعوة مايكل، وصعد بعدها وصرخ «كان ذلك رائعاً». ألقى رولاند ونات وخافيير نظرة؛ إنها المرة الأولى التي يحظى بها دانيال بصديق يظهر في عرض. قدَّم مايكل على أنه قريبه، وأمسك مايكل يده ليصافحها. استعادها رولاند، بينما أومأ كل من نات وخافيير، ثم تابعوا الحديث.

«فرقتك رائعة»، قال مايكل.

«أشكر مجيئك»، قال دانيال.

نظر مايكل إلى رولاند «كيف يعرف أحدكما الآخر؟».

رفع رولاند حاجبيه «لقد كبرنا معاً؟ دانيال أقدم صديق لي تقريباً».

«لقد كبرنا أنا وهو معاً أيضاً»، قال مايكل «لقد عشنا معاً في برونكس».

«عشت في برونكس حقّاً؟».

«بضع سنوات»، قال دانيال.

«ووالداتكما ـ بالولادة أقصد ـ كانتا شقيقتين؟».

«شيئاً كهذا. كانتا مقرَّبتين بشدة».

«هل تكلمت معها؟»، سأل مايكل.

«تركت لها رسالة، لكنني لم أتلقَّ منها ردّاً بعد».

«انتظر قليلاً»، قال رولاند: «هل تحدثت إلى والدتك؟».

«لقد حصلت على رقمها من ليون. خال مايكل».

«كان يمكن أن يكون رقماً خاطئاً»، قال مايكل، «كان رقماً قديماً».

«لقد كان بريدها الصوتي. لقد تعرَّفت إلى صوتها».

«اللعنة إذاً»، قال رولاند.

بقي فم مايكل مفتوحاً من الدهشة «المعذرة؟».

«أعتذر، أعرف أنها والدتك التي أنجبتك وما إلى ذلك، لكنها إذا لم ترغب في التحدث إليك، فهي الخاسرة. لقد أخبرتك أنك سوف تندم إذا هاتفتها».

«لقد أخبرته ألا يهاتف والدته؟».

أعاد رولاند شعره إلى الخلف بكفّ يده «ليست والدته».

«بل والدتي». قال دانيال.

«لم تقم بتربيتك. أعني أنني لم ألتقِ أبي مطلقاً، أو أياً كان».

«أنا أيضاً لم أعرف والدي أبداً»، قال مايكل: «لكن ديمينغ، أعني دانيال، عرف والدته جيداً».

«حسن، افعل ما تشاء إذاً»، قال رولاند.

احمرَّ وجه مايكل.

«بالطبع سوف يفعل».

قال دانيال: «حسناً، كاي أمي أيضاً». تمنَّى لو أنه يستطيع أن يكون محبوباً؛ أراد ألا يعيره اهتماماً، لكنه بدلاً من ذلك كان مثل مايكل؛ واضحاً وشفافاً. سأل مايكل عن رغبته بالانضمام إليهم في بار قريب، وعندما رفض مايكل، لأنه مرتبط بصف دراسي مبكر في الغد، شعر دانيال بالراحة.

«كان من الجيد أن أراك أخيراً منخرطاً بشيء ما، مع ذلك»، قال مايكل: «لقد كنتم حقاً مذهلين، كنتم كنسخة أقوى من مارون 5»، وبينما كان يبتعد قال: «سررت بلقائك رولاند».

«أنا أيضاً»، قال رولاند.

حين تخطَّى مايكل إلى المنعطف، بدأ نات وخافيير بالضحك «هل قال مارون 5؟». أصدر نات صوتاً مقزِّزاً «رولاند، هل يجعلك ذلك آدم ليفين؟».

«اخرس، نات»، قال دانيال.

في بوتسدام لم يكن يشعر بالرضا في الحفلات مطلقاً، ولطالما اعتقد أنه يجب أن يكون في مكان ألطف وأكثر متعة، مع أصدقاء ألطف وأكثر متعة. كان محاطاً بأشخاص يفترض أنهم لطفاء، لكن ذلك الإحساس بعيد المنال بالرضا عن النفس والقناعة ـ الحب؟ ـ لم يتحقَّق.

ذهب إلى المنزل وحيداً بعد العرض، تاركاً رولاند مع أصدقائه في البار. منذ أن أثبت قدرته على العزف، تغير نات معه 180 درجة، فلم يعد ينس اسمه

مطلقاً، وكان يصغي إليه حين يتحدث، لكن دانيال لم يكن يرغب بالتسكع مع أشخاص يتظاهرون بأنهم أصدقاؤه فقط حين يبدو ذلك مثمراً لهم على الصعيد الاجتماعي، أشخاص يجهلون مايكل كما فعلوا معه قبل شهرين. كان مشروع رولاند الخيري والشخص الظاهر في خلفية صورة خافي، لكن مايكل لطالما كان مخلصاً.

ربما كانت والدته مشغولة، أو تتجوَّل في مكان لا توجد فيه تغطية للهواتف النقالة، أو قد فقدت هاتفها أو كسرته، ولا تزال تسعى لشراء واحد جديد. ربما كانت لغته الصينية سيئة إلى حد أنها لم تستطع أن تعرف أنه كان هو، حتى لو كان ترك اسمه وأعاد رقم هاتفه مرتين. ربما تدهور أسلوبه بسبب عدم الاستخدام، والكلمات التي أعتقد أنها بدت مقبولة لبائعي الخضر والفاكهة كانت في الحقيقة هذيان، ولا تنتمي إلى اللغة، وثرثرة لا معنى لها، أو أنها كانت تتظاهر بعدم فهمها له.

كان يحتاج إلى أن يعرف. طلب رمز الدولة ورقم الهاتف. كانت هناك نقرة ناعمة ثم رنيناً بدا بعيداً. أسرع دانيال الخطى إلى غرفة المعيشة الخاصة برولاند، وانتظر رسالة بريدها الصوتي ليبدأ.

سمع نقرة أخرى.

«مرحباً؟» قالت، «ديمينغ؟».

«مرحباً؟»، قال بلغة مدينة فوزهو الصينية.

«مرحباً؟».

«إنه أنا ـ ديمينغ».

«مرحباً، ديمينغ. يسرني أنك اتصلت ثانيةً».

جعله سماع صوتها يلتقط أنفاسه: «مرحباً، أمي».

«إنه أنت. تبدو كالبالغين».

والآن وهو يتحدث إليها، لم يعرف ما يمكن أن يقول.

«هل أنتَ بخير؟».

قال: «أنا بخير». بقيت الاتهامات التي كان على وشك نسيانها عالقة في مؤخرة حنجرته. جلس على الأريكة، فوق غسيله القذر. ها هو الآن، يحظى بمحادثة صغيرة مع والدته الغريبة «أعيش في مدينة نيويورك، في مانهاتن، غير بعيد عن مكان إقامتنا».

«أنت في الحادية والعشرين الآن، لماذا كانت تهمس؟ هل تعمل؟ أم لا تزال تدرس؟».

«كلاهما. أدرس في الجامعة، وأعمل في مطعم. أعزف على الجيتار أيضاً في فرقة مع أصدقائي».

«لطالما كنت تحب الموسيقى».

«كيف حالك يا أمي؟» في كل مرة قالها أصابه الخوف. سوف تغيِّر رأيها، وتغلق الهاتف في وجهه. نزع جورباً محشوراً بين الوسائد وألقاه بعيداً في الغرفة. أراد أن يسألها لماذا لم تعاود الاتصال به، لكنه لم يرغب في إخافتها.

«أنا بخير. أعيش في فوزهو في شقة تطل على ويست ليك بارك. متزوجة، وزوجي يملك مصنعاً للنسيج، وأنا أعمل مديرة مساعدة في مدرسة إنجليزية».

حياتي رائعة. هذا ما كانت تقوله. حوَّل دانيال الحديث إلى الإنجليزية «كيف تحسَّنت لغتك الإنجليزية؟».

«لقد تمرَّنت»، قالت بالإنجليزية، وكانت لكنتها ضعيفة لدرجة لم تقنعه. عادت مرة أخرى إلى لغة الفوزهو «كيف حصلت على رقم هاتفي؟».

«تحدثت إلى ليون».

«حقّاً».

«قال إنه لم يتحدث إليك طوال سبعة أعوام».

«نعم، لقد مرَّ وقت طويل. كنا على اتصال قبل ذلك، لكن الأمر صعب الآن. العمل يشغل كل وقته، كما تعرف».

سار دانيال باتجاه النافذة، وعاد إلى الأريكة «وجدت ليون لأنني رأيت فيفيان، عن طريق مايكل. لقد وجد عنوان بريدي الإلكتروني؛ الشيء الذي لم يكن سهلاً. لم يعد هناك من يناديني ديمينغ، اسمي الآن دانيال ويلكنسون».

«دانيال ويلكنسون؟».

«أعطاني والداي هذا الاسم».

كان هناك صمت قصير «إذاً فقد رأيت مايكل».

«لقد تناولت العشاء معه ومع فيفيان، وقد أخبرتني أنها ذهبت إلى المحكمة بصفتها الوصي عليَّ وأعطتني لأسرة حاضنة».

تبع ذلك صمت طويل.

«مرحباً؟». كان ينبغي أن ينهي المكالمة، كان ذلك خطأ.

«تلك الحقيرة»، قالت أمه، لكن كلماتها كانت محسوبة وهادئة للغاية، وتفتقر إلى النار التي تذكّرها «كيف يمكن لها أن تفعل ذلك؟».

تمنَّى لو كان باستطاعته رؤية وجهها، رغب أن يكون قادراً على تمييزها.

«أمي».

«نعم».

«ماذا ترين الآن؟».

«أنا في شقتي، في غرفة المكتب خاصتنا. أرى الستائر وطاولة. نحن في الطابق الثاني عشر. إذا نظرت من النافذة أرى أبنية أخرى، فوزهو أصبحت مدينة كبيرة في هذه الأيام، مثل نيويورك. ماذا ترى يا ديمينغ؟».

«بعض الرفوف، حاسوبي، وملابسي، وجيتاري. هناك نافذة، لكنها تطل على بناء آخر».

سألته ما إذا كان يتذكر ركوب مترو الأنفاق، وذَكَرَ الوقت الذي التقيا فيه قرناءهما، في ريدجبورو، حين لم يعد ديمينغ غوو اسماً يقال بصوت مرتفع، اعتاد أن يتصور أن ديمينغ الآخر والأم الأخرى ما زالا يعيشان في كوينز. كان يجد في تلك الفكرة نوعاً من الراحة، الحلوة والمرة في آن؛ على الأقل لقد بقيا معاً.

«عليَّ الذهاب»، همست فجأة: «سأعاود الاتصال بك غداً».

اتصلت به في اليوم التالي، مساء الأربعاء في نيويورك، صباح الخميس في فوزهو. كان في العمل، ولم يرَ الرسالة حتى وقت لاحق «مرحباً، ديمينغ»، قالت: «أردت أن ألقي عليك التحية، لكن من المحتمل أنك في المدرسة. لا تتصل بي، نحتاج أن نحدد وقتاً مسبقاً لنتحدث، لكنني سوف أعاود الاتصال بك غداً».

أبقى صوت هاتفه مرتفعاً طوال اليوم التالي، لكنها لم تتصل، وبعد العمل هاتفها وترك لها رسالة أخرى، مستفسراً عن المرة القادمة التي سيتحدثان فيها.

عاد إلى الشقة، تناول وجبة الإنشيلادا التي أحضرها من مطعم تريز لوكوس المكسيكي، وحاول أن يعمل على إحدى الأغاني، مقرراً ألا يخرج من البيت. لم يعمل على موسيقاه منذ أسابيع. إذا شغل نفسه سوف تتصل، تماماً كشراء مظلة حماية من المطر. أخذ حماماً طويلاً، وارتدى بنطالاً رياضيّاً، وطوى ثيابه، وغسل الأطباق التي كانت على وشك أن تتعفَّن في الحوض، في النهاية نظر إلى هاتفه. لقد اتصلت، وتركت له رسالة مقترحة أن يتحدثا في الخامسة والنصف من صباح يوم الجمعة بتوقيت نيويورك. كانت تلك الليلة الأولى التي ينام فيها بعمق في ذلك الأسبوع.

في الصباح التالي كان مستعداً، نهض أبكر من المعتاد، واشترى كوباً من القهوة وقطعة كعك من مطعم في الجادة السادسة، ثم جلس إلى طاولة المطبخ وطلب الرقم.

في البداية كان الرقم خاطئاً ولم يجرِ المكالمة. فحص الرقم مرتين، مذعوراً، ثم أعاد الاتصال.

أجابت: «ديمينغ؟»

«هل الوقت مناسب؟».

«نعم، زوجي في الخارج، وأنا بالشرفة حالياً».

كان قد أعدَّ قائمة بالأشياء التي يرغب في السؤال عنها «هل تتذكرين عندما دفعتِني عن الأرجوحة؟».

«ما الذي جعلك تفكر بذلك؟».

«لقد تذكَّرته توّاً».

لم يحدث مطلقاً أن دفعتك عن الأرجوحة! أتذكر حين طلبتُ من المدرسة أن يضعوك في فصل معلم آخر. أرادوا أن ينقلوك إلى فصل علاجي».

كانت تلك كاي، تريد أن تضعه في صف أعلى «لا أذكر ذلك»، في المدرسة الابتدائية في المنطقة 63 أتذكر حتى المديرة. كانت سيدة إسبانية بشعر كثيف. كنت تعاني من المتاعب، ولم أود أن تبقى في ذلك الفصل أكثر من ذلك، قمت بنقلك إلى صف مايكل، كان في صف متقدم، وكان في صفه أولاد من مرحلتك أيضاً.

لم تكن المدرسة الابتدائية في المنطقة 63، بل 33، وضع دانيال مرفقيه على الطاولة ورأى الخطوط العريضة لوجه المديرة، وتذكَّر نفسه يسير إلى مكتبها رفقة والدته، كم كان غريباً أن يراها في مدخل مدرسته، وكم شعر بالراحة لجلوسه إلى جوار مايكل في فصل آخر. رأى مشهداً آخر: والدته تنادي صارخة على امرأة، في ذاكرته كان ابن المرأة الأخرى قد سخر من ملابسه أو من إنجليزيته الضعيفة وكان قد بكى ـ نعم، لقد رأى ذلك بوضوح الآن، ديمينغ يبكي في الحديقة وأمه تركض نحوه ـ وعندما دافعت الأم الأخرى عن ابنها، وقالت إنه لم يفعل شيئاً خاطئاً، سمحت لها ماما بالحصول عليها،

باصقة بلغة فوزهو. كانت تحارب من أجله وتقف إلى جانبه «اللعنة»، قال بالإنجليزية: «أخبريني شيئاً آخر ينبغي أن أعرفه».

«حين جئت إلى نيويورك كنت حاملاً بك بالفعل، وكنت مدينة بخمسين ألف دولار».

«كنت حاملاً حين أتيت إلى هنا؟ من كان أبي؟».

«شاب من القرية. كان جاري».

انتظرها أن تستفيض بالحديث، حين أخبرته كيف جاءت إلى نيويورك كان قد أنهى الكعك الذي مضغه بهدوء، وبقية قهوته. بعد ذلك أخبرها أنه قد كبر في بلدة تدعى ريدجبورو، وأن أسماء والديه بالتبنِّي بيتر وكاي، وأنه كان في إجازة من الجامعة.

كانت الشمس تشرق، وقبل أن تستطيع إنهاء المكالمة، قال: «ما دمت وجدت ليون، لماذا لم تحاولي العثور عليَّ؟».

«لقد حاولت». بدت متألمة «لقد بحثت سنوات حتى لم يكن ليون يعرف أين ذهبتَ. كنت أدَّخر النقود كي أعود إلى نيويورك، حتى لو كان الأمر سيكلفني ستين ألف دولار، كنت أخطط للمجيء من أجل العثور عليك، حتى لو كان أول ما سيفعلونه لدى وصولي زجِّي في السجن، حين علمت من ليون أنه تم تبنيك أردت أن أرمي بنفسي من فوق الجسر».

تقلَّصت كلماتها لتحتل مساحة صغيرة وضيقة. كان رأس دانيال خليطاً من الأسماء والدوافع. كان فراقهما خطأ ليون، فيفيان عرضته للتبنِّي، وقف أمام الطاولة ورمى فتات الكعك عنها إلى الأرض.

«لكنك بخير؟»، تسللت إلى صوتها ملاحظة مليئة بالأمل.

عاد دانيال إلى غرفة المعيشة. كان اعترافه بندم والدته يعني أن يفكر فيما فعله ذهابها إليه، الليالي التي استيقظ فيها في ريدجبورو حزيناً هكذا، كان يشعر أن رئتيه توقَّفتا. مرت شهور وسنوات على هذه الحال، حتى أصبح بارعاً في إقناع نفسه أن الأمر غير مهم.

«هذا لا يبرر ذهابك»، قال: «ليس لديك أي فكرة عما حدث لي. لا يمكنك أن تتظاهري أنك لم تفسدي الأمر، وأنك لم تخطئي».

خرج رولاند من غرفته «ماذا يجري؟».

«لا شيء، عد إلى النوم».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم».

«ديمينغ؟» قالت والدته: «هل ما زلت هناك؟».

انتظر دانيال حتى عاد رولاند إلى غرفته وأغلق الباب «نعم».

«هناك أشياء كثيرة لا تفهمها»، قالت «اسأل ليون، قلت إنك تحدثت إليه، لماذا لا تسأله إذاً؟».

كان صامتاً. سمع والدته تقول: «نعم، أنا هنا». تحدَّثت بصوت عالٍ وأسلوب مبتهج، وسمع صوتاً ذكورياً حولها.

همست: «زوجي في البيت. عليَّ أن أغلق الهاتف، سوف أتصل بك لاحقاً».

انتهت المكالمة، كما ظهر على الشاشة.

سكب دانيال لنفسه كأس ماء وشربها على عدة جرعات، ثم غسل وجهه في الحوض. بينما كان الماء البارد ينساب على عنقه، أدرك أن زوجها لم يكن يعرف شيئاً عنه، وأنها تظاهرت بعدم وجوده.

- 10 -

كان بساط كثيف من أوراق الشجر يغطِّي سنترال بارك، ودفعتني رائحة أكتوبر الضبابية إلى تذكُّر تسكُّعي عبر فناء المعبد برفقة فانغ وليلينغ. لقد كنتَ تجري حول القرية مثلما تفعل الآن. تصفَّحتُ جريدة صادرة بالإنجليزية منحتني إياها امرأة ترتدي مئزراً برتقاليّاً بينما كنت في المترو. لم أستطع قراءة المقالات، بيد أنني تمكَّنت من تخمين المحتوى، فلا أكترث عادةً حين أكون بمفردي في الخارج، لكنني اليوم وددت لو كنت إلى جانبي هناك، احتجت إلى من يلعب دور الشاهد على مجريات حياتي.

مرت خمس سنوات منذ أرسلتك إلى أبي، تبدَّد ألم اشتياقي إليك وصار بلا هوية؛ كما لو كان الأمر أنني أودِّع شخصاً غريباً، وعقب رحيلك عادت ديدي إلى فراشها، فجلبتُها إلى غرفتي ما إن رحلت نزيلة أخرى من الغرفة نفسها، ومن ثم انتقلت حقيبة النوم على الأرضية إلى المرأة التالية التي وصلت أخيراً، والآن صار لديَّ سرير بطابقين. معظم السيدات ممن عشتُ معهنَّ عندما وردتُ هذا المكان لأول مرة، انتقلن إلى بنايات أخرى، بل وإلى مدن أخرى. كانت ديدي تتغيَّب ليلتين أسبوعيّاً، لكن بقيت برفقتها في شارع روتجرز، نخبر من تصل حديثاً من الوافدات بكيفية شراء بطاقات

المترو، ومن أين يمكنهن الحصول على أجود المنتجات وأي المتاجر تغش الزبائن. لمحت الاضطراب في مُحيَّا الوافدات الجديدات، شاهدتهن يتلقَّين توصياتي بصدق نية. لقد وصفنني بالشجاعة؛ أُسقِطَ في أيديهنَّ لمَّا أخبرتهن كم من الوقت مر عليَّ في المدينة. قلت: «سوف تعتدن ذلك أيضاً، سيصبح الأمر سهلاً».

ادَّخر عدد قليل من رفيقات الغرفة ما يكفي لشراء أغراضهن في فرصة زواج مناسبة. ذهبت برفقة ديدي إلى مبنى البلدية لحضور زفاف صديقتنا سيندي إلى الرجل الأبيض ذي الشعر الأشهب. قالت سيندي: «هلا قدَّمتك إلى المرأة التي عملت معها؛ السيدة الصينية المحترفة».

(...) أردت التراجع عن كلامي لأن هذا ما كانت سيندي ستفعله.

فقالت سيندي: «(...) ستستغرقين وقتاً طويلاً بما يكفي حتى تري الأمر مجدياً (...). إنه لمن الحمق أن تتزوَّجي رجلاً لا يحمل أوراق إقامة رسمية، فذلك بلا شك تضييع للفرص، أما الطريقة التي تتبعينها فسوف يستغرق الأمر معها وقتاً طويلاً حتى تحصلي على رخصة الإقامة الدائمة».

ديدي مردفة: «إن لم يكن محالاً».

منذ أن رحلتَ وأنا أعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة في مناوبتي. حِكْتُ من حواشي الثياب أكثر مما حاكت الأخريات، وعلى الجدار المجاور لسريري ثبتُّ ورقة تحوي عمودين، أحدهما للقرض والآخر لما سدَّدته، وكانت الأرقام صغيرة للغاية حتى إنني لا أستطيع رؤيتها إلا وأنا مستلقية، ورويداً رويداً انخفض الرقم في العمود الأول بينما ازداد الرقم في العمود الثاني، لكن جرَّاء عدم عملي خلال الأشهر التي تلت ولادتك والمال الذي أرسلته إلى أبي، استغرق الأمر أكثر مما توقَّعت، ومع بلوغك الخامسة من العمر، كنت قد سدَّدت ما يربو على نصف القرض بقليل، بقي أكثر من عشرين ألفاً.

كنت أهاتفك مرة أسبوعيّاً في بادئ الأمر، وكان أبي يرفع الهاتف قبالة وجهك ويستحثُّك على أن تقول مرحباً، كنت أتحدث بينما تستمر أنت في

رطانتك، فيما بعد أصبحت قادراً على أن تبادلني الحديث، وفي كل مرة كنت أهاتفك كان صوتك يزداد نضجاً وتزداد حصيلة مفرداتك عن ذي قبل.

سألتك: «هل تطيع عزيزك يي غونغ؟».

«أجل!».

«ماذا فعلت اليوم؟».

«أطعمت الدجاج».

«هل تذكر نيويورك؟».

«كلا».

أصبحت في الرابعة، ثم الخامسة، كبيراً بما يكفي للالتحاق بالمدرسة في نيويورك، قدَّم أبي جملة من الأعذار قائلاً: «لِمَ لا ينتظر حتى تقضي دينك لتخصصي له مزيداً من وقتك، انتظري حتى تدَّخري ما يكفي لشراء مسكنك الخاص، إذ لا يُفْترض له العيش مع كل هاتيك النسوة، فضلاً عن أنك بحاجة إلى مزاولة عمل يدرُّ عليك دخلاً أعلى، بمعدل ساعات أفضل، فمن سيرعاه حين تنهمكين أنتِ في العمل؟»، لكن أبي حقّاً كان لطيفاً مع حفيده. أخبرته أنني تعرفت إلى والدك في نيويورك، مع أن جواز سفرك يحتوي على تاريخ ميلادك وبوسع أي شخص أن يجري الحسبة. لم يسألني أبي عن التفاصيل، ولم ينتظر مني إلا ما كنت أرسله من نقود؛ قائلاً إن ذلك لصالح ديمينغ، أخبرني أن قامتك قد نمَت ثلاثة سنتيمترات خلال شهر، وأنك تحب الغناء مصاحباً لموسيقى المذياع، وأنك أطلقت على الدجاجة الحالية اسم فيتي. سررت لأنه يعاملك بلطف؛ وهذا بدوره قد خفَّف عنِّي وطأة فراقك.

لقد أبقاني مطَّلعة على أخبار القرية باستمرار، تلك الأخبار التي ادَّعى كلانا أننا لا نأبه لها، بيد أنني كنت دائماً ما أتوق إلى سماعها. خطب هايفينغ امرأة من شيامين، قالت أمه إنها كريمة أسرة حسيبة. سُرِرْتُ لأجله، ولأنه ارتبط بامرأة حضرية، وسررت لنفسي كذلك، لأنني لذت بالفرار.

لقد رآك هايفينغ إبان زيارته لوالديه خلال رأس السنة الجديدة، كنتَ صغيراً جدّاً على أن تتذكَّر هذا، وطلب من أبي أن يعطيه رقم هاتفي. هاتفني مرات عديدة، لكنني لم أرد عليه إطلاقاً، ربما كان لزاماً عليَّ أن أدعه يتواصل معك؛ فلربما كان من شأن ذلك أن يجعل الأمر أكثر يسراً.

لم يكن وقت الظهيرة قد حلَّ بعد، وكان يومي شاغراً، لكنني حين غادرت شارع روتجرز متجهة صوب سنترال بارك هذا الصباح لم أشعر أنني على ما يرام كسالف عهدي، أمضي ملتحفة في معطف رمادي طويل أعطتني سيندي إياه. طال مسيري قليلاً بعد أن ارتديت المعطف ومن تحته بنطالي الجينز وسترتي، وانخرطت بين الحشود على ضفة القناة.

اصطحبت هاتفي ومن ثم هاتفت أبي. كانت الساعة تتجاوز الحادية عشرة هناك، وكان الوقت متأخراً كي أهاتفه، لكنني كنت مشتاقة إلى سماع صوتك. رنَّ الهاتف طويلاً بعض الشيء حتى ظننت أنني أطلب رقماً غير صحيح، ولما أجاب من أجاب، لم يكن أنت أو أبي، لكنها كانت امرأة صوتها مألوف بالنسبة إليَّ.

بادرت قائلة: «أنا بيلان، من المتحدث؟».

أجابني الصوت: «بيلان. معك السيدة لي والدة هايفينغ».

«وما الذي أتى بكِ إلى هنا؟».

«أردت أن أخبرك أن أباك قد وافته المنية. لقد تعرَّض لأزمة قلبية عشية أمس. لم أكن أعرف كيف أتواصل معك وتمنيت لو اتصلتِ».

رنين صاخب النبرة دوَّى في أذنيَّ، كصوت صادر عن قطار اضطر إلى الوقوف فجأة «كلا». بدا صوتي غريباً، لكنني أبيت أن أدعه يتذبذب بينما أتحدث إلى السيدة لي «لقد هاتفته الأحد الماضي».

ازدادت حدة الرنين: «آسفة لإبلاغك بذلك، لكن الأمر كان مباغتاً. لا أعتقد أنه كان يعاني كثيراً. ديمينغ مقيم معنا. سارعت إلى منزل أبيك ما إن

سمعت صوت الهاتف بالداخل. هل تستطيعين أن تعملي على استقدامه إليك في أمريكا عما قريب؟».

بشكل أو بآخر تمكَّنتُ من السؤال عن الجنازة، التي كان أقاربي يجهِّزون لها، ولم يكن باستطاعتي أن أشيِّعها معهم، أو أن أعود أدراجي سيراً حتى المترو ومن ثم الرجوع إياباً إلى الشقة، حيث وجدتني ديدي لاحقاً على سريري ووجهي مغطى بالصحيفة. لفترة طويلة كنت أنا وأبي متباعدين ولم يكن يدخل حياتي إلا عبر الهاتف فحسب، لكن لطالما تمنيت أن نلتقي مرة أخرى.

سرت في الشارع وأنا أبكي بينما أغطِّي وجهي بأكمامي، حاولت أن أكتم دمعي حتى أغادر العمل، ولما لم أستطع كتمانه، تركته ينهمر، وسمحت لأنفي أن ينسال فوق ماكينة الخياطة، فكَّرت فيما ستكون عليه الأمور، حين عدت إلى القرية بعد عملي في فوزهو، سحبتني سيدة من الجيران جانباً وقالت: «إن أباك فخور بك».

كنت أهاتف السيدة لي كل مساء كي يمكنني التحدث إليك، لأتأكد إن كنت مستمرّاً في الإقامة هناك. بكيت لأسابيع، كنت ألازم فراشي في أيام عطلتي. هاتفتني لي وأخبرتني أن أحد أبناء عم أبي تمكَّن من الحصول على قرض لوجود قريبة له في أمريكا، كنت أنا المعنية، وتقدم للحصول على تأشيرة سياحية، ووافق على اصطحابك معه في الرحلة إلى نيويورك إن أنا وفَّرت تذاكر السفر.

قبل ثلاثة أسابيع من مجيئك، أي ستة أسابيع من وفاة أبي، انضممتُ إلى حفلة بشقة تشوان. كان الرجال يلعبون الورق، بينما النساء يتحدثن ويشاهدن التلفاز.

رأيت رجلاً في الزاوية يرفع زجاجة من الشراب إلى فمه. عظيم الجثة كأنه صخرة، يميل بظهره إلى الخلف، طرفا شفتيه ملتويان كأنه يحثُّني على الانضمام إليه. لاحظني وأنا أنظر وأرد بابتسامة عريضة دون أن تنفرج

شفتاي. كان أفلج الثنايا إلى الحد الذي يمكن معه لبذرة بطيخ أن تنزلق خلال تلك الفجوة.

«أنت لا تلعبين الورق؟»، خلط الأوراق بيديه العريضتين. انطوى صوته الفوزوي على نبرة قروية حاولت جاهدة أن أهذِّبها.

أجبته: «لا مال لديَّ للعب الورق»؛ كان هناك إعلان تجاري على التلفاز، وصوت في الخلفية كما لو أن سيارة رياضية تسير في منحنيات جبلية وعرة.

«لست مضطرة إلى اللعب على المال». كسر قشرة حبة فول سوداني في فمه: «يمكننا المقامرة بالفول السوداني».

«أنا لا أحبِّذ الخسارة».

قال: «إذاً لن تخسري، ستفوزين دوماً».

التقطتُ حبة فول وقضمتُ نصفها «حسناً، ومتى جئت أنت؟».

«الآن مرت تسع سنوات». قسَّم ورق اللعب: «وأنت؟».

«ست سنوات».

ذكر اسم قريته التي لم تكن بدورها بعيدة عن ميانيانغ. «من الأفضل أن أكون الراحل على أن يفارقني أحدهم».

«أتعتقد ذلك؟». رأيت ابتسامة الرجل الخفية، وحاجبيه العريضين، والعينين الحائرتين في أرجاء المكان، ووددت لو أطلق له العنان! كان مألوفاً بالنسبة إليَّ، لكن ليس ثمة شيء مثل هايفينغ؛ يبدو كما لو كنتَ تعرفه من قبل، لا بد أن هناك خطباً ما «نكدح في العمل بأمريكا؟ لربما من الأفضل لو كان ذلك في الوطن، هانئة البال ميسورة الحال في بيت مصمَّم على أحدث طراز».

قال: «وماذا عن حلم اليقظة في أن تكوني هاهنا؟ لم يكن بمقدورك البقاء هناك».

تبسَّمت؛ فقد كان محقّاً.

كان يُدعى ليون، يعمل بالليل في مجزر بحي برونكس، وقد كان عمله يقتضي تقطيع الأبقار والخنازير، وذلك واضح من ذراعيه الممتلئتين، وكتفيه اللتين استشعرت ضخامتهما (...)، وحتى تعرفت إلى ليون، أخلصت لنفسي وكان ذا مدعاةً لاستشعاري الفخر بنفسي؛ انظر إلى كل ما فعلتُه، انظر إلى كل ما تخليتُ عنه، لكن حينما وضع ليون هذا الوشاح المُحاك على شكل نجمة فوق رقبتي حينما كنا واقفين في ذلك الشارع الصغير المُغطَّى بالثلج خارج الشقة الكائنة في تشيوان، وتحت هروب النار وتساقط بلورات الثلج، حينها ناداني قائلاً: «يا نجمتي الصغيرة»، أحسست كأن هناك شيئاً قد تحرك بداخلي لم أكن أعيره اهتماماً، كان الأمر مثل تذكُّر عشر ذكريات مضت منذ أمد بعيد ونسيتها. ما هذا؟ كيف نسيت ذلك؟ (...) لكن لم تكن هذه القرية، فالمرأة هنا يمكنها أن تُقبِّل رجلاً التقته للتوّ في الشارع أمام الغرباء، ولن يلتفت أحد إلى ذلك.

ثلاثة أسابيع وستعود إليَّ مجدداً، ولأنني عشت طويلاً في الشقة، أخبرتني رفيقات غرفتي أنه من الأفضل لك أن تقيم هنا ما دمت أنا قد وافقت على دفع أجرة أعلى، على الرغم من أنها لن تكون أعلى مما ستدفع النزيلة الجديدة، ذلك لأنك ستشاركني السرير ذاته.

أخبرتهن أننا سوف نرحل قريباً إلى مكان أوسع نوعاً ما، مع أنني لا أعرف كيف سيتم ذلك.

خططتُ أفضل مسار للمدرسة الواقعة في شارع هنري وأعدت ترتيب ساعات عملي في المصنع. كنت خائفة من تحمل مسؤوليات الأم مجدداً، سوف أحترس أثناء السير أو الحديث معاً، مع صبي في السادسة من عمره لم أكن حتى أعرفه. تذكَّرت كم كان من الصعب تحمل مسؤولية شخص آخر، وكم كانت بعض الأيام تبدو خانقة. ما بالي لو أنني نسيت كيف أكون برفقتك، أو كيف بي لو كنتُ أوقعت بك ضرراً جراء إرسالي بك بعيداً؟

في اليوم التالي من تعرفي بليون، هاتفني ليقابلني بمجرد أن أفرغ من

مهامي. أخبرته أن ابني قادم إلى نيويورك خلال الشهر التالي. لم أكن مضطرة إلى إخباره، لكن هذا ما بدر مني.

«ما اسمه؟ وكم يبلغ من العمر؟».

أخبرته أنك أصبحت بعمر السادسة في الشهر الماضي، وأنني لم أرَك منذ خمس سنوات.

أجاب ليون: «لا أطيق الانتظار حتى أراه!».

ابن العم الذي لم أقابله من قبل قط، أحضرك إليَّ في ليلة من شهر يناير. ربتُّ على كتفيك، لكن ذراعيك لم تفارقا جنبيك.

كان وجهك أطول وجسدك أكثر امتلاءً. صحت قائلة: «أيها الفتى الكبير!»، وبدورك أبرزت شفتك السفلى قبالتي. خالط شحمي وجهك. كنت ترتدي قميصاً أخضر بشارة كرة قدم مطبوعة عليه، جاءك من جار أو من أحد الأطفال القاطنين بحارة رقم (3). كان شعرك منتصباً في خصلات متصلِّبة، وكأنك أجبرت تلك الخصلات على الخروج من جلدك. من صفَّف ذلك الشعر؟

(...)

قال ابن عمي: «ديمينغ! ألا تتذكَّر أمك؟».

«يتذكَّرني بالطبع، وكيف له أن ينسى؟».

ثلاث من الرفيقات الجديدات شاهدننا عبر الغرفة. قالت إحداهن: «لقد نسي أمه!».

«لقد أصبح منهكاً عقب تلك الرحلة الطويلة، كما أنه ليس من السهل على طفل أن يسافر لمسافة بعيدة». باشرتك مجدداً، لكنك استدرت وجريت عبر المطبخ، فتبعتك مسرعة وضممتك من الخلف، ضاغطة بوجهي على قفاك. بدت رائحتك آسنة، وكأن العرق معتَّق، وفي النهاية استدرتَ مندفعاً نحوي.

كان ابن عمي متجهاً صوب العاصمة، حيث كانت تنتظره مهنة غسل

الصحون. لم يكُن يبدو كمن يقوى على ذلك، كان ذا ذراعين ناحلتين وجسد هزيل، لذا فقد دفعت إليه ببعض النقود قبل أن يغادر رجاء أن تنفعه، وبعد ذلك وجَّهتُك إلى الحمام، أعطيتك فرشاة أسنان ومنشفة، وبعد أن استحممتَ غططتَ في سبات عميق دون أن تنبس ببنت شفة. جلست إلى جوارك أحتضن ركبتيَّ مستحضرة كيانك الطفولي وساقيك الغضَّتين، وهذا الطفل الكبير الذي حل محل كل ذلك. لم أكن أدري إن كان بوسع ليون رؤيتي مجدداً، أو أن السبت الماضي كان موعدنا الأول والوحيد.

حاولت أن أتفرَّغ لك، هذا الفتى الذي رحل لمدة طويلة لا يحتفظ بأي ذكرى عن ملامحي. أُعجِب ليون بملامح وجهي. كان لزاماً عليَّ أن أفكر فيك، فيك أنت لا غير، لكنني فكَّرت ولمرة أخرى في يدي ليون، وعزمي على عدم التفكير في ليون تراجع كالسلك الكهربائي ينسحب عائداً إلى المكنسة الكهربائية، منزوياً في مكمنه.

في الصباح أعددت الحساء، وما في الشقة سوانا، ابتلعت طعامك دون أن تتحدَّث، ناظراً إلى جدران المطبخ والأكياس البلاستيكية المحشوَّة في أكياس بلاستيكية أخرى، وإلى الرقائق المعدنية القصديرية المربَّعة المثبَّتة فوق الشعلات التي كانت تعلوها الشحوم. قلتُ: «كُلْ المزيد! ألا تتذكَّر حينما درجتُ على إطعامك؟». من السخف أن قلتُ ذلك؛ أعلم أنك لن تستطيع التذكر، كما أنني أكره أن يتحدث الكبار إلى الصغار بطريقة خرقاء.

هززت رأسك «صودا؟».

«أتريد صودا؟».

«يي غونغ كان لا يمنعني الصودا».

إذاً هذا ما كان يفعله بالنقود التي كنت أرسلها إليه: «ليس ثمة صودا». عقدتَ ذراعيك تعاندني. اهتزَّ شحم وجهك وكان باستطاعتي أن أستشعر حرارة جلدك وأنت تتميَّز غضباً.

«تحدث إلى أمك».

«لا».

«ماذا قلتَ؟».

«لا».

حِكتُ الآلاف من حواشي القمصان لأتمكن من إحضارك هنا: «يا ناكر الجميل».

نهضتَ وتوجَّهت صوب غرفة النوم، وأشرت إلى كومة الغسيل قائلاً: «قذرة».

«أنصت إليَّ. أنا أمك وهذا هو بيتك. لقد وُلِدت هاهنا. يجب عليك أن تكون ممتنّاً لأنني انتشلتك من القرية». هززت كتفيك: «والآن استحم. سوف نخرج».

عبست ولكنك ذهبت إلى الحمام، وسرعان ما سمعتُ خرير الماء.

تساقط الثلج ليلة أمس، واليوم كان الجو صحواً، تتلألأ شمسه، هدَّأ المشهد من حدَّتك. كان شارع روتجرز مشرقاً براقاً، راقتك طبيعة ذلك الجو البارد، لكنه لن يلبث طويلاً حتى يتحوَّل إلى مستنقع طيني يذوب في كومة بائسة مرقَّطة ببراز الكلاب. بالقرب من المنعطف، تقع البنايات الضخمة التي تصطف متاخمة للنهر. سرنا معاً عبر طريق بوويري مخلفين آثاراً خفيفة. لم تكن المدينة قد تخلَّصت من الزحام بعد؛ إذ كان الناس يمشون ببطء، متمهِّلين، وكانت السيارات تمضي على طريق القناة مضطربة جراء الثلج. كان السائقون يقودون بحذر بموازاة جانب الطريق، ولم ينافسوا المشاة عند إشارات المرور. كانوا يذيبون الثلج بينما يقودون بحذر، ووددت أن أعلِّمك أن تحب المدينة كما أحببتها.

عبرنا شارع إليزابيث ومالبيري وموت، وكانت خطواتنا مبالغاً فيها وعالية، وكأن الثلج قد طمر أحذيتنا، وعند كشك على طريق القناة اشتريت لك معطفاً

شتوياً أزرقَ، وبدأت في المساومة على قبعة حمراء وسمحت لك باختيار حذاء ذي بطانة مزغَّبة.

مسرح برودواي. الشارع السادس «راقبني»، أخذت شهيقاً عميقاً ثم زفرته صانعة سحب بخار. بدوتَ وكأن الأمر يروقك. أخذتُ شهيقاً آخر وأنت كذلك فعلت مثلي، ثم نفثناه في الهواء البارد. هبطنا الدرج إلى المترو، مرَّرتُ بطاقتي الممغنطة مرتين، وحين وصل القطار احتللتَ مقعداً بجوار النافذة، كنت تتمايل إلى الخلف وإلى الأمام بينما تشاهد النفق يمتد، تعدُّ بينما نمضي في طريقنا إلى المدينة، واحد ـ أربعة، ثلاثة ـ أربعة، أربعة ـ اثنان، خمسة ـ تسعة. عند الشارع (125) كان القطار ينبجس فوق الأرض، يمضي مباشرةً صوب نور الشمس، لم أُطِق الانتظار حتى أرى وجهك.

صالون التجميل الذي تعمل فيه ديدي أعلن عن حاجته إلى عمالة. قالت لي: «لا تفوِّتي هذا يا بولي، وإلا سوف تعملين في ذلك المصنع حتى تشيخي». أحضرتْ زجاجات طلاء قديمة للشقة، وبدوري تدرَّبت على رفيقات المسكن، لذا كنت أعلم تماماً ما ينبغي لي فعله حين ذهبت لهالو جورج لمقابلة روكي المديرة.

قمت بتجميل يدي روكي وقدميها، ومن ثَمَّ حصلت على الوظيفة. خمس وعشرون ساعة عمل أسبوعيّاً كبداية، ولن أتقاضى أي راتب حتى إتمام مدة الأشهر الثلاثة التدريبية، ومع ذلك يمكنني تقاضي البقشيش. اقترضت لتغطية نفقات الإيجار والطعام والقمصان والبناطيل السود التي يلزمني ارتداؤها والرسوم التي دفعتها لروكي لقاء التدريب، على الرغم من أن التدريب عبارة عن مشاهدة شريكاتي في العمل لا أكثر، ثم التنظيف عقب انتهائهن، لكن على أي حال كان الأمر مختلفاً عن الخياطة، فضلاً عن تلك الوعود بمزيد من المال.

وكنوع من الاحتفال، اشتريت لك مجموعة مكعَّبات، وساعدتك في تشكيل القطع البلاستيكية على هيئة سفينة فضائية، قمت بدورك برفعها عالياً

بينما تدور داخل الغرفة. صحتَ قائلاً: «هبوط اضطراري!»، ثم صدمت سفينة الفضاء بالوسادة «بوووم!».

أنقذتُ سفينة الفضاء ممرِّرةً ذراعيَّ فوقها؛ أحاكي صوت المطارق والمثاقب: «لقد قاموا بالإصلاحات اللازمة. ها هي الآن جاهزة للإقلاع مجدداً».

قلت: «أريد نمراً».

«نمراً؟».

التعرف إليك كان أمراً محيراً. رغبتَ في ألعاب فيديو، لكنني اشتريت لك علبة طباشير، قمت بدورك بالضغط عليها بشدة حتى انكسرت إلى نصفين، والآن تريد نمراً. شاهدتك تجري عبر الغرفة، كانت سفينة الفضاء تهوي منقضَّة ثم ترتفع. لقد وصلنا إلى مرحلة كبيرة فارقة، وبدا أننا لن نستمر طويلاً في الشقة، تمنَّيت لو استطعت مهاتفة أبي وإخباره.

بينما كنت تتحوَّل إلى شخص جديد، كنت أنا كذلك في هذا الطور، ولقد قضيت سنوات بعيدة عنك باعتبار ذلك انتصاراً آخر نجحت في تحقيقه. احتفظت برسائل ليون الصوتية وكنت أشغلها في فترات استراحتي، كانت رسائله موجزة ومركزة، كانت كل كلمة أنتزعها منه بمثابة نصر أو تحدٍّ. سأسافر عما قريب للعمل. هاتفيني غداً. سأكون بالمنزل عند حلول الثامنة. الأمر ذاته ينطبق عليك، الانتصار ساعة أن سارعتَ إلى الانضمام إلى رفقاء صفِّك قبل المدرسة وإحضارك لوحات رسمك إلى المنزل، حين ركبنا القطار وشاهدتك تسمِّي المحطات، في فناء المدرسة كنت أول أقرانك اجتيازاً للقضبان، قافزاً من فوقها، كنت الطفل الذي حقَّق القفزة الأعلى والأجرأ بين الحواجز.

لقَّبتك ديدي بالخنزير الصغير، استمعتُ إليك حين كنت تخبرني بالقصص ذاتها للمرة الخمسمائة، وكنتُ أشبع نهمك من لعبتك المفضلة، تلك اللعبة المؤلمة التي كنت تنزع فيها يدك بعيداً، بينما أحاول أن أضربك على ظاهر كفك. كنت تقول: «ها أنا قد خدعتك! راقبيني مرة أخرى!»، وإذا ما تثاءبت أو التفتُّ عنك ولو للحظة، كنت تصيح: «افتحي عينيك، يا أمي، يجب عليك أن

تُبقي عينيك مفتوحتين!»، لكن ديدي كان بوسعها الجلوس معك إلى الأبد، لا تكِل في كل مرة تقصي فيها يديك بعيداً. كانت تتباكى قائلة: «ياللهول! أيها الخنزير الصغير، لقد خدعتني بلا شك. حسناً، دعنا نجرب ثانية، سوف أضربك على ظاهر كفك، ياللعجب، لقد خدعتني مرة أخرى!»، وبينما كنت أشاهدكما، كنت أسمع أبي يقول عني إنني أنانية خرقاء. ربما كنت على خطأ لأنني لم أكن أمتلك صبراً كافياً على اللعب مع الأطفال، نادمة مستسلمة عنيدة متذبذبة. هجرت والدي وتخليت عنه، ولم أرْثِهِ كما يليق.

قدم ليون من حي برونكس إلى الحي الصيني، اصطحبنا خارجاً لتناول الغداء بشارع قريب من جسر مانهاتن. تعرف الطباخ إليه متذكراً أيام شحن السفينة خلال رحلته من الوطن، كانت الزبائن منحنية على طاولات معدنية مستديرة مواجهة للنوافذ ومغطَّاة بالمرق المالح، والبخار يشقُّ طريقه نحو رصيف المشاة.

ثلاثة محال للمعكرونة في محيط واحد ضيق، يكدون ويكدحون تحت حامل الجسر، ولكل محل منهم تخصُّص يميزه عن الآخر: مرق لحم البقر، مرق الدجاج، مرق لحم الخنزير، مرق لحم الضأن، أما هنا فثمة طبق واحد، حساء المعكرونة مع لحم الضأن.

قال ليون: «هيه!»، أطل الرجل الواقف خلف الشباك والعجين ممتد بين ذراعيه. رفع ليون ثلاث أصابع وسحب المقاعد. لطخ المرق المنسكب على الطاولة أصابع أقدامنا، وضعت النادلة صحوننا مع أكواب شاي بلاستيكية، ومسحت السائل على الطاولة بمنشفة الأطباق، وبدورنا تجرَّعنا حساءنا وامتصصنا فتات اللحم العالق بين أسناننا. كانت المعكرونة مطاطية وثخينة، كانت شهية للغاية؛ أما الحساء فقد كانت نكهته مثل الذكرى الجميلة، مما أضاء وجهَك ابتهاجاً. تجشَّأ ليون ثم وضع الحساب فوق الطاولة.

تساءلتَ: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

نظر ليون إلى هاتفه وحسب كم تبقى من الوقت قبل مناوبة عمله «أتحب القوارب؟».

أجبتَ: «اعتاد يي غونغ على الإبحار بالقارب، أنحن ذاهبون للصيد؟ في غونغ كان معتاداً الصيد».

رد ليون: «حتماً أنت لا تريد أن تأكل من السمك الموجود في هذا النهر، فالسمك هنا يخرج برأسين».

بدأ الثلج في الذوبان، كانت آثاره الباقية تتخلَّل الوحل الموجود تحت القشرة الجليدية. صاح ليون: «إلى أسفل مانهاتن». كان يقصد عبَّارة جزيرة ستاتن، قارب برتقالي ساطع يصدر عن بوقه صوت فرس النهر، وقفنا على متن القارب بينما يمخر عباب الماء، أَلُفُّ ذراعيَّ حولك، وليون يلفُّ ذراعيه حولي.

ليون في أمريكا منذ تسع سنوات، ولا تزال إنجليزيته سيئة، لكن الرسوم كانت أقل عندما جاء، لذا فقد أتم سداد قرضه بالفعل. طفقت أسأل نفسي لو كان ينبغي لي أن أذهب إلى رجل يمكنه الحصول لي على بطاقة الإقامة الدائمة، أو أعثر على ذلك الرجل الذي يحب قراءة الصحف ويساعدني في تطوير لغتي الإنجليزية. لقد شارفت على الجنون حينما بصق ليون على رصيف المشاة، يندفع إلى عربة المترو بينما يحاول الركاب النزول، يتخطَّى صفوف التسجيل النقدي وكأنه لم يبرح فوزهو، لكن الطريقة التي صبَّ بها لعناته بلهجة محلية والسريعة كالماء الدافق وطريقة اعتياده المدهش، جعلتني أضحك وأشاركه الأمر. لقد استمع إليَّ وأنا أشتكي من العمل، وحتى في اللحظات التي لم يكن يمتلك فيها ما يكفيه من المال، كان يبتاع لي الطعام ويمضي الوقت معك. لقد رأيتُ كيف أسعدك. تجوَّلنا في أرجاء سنترال بارك وباتري بارك وماديسون سكوير، كان يحب مشاهدة الأشجار والمياه، لقد ترعرع بجانب الصيادين والفلاحين.

أبي كان سيحبه؛ فلم يكن يخطئ أبداً بشأن رقيقي الفؤاد، وانظر إلى الرجل، من غيره إضافة إليك، جعلني أشعر بقيمتي وبأنني فريدة ومختلفة؟

على متن القارب همس ليون بحيث لا يسمعه سواي «ما بالك لو عشتِ معي أيتها النجمة الصغيرة؟ أنت وديمينغ؟».

رغبت في الاحتفاظ بهذه اللحظة حتى وهي تحدث، لأستدعيها عندما تكون قد مضت بالفعل.

كان الربيع يستحثُّ خطاه، وكانت الشوارع أكثر نضجاً وصخباً، وانتعشت المدينة بألوان طازجة وأضواء ساطعة. مشينا اليد في اليد، ثم ذهبت لاصطحابك من المدرسة.

سألتَ: «هل بوسعي الحصول على طائرة؟ ثمة طائرة رأيتها، في كتاب».

«لقد ركبتَ طائرة من قبل، إلى نيويورك. أراقتك؟».

«لقد كنت نائماً».

«يوماً ما ستركب طائرة أخرى».

«إلى أين؟».

«إلى أي مكان حول العالم».

كانت للمقصف مصابيح ليمونية اللون هيئتها تشبه الخوذة. طلبنا شاي فقاعات بألوان فلورية وثقبنا غطاء أكوابنا بالأنبوب الكبير. قلت لك: «احتسِ الشاي خاصتك ولا تنفخ الفقاعات».

«هل تحب نيويورك؟».

امتصصتَ مزيداً من الشاي وحدَّقت إليَّ عبر الطاولة، بينما تنفخ فقاعة فضفاضة رخوة «نعم».

«وما الذي تحبه فيها؟».

«المترو».

«هل تشتاق إلى الصين؟».

رفعتَ كتفيك.

«هل تشتاق إلى يي غونغ؟».

«نعم»، نطقتَها بالإنجليزية.

«وأنا كذلك». دفعت أنبوبي إلى قاع الكوب «هل تحب ليون؟».

«هو يلعب معي».

«يمكنك نداؤه بأبي، أخبرني أنه لن يمانع ذلك».

رمقتني ببصرك كما لو أنك تتذوَّق الكلمة؛ تحاول أن تتفهَّم ما إذا كانت الكلمة قد راقتك أم لا.

«خلال الشهر القادم سوف ننتقل إلى شقة أوسع لنقيم مع ليون وأخته فيفيان. إنها ليست بعيدة، في حي من المدينة يسمى برونكس. سيكون هناك صبي آخر يمكنك أن تشاركه اللعب، ابن أخت ليون، يُدعى مايكل».

«كم عُمُره؟».

«بمثل عمرك تقريباً.. أعتقد أنه في الخامسة».

أجبتَ عابساً: «أنا في السادسة».

«أعلم أنك كذلك». خصلات كثيفة من الشعر طوَّقت وجهك، كما لو كنت تحتج. عبرتُ إلى الجانب الآخر من الطاولة وزاحمتك مقعدك «سوف ننتقل للعيش مع ليون، لكنني وأنت سنبقى دوماً أسرة واحدة، أيها الفتى! أنت وأنا».

نفثت الفقاعات في الشاي خاصتك، مصدراً ضوضاء مزعجة مرة أخرى، ثم ضحكت ساخراً.

ارتسمت ملامح الجد على وجهك «هل العمة ديدي قادمة هي الأخرى؟».

كانت الشقة صغيرة جدّاً على أن تستوعبنا جميعاً. أنا وأنت وليون وفيفيان ومايكل. قال ليون إن والد مايكل تايواني عديم النفع لم يكن يحمل أوراقاً رسمية وانفصل عن فيفيان منذ وقت طويل.

رفيقات غرفتي أخبرنني أن برونكس حي خطير ولا يعيش هناك كثير من الصينيين. وصلنا ذات صباح من أبريل، ونظرت إلى اللافتات المكتوبة

بالإنجليزية والإسبانية. لم يكن ثمة رمز صيني واحد في أي مكان، بل ولا يوجد كذلك في محل الطعام الجاهز أسفل البناية حتى شعرت وكأن ما مضى من وقت لي في أمريكا هو تجربة تدريبية وهذه هي الحياة الواقعية. استغرق الأمر ست سنوات وأنا لا أزال في المدينة ذاتها، ولكن في نهاية المطاف ها أنا قد رحلت إلى مكان آخر. امرأة أخرى كانت تنتظر بالفعل أن تحل محلي على سريري في شارع روتجرز.

ولقد شاركت ليون نفس الفراش، وأنت ومايكل على الفراش الآخر، أما فيفيان فقد كانت تنام على الأريكة. كانت المعيشة مع ليون تكلفني مائة دولار شهريّاً أكثر مما كانت عليه حياتي بالنزل، لكنني تمكَّنت من العمل لساعات أطول في صالون التجميل، ولما كنت تعود من المدرسة إلى البيت كانت فيفيان وليون يرعيانك أنت ومايكل.

ليون العالَمُ المناقض، كان يستيقظ في السحر. كانت حافلات المدينة تسير متعرِّجة عبر حي برونكس، كان ليون يرتمي فوق واحد من مقاعدها الخلفية، متوجهاً حتى مشارف حي هانتس بوينت، هذا هو السعي لكسب لقمة العيش، كم هو مضنٍ وشاق.

ويقوم بنزع الضلوع عن اللحم، وكانت الخنازير تتحوَّل من حيوان كامل إلى أجزاء منفصلة: البطن، الأكتاف، الأمعاء، تتحول من خنازير إلى لحم. الدم يغطي الأحذية، والقفازات زلِقة بسبب الأحشاء، كان ليون يقطع الشرائح فوق الوَضَم، يخلِّص اللحم من العظم، وعلى أرضية الذبح، تتدلَّى من كلاليب عملاقة تلك الخنازير التي ماتت صعقاً بالكهرباء؛ مقطوعة الرأس، ومسلوخة على نحو جيد. خط الفصل، وأحياناً ما كنت أرى تلك الحيوانات في منامي. ذلك الخنزير المتجمِّد الذي يخر مغشيّاً عليه في صمت، رؤوس الخنازير ذات الأفواه الفاغرة، كل تلك الأشباح التي تئن. كان ليون يفصل السجق عن اللحم المقدَّد عن اللحم المملح. ما الفارق بين الخنزير والإنسان؟ (...).

ما نحن إلا لحم وشحم وأعصاب وأوتار وعظام، غضاريف وعضلات،

أفخاذ وصدور. جاء ليون كمسافر غير شرعي، تقاذفته الأمواج حتى نيويورك على زورق مخلفات أجهزة حواسيب قديمة. أبحرت السفينة حول العالم، من الصين إلى تايلاند ومنها إلى المكسيك عبر المحيط الهادئ، لكن الركوب مع الحمولة لم يمكِّن ليون من رؤية المحيط إطلاقاً. عندما جاء كان يمكن الدخول دون حيازة أوراق وإجراءات قد تودي بأي شخص إلى أن يتشرد في الشوارع؛ لم يكن لديهم أي مكان ليحتجزوا أحداً به. كان يمكن تلقِّي أمر بالمثول للمحاكمة وتمزيقه ورميه بعيداً ما إن تطأ قدما أي شخص الرصيف، يستوقف سيارة أجرة لتقله إلى الحي الصيني الفوزوي ويتلاشى بسلاسة في الزحام.

تساءلت ديدي: «وهل من المخيف العيش إلى جانب رجل يمتهن الذبح؟»، أجبتها: «ولنفترض أن الأمر كذلك، لكن ليون لم يكن يباشر الذبح، بالطبع هو عريض المنكبين والكتفين وله ذراعان قد تخنقانك، لكنه لطيف على الرغم من ذلك. حين يعود من العمل إلى المنزل يستحم طويلاً، زحف إلى الفراش وبلل الملاءة، (...) كان يتكلم في نومه بكلام يُشبه الهمهمة، في البداية لم أكن أفهم ما يقول، لذا قال: «لا» وهو يضحك، وقلت أنا «نعم» بعد أن ترجم لي ما كان يتمتم به باللغة التي أحبها».

بين مناوبات عمله، نمنا معاً بنصف ملابسنا فقط. أخبرني ببعض الذكريات التي يحتفظ بها عن والديه اللذين ماتا في شبابهما. ذات مرة وبينما كان طفلاً صغيراً، هرول إلى منزله يحمل دعسوقة، يخفق فؤاده فرحاً يود أن يريهما الحشرة الملونة، كانت أمه تغسل القدور، أخذت الحشرة وسحقتها بين أصابعها. لم تكن تلك القصة مروية على أنها درامية، بل على أنها قصة واقعية، لكنها جعلت الحزن يأخذ مني مأخذه؛ حتى إنني لم أجد ما يناسب ذلك من كلمات، ذلك الأسى، وتلك الشفقة التي من المفترض أن تتولَّد تلقائيّاً لدى بنات حواء. لطالما أردت أن تكون لديَّ ذكرى واحدة، ذكرى واحدة ليس إلا مع أمي. أخاف ألا أتمكن من أن أكون تلك الأم الطيبة التي لا يحتفظ لها ابنها بذكرى.

حكيت لليون عن هايفينغ، ضفة النهر والمصنع، اليوم الذي نزلت فيه إلى المحيط (...).

«بالطبع لا. أنا لا أطمح أن أكون مع امرأة أخرى».

تزداد مخاوفي كلما حاول ليون معاملتي بلطف. كانت رباطة جأشه مختلفة عن تصنُّع هايفينغ، لكنها توحي بالخطورة، وربما تكون حيلة، وينبغي لي الحذر. خيبة أمل أصابتني في أن ليون لم يكن قادراً على أن يشعرني بالطمأنينة كما ينبغي، وانزعجت من شعوري أنني أحتاج منه إلى أن يفعل ذلك. أخبرت نفسي أنني ما أردت الزواج، لا سيما بشخص لا يحوز أوراق إقامة رسمية. أخبرته أنني لا أكترث للزواج.

قال: «لا أزال على رغبتي في الزواج بك يوماً ما».

وأعاد طلبه، فقلت: «لننتظر وسنرى».

رفيقة غرفتي السابقة سيندي أخبرتني أنه من الخسران الزواج برجل لا يحمل أوراقاً رسمية، وها هي ديدي قد نالت فرصة عمرها؛ فتشوان كان أمريكي المولد، لذا فقد كانت فرصتها سانحة للحصول على بطاقة الإقامة الدائمة. تخيَّلت لو أنني قضيت ما بقي من عمري دون أوراق رسمية، غير قادرة على قيادة سيارة أو مغادرة البلاد، متورِّطة في أسوأ المهن. ليس ثمة فارق عن البقاء بالقرية. لم أكن أريد حياة بائسة خانعة، لكنني كنت أتوق كذلك إلى الثقة والطمأنينة. طرحت اقتراحاً على ليون أن يتزوَّج كل منا بمواطن شرعي، بغية الحصول على الأوراق الرسمية، وبعد سنوات قليلة يمكننا الطلاق لأتزوجه، لكنني لم أكن أرغب في الزواج بأي شخص آخر، وأنا متأكدة تماماً من أنني لا أريده لأخرى.

إن فارقته الآن، فلن يكون مؤلماً لي بقدر ما لو فارقته فيما بعد. نمت بجواره وظللت أشاهده وهو يُتمتم أثناء نومه.

أصابني الدوار جرَّاء رائحة طلاء الأظافر، جعل خياشيمي تلتهب، وكشطَ

جلدَ أصابعي ليخرج عنها قشور لامعة. عندما عدت إلى صالون التجميل بعد يوم العطلة، أحسست بضيق تنفس، وبأن عينيَّ قد احترقتا، لكن بعد ساعة لم يعد بإمكاني ملاحظة ذلك. كان البقشيش في صالون التجميل لا يزال غير كافٍ لتغطية نفقاتي. لو أنني أقوم برسم الأظافر لتقاضيت بقشيشاً أعلى، لكن روكي أخبرتني أن مائتي دولار ستُخصَم نظير تدريبي، جرَّبت إنجليزيتي مع من تحدَّثن إليَّ من الزبائن، سألتهنَّ عن أسمائهن، وكيف يدبِّرن معيشتهن، وأين يقمن في المدينة؟ اعتدت الألفة المحرجة حين تمسك غريبة بيدي بينما تحاول كلتانا تحاشي النظر في عين الأخرى. كانت الماندرينية هي لغة التواصل بين جميع متخصِّصي التجميل. كانت جوي تحب إعداد الخبز، تحضِّر لنا البسكويت بالزبد لنأكله، بينما كانت كوكو الطويلة الناحلة ذات الشعر الكثيف الأملس تدرس مجلات الموضة وتتعلَّم العلامات التجارية وأساليب الموضة التي تفضلها زبائنها في نمط أزيائهن وحقائبهن. قالت: «هذا تقليد لعلامة بالنسياغا التجارية، يمكنك اكتشاف ذلك من خلال الشرائط». كانت تتكلَّم بطريقة رتيبة، كن يلقِّبنها بالفظَّة، لكنني عرفتها مسلية «أتعرفن السيدات اللاتي يحملن حقائب أصلية غير مقلدة؟ يدفعن بقشيشاً تافهاً، لأنهن ينفقن جميع أموالهن على الحقائب».

يوماً ما سيكون لديَّ ما يكفي من المال لأنفقه على الأشياء التافهة. أريد عملاً أرقى، إدارة صالون تجميل مثل روكي. كانت هناك امرأة دأبت على العمل في هاللو جورج واستقالت لتدير أعمالها الخاصة في حي كوينز.

هانا، أفضل من يتحدث الإنجليزية فيما بيننا، كانت تقرأ كتب المحادثات خلال فترات راحتها. قالت: «عليك استغلال ميزة أن يكون لديك طفل ينشأ هنا. ذلك بمثابة درس إنجليزي يومي بالمجان»، وفي البيت بدأت أحاول التحدث إليك بما لديَّ من إنجليزية، محاولة كذلك إخفاء إحباطي حين تسخر من طريقة نطقي.

قلت لليون: «لنلقي نظرة على هذا معاً». خفضت صوت التلفاز، فقد

أعطتني هانا واحداً من كتبها القديمة «أنا أحاول أن أتعلم عشرين كلمة جديدة أسبوعيّاً. يشير الكتاب إلى أنني خلال شهرين سأصبح قادرة على أن أتحدث بمستوى الصف الثالث التعليمي».

«الصف الثالث؟ هذا بالنسبة إلى الأطفال. مستوى الرضَّع».

«إن لم تحاول فلن تكون قادراً على التحدث إلا بمستوى الجنين.. صمتاً».

«الصينيون هم أكثر سكان العالم تعداداً، لكنَّك لا ترين أمريكيّاً يحاول تعلُّم لغتنا. لستِ بحاجة إلى الإنجليزية في مهنتي»، تناول ليون الريموت وقام برفع الصوت مجدداً.

كدت أن أقول له، إذاً لن تبرح المجزر ما حييت، كان عملاً يناسب الشباب، لكن ما إن تفاقم ألم ظهر ليون، أمسى غير قادرٍ على العمل هناك أكثر من ذلك، تُرى أي وظيفة يمكنه الالتحاق بها؟ لم أكن أعمل بالقدر الكافي الذي يوفِّي نفقاتي، وحينما لاحقتني هذه الأفكار وأبقتني يقظة طوال الليل، حاولت تبسيطها بالألوان؛ الطريقة ذاتها التي أتبعها في تجميل الأظافر بخفقات بسيطة. تدبَّرت حالي وحال ليون، أتحدث في الفراش حتى الصباح الباكر، بينما تتعالى ضحكاتك وأنت برفقة مايكل في غرفة المعيشة. كنت تدعو ليون أبي، كنا نتناول طعامنا نحن الخمسة في المطبخ معاً. اعتدنا الحديث عندما كنا نجتمع على طاولة الطعام.

تمنيت لو كانت فيفيان أختاً كبرى بالنسبة إليَّ، كلتانا كانت تختلق النكات على ليون، وترعى كل منا ابن الأخرى. كانت فيفيان قصيرة ومكتنزة، تفضِّل الملابس الزاهية، والقمصان الوردية القاتمة ذات الشخصيات الكرتونية المطبوعة، والبناطيل ذات الأحجار الكريستالية المرصَّعة على جوانبها السفلية. كانت تتقبَّل مهمات زائدة من المصنع، وفي بعض الأسابيع كان هناك مزيد من العمل، بينما ينعدم تماماً في أسابيع أخرى.

أول صباح لي في الشقة أخبرت فيفيان أنني أحببت بناطيلها. كانت تقصُّ الخيوط على طاولة المطبخ، ذي الأرضية المنبعجة، والجدران المكسوَّة

بآثار المستأجرين السابقين، مسودة تماماً، لزجة الملمس جراء زيت الطهي، ورائحة عفنة تفوح منها، تصبح نفاذة أكثر في الأيام الحارة، وإذا ما تمكَّنت من هدم تلك الجدران فلربما وجدت خلفها طحالب ونباتات متعرِّشة، وتيار مياه جارياً، ونباتات متشعِّبة، وعظاءات.

أجابتني فيفيان: «شكراً». يد تشدُّ الخيط، بينما الأخرى تقبض على المقص «أوه، نسيت أن أخبرك. لقد اشتريت لحم خنزير للمساء».

«لِمَ؟ أثمة خطب ما الليلة؟».

«من أجل العشاء، فكَّرت في شطائر لحم الخنزير. أتفضِّلينه مطهوّاً بالبخار أم مقليّاً؟ المطهو بالبخار أسهل، أليس كذلك؟ لكن ليون يحب المقلي، بالطبع. ماذا تعدِّين له؟».

«لا هذا ولا ذاك. كنت أضطر إلى العمل حتى وقت متأخر، لكنني درجت على إحضار الطعام الجاهز من أجل ديمينغ، لذا لا تقلقي بشأن إعداد العشاء له».

«يوجد طعام وفير، كثير من الطعام من أجل ابنك».

«استدعي ليون للطبخ. هو ليس مضطرّاً إلى الذهاب للعمل إلا بعد العشاء».

«الطبخ؟ ليون؟»، ضحكت فيفيان ملء شدقيها حتى ابتدرها الفواق.

توقعت أن أطبخ، حتى وإن كان لزاماً عليَّ أن أذهب إلى العمل. ما تحبه تلك النسوة فحسب هو أن يقضين أوقات فراغهن منتصبات في مطبخ حار ليفرمن اللحم والخضراوات، ليدلِّلن الرجل البالغ كما لو كان طفلاً، لكنني لم أرغب في أن أكون سبباً في إحداث أي تضارب. أردت أن تكون لي أخت، لذا توليت أنا وفيفيان مهمة الطبخ، وذلك بعد انتهاء عملنا.

لقد قامت هي وليون بملء الشقة بالصودا التي تحبها. ذات ليلة جلست برفقة مايكل على الأريكة إلى جوار ليون ترتشفان الكوكا لتريا من منكما سيصدر صوتاً أعلى.

قلت: «يكفي هذا يا ديمينغ. كفّ عن هذا».

قالت فيفيان: «حسبك! هما مجرد طفلين».

شارككما ليون الأمر من خلال تجشئه الناتج عن مشروبه، كما لو كان يوافق فيفيان الرأي. قرقعتَ مجدداً، أما مايكل فقد غالب ضحكته.

«ديمينغ! كفّ عن ذلك!».

«لكن الخالة فيفيان قالت لا بأس من ذلك».

«حسناً، أنا أمك ويتحتَّم عليك أن تنصاع لأمري».

أخرجت لي لسانك. مارت أحشائي بغضب جامح فائر وكأنه غاز سام. كنتُ مطالَبة بأن أعود إلى صالون التجميل في الصباح التالي، استغرق الأمر نحو ساعة للذهاب إلى حي هارلم في الحافلة ومترو الأنفاق، كنت قد عملت بالفعل لمدة سبع ساعات، وتوقَّفت عند المتجر لشراء الطعام في طريق عودتي إلى البيت، حيث كان مالك المتجر رجلاً لطيفاً من أمريكا الجنوبية، لقد منحني تخفيضاً على المشتريات. كانت هناك أطباق متسخة في الحوض، وكومة ملابس تنتظر الغسيل، وكنت أنت وليون مستمرين في القرقعة، بينما تحاول فيفيان أن تكتم ضحكها. جميعكم كان يحاول ألا يضحك عليَّ «أخبرتك أن تكفّ عن هذا! وأنت ـ أشرت إلى ليون ـ لا فرق بينك وبين الطفل».

تبادلت فيفيان وليون النظرات. يشعران بالخزي جراء رفضك الانصياع لكلامي، وزعت الحساء الذي أعددته بمساعدة فيفيان. رفعت أنت ومايكل صحنيكما نحو فميكما «أشكرك». قالها مايكل بينما ينظر إلى فيفيان وإليَّ من بعدها، كما لو كان ينتظر الإذن ليطعمها. كانت عيناه زائغتين لامعتين، وبدوري فقد أدركت أنه كان يخشاني.

كنت برفقة ديدي في الزقاق الواقع خلف هاللو جورج؛ نتقاسم سيجارة في فترة استراحتنا. حامت حمامة حول صناديق القمامة.

قالت: «لقد قمت ببعض التلميحات لتشوان. قبل أيام أريته صورة من مجلة لخاتم خطبة».

«وماذا قال؟».

أجابت هازة رأسها: «أومأ فحسب. أتعتقدين أنني أضيِّع وقتي سدى؟».

لم أذكر أن ليون قد اقترح عليَّ أن نتزوج. أخبرتها: «إن لم يكن يرغب في الزواج بك، فهو حقّاً أحمق. يمكنك مقابلة رجل آخر، رجل يعتزم ذلك».

أشرق وجهها: «أنا أعلم، وأنت أيضاً يا بولي، ينبغي لك فعل ذلك».

كنت أعلم بالطبع ما ينبغي لي فعله، على الرغم من أنني لم أخبر ديدي كم حلمت بالرجل الذي يملك المال والأوراق الرسمية. سمعت جارنا تومي يتحدث عن زيارة أسرة في جمهورية الدومينيكان وتمنيت أن يكون بمقدوري السفر على هذا النحو. من خلال العيش مع ليون وفيفيان اكتشفت أنني أعود مرة أخرى إلى لهجة القرية، لكنني غبطتهما لسهولة تواصل كل منهما مع الآخر، ولكيفية شراء فيفيان كتب مايكل وأسطواناته على الرغم من أنها تزاول عملها أقل مما أفعل أنا، وقلقت ألا تتطوَّر لغتي الإنجليزية وأن تكبر أنت لتصبح قاطع لحم. كان هناك عديد من المدن غير هذه مع فرص أخرى متاحة. كنت أتفكَّر: ماذا لو أنني ركبت حافلة صوب قلب المدينة؟ بوسعي أن أظل راكبة، ولن أنزل منها مطلقاً.

قالت ديدي: «لا تكترثي لفيفيان، ولا لحماقات ليون. تصرَّفي كما لو كنتِ امرأة تحب أن تأكل الحبَّار المجفف خلسة في وجبة العشاء. العالم ليس وليد الصدفة».

قلت ممرِّرة السيجارة لديدي: «أنا أحب الحبَّار المجفَّف».

«حسناً، هاك نَفسَ الحبَّار».

«كما أنني لم أقل إطلاقاً إن العالم وليد الصدفة».

«هذا تعبير».

«لم أسمع بهذا التعبير من قبل على الإطلاق».

أعادت ديدي السيجارة مرة أخرى، والكحل الأخضر يتلألأ في عينيها قائلة: «لذلك اختلقته. لا تقلقي كثيراً، حسناً؟ إما أن تبقي مع ليون أو تمضي لحالك».

أجبتها: «وأنت كذلك. لا تسرفي على نفسك قلقاً».

عقدت ذراعي بذراع ديدي، فمن الجيد أن كان لديَّ صديقة.

كانت فيفيان الكبرى من بين أشقاء ليون الثلاثة. قال ليون: «هي الأولى من بيننا التي قدمت إلى أمريكا، ثم تزوجت بذلك اللعين الذي تخلى عنها. كان لها شخصية أخرى إضافية، والآن تريدنا أن نساعدها في دفع الإيجار، لكن بداخلها امرأة لطيفة، مثلك».

«أنا لست امرأة لطيفة». بعد ذلك تساءلت: ماذا لو كان ليون قد دعاني إلى العيش معه لمجرد مساعدة فيفيان في دفع الإيجار ليس إلا؟

«بل أنتِ كذلك» (...).

اشترى لي الهدايا، سترة صفراء مطرَّزة مكسوَّة بكرات غزل تشبه الحبيبات، دمية وحيد قرن محشوة، قطة بلاستيكية لأدليها من هوائي هاتفي النقال، ولما أحضرها إليَّ بدا وجهه مفعماً بالأمل بطريقة ذكَّرتني بك، حين كنتَ تتحفني بالصور التي رسمتَها في المدرسة، وما هي إلا شطب بألوان هلامية، قبَّلته وشكرته، كما أنه أحضر لك أيضاً هدايا؛ كرة لينة وقفازاً جلديّاً كبيراً لالتقاطها. مشى ثلاثتنا حتى المتنزَّه في يوم سبت صيفي، وشاهدته وهو يرمي الكرة نحوك، وكان يشجعك حين تخفق في التقاطها قائلاً: «محاولة جيدة!»، ثم يرميها مرة أخرى، ولما التقطتها، قفز رفيقاك فرحاً وكأنك أحرزت ميدالية أوليمبية. ليون كان يدعك تضرب ظاهر كفه مراراً وتكراراً.

صحتَ: «انضمي إلينا لتلعبي يا أمي».

قال ليون: «شاركينا يا بولي».

نهضت لأشاهد ابني ورجُلي، لأشاهد انسجامكما معاً، لأشاهد ضحككما. كل ما كنت أرغبه من قبل، تلك الحياة الرحبة، حياتي المبهجة، رؤية الأماكن التي طالعتها في كتاب ليلينغ المدرسي القديم، الوعود التي قطعتها على نفسي حين لقَّبوني بالمرأة ذات الشارب، تلك التي تعرضَت لخطر الانزواء، أو أن ذلك كان تهيؤات طفلة صغيرة. سرت برفقة تشينغ وتشوان خارجين من المصنع. خطوت داخل المحيط الأطلنطي وقرَّرت أن أنجب طفلاً. ربما لم يكن الأمر متعلقاً بالرحيل إلى أماكن جديدة، لكنه كان متعلقاً بتحدي البقاء.

رمى ليون الكرة، التقطتها ثم قذفتها مجدداً. كيف وصلتُ إلى هنا. سرب طيور رفرف فوق الأشجار، لكن الشمس كانت تسطع بشدة، حتى إن النظر إليها كان موجعاً.

انتقلتَ من الصف الثاني إلى الصف الثالث، ومن الثالث إلى الرابع، وأخذتْ لغتك الإنجليزية في التطوُّر من اللعثمة إلى الطلاقة، تعلمتَ أنت ومايكل أن تكتما الأسرار عن فيفيان وعني، في المدرسة الابتدائية 33، كان الأطفال من دول مختلفة؛ كمبوديا والمكسيك والفلبين وجامايكا وبورتوريكو وفيتنام وغيانا ودومينيكان وهايتي والإكوادور. كانوا جميعاً من أماكن مختلفة، أو على الأقل كان آباؤهم كذلك.

مايكل كان نحيلاً من الأسفل، لكن رأسه كان كبيراً، يبدو مظهره وكأنه لعبة كروية الرأس، له مجموعة أصدقاء يشبهونه، لكن أقل حجماً، والذين أصبحوا أصدقاءك أنت كذلك فيما بعد، هانغ وصوفيب وإلوري، وفي العام الذي التحقت فيه بالصف الرابع، تحدثتَ مع مايكل عن شيء يُدعَى باور رينجيرز كما لو كانوا أناساً حقيقيين يعيشون في الجوار.

«من تيمي ذلك؟ أهو طفل في المدرسة؟».

تلوَّيت أنت ومايكل على الأريكة، تضربان أفخاذكما وتصفِّقان بأيديكما.

«تومي، وليس تيمي، ليس طفلاً. هو داينو الجوال الأسود».

«الأسود... يموت؟».

قالت فيفيان: «ماذا؟ من يموت؟».

صرخت أنت ومايكل: «داينو، وليست داي بمعنى يموت! داينو، داينو، داينو!».

حين شاهدتك برفقة مايكل تلعبان بالكرة في المتنزَّه، كنت فخورة لأنك استطعت أن ترمي الكرة أقوى وأسرع، ومع ذلك وعلى الرغم من أنك الأقوى والأجرأ، فقد كان مايكل الطالب المتفوق في دراسته على العكس منك أنت الذي لم تبلِ بلاءً حسناً في دراستك، كما كنتُ أنا ـ تمكنتُ من حفظ كلمات أغاني البوب واستوعبت مزيج الألوان الدقيق لتكوين ظلال الألوان، لكن طالما أخفقت في حفظ جدول الضرب ـ ولم يكن ليون أو فيفيان بالنابهين، مما يجعل درجات مايكل بمثابة ضربة حظ جزافية بما يكفي لأن تصبح لك أنت، وأن تكون الطالب المتفوق، فقد كنت أنت من دأب على قول «عندما أذهب إلى الكلية». أعلم أنه من غير العادل أن أقارن بينكما في حين أن مايكل لم يعش في أي مدينة سوى نيويورك، لكنه كان يختار أن يطالع كتاباً معرفيّاً بينما تجلس أنت قبالة التلفاز ـ ولا أنكر أنني كنت عادةً بجانبك ـ تشاهد إعادة العرض المعاد الذي شاهدته بالفعل لأربع مرات، متذرِّعاً بأنك قد أهملت واجبك المدرسي مجدداً، أحسستُ أنني ضحية قلة اهتمامي بالكتب، فيما عدا كتب الفن والرسم تلك التي كانت كوكو تحضرها إلى الصالون؛ تلك هي الكتب التي كنت أهتم بمطالعتها. كنتَ بطيئاً في تعلم الإنجليزية. كان لعرقك رائحة الملفوف، كنت على يقين أنها جينات هايفينغ الوراثية. دائماً ما كنت تستأثر بقطعة الحلوى الكبرى، تلتهم نصيبك قبل أن يقضم الآخرون قضمة، تدق بأجنحة الدجاج على طبقك وتتظاهر بأنك تقرع الطبل. كنت مكتنزاً لاحماً بسبب ما كنت تأكل من طعام، علت قمصانك فوق خصرك، وكنتَ تتمايل في شحمك، وبين عشية وضحاها ضاقت بناطيلك الجديدة

بحجمك المتنامي؛ كما لو أنني أمتلك ما يكفي من المال لشراء الملابس طوال الوقت! أخشى أن يكون ذلك هو خطئي حين تصرفتَ بسوء أدب أو أنانية، والذي بدوره يعكس خللاً في نفسي.

تركت هانا صالون هاللو جورج لتدير محطة غسيل جاف برفقة زوجها وأخيها، لكنني تذكرت كيف كان ابناها يتوجهان إلى المدرسة الثانوية في المدينة؛ إذ يتوجَّب على ذينك الفتيين أن يجتازا اختبار القبول كي يلتحقا بالمدرسة.

قال ليون: «لكم تقسين عليه، هو ليس بذلك السوء».

قضيتُ في نيويورك عشر سنوات ولطالما استحضرت تلك الأشهر الأولى في شارع روتجرز، تلك الفترة العبثية، حيث كنت أستيقظ في حقيبة النوم كل صباح أتفكَّر بدهشة أين كنت وماذا فعلت بنفسي. آنذاك كنت أشعر بكل يوم يمر عليَّ وكأنه لا يُحْتمَل، كما لو أنه لن يكون ثمة نهاية للتخبط ـ الطفل، العمل، الدَّين ـ لكنني كنت أستعرض تلك السنة الأولى في نيويورك أكثر من أي وقت آخر في تاريخي، أحب أن أتصفحها، أتأمل شبابي، كم كان مخيفاً ومثيراً، وكيف تبدَّلت أحوال كثيرة منذ ذلك الحين، حتى تلك الأوقات التي اصطحبتك فيها إلى المصنع، والتي كانت تبدو آمنة بالقدر الكافي لأتذكرها، على الرغم من أنني أحجمت حين تصوَّرت ما قد يحدث مثلاً إذا لم أعد إلى المقعد حيث تركتك.

فضلاً عن أحد أيام الآحاد، قبل عام تقريباً من انفصالنا مجدَّداً، يوم أن ركبنا المترو معاً إلى محطة حددتَها على الخارطة. ساعتها كان قد مر وقت كبير على آخر مرة قمنا فيها بذلك. انتهى بنا المطاف في وسط المدينة، عند مشارف مانهاتن، كنا نسير في طريق متعرِّج يطل على المياه.... المياه! لكم أفتقدها!

«اعتدنا ارتياد هذا المتنزَّه حين كنت طفلاً رضيعاً».

عقَّبتَ قائلاً: «لا أذكر».

كنت تشبهني كثيراً، العينان نفسهما والفم والأنف، الكتفان العريضتان والسيقان ناتئة العظم، على الرغم من أنني حين طالعت وجهك في الملف الشخصي، رأيت أيضاً كيف أنك تشبه هايفينغ في ذقنك وحاجبيك الكثيفين، بعد ذلك تحوَّلت ملامحك إلى وجهة أخرى لتعود فتشبهني.

جلسنا على المقعد ووضعنا أقدامنا فوق السياج، فتلألأت المياه. أشرتُ بعيداً، إلى قارب كبير يمضي مبتعداً عن المدينة. قلتَ: «صار لي لقب جديد في المدرسة، رقم اثنين المميز».

«وماذا يعني ذلك الاسم؟»، شعرت بالخجل من نفسي، تماماً كما حدث حين اصطحبتك ومايكل إلى مدينة الملاهي تلك وسخرت مني حين أخطأت في تذكر كلمة أخطبوط بالإنجليزية، اسم اللعبة التي تدور بك في حلقات، وسميتُها أسداً.

«إنها مزحة. أتعلمين، قائمة الطعام الصيني الجاهز؟ تلك هي كيفية طلبهم للأطباق. رقم واحد المميز، رقم اثنين المميز. أفهمتِ؟».

طفقت أشاهد القارب حتى صار نقطة بيضاء تتلاشى في الأفق.

«لكنك لا تعمل في مطعم وجبات سريعة».

«أجل، لكنني صيني».

«من الأفضل لو أخبرتهم ألا يدعوك بذلك».

«إنه مزاح يا أمي».

اقترضت مرة أخرى لتغطية رسوم التدريب على فن تجميل الأظافر. صارت التصميمات المعقَّدة تخصصي. كان بإمكاني رسم النخيل والماس ونقش رقعة الشطرنج، بل ورسم وجه شخص على نحو يمكن تمييزه فوق ظفر الإبهام، على الرغم من أنني لم أكن أدري لِمَ يرغب الزبائن في ذلك! وخلال أسبوع واحد يمضي العمل فيه على ما يرام، كنت أحصِّل بقشيشاً كبيراً يربو على ما تقاضيته خلال العمل في المصنع. لقَّبتني روكي خيار

الزبائن المفضل، وصفني الجميع بأنني ذات يد بارعة، وعين ذواقة لأفضل تركيبات الألوان.

كنت أشعر بالرضا حين أسمع ضحكة روكي، نفثات خفيفة تخرج من أنفها، لكن ما إن يضطرب صوتها حتى يعلو الانزعاجُ وجهَها، حملت نفسي على تعلُّم تصميمات جديدة وعلى تعامل ألطف مع الزبائن، ليس لمجرد البقشيش فحسب، لكن لأنني استحضرت قصة المرأة التي رحلت لتدير صالونها الخاص. ذات مرة سمعتُ روكي قدراً، تخبر صديقة في مكتبها قائلة: «أراهن على أن بولي بوسعها أن تدير هذا المكان تماماً كما أفعل». أخبرتني ديدي أن روكي كانت تتحدَّث عبر الهاتف بشأن الحصول على بعض القروض وخمَّنت أنها لربما تفتتح صالوناً آخر؛ وصالون جديد يلزمه مدير جديد، وإذا ما عزمت روكي على أن تستخدمني كمديرة، فلربما تدعمني في الحصول على بطاقة الإقامة الدائمة.

تحدَّثت مختصَّات تجميل الأظافر عن روكي حين كانت بالخارج. قالت جوي: «هي تعيش في قصر بجزيرة لونج آيلاند يمتلك زوجها شركة استيراد وتصدير في مجال الفاكهة».

قالت ديدي: «زوجها لا يعمل. بل يبقى في المنزل يرعاه ويتعهد بتنظيفه. كذلك يرعى طفلهما ويقلها إلى حيث تريد. ألم ترينه يقلها من العمل؟».

قالت كوكو: «سمعت أنها تزوجته لقصة حب بينهما، لكنه كان مهاجراً غير شرعي وعلى وشك أن يُلْقَى القبض عليه من قبل شؤون الهجرة، كانوا على وشك أن يطرحوه في واحد من سجون الهجرة تلك».

تساءلت: «وما سجن الهجرة؟ ظننت أن زوجها كان تابعاً للمافيا الصينية».

قهقهت جوي، وعنتني قائلة: «المافيا قد تفصح عن كثير من شخصيتها».

ذات صباح ثلاثاء كاسد، جلست على مقعد عناية بأظافر القدم وتصفَّحت جريدة.

«أنتِ هنا حتى الثانية، أليس كذلك؟». وقفت أمامي تقبض على ميدالية مفاتيح السيارة، وكحل في عينها اليمنى دون اليسرى قائلة: «عليَّ العودة إلى المنزل لدقيقة واحدة، فقد نسيت شيئاً. أترافقينني؟».

اتضح أن روكي لم تعِش في لونج آيلاند على التحديد، بل في شمال شرق كوينز، والموجودة تقريباً في لونج آيلاند. استغرق السائق نصف ساعة على الطريق السريع والجسور، وهي تتحدث عن كاحليها المصابين وضغطها المرتفع «التقدم في العمر شيء مقرف يا بولي، أتعلمين ذلك؟».

قلت لها: «أنت لست كبيرة في السن». لقد كانت في عقدها الرابع، تكبرني بنحو عشر سنوات.

«أنتِ لطيفة جداً، لكن جديّاً، ضغط مرتفع! سيكون عليَّ التوقُّف عن شرب القهوة وأكل اللحم الأحمر والأطعمة المقلية، وتعاطي الأدوية. إنني بالفعل أنسى كثيراً من الأشياء يمنة ويسرة. تلك النماذج كان من المفترض بي إحضارها اليوم ونسيتها في المنزل. إنني حتى كتبت لنفسي ملاحظة تذكرة بذلك».

كان منزل روكي في نهاية حي من المنازل متشابهة الشكل، بمخزنين وباحة أمامية ومرآب ملحق. كان المنظر الخارجي للبيت من الطوب البني وسقف بالأحمر الداكن وبوابة منخفضة تفصل الفناء عن الممشى. لم يكن بيتاً ضخماً، فالبيوت في ميانيانغ أكبر بكثير، لكنه كان بيتاً جميلاً بحق. تبعتها في المدخل المزين بمرايا طويلة بطول الجدار، ثم إلى غرفة المعيشة المجهزة بأريكة جلدية مريحة ونافذتين طويلتين. كان هناك لوحة مفاتيح إلكترونية في الزاوية وورقة تعلوها، وصورة مدرسية لابن روكي المراهق الذي كشفت ابتسامته عن فمه المليء بالتقويمات البلاستيكية.

«أتريدين بعض الماء؟»، وقدمت لي زجاجة مياه بلاستيكية لشركة بولاند سبرينغ من صندوق كرتوني، ثم قالت لي: «تفضلي على الأريكة. سوف أصعد إلى الأعلى لأحضر هذا النموذج».

جلست، ولكن ما إن سمعت وقع قدميها في الطابق العلوي، نهضت من فوري. كان المطبخ في نهاية ممر قصير؛ به غسالة أطباق وميكروويف، وصناديق من الحبوب وأكياس رقائق البطاطا على طاولة مستديرة. الحوض كان مليئاً بالأطباق، والطاولة ملطَّخة بصلصة جافة وفتات طعام، وعلى الجانب الآخر من المطبخ غرفة صغيرة. سمعت أصواتاً، كحركات تسارع محرك؛ لقد كان التلفاز. انحنيت قليلاً بالقرب من الباب المفتوح ورأيت رجلاً يجلس على كرسي استرخاء، يرتدي بنطالَ بيجامة مخططاً، ونعلاً وفانلة بيضاء فضفاضة، ممسكاً ريموت التحكم بإحدى يديه، والأخرى متوغِّلة داخل كيس رقائق تشيتوس؛ يطحنها تحت ضروسه بتنهُّد، في راحة بال ورضاً تام.

كان زوج روكي في المنزل بمنتصف اليوم، يأكل رقائق تشيتوس ويشاهد أفلام الحركة مرتدياً بيجامته. لا يبدو مالكاً لتجارة استيراد وتصدير، أو حتى رب منزل؛ يطهو وينظف.

لقد سألت روكي ونحن عائدتان إلى الصالون: «أخبريني ماذا يعمل زوجك مجدداً؟».

«حسناً، إنه يتنقل بين الوظائف حالياً، لذلك يقضي معظم الوقت في المنزل. دعيني أخبرك، أنا سعيدة أن لديَّ هذا الصالون، وبالحديث عن ذلك أريد أن أسألك، حيثما تعيشين، في برونكس، هل هناك كثير من صالونات تجميل الأظافر؟».

أجبتها: «بضعة صالونات أصغر، لكنني لم أزُر أياً منها من قبل».

«هل تبدو جذابة؟».

«إنها لا تسعى لأن تكون على مستوى منتجعات صحية».

«هل حيُّك بالقرب من فان كورتلاند بارك، أو ريفرديل؟».

«لا، تلك الأحياء شمال المنطقة التي أعيش فيها»، وانعطفت روكي إلى الطريق السريع مكملة حديثها: «سأذهب إلى هناك اليوم. هناك مكان معروض

للإيجار في ريفرديل، وأعتقد أن هناك رواجاً في برونكس، وبخاصة في تلك الأحياء الراقية. أشخاص كثيرون بجيوب مكدَّسة بالمال لا يمانعون إنفاقه في مكان لتجميل الأظافر».

وصلنا إلى مدخل الجسر فأبطأت روكي عند نقطة تحصيل الرسوم. تحوَّل مستشعر بطاقة المرور إلى اللون الأخضر، أخذت نفساً وبدأت بالعد من واحد إلى عشرة.

قلت لها: «إن كنت ستفتتحين صالوناً آخرَ، وتبحثين عن مدير له، فأظن أنني سأكون مناسبة جداً له»، وحاولت استراق نظرة عن تعابير روكي دون النظر إليها مباشرة، وأظن أنني رأيتها تومئ برأسها.

نَظَرَتْ أعلى كتفها بينما تغيِّر بين الحارات: «نعم، سأعلمك بالتأكيد وقتها».

اصطحبتك وليون للعشاء في مطعم مكسيكي، الغرفة مبهجة بشرائط حمر وصفر، وأخبرتك أن الأمر سابق لأوانه لأقول ذلك، لكن ربما أحصل على ترقية لأصبح مديرة صالون. رجل يضع دولاراً في جهاز جوكبوكس الموسيقي فتنطلق جوقة صاخبة من الأبواق تعزف في المكان، أخذت تهز رجليك بقوة تحت الطاولة فتركتك ولم أنهَك عن ذلك.

في أواخر ذاك الصيف، تزوَّجت ديدي وتشوان. تقدم تشوان، بعد الفوز بليلة ضخمة في أتلانتيك سيتي، راكعاً على ركبته على سجادة فندق الكازينو مقدماً خاتماً من الماس، وقفت معهم وشهدت على زواجهما أمام القاضي في مبنى البلدية. جلست بجانب ليون بطاولة المطعم؛ أصفِّق للعروسين اللذين يتهيآن لوضعيات التصوير، ولقد وضعت ديدي طبقاتٍ من أحمر شفاه أرجواني، وقد انساب شعر تشوان الشائك على جبينه.

قالت لي إحدى النساء الأخريات على الطاولة إنه ينبغي لي الاستعلام عن ثمن وجبة اللحم في حال رغبت في عقد زفافي هنا أنا الأخرى. لم أفعل؛ فديدي كانت تتزوج رجلاً مسرفاً يضيع راتبه في غير فائدة. بالتأكيد هي تحبه، لكن حتى ليون أقرَّ بأنها من ستتحمل كل العواقب جراء هذا الزواج.

في الوقت ذاته كان ليون يعاني وجعاً في ظهره، ولم يزد راتبه في العمل عما هو عليه، مع أنه كان قد داوم على العمل هناك أكثر من أي رجل آخر. أخبرته أن عليه طلب علاوة، غير أنه كان هناك دوماً عذرٌ يتعذَّر به؛ فإما يكون رئيسه بالعمل في مزاج سيئ، وإما استقال وحلَّ محله رئيس آخر، وإما لم يحضر ذلك اليوم. حتى اشتد عليه الألم ولازم الفراش، وتغيَّب عن العمل لثلاثة أيام، دون التطرُّق إلى راتبه. ظللت أنا وفيفيان ننصحه بزيارة طبيب قبل أن تسوء حالة ظهره، لكنه رفض، مدعياً أننا نبالغ في ردة فعلنا. كان يكتفي بكيس ثلج وعقار تايلينول.

كنت في أوج السعادة، عندما صرح ليون أنه يفكر في الانضمام إلى زميل سابق له، يدعى سانتياغو، في شركة نقل كان يشرع في تأسيسها. ضربت قبضتي على طاولة المطبخ والحماس يغمرني؛ قائلة: «هذه فكرة ممتازة!».

كلما تطرق إلى موضوع أنه ربما من الجميل أن نحظى بطفلنا، قلت له إنني لا أود ذلك وأنا لا أزال مثقلة بالديون، بيد أنني لم أدفع كل شهر إلا الحد الأدنى فقط. كل ما في الأمر أنني لم أرد أي طفل آخر. لقد كنت في الحادية عشرة من عمرك، وبعد بضع سنوات، ستحتاج مني رعاية طوال الوقت. أستطيع أن أكد في العمل أكثر، وأجد وظيفة أفضل، وأتعلم الإنجليزية، ولكن ليس الاعتناء بطفل.

بعد شهرين من زواج ديدي، قابلني ليون بعد العمل، وبينما كنا نتسكَّع في متنزَّه ريفرسايد بارك، أبطأ مشيته حينما وصلنا إلى شجرة كبيرة.

ثم توقَّف.

سألته «ما الخطب؟».

«هل انحلَّ رباط حذائك؟».

وضع يده في جيبه وأخرج علبة. بدأ قلبي يخفق. أخذ يحاول فتح الغطاء، وأخيراً فتحه ليكشف عن خاتم ذهبي.

سألني: «أترغبين في الزواج؟».

وعيناه مرفوعتان إليَّ، مقطّب الحاجبين. انحنى ليون بصدره إلى الأمام، وتبادلنا النظرات، وكل ثانية كانت تمر كان يزداد توتراً، وصار جلياً أنه لم يعد هناك سبيل للتراجع مهما قلت.

لم أستطع قول لا، لم أستطع أن أجرحه، لذلك قلت نعم.

أقامت فيفيان وديدي حفلة لنا، وشغلنا المذياع وأخذنا نرقص ـ كانت فيفيان تحب الرقص، وكان الإيقاع جيداً، حتى أنت ومايكل انضممتما إلينا.

قلت لي وقتها: «الآن، سيكون ليون أبي الحقيقي».

رفعت فيفيان زجاجة شراب «لأخي وأختي!».

طوال حياتي تمنَّيت أن يكون لي أخوات، والآن أنا سعيدة جداً أن لديَّ فيفيان وديدي. أراد ليون أن نوثِّق عقد قراننا، لكنَّني قلت له أن ننتظر حتى الربيع، عندما يكون الجو أكثر دفئاً، ونكون قادرين على التكفُّل بمأدبة لائقة.

ذاك الاثنين، استيقظت لأجد نفسي بمفردي في الشقة يوم إجازتي.

كنت أنت ومايكل في المدرسة، وليون وفيفيان يزوران صديقاً للعائلة في كوينز. تجوَّلت في الشقة، لا أكلف نفسي عناء التقاط ملابسك أو التقاط بنطال لليون، واستلقيت على أرضية الحمام مهمومة. أعددت كوبَ شاي وتركت هذا الهدوء النادر يتغشَّاني. في شارع روتجرز، كنت أشعر بالوحدة طوال الوقت، حتى وأنا محاطة بكثير من رفيقات الغرفة، لكنني الآن نادراً ما أكون وحيدة، مع أن ثمة أوقاتٍ كنت وحيدة جدّاً، مثلما كنت تتحدَّث أنت ومايكل معاً بالإنجليزية بطلاقة وسرعة وأنا أجلس بجواركما، أو عندما يسترجع ليون وفيفيان ذكرياتهما مع والديهما وأقاربهما.

لأول مرة منذ أشهر، كان اليوم كله لي. ارتديت ثيابي، وتمشيت بالخارج أستمتع بصباح مشرق، في أوائل أكتوبر، وركبت أربعة قطارات ليس بها أحد تقريباً؛ فالجميع ساعة الذروة في العمل، والأولاد في المدرسة. بقيت فيه حتى

اختفى داخل الأنفاق تحت الأرض، عبر مانهاتن وصولاً إلى بروكلين، ونزلت لأول مرة في محطة لم أنزل بها من قبل، وصعدت الدرج إلى شارع هادئ به أشجار ضخمة. لم تكن المباني، بخلاف ذلك، طويلة جداً، لكنها كانت واسعة وضخمة، ذات سياج حديدي، وممرات من الطوب، ومداخل مقنطرة.

لقد انتظرت حتى يتغيَّر ضوء الإشارة بجانب امرأة شابة تدفع عربة أطفال، تهز كتفيها مستمعة لأغنية عبر سماعات الرأس، وكان الطفل في عربة الأطفال يرتدي سترة صغيرة وبنطالاً من الجينز وثنيات وردية. ابتسمت له، فبادلني الطفل ابتسامتي بنغنغة طفولية، وتمثَّلت لي ذكرياتي وأنا في التاسعة عشرة؛ أدفعك في عربة أطفال قد اشتريتها من متجر أغراض مستعملة في بوويري. كانت هذه أول سنة لي في أمريكا. لعلِّي كنت أنظر إلى أسفل وأنا أمشي وأرى حذاءك الصغير يبرز أمامي. الآن باتت قدماك الصغيرتان أكبر من قدميَّ.

غالباً ما كنت أشعر بالإرهاق من أجواء المدينة، بالرائحة الكريهة التي تنبعث من فتحات الرصيف، أو من رجل يختبر نغمة هاتفه المتحرك في زحام المترو الخانق.

لكن هذا الحي أشعرني بالسكينة. انسحقت أوراق الخريف تحت حذائي، ولم يلذعني النسيم ببرودته. انعطفت عند المجمع السكني التالي، في شارع ذي مبانٍ متقاربة. قاطعني عند الزاوية رجل توصيل صيني، بأكياس متدلية من مقود دراجته.

نظرت إلى الأعلى نحو صفوف سلالم النجاة ومكيفات الهواء، والنوافذ المسيَّجة وقصاصات الستائر. بعد أسبوعين سأبلغ الثلاثين من عمري، لقد توفِّيت أمي في تلك السن، يوماً ما كانت أمي على قيد الحياة، وفي اليوم التالي لم تعد كذلك.

فُتِح باب في رصيف المشاة، بجرس يصلصل من مقبضه. دخل رجل التوصيل إلى محل وجبات جاهزة، فلحقت به إلى الداخل وطلبت طبق دجاج مع الأرز، وأخذت طبق الطعام لآكله على إحدى الطاولتين.

كان الطعام مالحاً، وطلبت من الرجل إن أمكن الحصول على كوب من الماء.

فأجابني: «ليس لدينا ماء».

«كيف يعقل أن ليس لديكم ماء؟».

المرأة على الطاولة الأخرى قدمت لي زجاجة بلاستيكية وقالت باللكنة الفوزوية: «تفضلي، يمكنك الحصول على زجاجتي».

تردَّدت في أخذها؛ فلا أريد مشاركة زجاجة مياه مع شخص غريب.

ثم أعادت عليَّ: «خذيها، لا بأس».

لقد كنت أموت عطشاً، لدرجة أنني لم أهتم بكوني أبدو وقحة، لذا فتحت الزجاجة، ومسحت حافتها بمنديل، وأخذت شربة كبيرة ثم شكرتها.

ردَّت: «لا مشكلة، أختي». كانت ملابسها مصمَّمة جيداً، تنتعل حذاء جلدياً طويلاً بنيَّ اللون، وتنورة طويلة مطبوعاً عليها زهوراً أرجوانية، وسترة فضفاضة بلون الشوكولاته. أمامها طبق طعام بلاستيكي فارغ على الطاولة. كانت ذات وجه رحيب جميل. سألتني: «منذ متى وأنت في نيويورك؟».

أجبتها: «منذ مدة طويلة... عشر سنوات».

«أنا هنا منذ ثلاث سنوات فقط، لكنني سأرحل قريباً».

ابتسمتْ وكشفتْ عن قواطع ملتوية تبدو مألوفة، كما لو كنت رأيتها من قبل في فيلم أو مع قريب قابلته مرة واحدة.

«تغادرين إلى أين؟».

«كاليفورنيا، سان فرانسيسكو. أسمع أنها لطيفة».

«هل سبق أن زرتها من قبل؟».

«لقد رأيت صوراً لها فقط، وعرفت رجلاً كان قد انتقل إلى هناك، لكنه في مكان آخر الآن».

«إذاً، ستذهبين إلى هناك بمفردك؟».

«نعم، لمَ لا؟ حان الوقت لبعض التغيير. نيويورك مدينة قاسية». قالتها وهي تقذف طبق الطعام البلاستيكي أمامها، مستطردة: «وداعاً نيويورك».

«حظاً طيباً، أختي!»، وشاهدتها وهي تخرج؛ تصدر تنورتها حفيفاً، وشعرها منسدلٌ حتى منتصف ظهرها. لربما كنت سأغدو في يوم ما مثل هذه المرأة؛ حرة لأسافر عبر البلاد لمجرد أنني سمعت أن مدينة ما جميلة، بدلاً عن ذلك لقد غدوت امرأة على حال فيفيان، أشاهد التلفاز، وأطهو لك ولليون، وأتأكَّد أن الزلابية قُليَت وليست مستوية، في حيرة مما إذا كان ينبغي لي الزواج بصديقي، لكنني غير راغبة في خسارته أيضاً. إحساس بالارتباك قد تملَّكني. شهر أكتوبر هذا سوف يتبعه شتاء آخر ثم ربيع آخر حتى يحين الوقت ليعود بنا إلى شهر أكتوبر مرة أخرى.

لم أتذكَّر لمن هذه الأسنان الملتوية إلا وأنا في المترو عندما أدركت أنها لتشينغ، صديقتي القديمة في سكن المصنع في فوزهو. كلما فكرت في الأمر اقتنعت أنها هي، هذه المرأة كانت تشينغ، بعد عشر سنوات. إنهما تتحدثان اللكنة نفسها، وكانتا في العمر نفسه تقريباً. لقد كانت تدعوني «يي تيا»؛ أي أختي الكبيرة. تشينغ، كما أتذكَّرها، كان لها عينان واسعتان وصوت ناعم يبدو كأنها تحتفظ في فمها ببعض اللعاب، وكانت المرأة في محل الوجبات الجاهزة هكذا؛ ذات عينين واسعتين، وطريقة حديثها إلى حد ما بها رقة، لكنْ هيَ لم تتعرَّف إليَّ، ربما لأنني لم أعد أشبه ما كانت عليه شخصيتي وأنا صغيرة.

سار القطار مسرعاً ماراً بوسط مدينة مانهاتن. أملت رأسي إلى الباب؛ أمتص كل صدمة على مسار قطاري. أعلم أنه وجب عليَّ العودة إلى بروكلين، وأترك ملاحظة في المطعم أطلب من تشينغ الاتصال بي في حال عادت، لكنني رغم ذلك بقيت بالداخل، حبيسة حيرتي، كما لو كنت أترك شيئاً قيِّماً يفلت من بين يدي.

عندما وصلت إلى طريق فوردهام، كانت الشمس ترحل إلى مغيبها بالفعل.

صعدت الدرج إلى شقتنا، أمرُّ بجانب تومي جارنا من الشقة المجاورة، وهو يقول: «ليس سيئاً... ليس سيئاً... ليس سيئاً»، وبسبب شعوري بالارتباك، أسقطت المفاتيح، فانحنى ليجلبها لي.

لمدة أيام، بعد رؤية المرأة التي من المحتمل أن تكون تشينغ، لم أحظَ بنوم هانئ. مناوبات عمل لثماني ساعات في صالون تجميل الأظافر طوتها الأيام دون أن أشعر، وبات ليون مجرد شخص درجت على رؤيته في محيطي، ولأجل إسعادك سخَّنت بيتزا مجمَّدة للعشاء، وسألتني إذا ما استطعت الحصول على مال لتشتري أقراص فيديو تبيعها سيدة في المطعم الكولومبي بطريقة غير شرعية، ومع ذلك أعطيتك المال دون أي اعتراض.

عدتُ من العمل فوجدتُك برفقة مايكل وفيفيان منهمكين في مشاهدة فيلم يحكي قصة رجل يستهدف الناس ببندقية آلية، انزويتُ إلى غرفة نومي وأغلقتُ الباب، فالاعتراض يتطلَّب مني جهداً مضنياً، وها هو الشتاء على الأبواب.

جلستُ عند النافذة أنظر إلى الأسفل خلال الحي، أطبقتْ صفحة السماء المكفهرَّة عليَّ بخوف غريب. رأيت رجلاً يتوكَّأ على عكَّاز يشقُّ طريقه عبر الشارع، والسيدة جونسون تسير فوق التل عاقدة ذراعها بذراع حفيدتها، وامرأتين تتهامسان، وخرجتُ إلى غرفة المعيشة وشاركتكم مشاهدة التلفاز.

كانت الحافلة إلى مدينة أتلانتيك تفوح منها رائحة نتنة، تنجيدها مترب، مكسوة بظلال ألوان موحَّدة من البني والبيج، ومقاعدها مكتملة العدد، وبرز صف من الرؤوس من سترات تزلُّج يعلو كلّاً منها قبعاتٌ صوفية فضفاضة ذات ألوان أساسية. جلست برفقة ليون في مؤخِّرة الحافلة، كنَّا في نصف عمر الركاب الآخرين، وكان يأكل خبزاً باللحم من كيس مزخرف ومرسوم عليه وجه يضحك. انبجست الحافلة من النفق إلى واحد من الطرق السريعة الجيدة. تماهت ناطحات السحاب وتفرَّقَتْ في ساحات الانتظار وفي الحواجز الخرسانية، كانت معتمة ورمادية تحت ضوء الشتاء، وكانت اللافتات وحدها هي ما يسطع في اللون الأخضر، نطقتُ أسماء مدن نيو جيرسي بصوت مرتفع

في نفسي: هاكنـ ساك. با راموس. أصوات سعال متقطع ومجلجل، كما لو كانوا متصلين ببطاريات ويعملون ببطء. تَصدُر ضوضاء صفير ناتجة عن نعليَّ كلما احتكَّتْ بالأرضية. أخذتُ آخر كعكة وغرزت أسناني بالحلوى، كانت كعكة إسفنجية.

وكانت رحلة أتلانتيك سيتي هدية من تشوان، الذي قد أنفق كثيراً من المال في النوادي الليلية التي منحته قسائم مجانية لحجز غرف الفنادق وحفلات العشاء والشراب. رافقَتْه ديدي قبل ذلك، ولكنَّها هذه المرة أعطتني وليون القسيمة، مع أننا لم نكن مقامرين. قالت: «أنت بحاجة إلى قضاء بعض الوقت في الخارج أكثر مما أحتاج أنا، وهذه هدية ما قبل الزواج لكما». ناهيك عن أن تشوان كان قد أقلع عن المقامرة، والآن صار يشترك في جلسات أسبوعية مع أناس كانوا يقامرون كثيراً.

حجزتُ أنا وليون في كازينو سيزار مجاناً؛ كازينو أرضيته مغطاة بالسجاد، ذي ضوضاء سمعية وأنوار باهرة، ثم اشترينا زجاجة شراب، وشربنا حتى الثمالة إلى أن شعرت بصداعٍ شديد، ومع ذلك فإن انتعاشة أن أكون خارج المدينة، بغض النظر عن أن هذه الغرفة المبهرجة للغاية، جعلتني أشعر وكأن الأكسجين قد نقص ومر عبر آلة ثم انضخَّ مرة أخرى، مما جعلني أحتاج إلى مزيد من هذا الشراب. جرعتان سرعان ما سرى مفعولهما، وتراجعت وطأة الصداع. أربع جرعات، ثم تحوَّل ليون إلى ذلك الرجل الذي قابلته لأول مرة، تلك الجائزة التي رغبت دائماً في الفوز بها، فقد كان اهتمامه مفاجئاً وغير مستقر. لقد كان رجلاً غير ذلك الذي كان يطعن في السن وفاجأتني رؤيته كذلك، كرؤيته حينما كان يضع النقود داخل بطاقته في محطة المترو، ولاحظتُ أن جسده كان أكثر تيبُّساً وعنقه أنحف والجلد يرتخي حول حنجرته. مرَّتْ عليه أيام كانت ذراعاه تؤلمانه بشدةٍ لدرجة أنه كان يعجز عن العمل. أنا أيضاً كنت مختلفة أيما اختلاف، رغم أنني كنت نفس الشخص، لكن تغيَّر الحال وأصبحت أمّاً لطفل. بدأ جسد ليون يتحول، وعلى الرغم من أن هذا التحول كان يبدو بطيئاً، فلم يكن بالإمكان إيقافه. اللحم صار أشد تيبساً، والجلد

أخشن، والشعر في أماكن لم يكن فيها من قبل، لكنه الجسد ذاته، حتى وإن لم تكن هناك دلالات مرئية من حالته في الماضي. سألت ليون: «ما الجديد بشأن شركة الشحن؟»، أجابني أن سانتياغو قد غيَّر رأيه.

«هو الآن يتوجَّه إلى مجال هندسة المناظر الطبيعية. أخبرني أن بوسعي أن أجد لي عملاً هناك. لذا فسوف أعمل في مجال هندسة المناظر الطبيعية».

كان تفاؤل ليون سخيفاً، بل ضارّاً «لكن ألديه أي خطة؟». ارتبت في أنه سيعمل حتى لصالح سانتياغو «هل سيحصل على قرض؟ هل لديه شريك عمل؟».

«بالطبع، سانتياغو هو سانتياغو، سيتدبَّر الأمر».

كنت حانقة على سانتياغو وليون؛ بل وعلى روكي كذلك. مرَّت ستة أشهر تقريباً على ذهابي إلى بيتها، لكن حينما سألْتُها كيف كانت زيارتها إلى مدينة ريفرديل من أجل البحث عن مكان للإيجار، قائلة بأنفة: «سوف نرى!». كنتُ لا أزال مختصَّة تجميل أظافر، وكنتُ لا أزال أعمل لقاء البقشيش البخس ذاته.

وعلى طاولة للعبة البلاك جاك ذات الحد الأدنى للعب، حاولت وأنا أسحب قطعاً متفرقة من الشعر حول أذني، أن أتذكر قواعد اللعبة. كان رقم واحد وعشرون يعني الخسارة. كان موزع أوراق اللعب يتوقف عند رقم سبعة عشر. لم يكن لديَّ فرصة لإرسال مبلغ سداد القرض، أثناء عودتي مباشرةً من العمل، وكانت نقود راتبي في جيب المعطف الخاص بي. لقد وضعت ورقة بمبلغ عشرين دولاراً، وأعطاني موزع أوراق اللعب ورقة آس وورقة تحمل الرقم خمسة، وأشرت إلى تحقيق نجاح. أعطاني موزع أوراق اللعب ورقة تحمل الرقم أربعة، فبلغ مجموع الأوراق تسع عشرة، وتوقف عند العدد ثماني عشرة.

«انظر! لقد ربحت».

قال ليون: «لنربح مرة أخرى!»، ثم توجهنا إلى بالاس إيست حيث كان كبار السن يأتون من الحافلة بشوقٍ إلى آلات القمار. ومن أثر الشراب الذي احتساه راهن ليون رهاناً كبيراً، وعندما فزنا في لعبة البلاك جاك، انتقلنا إلى لعبة البوكر.

كان الزوجان الموجودان على الطاولة حادين وشاحبين، وكان ثوب المرأة منخفض الرقبة يعرض منطقة مكشوفة منقَّطة بالبقع الشمسية، مقسومة بقطعة من الماس تتدلى من سلسلة. أعطى ليون موزع أوراق اللعب الكثير من رقاقات اللعب، وكان عليَّ أن أنظر بعيداً، وقال ليون: «ثلاثة من كل نوع».

«أجل!».

قفزنا فرحاً.

قلت: «إنها مجرد لعبة»، ثم أردفت: «مجرد لعبة!».

اعتقدَ أنني أتحدَّث عن بطاقات اللعب.

«بالطبع لا». لم يكن مالاً حقيقيّاً. لم يكن بالأمر شيء حقيقي، فالعشرون قد تصبح مائتين في لحظة. لقد أردت أن أسمع أصوات أجراس آلات القمار وهي تقرع معلنةً عن فوزي، وأردت أن تتلألأ الجدران بالأضواء الوامضة؛ لقد أردت بشدةٍ أن أفوز.

عرَّجنا على الرواق، كانت السجادة مزغَّبة جدّاً حتى رغبت لو فركتُ وجهي بخيوطها. لم يكن هنا سوانا «إنما أعني حالنا. أعني نفسي يا ليون!»، شددتُه من ذراعه «نحن نعيش في لعبة». لا أعني بطاقات اللعب أو ماكينات القمار فحسب، وإنما أعني حياتنا، كنا نعيش كما لو كنا لا نزال قرويين، محرومين من تغيير عملهما أو الانتقال إلى أماكن جديدة، لكن طوال كل هذا الوقت، كان بإمكاننا اللعب والفوز.

لكز أنفي بإصبعه، صارت الخطوط حول فمه أعمق: «أنتِ ثملة يا نجمتي الصغيرة!».

أبرز تلك الفجوة بين ثنيتي أسنانه، لقد نسيت كم كنت أحبه. كيف لي أن أنسى، ولِمَ كنتُ جادة إلى هذا الحد، تُرى ما الذي كان يدعو للقلق؟ أنا سأتزوجه، لقد كان أكثر مما كنت أحلم به.

ثبَّتَ كتفي: «يجب عليك أن ترقدي».

«ألن تأتي معي؟».

نظر ليون إلى المال الموجود في يده.

«حسناً! اذهب لتلعب!». قرصت الجلد بأسفل مرفقه «لكن تعالَ إلى الغرفة سريعاً كي يمكننا أن نكون معاً».

قال بينما ينتفض قافزاً قفزة خفيفة: «آه».

فقلت له: «أسرع».

نزل إلى البهو مبتعداً عني؛ يسير بظهره ملتفتاً إليَّ.. في البيت، كنا ننام على السرير وكل منا يدير ظهره للآخر، وبدلاً من خيبة أملي ما عدتُ أشعر بشيء، ولا أتوق إلى أي شيء، كأنني أصبحت أكثر نضجاً من تلك المرحلة في حياتي، لكن نادراً ما كنتُ أتذكر ما كنتُ عليه حين انتقلنا لأول مرة للعيش مع ليون، حين كنتَ أنت ومايكل في المدرسة وفيفيان تستحم (...).

في غرفة الفندق أعلى الكازينو، كنت أتقلَّب على الفراش واتصلت بهاتف الشقة، أجبتَني.

«ماذا تفعل؟».

«أشاهد التلفاز».

«كن فتى مهذباً واستمع لفيفيان، سأكون في المنزل بحلول الغد وسأجلب لك شيئاً».

أجبتَ بالإنجليزية: «هدية؟ أنا أحب الهدايا».

«أعلم أنك تحبها».

كنتُ ثملة يطنُّ رأسي، طويتُ نفسي في البطانية وسرحت في بعض الأطياف؛ شعري وهو مشدود في ضفائر لامعة متقنة كضفائر ديدي، وليون في البزَّة وربطة العنق، فالمال الذي ربحه يمكنه أن يغطي ديني وتكاليف وليمة العرس، وليمة تفوق وليمة ديدي وتشوان.

كانت ديدي ترتاد فصول تعلم الإنجليزية في مدرسةٍ بوسط المدينة. أخبرتْني كم أن المعلمين بارعون، وكم كانت تتعلَّم. نشر معلمها صحيفة طلابية تحتوي على مقالات أفضل طلابه، أحضرَتْ مطوية بيضاء إلى الصالون وأشارَتْ إلى مقال في واجهتها قائلة: «انظرن! أنا مؤلِّفة لها أعمال منشورة». اجتمعَتْ كل مختصَّات تجميل الأظافر حولها بينما تقرأ المقالة بصوت مرتفع، كانت فقرة عن كيفية زيارتها أختها في بوسطن برفقة تشوان. استخدمت ديدي كلمة بشكل خاطئ في جملة واحدة «أستيقظ» بينما كانت تعني «استيقظت»، لكن كان هناك كثير من الكلمات لم يمكنني إدراكها.

كانت حياتي تتراجع. رأيت ليون مصاباً، غير قادر على العمل، يأكل الرقائق، مرتدياً الفانلة كزوج روكي، بينما أعمل مناوبات أطول عن ذي قبل كي أدفع تكاليف طبيبه. تدحرجتُ من أحد جانبي السرير إلى الآخر، ثم خرجتُ عن السرير ومنه إلى الأرضية، استنهضت نفسي لأقف معتمدة على أرجل كرسي. رفعتُ نفسي، وتناولتُ معطفي، وترنَّحتُ خارجة على الممشى الخشبي، بينما أسير تاركة الفندق خلفي، طقطقت الألواح الخشبية تحت قدميَّ.

لأكثر من عقد، ومنذ أن وردتُ مدينة نيويورك، لم أبرحها قط. ذهبتُ إلى كوينز وبروكلين وجزيرة ستاتن، إلى الشواطئ والمتنزَّهات، وركبت قطارات المترو والحافلات خلال المقاطعات الخمس كافة، لكنني لم أكن قد تخطَّيتُ حدود المدينة حتى تلك اللحظة، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك ما يمنعني إلا مخاوفي الغامضة من الانطلاق إلى الخارج، والتحذيرات التي تلقيتُها همساً عن كيف يمكن لرجال الشرطة أن يلقوا القبض عليك ومن ثَم تُرحَّل، لكن لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق حياله. كلما ابتعدت عن الفندق ازدادت العتمة من حولي، ولما رفعتُ ناظريَّ استطعتُ مشاهدة النجوم، نجوم أكثر بكثير مما كانت في ذاكرتي، تنضح السماء بالضوء. كانت النجوم في المدينة معتمة، لكنها ها هنا كانت متلألئة نابضة. كانت أمواج المحيط فيما وراء الممشى في مكان ما، تتلاطم وتُرْجِع صداها حولي، وهناك رائحة مالحة؛ تأتي من بعيد؛ إنها ميانيانغ.

كانت قدماي مكبَّلتين بقيد مُرخى. لقد كان هناك بلد برمَّته موجوداً، عالم بأكمله. كانت هناك حياة أخرى غير تلك التي كان ينبغي لي أن أحياها. انحدرتُ عن الممشى، شعرتُ بها، صديقة صغيرة مألوفة: خفقة الحرية، دفقة الممكن. شعرت بالرضا عن نفسي وتصالحت معها.

عدتُ أدراجي إلى الفندق وصعدت إلى الغرفة، آملة أن يكون ليون قد عاد كي ننام معاً على هذا السرير الضخم. لا أريد أن أراه في الكازينو وقد ذَبُل جراء الضوضاء والألوان وابتلعه معطفه البني القديم، لكنَّ الفراش كان كما تركته، غطاؤه مجعدٌ، تتدلَّى فُرُشه بعض الشيء. ليس ثمة علامة على أن ليون هنا، تجرَّدتُ من ملابسي وسحبتُ البطانية فوقي، لم أعد ثملة، غططتُ في النوم في غضون دقائق.

كانت الشمس تتسلَّل صباحاً عبر الستائر، وليون كان على السرير.

قال: «نجمتي الصغيرة! أنا آسف!».

فركتُ عينيَّ، تراءت لي غرفة الفندق. كانت هادئة تماماً، كم كان من الغريب أن أستيقظ دون أن تكون في محيطي: «كم الساعة؟».

«في البداية ربحتُ ربحاً كبيراً، بشكل لا تصدقينه. خمسة آلاف دولار!».

«خمسة آلاف؟».

«حينها كان لزاماً عليَّ أن أتوقف».

«لكنَّك لم تتوقف».

«حسناً، عليَّ أن أخبرك. لقد قامرتُ بمالك أيضاً».

«أي مال؟».

«تلك الثلاثمائة والثمانين دولاراً التي كانت في حافظة نقودك، عدت إلى الغرفة، لكنكِ كنتِ نائمة، كنتُ في أوج تألقي».

«كان من المفترض أن يذهب ذلك المال لسداد قسط الدَّين».

«كنت طماعاً، وتخيَّلت أنني سأربحه مرة أخرى دون أدنى ريب».

شعرت وكأن مقلتيَّ تسبحان في الزيت: «أنَّى لك أن تفعل ذلك؟».

«أنا آسف. لقد كان خطئي». استلقى وتجعَّد وجهه.

«لا يمكنك العمل في مناوبتك غداً».

«من سيدفع الإيجار غداً؟ الصالون يعاملك كأنك حثالة».

«إذاً من سمح لك بأن تخسر أموالي؟». رميتُ وسادة على الجدار وتابعتُها وهي تهوي على السجادة. كل تلك الأظافر التي قصصتها وهذَّبتها، كل تلك الساعات التي قضيتها ألصق الأحجار الكريستالية بالملاقيط وأرسم أشجار النخيل والقلوب حتى أضناني معصمي، كي أجمع تلك الثلاثمئة والثمانين دولاراً.

قلت: «كيف لك أن تتصوَّر أن بوسعنا جني المال مجاناً؟ لا شيء يأتي بالمجان».

نمنا في الحافلة بينما كنا آيبين إلى المدينة، فرَّغنا حقائبنا، وذهبنا إلى العمل.

«انظري!». همست جوي إليَّ من خلف طاولة لطلاء الأظافر.

رأيت واحدة من الفتيات الجديدات تدهن الشمع على ذراع فتاة أخرى. نزعَتْه فتأوَّهَت الفتاة الأخرى.

لقد استقالت كوكو. هي ببساطة لم تعد تأتي لمناوباتها، ولما تواصلت معها أخيراً عبر الهاتف، قالت لي: «إنه لمن الجيد فعل شيء آخر».

روكي لم تعد ترتاد مكتبها يوميّاً، وحين أحاول التواصل معها كانت تقول إنها على عجلة من أمرها، أو أنها بالخارج، أو أنها مضطرة إلى إجراء مكالمة هاتفية. كان يبدو أن ميشيل ابنة أخت روكي تستعد لأن تتولَّى الإدارة، ولتعويض انفصال كوكو، قامت ميشيل باستقدام أربع فتيات، مما يعني أنه

لم تعد لنا فرصة في العمل لوقت إضافي، وكانت تلك الفتيات الجديدات يشبهن روكي وميشيل، كنَّ صينيات فيتناميات، فتيات صغريات أولات وجوه متجهِّمة وصلن أخيراً ويعشن معاً في شاحنة تعود إلى رجل يصبغ شعره باللون البرونزي، ولم تبذل موظفة الاستقبال جهداً كبيراً في إخفاء كراهيتها لهنَّ، بل ولا تستشعر أي حرج في مخاطبتهن بأسمائهن.

قالت ديدي: «مزيل الشعر، فيما بعد سيجرِّبن مزيلات الشعر البرازيلية (...).

أردفت جوي: «حتى الآن».

بعد أربع ليالٍ من رحلة أتلانتيك سيتي أخبرتُ ليون أن ثمة وظيفة جيدة، لكنها ليست في نيويورك: «إنه المطعم الصيني الوحيد في المدينة، وهم الآن يطلبون نادلة للعمل معهم. جوي هي من أخبرتني بذلك. تلك الفتاة الصينية التي تعمل في الصالون، وهي من نفس القرية التي يتبع لها مالكو المطعم، وأنت تعلم أنه كم من النادر العثور على وظيفة مناسبة للعمل كنادلة».

نهض ليون عارياً يتقطَّر منه الماء في حوض الاستحمام عقب اغتساله: «حسناً!»، أعطيته منشفة «إذاً هلمَّ نذهب!».

جفَّف شعره قائلاً: «إلى أين نذهب؟».

كان البخار يتهادى على وجهي «فلوريدا. هل انصعتَ لرأيي يوماً؟».

«ولم تنوين فعل ذلك؟».

«إنها وظيفة جيدة. أموال جيدة».

أزاح المنشفة. قطرة مياه سقطت على كتفه «لقد كانت مجرد مئتي دولار».

«ثلاثمائة وثمانين دولاراً من مالي. تلك التي سرقتَها مني من دون أن أسمح لك بأخذها. ليست بالأمر المهم بالنسبة إليك، أنا أعلم».

«بالطبع هي أمر مهم بالنسبة إليَّ. كنت ثملاً، واعتذرت منك. لم يكن الأمر يستلزم أن تذهبي إلى وايتي، يمكننا تعويض ذلك المال سريعاً».

وايتي كانت تقع فيما وراء المدن، بعيداً، قرى أمريكا النائية. كل ما عدا نيويورك. انحنيتُ مقتربة أكثر نحو ليون ثم استنشقت رائحته الصابونية «في فلوريدا عديد من المدن، فلوريدا كلها ليست وايتي. بربك، أنت تعلم أن هناك مديرة جديدة على وشك أن تركلني خارجاً. يمكنني جني كثير من المال خلال شهر في وظيفة النادلة أكثر مما يمكنني تحصيله إن بقيت هنا».

«سترحلين عن ديمينغ إذاً؟ وعني؟».

رأيته يقف مرتدياً بنطاله القصير يتذكَّر تشينغ، الممشى الخشبي، سلسلة النجوم المتلألئة فوق المحيط «بالطبع سترافقني، يمكننا اقتناء منزل كبير، فالعمل في مطعم يعني أنك ستأكل بالمجان. أخبرتني جوي أنهم قد يحتاجون إلى رجال في المطبخ كذلك».

«هيا انطقيها. غاسل صحون».

«لا أرى بأساً في غسل الصحون».

«وما دامت تلك وظيفة عظيمة، لم لا تذهب جوي تلك لتتقلَّدها بنفسها؟».

فتح باب الحمام، فانطلقت سُحُب البخار. تمدَّد فوق فراشنا وقال هامساً: «إنها ليست آمنة. اعتبري من ذلك الرجل الذي ورد الخبر عنه في الصحف الصينية. لقد تعرَّض للسطو وقُتِل بينما يوصِّل الطعام، فقَدَ حياته لقاء خمسة عشر دولاراً».

«أوافقك، لم يقع ذلك في المطعم، والذهاب إلى بيت غريب دائماً تحفُّه المخاطر».

«اعتبري من حال ذلك الشخص الذي أُطلِقت عليه النار، على الرغم من الواقية البلاستيكية المضادة للرصاص!».

«لن يحدث هذا. العمل كنادلة مهنة آمنة». رفعت بنطالين من بناطيلك من الأرضية «اسمع! أنا أريد الذهاب. لقد حان الوقت لتجربة شيء مختلف، ألا تعتقد ذلك؟».

«أعتقد أنه قد آن لي أن أخلد إلى النوم. انسي أمر فلوريدا، سوف أجمع مالك الشهر القادم وأعيده إليكِ».

«ليون».

«إذا رغبت في المال بشدة، فاعثري لنفسك على رجل ثري يحمل أوراقاً رسمية وليس مضطرّاً إلى رعاية أخته كذلك».

«كفّ عن هذا!».

لم يكن الأمر متعلقاً بالمال؛ إذ يمكنني جني المال أفضل مما كنت أفعل في هالو جورج، ويمكن لليون جني المال أفضل مما كان يجنيه بينما يعمل في المذبح. كنتَ بحاجة إلى أن تذهب إلى مدرسة لا يدعوك أحد فيها برقم اثنين المميز.

طرحتُ الفكرة على ديدي، فلكزتني في ذراعي «وايتي؟ أأنت مجنونة؟ يمكنك أن تركبي المترو صوب القمر أفضل من ذلك».

كنا نقف في الزقاق اللعين ذاته، ندخِّن السجائر كما صارت عادتنا منذ سنوات، قبالة الجدار الطوبي نفسه من المبنى ذاته. كانت فكرة ديدي أن نرحل إلى صالون آخر بوسط المدينة، وحين تتحسَّن إنجليزيتها كذلك، ستنتقل إلى وظيفة لا تنطوي على طلاء أظافر «أنا لا أفهم لِمَ لن تأتي برفقتي إلى صالون آخر». قالت ميمِّمة وجهها صوب الطوب «هي تريد الذهاب إلى فلوريدا لكنها لن تذهب إلى الشارع الثالث عشر».

«أخبرتُك أنني لا أريد ذلك».

«روكي أبداً لن تقلِّدك منصب المدير ذلك، فهي مستمرة في إيهامنا جميعاً، حتى وإن ظللنا نعمل لمدة أطول. سوف تعملان على التقليل من ساعاتنا حتى تصل إلى اللاشيء، وستُبقيان تلك الفتيات الجديدات لزهد رواتبهن. سوف تتولَّى ميشيل الإدارة وتتولَّى روكي بنفسها إدارة صالون ريفرديل. إن لم ترحلي فستحرصان بنفسيهما على طردك».

لقد كانت محقة، لكن كان من الصعب الاستماع لها. كانت سيارة الشرطة تسير في الشارع مشغِّلة صفارة إنذارها، كنت مرتبكة ومنهكة في الوقت ذاته «ألم تملِّي الإقامة في نيويورك؟».

«غير صحيح، فالأمور على ما يرام حاليّاً».

لقد كان هذا حقيقيّاً، على الأقل بالنسبة إليها. عندما اعتاد تشوان أن يذهب إلى أتلانتيك سيتي، كنت أسلِّي نفسي قائلة: على الأقل أنا لست ديدي، لكن منذ أن أقلع تشوان عن المقامرة، توفر لديدي المال الذي مكَّنها من الالتحاق بدروس الإنجليزية بدلاً من دفعه إليه للإيجار، والآن تحاول إقناعه بأن ينجبا طفلاً، وأنت لا تستطيع أن تحاول كفالتي للحصول على بطاقة الإقامة الدائمة حتى بلغت الحادية والعشرين، لكن بعد أن تزوجت ديدي، تقدَّمت للحصول على الأوراق الرسمية، وقريباً سيصبح موقفها قانونيّاً وستتمكَّن من العمل في أي مكان.

«لديك المكان ولديك رجلك وطفلك، ولا أراكِ إلا ترغبين في التخلِّي عن كل ذلك».

«كل ما في الأمر أنني أفكر في أن هذا ليس أفضل ما عندي، فضلاً عن أنهما سيأتيان معي».

«لكنك على علم بالأمور ها هنا وكيف تجري، قد يطرأ طارئ في فلوريدا». نظرت ديدي إلى هاتفها المتحرك «ينبغي لنا المسارعة إلى العمل قبل أن تصب ميشيل جام غضبها علينا».

«أنتِ محقة، أي طارئ قد يطرأ فذلك هو الجزء المثير».

«أنت ساخطة على ليون وغاضبة لأمر المال، لكن ذلك لا يعني شيئاً».

«الأمر لا يتعلق بالمال، ينبغي لك كذلك اللحاق بنا أنتِ وتشوان».

«استمري في نيويورك. تزوجي وأنجبي طفلاً!».

رأيت كم أن ديدي ستفتقدني، وأنا أيضاً سأفتقدها، ومع ذلك فقد افتقدتها بالفعل، وأفتقد تلك الحال التي نكون عليها ما إن نصبح معاً، وكون الاعتقاد في أننا أقدم نزيلات النزل بمثابة مدعاة لفخرنا، والأوقات التي كان غموض حياتنا فيها مروعاً وآسراً، حين كان كل يوم بمثابة كِفتين متعادلتين من الخوف والفرص. تسكُّعاتي منفردة عبر سنترال بارك، الشوارع الجديدة للغاية بالنسبة إليَّ، ويمكنني أن أتوه فيها بسهولة، وركوب المترو ومشاهدة أضواء المدينة التي تبزغ أمامي متسائلة إن كان هذا أقصى ما يمكنني حبه.

هطل الثلج، مرة أخرى، تاركاً بوصات من الوحل، ولا أحد منا يمكنه تذكُّر كم كان الجو حارّاً بالقدر الذي دفعنا لتشغيل المروحة. أزاح حذاء ليون الطويل بعض الثلج لخطوات أمام بنايتنا لتصبح ممرّاً لنا، فصحتُ: «تبدو فلوريدا الآن لطيفة، أليس كذلك؟».

«ألن تتخطَّي الأمر؟ لقد أخبرتك أنني سأرد لك مالك».

«لا تخال أنني جادة».

«أنا مضطر إلى الذهاب إلى العمل. سوف أراكِ لاحقاً».

«هل لك أن تعدني بأنك ستهتم وتفكر في الأمر مليّاً؟».

أجاب بينما يشق طريقه مبتعداً: «حسناً! حسناً!».

صعدتُ إلى الشقة وهاتفتُ المطعم في فلوريدا. أخبرتُ المديرة أنني أعرف جوي، وأنني أرغب في الوظيفة، أجبتُ بعض الأسئلة عن منذ متى وأنا في أمريكا متشدِّقة ببعض العبارات الإنجليزية. أوضحت المديرة أن المطعم يقع في مدينة صغيرة تدعى ستار هيل، تقع على بعد ساعة من مدينة تدعى أورلاندو. قالت: «لا تطيلي الانتظار، فنحن في مسيس الحاجة إلى نادلة».

قلت لها إنني سأهاتفها مجدداً، خلال يوم أو يومين، بعد أن أبتاع تذاكر الحافلة من نيويورك.

تقلَّصت ساعات مناوبتي يوم الأربعاء، لذا كنت قادرة في بقية ذلك اليوم

على أن ألقاك حين تخرج من المدرسة، وكان مبنى المدرسة يبدو وكأنه تحت الإنشاء دوماً، كانت السقالات المعدنية مثبتة حول جوانبه طوال فترة ارتيادك له، ولجتُه لمرات قليلة، فتغشَّتني رائحة البول والعرق الآسن المتعفِّن والغراء ومنظِّف الأرضيات. لم يكن من الآمن على الأطفال أن يذهبوا إلى مدرسة قائمة في منطقة إنشاءات.

قلتَ: «أنا لن أذهب»، وذلك لما أخبرتُك بأمر فلوريدا.

«ديمينغ! أنا أمك. يجب عليك أن تصحبني».

«لَم تكوني معي حين كنتُ بالصين».

«كان يي غونغ برفقتك، أما أنا فقد كنت أعمل، لأتمكَّن من تدبير المال حتى يمكنني إحضارك ها هنا».

«الوضع مختلف الآن».

«سوف تحب فلوريدا كذلك. سوف يكون لك بيت كبير فيه حجرة تخصُّك وحدك».

«أنا لا أريد حجرة خاصة بي. أنا أريد أن يكون مايكل هناك».

«لقد سافرتَ من قبل، ولم يكن الأمر عسيراً بالنسبة إليك، أكان صعباً؟».

أجبت بالإنجليزية: «أنا لستُ ذاهباً! دعيني وحدي!».

كنتُ أعلم الكلمات المناسبة للرد، لكنني لم أتفوَّه بها، ولم أرغب في منحك سلطة أن ترغمني على التبديل بين اللغتين أو أن أتحدث وفق شروطك. استشاط وجهي ودبَّت الحرارة في ذراعيَّ، وكأنني أجاهد ضد فكرة أن أكون مكدَّسة داخل حقيبة.

كنا خارج المتجر، رأيت السيدة جونسون التي تقطن معنا البناية ذاتها وهي تشاهدنا. عبس وجهك وصار مستدرّاً للشفقة، لذا فقد احتضنتك بقوة، تخلَّصتَ بدورك من ذراعيَّ وجريتَ من أمامي، تمسكت ذراعاي بسواري

معطفك. ديمينغ لطالما أحببتك أيما حب. لقد أعددتُ رسالة تذكير لأشتري لك قميصاً جديداً. لن نكون بحاجة إلى المعاطف في فلوريدا.

تلك الليلة، ظللت مستيقظة بينما أنت نائم، انتظرتُ حتى يعود ليون من العمل. لقد دافعت عن نفسك حتى وأنت بلا وعي، تتقلَّب على جانبك، بينما مايكل ينام على ظهره وذراعاه وساقاه مستقيمتان. لم أكن تلك الناضجة بالقدر الكافي حين غادرت الوطن. لقد كان من الجيد بالنسبة إلى طفل أن يجرب أشياء جديدة، يتعلم كيف يكون شجاعاً ومستقلاً. كذلك الوقت الذي سقطتَ فيه من فوق الأرجوحة. لقد كان الأمر مريعاً، لكنني كنت فخورة بك لكونك قوياً، ولم أكن أنوي أن أعاملك كطفل. أردتك ذكيّاً ذا اكتفاء ذاتي؛ كي لا تؤخَذ أبداً على حين غرة.

وحين كنتَ رضيعاً كنتَ صغير الحجم بحيث يمكِن وضعُك على وسادة، لم أكن أطيق أن أبتعد عنك، كم تمنيت ألا أبارح جانبك. بدت المدينة قاسية وصاخبة للغاية بالنسبة إلى طفل، وأردتُ حمايتك من الخارج لأتأكد من أنك ستبقى آمناً، ولا أزال أفعل ذلك. أردتُ أن أوفر لك الفرص التي لم أستغلها لصالح نفسي، لأثبتَ لك أنك لستَ مضطرّاً إلى أن تنزوي ولا تبرح مكانك.

لاحت خطوط ضوء في السماء. كان النوم يداعبني ويجافيني وما أفقت إلا على ثقل ليون إلى جواري. فاقتربت منه واستندت إلى كتفه، فربت على ظهري قائلاً: «عودي إلى النوم، فالوقت متأخر».

«لو أنَّنا نعمل في مطعم، لخلدنا إلى النوم معاً كل ليلة ولاستيقظنا معاً كل صباح».

غمغم «امم».

«ألستَ تريد الذهاب برفقتي؟».

«لا قِبَل لي أن أترك أختي، فهي أسرتي».

«بوسع فيفيان ومايكل أن يرافقانا».

«هي لا تريد أن ترحل عن نيويورك».

«وكيف عرفتَ ذلك؟ ربما هي ترغب وأنت لا تعلم ذلك».

«لقد هاتفَتْني اليوم، توهمَتْ أنني سأرحل دون إخبارها. لم أكن أعلم عن أي شيء تتحدث».

«ولا أنا».

«لقد أخبرتِ ديمينغ أننا سنرحل إلى فلوريدا. أنا لم أوافق على ذلك، وبدوره فقد أبلغ مايكل، بالطبع، وأصبح مايكل خائفاً فأخبر فيفيان، وبدورها فقد هاتفتني، لقد كانت منزعجة للغاية».

«لم أخبر ديمينغ أننا سنرحل».

ضغط بإصبعه على شفتي: «فلتهدئي! ستوقظين الولدين».

نحيتُ يده جانباً: «بل اهدأ أنت!».

«تريدين أن تأخذي ابنك بعيداً عن هنا، ولكن ماذا عمَّا يرغب هو فيه؟».

«ديمينغ طفل، ليس بوسعه أن يتخذ قراراً».

خار ليون «من المفترض أن الأم هي من يضحِّي من أجل ابنها، وليس العكس».

«خليق بك أن تتراجع عن ذلك». ذلك الرجل قضيت معه وقتاً طويلاً فيما مضى، ذلك الرجل الذي من المفترض أن أتزوج به، لم يعرفني قط «تراجع عما قلتَ من فورك».

كنتُ أماً من المفترض أن تستسلم وتموتُ من أجل أطفالها، بينما ليون استحق لقب أبي لأنه كان يشاهد التلفاز معك لأُمسيات عديدة خلال الأسبوع، ولو ابتاع من أجلك لعبة زهيدة الثمن، نعقَتْ فيفيان: «يالَمراعاتك للغير!»، وإذا ما صحبك للمتنزَّه، أثنى عليه الجيران لكونه ذلك الوالد اللطيف، لكن لا أحد منهم وصفني بأنني أم لطيفة حين فعلتُ كل تلك الأشياء، والآن ليون

يلومني لأنني أنشد حياة أفضل؟ ضربتُ السرير بحافة يدي بقوة «أتخال أنني لا أحب ابني؟ تبّاً لك!».

كان صوتي مزعجاً أثناء نومها، لذا سحبني ليون وأخرجني من غرفة النوم.

جلسنا إلى طاولة المطبخ في الظلام، وتهامسنا بينما تنام فيفيان على الأريكة.

تساءل: «أنتِ ما أحببتِها قط، هل أحببتِها؟».

«فيفيان تقصد؟ بالطبع أحبها، إنها أختي».

«تريدين منها أن توافقك دونما اعتراض».

«أفي ذلك خطأ ما؟».

بدا ليون وكأنه على وشك أن يدرك حقيقة غير سارة.

استأنفتُ حديثي: «أنا آخر من جاء هنا. كل منكم لديه الآخر».

كنا متقاربين للغاية، كنتُ أستطيع أن أستشعر أنفاسه على وجهي، دافئة ممجوجة. لم يستطع أن ينظر في عينيَّ، على الرغم من الظلام «أحياناً تصبحين شخصاً غير لطيف».

«أنا لطيفة معك. أنا لطيفة مع ديمينغ ومايكل وفيفيان كذلك».

«كل ما تريدينه فحسب هو الذهاب إلى فلوريدا لأجل نفسك، ليس لأجل ديمينغ أو لأجلي. لطالما كان الأمر برمَّته يتعلق بك».

«كلا! لقد أسأتَ فهم الأمر برمته».

عبر الغرفة كانت فيفيان تغطُّ في نوم عميق، وطفقتَ تواصل حلمك في غرفة النوم، ربما عن الباور رينجرز، أو لربما كانت تلك هي تقليعة العام الماضي، ومن خلف الستائر كانت الشمس تكدح لتشرق، وبدوري فقد قرَّرت أنني لن أذهب، سوف نبقى في نيويورك برفقة ليون وفيفيان. نسيتُ أمر فلوريدا، لكن حميمية ليون لم تعد كالسالف، وبدا الأمر وكأن فكرته عني قد تبدَّلت بالفعل إلى الحد الذي يستعصي على التصحيح.

سأسترجع تلك الليلة لمرات عديدة في السنوات اللاحقة؛ أخط مساراً مختلفاً، أشاهد نفسي مع ليون عند طاولة المطبخ، وفي اليوم التالي سأبقى في المنزل بدلاً من الذهاب للعمل، ثم أذهب لإحضارك من المدرسة، وننطلق معاً للخارج لنأكل الكعك المحلى والشاي، وتحصل ديدي على الأوراق الرسمية، وأخيراً أحصل أنا كذلك على أوراقي.

لكن هذا ما لم يحدث، فما فعلته هو الذهاب إلى العمل؛ إذ عملت أيام الخميس على استدرار تيار دافق من الزبائن إلى هالو جورج، ليجدِّدن تجميل أظافرهن استعداداً لعطلة الأسبوع المقبلة، مُسِحَ الطلاء المخدوش وحلَّ محله طلاء جديد. بعض النسوة يجادلن حول أي لون سيخترنه، وكأنه قرار مهم بقدر اختيار اسم لمولود، لكن الأخريات جئن وهن يعلمن بالفعل ظِل اللون الذي يرِدْنَه، نفس اللون الأحمر الذي اختارته إحدى صديقاتهن، نفس اللون البرونزي الذي ظهرت فيه ممثلة ما في صورة من مجلة. تحوَّلَتْ القمم الهشة إلى مثلثات، والأرجل التي فاحت برائحة كرائحة الحليب الفاسد، نُقِعَت وصُقِلَت وانجلت، وتم كشط الجلد الميت المتصلِّب، الذي كان يشبه حراشف لحاء الشجر، وصار أملس.

بعد زبونتين طلبتا تجميل الأظافر والقدمين وزبونة طلبت تجميل القدمين، كان الدور عند زبونة طلبت تجميل الأظافر. اختارت لون الطلاء الأرجواني ومدَّت يديها استعداداً لتلقِّي الخدمة. كانت تمضغ علكة، يتحرَّك فمها تحت طلاء شفاه بني اللون.

طبقة الطلاء الأساسية، ثم طبقة الطلاء الأولى. حشتُ زبونتي على النظر إليَّ. كانت أظافرها العارية رقيقة صفراء، مما يعني عديداً من التجارب الكثيرة في تجميل الأظافر. انتهيتُ من خنصرها الأيمن ثم فتحت سدادة زجاجة، سُرَّتْ أنني لم أعرض عليها لاصقات نزع الشعر كما تفعل الفتيات الأخريات. ضغطتُ على يد مجفف الشعر وصوَّبته تجاه الزبونة. قلت بالإنجليزية: «انتظري حتى يجف، حسناً، بعد ذلك سنضع طبقة الطلاء الثاني».

تفحَّصتُ هاتفي المتحرك، فاستنكرَتْ ميشيل ذلك. تثاءبتُ؛ ما كنتُ قد هنئت بنوم، في الصباح عقد ليون هدنة، قائلاً: «سوف أفكر في أمر فلوريدا، فهي فرصة جيدة بالنسبة إلى أسرتنا. لو رُزِقْنا بطفل آخر، سيكون لدينا متسع له». اندهشت ووافقتُه، ثم قال ليون: «يمكننا أن نتحدث مفصلاً هذا المساء» (...).

كانت الفتاة الجديدة في المقصورة المجاورة لي تعاني كي تمسك فرشاتها بثبات.

نصحتُها قائلة: «من الأسهل لو استخدمتِها بسرعة، وإلا سيصير الطلاء لزجاً. أنزلي الفرشاة، الأولى- الثانية- الثالثة، لا تسمحي لنفسك بأن تستغرقي وقتاً في التفكير».

عبسَتْ الفتاة، كانت ذات جديلة متدلية خلف قميصها وكأنها ذيل فأر. مالتْ مقتربة إلى زبونتها، تَصلَّب جسدها، صارت متوترة إلى الحد الذي لا يمكنها معه أن تحسن صنعاً، نكزتْ الزبونة قدمها.

بدأتُ في طبقة الطلاء الثانية لزبونتي. كانت واحدة من الفتيات الجديدات تدهن الشمع الساخن على الشفاه العليا للمرأة. كانت الفتيات الجديدات يرطنَّ بعضهن إلى بعض بالفيتنامية وإلى الزبائن بإنجليزية قليلة، أدارت المتحدثات في مقدمة الصالون المذياعَ لتنطلق إذاعة أغانٍ أمريكية بينما كانت ميشيل تشاهد فيلماً كوريّاً عبر التلفاز في المكتب الخلفي. كان يمكنني سماع بكاء أوبرالي ووتريات موسيقية رنَّانة.

كنتُ سأنتهي من أظافر تلك المرأة ثم أخرج لفترة راحتي إن لم تأتِ أخرى. كانت ديدي في عطلة هذا اليوم، في فصل تعلم الإنجليزية، فكرتُ ثانيةً بشأن ستار هيل، والمنزل الذي يمكنك أن تعيش فيه أنت وليون.

انسحبتْ يد زبونتي، دهنتُ بشرتها عن طريق الخطأ.

قلت: «أنا آسفة».

وأخيراً التقتْ عينها عيني، أطبقتْ شفتيها على أسنانها لبرهة طويلة. مسحت لطخة الطلاء. كانت طبقة الطلاء الثاني براقة قاتمة.

أنجزت طلاء اليد اليسرى، ثم تناولت يد المرأة اليمنى، وشرعت أركِّز كثيراً على دهن الطلاء مما لم يجعلني ألاحظ من دخل من الرجال، إلا حين انتزعتْ الزبونة يدها وقفزتْ الفتاة في المقصورة المجاورة، كانت هناك ضجة، أصوات تتصايح بالإنجليزية والفيتنامية.

كانوا رجالاً يصيحون: «ليلزم الجميع مكانه! ليلزم الجميع مكانه!»، رجال شرطة في زيهم الرسمي الموحد.

تلقفَتْ العميلات حافظاتهن ولذن بالفرار بينما كانت أظفارهن لا تزال رطبة. هرولت امرأة ولا تزال لاصقة نزع الشعر فوق شفتها. هربتْ زبونتي دون أن تدفع الحساب. صحت قائلة: «أوقفوها!»، ثم انحشرت في حشد الأجساد المتجاورة.

الفتاة ذات الجديلة المتدلية لفظت بعض الكلمات التي بدت كشتائم. صحتُ قائلة: «ماذا يجري؟».

موجة صوت علت من جهاز اللاسلكي الذي يحمله رجل الشرطة. قال أحدهم مشيراً إليَّ «ابقي منخفضة!».

كان الباب منغلقاً الآن، محمياً من قبل رجل آخر بنفس الزي. كبَّل رجل ثالث يد ميشيل التي كانت تسبُّ بالإنجليزية.

التفتَ الرجل الأول إليَّ، قبل سنوات جئتُ من تورنتو إلى نيويورك راكبة شاحنة، تخضخضني نتوءات الطريق أتجمَّد خوفاً، تذكرتُ، كان هذا أشبه ما يكون بالموت، أما الآن وبينما تُسْحَب يداي خلف ظهري في حركة حاسمة، كما يُقيَّد الخنزير، تذكرتك. لقد كان أنت من تذكرتُه. دائماً، كنت أنت من أتذكَّر!

- 11 -

كان يونغ يتدرَّب على خطابه مجدداً. نظر إلى مفكرته قائلاً: «أنا من خلفية متواضعة، شأن عديد منكم»، ثم ارتفع بناظريه فوق رأسي، واستقر بهما على الجدار خلف الأريكة؛ مستطرداً:

«كم من العقبات التي واجهناها».

«انتظر!». انحنيت إلى الأمام، وهو يقف أمامي ببنطال قصير وفانيلا بيضاء «بدا الأمر كما لو أنك تتباهى».

«كيف لذلك أن يكون تباهياً وأنا أقول إنني نشأت فقيراً؟».

«بالضبط! هذا هو الأمر. أنت لم تنشأ فقيراً».

«كلا، لقد حدث. لقد عشت في شقة صغيرة بها حمام واحد لثلاثة أشخاص».

«لكن كان لديك ما يكفيك من الطعام. لقد ترعرعت في المدينة، وكان بإمكانك الذهاب إلى المدرسة؛ متى ما أردت».

«هذه جوائز منتدى فوزهو لقادة الأعمال. الكل يلقي خطابات عن بدايات متواضعة».

رؤيته كذلك في بنطاله القصير جعلتني أرغب في غمره بالماء وهو مرتدٍ ثيابه.

«هذا يبدو خداعاً بالنسبة إليَّ».

«أنا حتى لا أرغب في إلقاء هذا الخطاب، فلست بارعاً في ذلك».

«خذ نفساً عميقاً قبل أن تبدأ. أنا أفعل ذلك عندما أدرِّس الصف، أو ربما يمكنك التظاهر أنك تخاطب أصدقاءك، مثلما تروي لنا قصة أنا وغاو».

حَاوَل مرة أخرى: «أنا من خلفية متواضعة».

«عليك أن تتجلَّى! تحدَّث بصوت أعلى!».

لقد بدأ بوتيرة أعلى هذه المرة، أعلى صوتاً وبأسلوب متكلَّف ومبالغ فيه، وهو يلوِّح بذراعه أمامه: «أنا من خلفية متواضعة!».

رنَّ هاتفي، فأمسكت به، ورأيت سلسلة من الأرقام؛ هذه الأرقام التي كنت أرجو رؤيتها في كل مرة كان يرن فيها هاتفي خلال الشهر الماضي. قد مرَّت خمسة أسابيع منذ اتصلت بي ولم أعاود الاتصال بك. كنت خائفة مما قد تقوله لي، أن تكون غاضباً، كنت خائفة من كثير من الأشياء لم أكن أخشاها من قبل.

قلت ليونغ: «انتظر، إنها مكالمة عمل. تابع التدريب وسأعود بعد قليل».

أخذت الهاتف ومشيت عبر الصالة نحو غرفة الضيوف التي استخدمناها كمكتبٍ. أغلقت الباب، وجلست على الأرض بجانب النافذة تجاه الجدار الوحيد الذي لم يُقتسم مع غرفة المعيشة.

«مرحباً؟». لقد حاولت حتى إخفاء التوتر في نبرة صوتي.

«مرحباً؟».

«أهلاً، ديمينغ. أنا سعيدة أنك اتصلت».

عندما سمع صوتها لهث قائلاً: «أهلاً يا أمي!».

همست وسط مزيج من البهجة والتلهف قائلة: «إنه أنت».

من غرفة المعيشة أستطيع سماع يونغ وهو يكرِّر العبارات الأولى من خطابه، بنبرات متفاوتة للكلمات، مرة بأسلوب هادئ رقيق، ومرة بأسلوب واضح متزن، ومرة بأسلوب مرن انسيابي.

لقد أخبرتَني أنك ترتاد الكلية الآن، وأن لديك وظيفة، وأنك كذلك عازف جيتار، والداك بالتبني أصرَّا على تغيير اسمك. ليس فقط اسمك، بل اسم عائلتك، لذا فقد مُحيَ أي أثر لي. بحق الجحيم! أي اسم هذا «دانيال ويلكنسون»؟! لم أستطع أبداً مناداتك بهذا الاسم. لقد أخبرتَني أن فيفيان ذهبت إلى المحكمة كي تتبنَّاك عائلة بيضاء، غير أنني علمت ذلك سلفاً.

ناديتك: «ديمينغ»، وفي كل مرة كنت أناديك باسمك، أشعر ببعض النشوة.

«أتذكر الأوقات التي اعتدنا فيها ركوب المترو معاً؟ لقد كان هذا ممتعاً».

«ذهبنا إلى حي كوينز وقابلنا الأمهات الأخريات مع أبنائهن، وتظاهرنا بأنهم يبدون مثلنا».

«إنهم بالفعل يشبهوننا، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد» وسكتَ... ثم أكملتَ «هل تذكرين ما قلته لي ذاك اليوم؟».

صغيري ديمينغ، لقد عدت أخيراً من الصين، وكلانا ما زال لا يعرف الإنجليزية. أرجلك القصيرة ووجنتاك الممتلئتان وأنت في سترة شتوية ذات مقاس كبير. تمسك بيدي بينما نعبر الشارع، خائفين من كل تلك السيارات السريعة.

كان هناك طَرْقٌ على الباب، والمقبض يتحرك، ثم سمعت يونغ ينادي «بولي».

همست قائلة: «يجب عليَّ أن أذهب»، ثم رفعت صوتها قائلة: «أشكرك على مكالمتك، سأتصل بك غداً».

فتحت الباب. كان يونغ في الرواق: «هل يمكنني قراءة الخطاب عليك مجدداً؟ أظنني قد تمكنت منه الآن».

أومأت برأسي وأنا أمسح كفَّي المتعرِّقتين في فخذي، وابتسامتي مرسومة على وجهي.

«لماذا تغلقين الباب؟».

كان سؤال يونغ غير متوقَّع بالمرة، وقد آلمني.

«تلقَّيت اتصالاً من عميل... ألا تشعر بالبرد؟ دعني أحضر لك بعض الملابس».

أخذت بنطالاً له من الخزانة، ووضعت في جيبه ملاحظة كتبت فيها: لقد حزتَ جائزة أفضل خطاب.

في الصباح التالي بالصف تمنيت لو عملت بنصيحتي الشخصية بأخذ نفس عميق قبل التحدث، حينما توقفت في منتصف جملة ولم أستطع تذكر ما أرغب في قوله بعد ذلك. حدَّق فيَّ الطلاب بينما أحملق في الشاشة خلفي، فقد توهَّجت كلمة «حزت» الإنجليزية أمامي وتشوَّش عقلي تماماً؛ فالكلمة لا تعني لي أي شيء.

في طريقي إلى العمل، لاحظت صبية في مثل عمرك، شباباً يهرولون حاملين حقائبهم ومتجهين إلى العمل، أو آخرين يلبسون بناطيل من الجينز، متوازنين على سقالات البناء. كان من الممكن أن تكون أحد تلامذتي، ولكنك بدلاً من ذلك قد تربَّيت مع أناس غرباء، ودعوتَ امرأة أمريكية يا أمي؛ امرأة لم تتردَّد البتَّة أن تكون أمّاً، أرادت ذلك بكل جوارحها، حتى إنها اتخذت من ابن امرأة أخرى ابناً لها.

رفعت تلميذة في الصف الأمامي يدها: «معلِّمتي، كنتِ تتكلمين عن حروف الجر».

قلتُ: «نعم... (إلى) من حروف الجر» راجية أن تتبادر إلى ذهني الجملة التالية «هل يمكن أن يخبرني أحدكم ما حرف الجر؟».

رفعت الطالبة نفسها يدها وأجابت: «توضع حروف الجر في الجملة

لتعطي معلومات إضافية»، ثم أخذت تقلِّب في ملاحظاتها مضيفةً: «تتضمَّن حروف الجر الشائعة إلى وعلى وفي».

«شكراً لك، ميندي»، ثم ضغطت على زر في جهاز الكشاف الضوئي (البروجيكتور)، وانتقلت إلى شريحة العرض التالية «دعونا نراجع مزيداً من المفردات».

حسب الساعة على الجدار، كانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وفي نيويورك كانت العاشرة والنصف متأخرة عنا بليلة. نيويورك، بل أمريكا كلها، وحدث هذا في كل مكان في أمريكا.

بينما كانت تظهر المفردات على الشاشة، أخرجت هاتفي وبحثت في القائمة عن الرقم الذي حفظته في قائمة اتصالاتي، أسفل اسمك: ديمينغ. اسمك الصيني... اسمك الحقيقي، وليس دانيال ويلكنسون. الاسم الذي منحتك إياه، ولقد شعرت بالضيق، وخرجت إلى الرواق أتصل بك وأترك لك رسالة هاتفية.

في هذا المساء، اشتريت عبوة سجائر للمرة الأولى منذ أعوام، وأخذت أدخِّن الواحدة تلو الأخرى، على مقعد في المتنزَّه حتى أصبت بالدوار. أخذت أفكِّر في صوتك الجديد، واسمك الجديد، وأردت التحدث معك أكثر. شعرت بغصَّة في صدري، وبشعور بارد يعتريني بالرغبة في القتل. دخَّنت مزيداً من السجائر، ثم أسرعت إلى المنزل كي أستحم، وأغسل أسناني وأُذهِب عن شعري رائحة السجائر قبل أن يصل يونغ.

في وقت لاحق من ذاك الأسبوع، حدَّدنا موعداً للمحادثة، في وقت مبكر من المساء عندما كنت في المنزل بمفردي، وأخذت الهاتف إلى الشرفة منتظرة مكالمتك. حينما انتقلت للمرة الأولى إلى هنا كنا نجلس أنا ويونغ في ليالٍ ندية ونطلق ألقاباً ومسمَّيات للأبراج التي تخترق أرجاء المدينة نحو السماء. القمة الفضية... الأحمر المربع... الرمادي القبيح. أسبوع بعد أسبوع أخذت هذه المباني تتطاول صعوداً حتى أزيلت عنها سقالات بنائها كأنما كانت ضمادات

جرح قد التأم. تبعها تلميع وصقل ثم طبقة نهائية من الدهان، في هذه الأيام لا أستطيع التعرف إلى القمة الفضية ولا الرمادي القبيح من الشرفة؛ فقد اختفيا منذ فترة طويلة في زحام المباني الأخرى. لقد ازدحم الأفق؛ بحيث لم أعد أستطيع معرفة أي المباني كان حديثاً وأيها أقل حداثة، غير أنه كان من المريح معرفة أن لا شيء يظل على حاله لمدة طويلة، وأن كل يوم فرصة جديدة للتغيير. يمكن للشخص أن يتغيَّر بواسطة خزانة ملابس جديدة أو لقب مختلف، مثل تلك الألقاب التي أطلقتها على تلامذتي حالياً في صف «تحدث الإنجليزية بطلاقة»، أصبح كانغ، الولد صاحب الوجه الشاحب ذو الشعر البرتقالي المخطَّط، يدعى كين، وماي، الفتاة ذات الكحل البرَّاق، تدعى ميندي.

انتظرت، وفي الساعة 6:35، رنَّ الهاتف، فأجبته قبل أن ينتهي جرس الرنين الأول.

قلت لي وقتها: «لقد تأخَّرت في الاتصال قليلاً».

فأجبتك: «أنا أيضاً دائماً ما أتأخَّر قليلاً».

«هل هذا وقت مناسب؟».

نظرت عبر الباب الزجاجي المنزلق، لن يكون يونغ بالمنزل لمدة ساعة أخرى، لكن عليَّ أن أتأهَّب وأرتدي ملابسي من أجل مأدبة الجوائز.

«نعم، زوجي بالخارج، وأنا أقف في الشرفة الآن».

لم يكن صعباً التحدث إليك. لقد حكيت لك كيف سافرت إلى نيويورك، وأخبرتني عن منطقة ريدجبورو التي انتقلت إليها بعد برونكس، وعن والديك الأمريكيين، اللذين تدعوهما بيتر وكاي. لم أرغب حقيقة في معرفة أسمائهما. أنا من كان ينبغي له أن يحضر حفل تخرُّجك، ومن يتصل بك في عيد ميلادك، ومنزلي هو الذي تعود إليه في أعياد الكريسماس. كان ينبغي أن أكون أنا من يعود إليها الفضل في تربيتك، غير أن كل ما يمكنك أن تتذكَّره عني هو رحيلي وعدم البحث عنك مجدداً!

لقد كنت غاضباً، ولا أستطيع أن ألومك. أنا كذلك كنت غاضبة، ووددت لو أجد وسيلة لإصلاح ذلك، لكنني لم أعرف كيف، ليس دون أن تعرف عن آردسليفل. لم أرغب في التفكير في آردسليفل، وبدلاً عن ذلك تفوَّهت بكل الأمور الخاطئة.

ليون كان الشخص الوحيد فقط الذي أخبرته بذلك، ورغم مرور كل هذا الوقت بحيث لم يعد الأمر مهمّاً، فلا أحد قد يغرِّمني الآن أو يسجنني لطريقة مغادرتي أمريكا، إلَّا أنها معلومة لا أرغب في مشاركتها مع أحد، وإخبار يونغ قد يفسد كل شيء. كانت هناك ليالٍ أستيقظ فيها أفكر في الأرضيات الخرسانية، وأطباق الأستايروفوم لدقيق الشوفان الفاتر، لا أستطيع حتى النظر إلى دقيق الشوفان الآن، ولن آكله أبداً مرة أخرى في حياتي، وضجيج مئات النسوة اللاتي يتحدثن بلغات مختلفة. لقد كرهت أن ليون عرف ذلك، كيف صرَّحت له بكل شيء، لأنه إن عرف فهذا يعني أن ذلك كان حقيقة، وليس كابوساً يمكنني محوه كما لو أنه أحد خيالاتي، مثلما أن التحدث إليك يذكِّرني بكابوس خسارتك. ليون هو الذي تركك عن عمد، ولست أنا. لم أرد أبداً الرحيل. لقد أحببتك أكثر من أي شيء. يمكنك مناداة سيدة أخرى بـ «أمي»، لكنني أنا أمك، لا هي. أُدرك أنه لم يعد لي الحق في قول ذلك، لكن هذه هي الحقيقة التي لن تتغيَّر أبداً.

سمعت طرْقاً على النافذة، فقفزت عن مقعدي ورأيت يونغ يشير إلى ساعته، أخبرتك وقتها أن عليَّ الذهاب.

كان عشاء جوائز منتدى فوزهو لقادة الأعمال، في قاعة مؤتمرات ذات نوافذ صغيرة بالقرب من السقف. كنا في مايو، والجو دافئ بالخارج، غير أنني كنت أرتجف بالداخل ويونغ يتململ بجانبي، على خشبة المسرح يقف أحد أقطاب تجارة العقارات؛ يثرثر حيال نشأته في قرية شمال فوزهو، مستغرقاً في حديثه بعد الدقائق الخمس المسموحة له بعشر دقائق، وهو يقول ببهجة غريبة: «لقد تعلَّمت دروس الجوع وأنا طفل، خلال السنوات التي قضيتها مع عائلتي، حينما كانت أمي تطعمنا عجينة رقيقة من الأرز والماء. كانت بطوننا تقرقر، لكننا لم نشتكِ أبداً».

تجمَّعت عيدان الطعام داخل الأطباق، وخدشت الملاعق المعدنية أطباق التقديم. لقد قال أبي إن أسرته كانت فقيرة جدّاً، لدرجة أنه كان يضطر هو وأخوه إلى أن يتقاسما حبة واحدة من الأرز. لقد شعرت بالانزعاج والضجر من الاستماع إلى أباطرة التجارة هؤلاء يدعون القصة الرتيبة ذاتها. لقد أشيع عنه أنه لا يتناول أبداً بقايا الطعام، أو يستخدم المنشفة أكثر من مرة واحدة، وأن خدمه يلقون بمناشف حمامه مباشرة في القمامة بعد استخدامها لمرة واحدة، والطعام الفائض يختفي كما لو كان غير موجود أصلاً، ووددت حينها لو استرخيت في مغطس واتصلت بك أحكي لك عن هذه السخافات، بين المتحدثين حاولت أن أنتبه إلى المحادثات التي تدور حولي. أراد لوتين وغاو شراء منزل ريفي صغير في الجبال، بينما قال زايلانغ إنه يفضل واحداً بالقرب من البحر، وقلت أنا إنني أفضل المحيط على الجبال، أخبرت الزوجين بجواري عن تجديدات مطبخنا، وأعطيتهما بعد ذلك أسماء العمال الذين استعنا بهم أنا ويونغ فأشدت بهم قائلة: «إنهم بارعون في حرفتهم اليدوية». تحدثت على سجيتي بلكنة مدينتي، وكلي ثقة في نفسي. هذه كانت سمات شخصية بولي ابنة فوزهو، وليست بولي التي عاشت في نيويورك، وارتدت جينزاً بخمسة دولارات، واستخدمت الصابون ذاته لغسل وجهها وجسمها، وتركت ابنها يشاهد التلفاز طوال اليوم.

قال يونغ لنينغ وزايلانغ: «سوف تكون هونغ كونغ وجهتنا في العطلة القادمة، وبعد ذلك سنغافورة ثم طوكيو».

قال زايلانغ: «طوكيو؟ هل حجزت التذاكر بالفعل؟».

رد يونغ: «لم أخطِّط لتلك الرحلة بعد، لكن لعلَّها تكون رحلة شتوية لهونغ كونغ. من السهل جدّاً الذهاب إلى هناك. ما رأيك يا بولي؟».

«بالتأكيد، سيكون هذا رائعاً». أجبته وأنا أعيد النظر في تناول بعض البروكلي، غير أنني بالكاد استسغت الطعام.

قال نينغ: «أعلِمني عندما تنوي الذهاب، وسوف أرسل إليك قائمتي بأفضل المطاعم».

«هذا يبدو رائعاً. أخبرني المزيد، كيف يبدو الأمر هناك!»، وبينما كنت أشاهد حركات فم نينغ وهو يتحدث، فلم أستطِع التركيز على أي كلمة يقولها. غداً سوف أتصل بك وأخبرك لم كان عليَّ إنهاء مكالمتنا بهذا الشكل المفاجئ. طاولتنا كانت مليئة بالأصدقاء؛ غاو ولوتين ونينغ وزايلانغ وزملاء آخرين ليونغ مع زوجاتهم. نظرت حولي في الغرفة ورأيت المشهد نفسه على كل طاولة أخرى؛ نسخة متكررة: رجال بدناء في حُلل سود، ونسوة بأحمر شفاه وفساتين ضيقة، وصحون وأطباق من الطعام، وزجاجات شراب فارغة، لم أبدُ غريبة عن المكان.

ثوبي الأرجواني قد حيك ليتماشى مع منحنيات جسدي، وكنت أرتدي زوجين من الأقراط المرصَّعة بالألماس مع خاتم متناسب، وسواراً ذهبياً بحلقات بيضوية شكلت سلسلة. شعري كان مصبوغاً وحدَّدت بعض خصلاته بلون أخَّاذ يمنحه انعكاساً، لاحقاً هذه الليلة بعد أن أنهيت مكالمتي معك وارتديت ثوبي، وقفت أنا ويونغ أمام مرآة غرفة النوم معجبين بمظهرنا، وقلت له: «انظر كم نبدو متألقين». لا أستطيع أن أخبره عنك أو عن آردسليفل... لا أستطيع تدمير الوهم الذي بنيناه لأنفسنا.

قُدِّمت جولة أخرى من أطباق الطعام، وقام رئيس المنتدى، رجل في حُلَّة مقلَّمة، بتقديم يونغ الذي وجد طريقه إلى المنصة. نقر على الميكروفون ليتأكد من أنه يعمل، مع أنه كان يعمل على نحو جيد بالفعل عندما كان الرئيس يتحدث.

بدأ خطابه: «أنا من خلفية متواضعة، مثل العديد منكم، واجهت العديد من الصعوبات والتحديات طوال طريقي، لكنني تغلبت عليها جميعاً بالمثابرة، والآن أنا فخور بقيادة شركة يونغتكس. نحن حقاً مستقبل هذه التجارة، لأننا لسنا فقط مجرد مصنِّعين، بل إننا نعمل من أجل الصالح العام، ذلك بأننا أولاً نتيح فرصاً ووظائف للمحتاجين».

نظر بالأسفل إلى مفكرته ثم إلى الجمهور. لقد كنت أتوسَّل في صمت أن يواصل خطابه دون انقطاع، وثانياً، نحن نعمل على تنمية التجارة

وتعزيزها، والأمر الثالث هو أننا نحفِّز النمو الاقتصادي في المنطقة ونثري مكانة فوزهو التجارية.

لقد هدأت كلماته، لكنه ختم خطابه على نحو قوي. طاولتنا صفقت فتبعتها بقية الغرفة. عاد يونغ إلى الطاولة وشكر المدعوين. لقد أحسست بكَمّ الارتياح الذي يشعر به، وضعت يدي على ركبته وقلت: «أحسنت صنعاً!»، فجميعنا لديه احتياج متبادل لأننا ننتمي إلى هنا.

بعد العشاء احتسينا بعض القهوة في شقة نينغ وزايلانغ. جلست النساء عند نهاية أريكة على شكل زاوية قائمة، والرجال إلى طاولة عشاء طويلة. كان نينغ وزايلانغ قد فصلا جزءاً من غرفة المعيشة وبنيا جداراً جديداً لتخصيص غرفة نوم لابنهما فيليب.

ابنة لوتين وغاو كانت تدرس اللغة الإنجليزية للصف التاسع، مع أنها كانت لا تزال في الصف الثامن. قالت لوتين: «كانت ابنتي ترسب في مادة اللغة الإنجليزية، لذا فقد قرَّرنا حثَّ الأستاذة على نقلها إلى صف أعلى، هذا ما عليك فعله؛ دفعهم إلى الأمام كي يؤدوا أداء أفضل».

عقبتُ: «الأطفال لا يتحسَّنون بهذه الطريقة. إنهم أيضاً يحتاجون إلى التشجيع».

ابتسمت نينغ: «يجب عليك تشجيعهم، لكن أيضاً عليك أن تكوني حازمة، فهم يحتاجون إلى التعلم بمفردهم».

«لكن ماذا نبرِّر لأولادنا إن نحن تسبَّبنا في فشلهم؟».

تبادلت نينغ النظرات مع لوتين «قد نكون بذلك نتسبَّب في أذيَّتهم، ونؤثِّر في حياتهم بالسلب في المستقبل».

قالت لوتين: «يمنح الآباء في تلك البرامج التلفزيونية، دوماً إشادة زائفة، لكن الحياة الواقعية مختلفة عن ذلك».

قلت: «أنا أتكلَّم عن الحياة الواقعية. الأطفال في الحياة الواقعية ليسوا كالأطفال الذين ترينهم في التلفاز».

«أنا لا أتحدث عن التلفاز. ماذا! ألا يحق لي إبداء رأيي بشأن تربية الأطفال أنا أيضاً؟».

رفعت لوتين حاجبيها، ووقفت نينغ تهندم مقدم ثوبها قائلة: «عفواً، أحتاج إلى إلقاء نظرة على فيليب. إنه وقت نومه وأراهن على أنه لا يزال مستيقظاً».

بدت الغرفة مختنقة بلا هواء، فقالت لوتين: «لقد ارتفعت حرارة الجو جدّاً أخيراً».

ثم عقبت: «لقد سمعت أنها ستمطر غداً. ياللراحة، أخيراً بعض الانتعاش!».

نهضت إلى المطبخ وغسلت فنجان قهوتي. لقد أردت أن أتصل بك مجدداً، لكنك كنت محقاً، لقد أفسدت الأمر. لقد تخلَّيت عن العثور عليك كي أتمكَّن من الجلوس في حفلات مع أناس كهؤلاء، أخفيك كأنك سِرّ، كما لو كنت وصمة عار. جفَّفت يدي بمنشفة معلَّقة بجانب الثلاجة، ومزَّق قماشُ المنشفة السوارَ الذي اشتراه لي يونغ العام الماضي، وحينما جذبت المنشفة، بدا السوار كبيراً جدّاً على معصمي ومرتخياً، كأنما السلسلة التي تطوِّق معصمي تهزأ بي.

في غرفة المعيشة كان غاو يتحدث عن عمال سيتشوان المهاجرين، الموضوع الذي لا يمل تكراره «ذاك هو السبب في أننا ندفع نفقات دراسية لنرسل ابنتنا إلى مدرسة دولية خاصة. المدارس العامة غزاها الدخلاء».

جلست قِبَله وقلت: «لكنهم لا يستطيعون الالتحاق حتى بالمدارس الحكومية!».

«بالضبط! ويجب عليهم البقاء بعيداً».

قالت لوتين: «لديهم مدارس في القرى يمكنهم ارتيادها».

«لكنك قلت للتوّ إنهم يستولون على المدارس الحكومية في المدينة، ثم قلت إنهم لا يمكنهم الدخول إلى هذه المدرسة. ما المغزى من كلامك؟ لا يمكن أن تقول الشيء ونقيضه».

رد غاو مستهزئاً: «وما الفرق، سواء أكانت مدارس عامة أم خاصة. خلاصة القول هي أنهم لا ينتمون إلى هنا».

اعتدل يونغ في جلسته على الكرسي معقباً: «لكنك توظفهم»، فقلت: «ليقوموا لك بأعمال التصليح ويطلوا شقتك، ويعملوا في مصنعك! أنت تناقض نفسك».

عندما انتبهت أن ابتسامة يونغ تتلاشى تدريجيّاً، واصلت حديثي، محاولة إفحام غاو ولوتين، حتى عادت نينغ وغيَّرت الموضوع. لم أتخلَّ عنك من خلال موافقتهم على مثل هذه الأفكار البغيضة. لقد كنتُ شخصاً جيداً، ولا أزال شخصاً جيداً.

«لذلك لا تستطيع رؤية شيء بسبب نظارتك الشمسية اللعينة».

حين ولجنا المنزل، ضرب يونغ الباب بركبته، تجعله عدساته القاتمة أكثر أناقة، حتى ولو كانت خطيرة بعض الشيء، غير أنه أحياناً أخرى، كالليلة، يبدو بائساً بحاجة إلى مساعدة.

قال: «سعيدٌ بأن الأمر انتهى؛ الخطاب والعشاء والأمر برمَّته».

لقد بدا متعباً، وأردت أن أكون لطيفة معه، فقلت: «لقد أحب الناس خطابك».

«أرأيت! أخبرتك أن هذا ما يحب الناس سماعه».

كان اليوم التالي هو السبت، ولم يكن يونغ مضطراً إلى الذهاب إلى العمل إلا بعد الغداء.

كان بإمكاننا أن ننام ونسترخي (...). غسلت وجهي وفرَّشت أسناني، وتحقَّقت من أن الباب مغلق والأنوار مطفأة في غرفة المعيشة، لم نشاهد التلفاز ليلتها.

خلت أن يونغ قد غطَّ في النوم، لكن ما إن استلقيت على السرير حتى قال: «إذاً من ديمينغ؟».

أطفأت النور كي لا يرى المفاجأة على وجهي.

«من؟».

«رنَّ هاتفك وأنت في الحمام. لقد ظهر اسم ديمينغ على الشاشة».

كان هاتفي موضوعاً على الطاولة الجانبية للسرير وشاشته موجهة إلى أعلى، تظهر فيها مكالمة فائتة منك، ورسالة صوتية جديدة. كنت سأستمع لها لاحقاً عندما ينام يونغ.

أجبته وأنا مستلقية ووجهي إلى السقف: «ديمينغ واحد من عملاء بوس تشينغ في شيامن، وهو مسافر بالخارج الآن، لذلك يتصل في أوقات غريبة. لعله قد نسي فرق التوقيت».

«حسناً»، رد عليَّ يونغ وهو غير مقتنع على ما يبدو.

تلحَّفت بالملاءة حتى كتفي «تصبح على خير».

بعدها بدقيقة قال يونغ بصوت بدا كأنه بعيدٌ جداً عني، مع أنه يجاورني الفراش: «عندما أتيت إلى المنزل آنفاً هذه الليلة، كنتِ بالشرفة في محادثة هاتفية، وفور ما رأيتني أنهيت مكالمتك. لقد كنت تتصرَّفين بغرابة».

كنت سعيدة أنه لم يرَ ملامح وجنتيَّ اللتين سرى فيهما الدم خجلاً، أو يسمع خفقات قلبي المتسارعة.

«أتتهمني بشيء؟».

«كلا».

«لم أقدم على ارتكاب خطأ. ليس هناك ما عليك أن تقلق حياله».

«لست قلقاً، لكن كان يبدو عليك الاستياء وأنت تتحدثين مع غاو».

«لا أطيق عندما يتحدث عن العمال المهاجرين بتلك الصورة. لِمَ لَمْ تقل أي شيء؟ يونغتكس تحمل اسمك، والجائزة كانت لك. أخبره أن يصمت وألا يثير ذاك الموضوع مرة ثانية وإلى الأبد».

«كل ما في الأمر أنني لا أدع ذاك الموضوع يعكِّر صفو مزاجي».

«هل يمكننا السفر إلى هونغ كونغ بدلاً من الحديث عن ذلك؟».

«بعد فترة الإجازة، هناك الكثير للقيام به في العمل».

«هذا يعني أكثر من ستة أشهر بعيدة عن العمل».

«ليست مدة طويلة، اتفقنا؟».

«لقد سئمت هذه الحفلات. ألم تسأم منها أنت أيضاً؟».

«لست أتذمَّر حيالها».

لم يتشاجر معي يونغ أو يفتعل أي مشكلة، ولم يغضب. شعرت بالخذلان مجدداً. تصوَّرت لو تركته، أو إن هجرني، فقدان هذه الرفقة، الشعور بالارتياح كونك مع شخص عرفته جيداً. تفكرت في هذه الليالي التي بقيت فيها مستيقظة في آردسليفل بمهجع العمال، حتى على السرير في شارع روتجرز، وكم كانت هذه الليالي طويلة، ويا لطول هذه الليالي! جل ما أردته وقتها كان ألا يعتريني شعور بالوحدة. السنة الماضية حينما سافر يونغ في رحلة عمل لمدة ثلاثة أسابيع، كنت سعيدة أنني بمفردي في الشقة؛ لم ألتقط ملابسي من الأرض أو أغسل الصحون أو أخرج القمامة. إلا أنني عندما كنت أدخل المنزل عائدة من العمل كنت أشعر بالوحدة، وعندما أمسي بمفردي أخيراً، كنت أحلم بك؛ صبياً في العاشرة من عمره؛ يتهجَّى خطوط مترو مدينة نيويورك، ثم أستيقظ لا أعلم أين أنا؛ أتوقَّع أن أراك عبر الغرفة.

أمسك يونغ ذراعي: «لقد أحسنت صنعاً الليلة، أليس كذلك؟».

«بل كنت رائعاً».

لقد علمت في قرارة نفسي أنه كان ينبغي لي الانتظار؛ أصبر على إخبار يونغ الحقيقة وعن اتصالي بك، ريثما أصبح أكثر شجاعة. لم أرغب في إبقائك مستاءً أكثر من ذلك. لطالما آمن أبي أن التخلِّي عن رغباتك الملحَّة

علامة ضعف. قلت لنفسي: كوني قوية، مع أنني لم أعد أعرف معنى ذلك بعد الآن. تخيَّلي أن المسألة قد انتهت حتى قبل أن تبوحي بأي شيء.

لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي «لديَّ ابن.. ولقد فقدته».

تجمَّد الوقت لدقيقة مقيتة قد طالت وطالت: «ابن؟».

لم أستطع الرد.

«ما الذي تعنينه بأنك فقدتِه؟».

«أنجبته عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري. حملت فيه من جارٍ لي في القرية. تركته في أمريكا، لأنني لم أستطع اصطحابه معي إلى الصين، ثم تبنَّته أسرة أمريكية. أصبحنا نتواصل معاً أخيراً، هذا هو ديمينغ، هذا اسمه ديمينغ غوو». أردت أن أنطق اسمك مجدداً، ففعلت «ديمينغ غوو».

رجع اسمك رجَّ المكان. رفع يونغ يديه عن ذراعي.

«يعيش في نيويورك الآن، ولقد وجدني للتوّ، ولقد تحدثنا عبر الهاتف مرتين».

هزَّ يونغ رأسه، كما لو كان يحاول تنظيف أذنيه من الماء.

نظرت إلى زوجي وحاولت لفته لينظر إليَّ مجدداً. سنوات مضت، كطالب في صفي، إنجليزيته ركيكة، لا تتطوَّر ثابتة دون تحسُّن.

كان يستطيع التحدُّث بالصينية لأيام دون توقُّف، لكن بالكاد كان بإمكانه أن ينطق بضع كلمات باللغة الإنجليزية، ولقد شعرت أنني أنا السبب في ذلك.

«تخلَّيت عن ابنك؟».

«الأمر ليس كما يبدو».

«أنا لا أفهم».

«لقد رُحِّلت من البلاد، فهمت؟ لذلك تركت أمريكا».

«لم تقولين لي ذلك الآن؟».

«لم أرد أن أشعرك بالقلق».

«لا أصدِّق أنك لم تخبريني من قبل».

«أستطيع أن أوضح لك»، لكنه لم يجب «هل أنت ساخط عليَّ؟».

لم يكُ ساخطاً عليَّ. لم يصرخ فيَّ، أو يترك الغرفة أو يطلب مني أن أتركها. بدلاً من ذلك تركني أنام إلى جواره، ومال ناحيتي، وأخذ يدي وأمسكها وضمها إليه.

لكن ألم أعلم من قبل أنه سوف يفعل ذلك؟ فلم يكن من طبعه الصياح.

أخبرته بسرِّي قبل لحظات، وكان في مخيلتي أنني على وشك الرحيل، أن أسمع صوت ارتطام الباب، أن أشعر بعقابي المتوقَّع. هذا كان السبب الذي جعلني أبقيك سرّاً لوقت طويل؛ السبب أنني لم أعد قادرة على تدبُّر الأمور، لكن يونغ بقي، وكذلك أنا، وفي النهاية أكثر ما أدهشني أنني شعرت بالارتياح.

- 12 -

مكث أدريان، رفيق رونالد، في المنزل لأيام. لقد هجرته صديقته، ولن ينتقل معها إلى منزل جديد أواخر مايو. كان على دانيال الانتظار وقتئذٍ، ريثما يفرغ أدريان من استحمامه قبل أن يتمكَّن هو من استخدام الحمام، والذي كان كثيف الشعر عنه بمئتي مرة؛ إذ كان ذا لحية وشعر طويلين. كان أدريان قليل الكلام؛ بقدر ما كان رونالد ثرثاراً، يخرج متثاقلاً من غرفته كل يوم بمنشفة تلتفُّ حول خصره، ويحيي دانيال الجالس على الأريكة بإشارة «مرحباً!».

في صباح الثالث عشر من مايو؛ أي قبل العرض الكبير بيومين، لم يستطع رونالد التوقُّف عن الحديث عمَّن رد ومن لم يرد، مغيِّراً بذلك قائمة الحجز للمرة العشرين، في وقت لاحق هذه الليلة، سوف يجرون بروفة للأغاني مجدداً.

حينما بلغ أدريان الدقيقة الخامسة عشرة من استحمام سريع، غسل دانيال أسنانه في حوض المطبخ. قال رونالد، وهو يتجوَّل في غرفة المعيشة: «هناك احتمال ثلاثين بالمائة أنها ستمطر اليوم، أتظن أن هذا سوف يؤثِّر في نسبة الحضور؟ لن يحبِّذ الناس السير تحت المطر. ما خطبهم! أهم متوجسون من

الحياة بأكملها؟ لكن هناك أيضاً عامل الرطوبة، بما أن هذا مكان جديدٌ بالنسبة إلينا، وذاك بدوره قد يؤثر في الصوت».

غسل دانيال فمه وبصق. إن لم يغادر الشقة خلال الدقائق الخمس التالية، سوف يتأخر عن العمل. سمع صوت هاتفه يرن، فانطلق عبر الغرفة يبحث عنه، وهو يعلم أنها ليست أمه، لكنه كان يأمل أن تكون هي. مرَّ أسبوع منذ آخر مكالمة بينهما، وبالأمس سئم وهو ينتظرها لتهاتفه. لقد اتصل بها وترك رسالة يخبرها ألا تكلف نفسها عناء الاتصال به مجدداً، وهذا بالفعل ما كان منها، لقد سبقها في قطع العلاقة.

لقد كانت كاي، فلم يتلقَّ المكالمة وتركها تذهب إلى البريد الصوتي، وبينما كان يبحث عن زوجين من الجوارب، استمع إلى رسالتها، تذكِّره فيها باللقاء بعميد كارلو، بعد غد.

قال رونالد: «أخبار سيئة؟».

وجد دانيال الجورب المفقود وهو يرد: «ربما يتوجَّب عليَّ الذهاب إلى شمال المدينة بعد غدٍ من أجل مقابلة».

«أنت تمزح، صحيح؟ لدينا عرض يوم الجمعة».

رد دانيال، وهو يبحث بين قمصان ومناشف ليجد حذاءه الأيمن دون الأيسر: «إنها مقابلة مع عميد كلية كارلوف».

جذب الحذاء الأيمن وعقد رباطه، وأخذ يعرِّج برجله اليسرى وهو يرتدي الجراب: «لعلِّي أفعل».

«إذاً، من سيعزف معي في العرض؟!».

«لتطلب من جافي القيام بذلك. لا أعرف.. مقطوعات الجيتار أمرٌ يسير».

«يسير؟!»، رونالد وهو يومئ بأنه يشد شعره؛ معقِّباً: «حدِّد ما الذي تريده لمرة واحدة! أنت هنا منذ خمسة أشهر تقريباً، ولم تعمل في أي وظيفة لائقة، لذلك لم تتمكَّن حتى الآن من تكفُّل إيجار غرفتك».

«لقد ظننتُ أن أدريان سوف يرحل عن هنا، وكنت سأحل محله في الغرفة».

التفت دانيال ناحية رونالد «أتريد مني أن أرحل؟».

«ليس هذا ما أعني، ما أعنيه أنك لن تصل إلى ما تصبو إليه إن واصلت فعل ما يريده والداك. أنت حتى لا تعرف ماذا تريد، لا تعتقد في قرارة نفسك أنك تستحق الأفضل».

رد دانيال عليه، وهو يلتقط حذاءه الأيسر بعد أن وجده أسفل الأريكة: «لا تتقمَّص دور المحلِّل النفسي، ولا تخبرني بما عليَّ فعله»، وفي الحمام أُغلق دش الاستحمام، وأدريان يدندن بترانيم الكريسماس.

نظر رونالد باشمئزاز: «أتعلم؟ لا تكبِّد نفسك عناء الحضور إلى البروفة اليوم».

فتح دانيال الباب وهو يقول: «إليك عني! عليَّ الذهاب إلى العمل»، ولا يزال يحمل فردة حذائه وقد وضعها في الردهة، إذ يتوجَّب عليه مغادرة الشقة.

العمل لثماني ساعات في إعداد البوريتو يمنحك شعوراً ببعض الاستقرار. قال إيفان، وهما يقطِّعان الفلفل الرومي: «سوف أحضر عرضك يوم الجمعة. لقد اعتدنا سابقاً حضور بعض حفلات المستودعات الصاخبة في حي غاوينيس. الآن أُفسد الأمر وتحوَّلت هذه الحفلات لتصبح على مستوى أرستقراطي، وبالتالي تلاشى طابعها». كان بورفي وكيفن زميلاه في العمل آتيين كذلك. طوال فترة ما بعد الظهيرة أخذ هاتف دانيال يطن بالرسائل. بالطبع كان لديه عزفٌ بالعرض، وبالتالي لم يكن ليذهب إلى كارلوف.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما غادر تريس لوكوس، عاد إلى الشقة ليأخذ جيتاره من نوع ستراتوكاستر، واستقل القطار إلى بوشويك، وركض عبر الحي وصولاً إلى المبنى وصعد في مصعد الخدمة المتهالك للطابق السابع. خارج الباب المعدني، سمع عزف سايكيك هارت، وظن أن جافي ربما قد يكون في البروفة هو الآخر، ولكن حينما دفع الباب رأى نيت، يعزف الجيتار بينما يغني رونالد ويضغط على أزرار منسِّق نغمات الصوت.

أخذ شعر نيت المنسدل يقفز وهو يتمايل على الإيقاع. لقد كان يضرب على الأوتار الصحيحة، لكن الأغنية بدت كأنها أكثر حدَّة مما هي عليه بالفعل.

رأى نيت ورونالد دانيال فتبادلا النظرات. توقفت الأغنية، وقال دانيال: «ما الأمر؟ أسيعزف معنا لاعب جيتار آخر؟»، فأجاب نيت: «لقد خرجت من الفرقة وأنا حللت مكانك، هذا هو الأمر». سار رونالد نحوه، وقال بنبرة منخفضة: «فرقتي لا يمكن أن تتكل على شخص لا يمكن الاعتماد عليه».

«سوف أعزف في العرض غداً».

هزَّ رونالد رأسه: «سوف تغيِّر رأيك مجدداً».

«لن أفعل، أعدك، لن أعود لكارلوف».

غنَّى نيت بصوت عالي الطبقة بصورة مصطنعة قائلاً: «فات الأوان».

حملق رونالد في نيت بغضب، ثم اصطحب دانيال خارج الغرفة وبدأ في إغلاق الباب: «أنا آسف!».

لقد استغرق الأمر أقل من عشر دقائق بالنسبة إلى دانيال كي يجمع أغراضه من غرفة معيشة رونالد ويقحمها في حقيبته. ترك جيتار ستراتوكاستر وجلب جيتار الأكوستيك، مشى ناحية لافاييت، متجاوزاً نادي البوكر، وانعطف ناحية برودواي، وضع سماعات أذنه ورفع الصوت، وترك الموسيقى تجعل العالم أكثر صخباً؛ دفقة رائعة من الألوان تسطع كبريق متوهِّج يزدان بألوان الحلوى بينما كان يستمع لباوي وفريدي ميركوري يلتهبان حماساً مطلقين لأنفسهما العنان في أغنية «أندر بريجر».

لم لا يمكننا أن نمنح الحب

أن نمنح الحب.. أن نمنح الحب.. أن نمنح الحب.

دون موسيقى، العالم مسطَّحٌ، باهتٌ، سافرٌ للغاية. رفع دانيال الصوت أكثر بكثير، حتى غمرته الألوان والأصوات؛ بحيث لم يعد هناك إلَّا الأضواء

والإمكانات والتحليق؛ الطريقة ذاتها التي كان يترجم الجيتار فيها عقله. مشى حتى ميدان يونيون سكوير (ميدان الاتحاد) ماراً بفلاتيرون، ومر بأشخاص يأكلون خارج المطاعم، ومجموعة من المتزلِّجين المراهقين، وسياح يمسكون بخرائط المترو، ورفيقين يتضاحكان. ميدان هيرالد سكوير، وسلسلة متاجر مصطفة، وميدان تايم سكوير، ومزيد من السياح، وعند كولمبوس سيركل، جلس على مقعد ووضع حقيبة جيتاره، الذي أفسده.

لقد قضى ليلته يحتسي القهوة المخفَّفة على طاولة عشاء؛ يكتب رسائل حانقة لرونالد ويمسحها قبل إرسالها. أرسل رسالة إلى آنجل، يقول فيها: «مرحباً أرجو أن تكوني بخير» - راسلها مجدداً بعد بضعة أيام، ولكنها لم تعاود الرد عليه. كانت هيئة الميناء بالقرب منه، يمكنه شراء تذكرة حافلة ويكون في ريدجبورو في غضون ساعتين، لكن اتهامات رونالد ثبَّطته ليبقى في مكانه. لم يعرف ماذا يريد، ولا كيف يصل إلى حل للأمر.

في الصباح استقل القطار السريع نحو متنزَّه سانسيت، معه طبق فو في الركن الفيتنامي، يهدر بضع ساعات أخرى في مقهى، ثم توجه إلى الأشخاص الوحيدين في المدينة ممن قد يأذنون له بالإقامة معهم.

كانت فيفيان في الشرفة، تسقي أصص زهور صفر وحمر.

«ديمينغ؟»، لمحت حقيبته وحقيبة الجيتار.

«مرحباً فيفيان»، كانت عيناها مظللتين؛ إذ كانت ترتدي قلنسوة بحاجب أخضر ليموني يحجب الشمس عن عينيها مع صورة لشاطئ فرجينيا مطبوعة على مقدمة القلنسوة، فلم يستطع دانيال تفرُّس تعابير وجهها «هل مايكل هنا؟».

فردَّت عليه فيفيان بالفوزوية: «هو في الكلية الآن، وسوف يعود لاحقاً.. أترغب في الصعود؟».

«أحتاج إلى مكان لأنام فيه الليلة».

«حسناً، ضع حقيبتك في غرفة المعيشة».

وهكذا انتهى به الأمر وهو يطهو الطعام مع فيفيان، ولقد أخبرته أن تيموثي ومايكل سيكونان في المنزل وقت العشاء. نظر دانيال إلى ساعة حائط، كانت الساعة بها قد تجاوزت الثانية لتوِّها، ولا تزال هناك مدة طويلة حتى العشاء.

أخذ يقطِّع الثوم والزنجبيل على طاولة التقطيع، ووضعها على طاولة خشبية، في حين حمَّرت فيفيان قطعاً من اللحم. على الطاولة، كانت هناك كومة من رسائل بريد، ومنشورات لشركات محلية؛ مطبوعة بالإنجليزية والصينية؛ يعلوها إعلان محامي هجرة لديه مكتب في الجادة الثامنة، الصورة المصاحبة لامرأة ذات أسنان مبيضة بشكل مبالغ فيه. كانت حياته لتغدو على هذا النحو لو ظل ديمينغ غوو، إن ظل ليون وأمه معاً، لكانوا جميعاً لديهم عشاء عائلي تقليدي مع فيفيان وتيموثي.

قالت فيفيان والطعام يغلي على النار: «أخبرني ليون أنه تحدث إليك، أخبرني أنه كان سعيداً بأن تواصل معك».

«لقد أعطاني رقم أمي»، وعندما لم تقل فيفيان أي شيء تعليقاً على لغته الصينية، قرَّر مواصلة حديثه، متروِّياً في كلامه ليتذكَّر الكلمات الصحيحة ويختارها: «اتصلت بها وتحدثت معها».

أخبر فيفيان أن أمه قد تزوجت من جديد، لكن لم تخبر زوجها عنه «ما زلت لا أعلم أين ذهبت بعد أن غادرت نيويورك، وما إن كانت رحلت إلى فلوريدا».

قلَّبت فيفيان شرائح اللحم بملقط معدني، ثم حركتها إلى صحن مبطَّن بمنشفة ورقية «لا أعتقد، ناولني ذلك»، مشيرة إلى لوح التقطيع.

أعطاها دانيال اللوح، وأنزلت الثوم والزنجبيل بحافة السكين داخل القدر وخفقتهما بملعقة خشبية.

وفاحت بالغرفة رائحة الطعام «لكن لِمَ انتهى الأمر بها في الصين إذاً؟».

«لا أعلم، لكنها لم تكن لترحل دونك، كنت كل ما يشغل بالها طوال

الوقت»، أعادت لوح التقطيع إليه موضوعاً عليه الجزر «قطِّع ذاك إلى قطع صغيرة»، وأعادت اللحم في القدر؛ مغموراً بالماء، ووضعت عليه غطاء «كنا نتحدث عن الرؤى التي تصورناها لكما أنت ومايكل، لقد كانت تدخِّن»، تظاهرت فيفيان أنها تأخذ سيجارة من بين شفتيها ورفعتها بمرفقها، سارحة بناظريها إلى الجانب، مثلما اعتادت أمه أن تفعل «كانت تدخِّن دوماً، وكان لديها ذاك الصوت الجهور، واعتدنا وجود هذه الأكواب الكبيرة من الشاي أمامنا بذاك المطبخ الصغير. كنا نتكهَّن أن مايكل سيصبح طبيباً وأنت سوف تعمل في التلفاز».

«التلفاز؟».

«لقد رأتك تنسجم مع الصوت في التلفاز والأفلام، لأنك كنت تحب الموسيقى، والتلفاز، وأظننا كنا على صواب، أليس كذلك؟».

«كان تخمينكما في محله». قطَّع دانيال الجزر. طارت شريحة برتقالية من لوح التقطيع. التقطها، ممسكاً بها من على الطرف الآخر للطاولة.

قالت فيفيان: «إليك، قطِّعه هكذا».

عيَّن زاوية التقطيع مثلما وجَّهته، مقطعاً الجزر بسهولة أكبر. تذوَّقت الحساء، وأضافت ملحاً وفلفلاً «كان هناك صالون تجميل الأظافر ذاك. أتذكر اسمه؟».

«ماذا كان اسمه!»، حاول تذكُّره هو الآخر، لكنه قد اختفى من ذاكرته.

«هل تذكر صديقة أمك هناك؟ امرأة لديها نبرة حادة كالأطفال».

«ديدي».

«نعم، ديدي. إذاً بعد أن اختفت أمك، اتصلت ديدي بليون. اتضح أن أحدهم قد وشى برئيستها لهيئة الإنفاذ لشؤون الهجرة والديوان. جاؤوا وأوقفوا عديدين في الصالون. كان من المفترض أن أمك في العمل ذاك اليوم».

كان بإمكانه تذكُّر سماع فيفيان وليون يتحدثان عن ديدي، ومحامٍ، لكن ليس بهذا الخصوص «لم يخبرني أحد أي شيء عن هذا مطلقاً».

«لقد حدث هذا لامرأة أعرفها كانت تعمل في مطعم؛ دخل أحدهم في خلاف مع الشخص الخطأ، فاتصل الأخير بهيئة الهجرة وجاؤوا وأخذوا العمال».

«أخذوهم إلى أين؟».

«يرحلونهم، أو يدخلونهم هذه المخيمات، هذه السجون، للمهاجرين. لقد سمعنا دوماً شائعات عنهم. أعرف سيدة أُرسل زوجها إلى أحد تلك المخيمات كذلك. خرج إلى محل البقالة ولم يعد إلى المنزل أبداً. اكتشفت بعد ذلك أنه في السجن في أريزونا أو في مكان كهذا، ثم رحَّلوه على طائرة إلى دولته، في مكان ما في أمريكا الوسطى». هزت فيفيان رأسها وأكملت: «إذاً، صديقة أمك ديدي خطر في بالها ذاك المطعم في فلوريدا؛ الذي كان يعرض وظيفة للعمل هناك واتصلت بهم. أخبروها أن أمك كانت قد اشترت تذكرة لفلوريدا، لكنها لم تحضر أبداً، لكن ديدي وليون اتصلا بهيئة الهجرة وقالوا إنها لم تكن هناك أيضاً».

كانت قد اشترت تذكرة حافلة إلى فلوريدا، لكنها أخبرته أنهم لن ينتقلوا إلى هناك.

لم يبد الأمر منطقيّاً «إذاً، لم تكن في السجن؟ اعتقدت دوماً أنها رحلت من أجل رجل آخر، مع أنها كانت ستتزوَّج ليون».

«لا أعرف». التقطت فيفيان البريد غير المرغوب فيه وألقت بالمنشورات في سلة المهملات «لطالما انتظرناها. أتذكر، كل هذه الأشهر، لم أكن لأقضي عنها دينها لو علمت أنها عائدة، لم أكن لأتخلَّى عنك».

هل كانت أمه في السجن بينما كان يستمع هو إلى تسجيلات ريدجبورو، عندما استقل هو وآنجل التاكسي إلى الشقة القديمة؟ لكن هل علمت أيضاً حيال تبنيه؟ وضع دانيال السكين جانباً. لقد وقف مرة هو وأمه وليون على عبارة جزيرة ستاتن؛ يحيطانه بأذرعهما، كان حبهما صادقاً ومتألقاً، اللفتات التي كان كاي وبيتر يحاولان افتراضها، لكنه لم يستطع أبداً مطاوعة نفسه على تقبُّلها. لقد خسر كثيراً وغرق في تيه وحيرة، فالمسافة بين الماضي والحاضر بدت شاسعة.

وقتئذٍ شعر بتوتر من وصول مايكل وتيموثي الذي قد يعكِّر السكينة المفاجئة التي شعر بها؛ أن يكون مع فيفيان بمفردهما طوال اليوم.

لكن بعدما عاد مايكل إلى المنزل، وبعد أن استحمَّ دانيال وأخذ قيلولة طويلة، انزاح عنه القلق الذي شعر به. إنه شعورٌ جيدٌ أن يكون محاطاً بأناس لم يعهدوه كشخص مخيِّب للآمال.

بعد العشاء، وبعد أن استزاد طبقاً آخر من الحساء للمرة الثانية، ثم للمرة الثالثة، قال له مايكل: «أتود لعب البلياردو؟ هناك مكان في باي ريدج».

في قاعة البلياردو تناولا شراباً ولعبا بلياردو «الكرة الثامنة». بدأ دانيال بضربة الكسر وأخذ الكرات السادة (السولد) «عاودت التواصل مع أمي، بالمناسبة، تظن أمك أنه قد أُلقيَ القبض عليها في حملة من حملات الاعتقالات لهيئة الهجرة وزُجَّ بها في السجن، ومن ثم رُحِّلت؛ وذلك سبب انتهاء الأمر بها في الصين».

«ياللهول. هل سألتها عن ذلك عندما كنت تحادثها؟».

«لم أتحلَّ بالشجاعة لأفعل. بدا أنها لا تود التحدث عن الأمر». أشار إلى جيب جانبي وأخطأ التصويب «شكراً على أي حال، لقد ساعدتني في الوصول إليها».

«على الرحب! لا مشكلة! إذاً، هل ستتحدَّث معها مجدداً؟».

«سنرى».

انحنى مايكل إلى الطاولة مقترباً من عصا البلياردو الجديلة «الكرة الثانية عشرة للعاشرة.. جيب الزاوية»، وأحسن التصويب.

مدحه دانيال: «أنت جيد، كيف تعلمت اللعبة بهذه الطريقة؟».

«ألعب كثيراً مع أصدقائي. بعضهم يحب المقامرة، لكنني لا أفعل. صحيح، أتذكر وظيفة مساعد الأبحاث تلك التي أخبرتك عنها؟ ملأت النموذج، وقرَّرت استكمال المشروع الذي رغبت فيه، ذاك الأكثر خطورة، أظن أن عليَّ أن أشكرك على ذلك».

كان هناك ألعاب فيديو عبر الغرفة، لكن دانيال لم يرَ لعبة بوكر رقمية «تشكرني على ماذا؟».

«لقد ألهمتني».

«أنا لا أعلم أي شيء عن العلوم».

«أقصد، أنك تعزف الموسيقى، وأنت في فرقة رائعة، وتعيش مع أصدقائك في المدينة. أنا لا يمكنني حتى تكفُّل مصاريف الانتقال من شقة والدي إلا إن حصلت على هذه المنحة. يومياً عليَّ أن أذهب إلى المدرسة وأعود، وأمي تذيقني الأمرين إن تأخرت بالخارج، أما أنت بدلاً عن القيام بأمور رتيبة، فأنت حر».

بعد أن أسقط مايكل أربع كرات في جولة واحدة، استطاع دانيال إسقاط كرة سادة واحدة «أنا لست مصدر إلهامٍ لأحد، لقد طُرِدت من الفرقة، وأدين لصديقتي بعشرة آلاف دولار، وهي لمّ تعد تتحدث إليَّ بعد الآن، كما أنني طُرِدت من الكلية».

«طُرِدت؟ لماذا؟».

«أتدري ما كنت تقول عن بعض أصدقائك أنهم يحبون المقامرة؟ أعتقد أنني على حالهم هذا». أنهى دانيال شرابه، وأخبر مايكل عن إدمانه للبوكر، وعن قصة طرده.

قال مايكل: «اللعنة! يؤسفني سماع ذلك».

«لقد كنت أريد المغادرة على أي حال».

«هل تنوي العودة؟».

«يريد مني والداي أن أنتقل إلى المدرسة التي يعلِّمان فيها، شمال الولاية».

«وأنت... أتودّ ذلك؟» اللطف في سؤال مايكل منح دانيال إحساساً بحالة تكرار الحدث (الديجافو).

«لا. مع أنه في بعض الأحيان يبدو أنه ليس لديَّ خيار».

عدَّل مايكل ساعة يده «أتذكر كيف كنت بعد أن غادرت والدتك، ظننت أنها رحلت بسببك. لقد لمت نفسك على ذلك».

«لقد كنت طفلاً، لم أكن أعرف ما الذي يحدث».

ضحك مايكل قليلاً قائلاً: «أعلم أن ذلك حدث منذ وقت طويل، لكن كل ما أودُّه أن تكون بخير، وإن لم تكن بخير، فأظن أنه لا بأس أيضاً بذلك».

أجابه: «أنا بخير»، كما لو أنه يعلم ما إن كان ذلك حقيقيّاً.

قال مايكل: «أفتقدها، أمك أعني، لقد كانت دوماً لطيفة بحقٍّ معي».

التقط عصاه وتأمل الطاولة «الكرة الثامنة، الجيب الجانبي». انحنى دانيال أمام الحافة، محاولاً تشتيت انتباه مايكل من إحراز ضربة الفوز، لكن مايكل أسقط الكرة في الجيب وصاح دانيال، ضارباً كفه بكف مايكل.

كانت الشقة هادئة، الجميع نائمون عدا دانيال، الذي كان ينام على أريكة غرفة المعيشة. نظر إلى صورة لمايكل بقبعة وعباءة التخرج في الثانوية، معلَّقة في إطار على الجدار فوق التلفاز، وتيموثي يقف قبالة خلفية زرقاء. لدى بيتر وكاي واحدة كتلك في غرفة المعيشة، لدانيال في الوسط، ملتقطة في أعياد كريسماس سابقة في جي سي بيني بمركز ليتل تاون التجاري. لقد علقوا صورة له من تخرجه في المدرسة الثانوية أيضاً.

في الرف السفلي من كابينة أسفل التلفاز، وجد دانيال مجموعة من ألبومات صور. سحب أحدها وقلَّب صفحاته، ورأى صوراً لزواج فيفيان وتيموثي، وصوراً باهتة لأناس لم يعرفهم. تيموثي الأكثر شباباً برأس يكسوه الشعر. لقد عرف أنه لن يجد أي صورة لنفسه بينهم، لكن ظل ينظر إلى هذه الألبومات؛ يتصفَّحها ويقلب فيها واحدة تلو الأخرى، كما لو أنه ينتظر أن يرى في الصفحة التالية صورة لديمينغ.

الفصل الثالث

المنحدر

- 13 -

«إذا رسمنا منحنى العرض ومنحنى الطلب على الرسم البياني ذاته، يمكننا أن نرى أنهما في سوق فعالة، يتقاطعان عند قيمة التوازن وكميته». يضغط البروفيسور نيكولز على زر فيظهر برنامج الباوربوينت؛ يعرض رسماً بيانياً بالأسود والأبيض. خمسون طالباً جالسون على طاولات طويلة مصطفة على هيئة مدرَّج مرتفع خلف قاعة بيترسون، غالبهم متابعون على حواسيبهم المحمولة، وعديد من نوافذ المحادثات تنتشر على شاشاتهم كبعوض جائع، وفتاة منهم في الخلف واضعة سماعات الرأس؛ ولا تأبه حتى لإخفاء ضحكتها بينما تشاهد فيلماً على التابلت الخاص بها.

والبروفيسور نيكولز يُكمل حديثه: «نطلق على هذا (ق) و(ك)، على التوالي»، يجدل نهاية شعره الرمادي مصففاً على هيئة ذيل حصان. جلس دانيال ويلكنسون في الصف قبل الأخير، إلى يمين آمبر بيتبرغر؛ يشاهد الفتى أمامه يلعب لعبة البوكر على الإنترنت. كانت رقبة الرجل وردية، ويجلس وظهره مشدود. ظل يقامر ويخسر في سوء حظ بالغ، ولم يستطع دانيال إشاحة ناظريه عنه، فالبرنامج الذي منعه من اللعب كان لا يزال قيد التثبيت على حاسوبه المحمول، وهو لم يرَ لعبة منذ أشهر، وغير قادر على التحمُّل أكثر من ذلك

ـ ظهرُ الشاب أمامه كان قريباً منه جداً؛ بحيث كان يمكنه لمسه ـ انحنى حتى أصبح متدلياً بنصف جسده فوق الطاولة. كان الفتى يرتدي سماعات رأسه، لكن دانيال استطاع سماع صوت البطاقات بالضبط وهي تخلط، برونز واضح نحاسي اللون. انحنى دانيال أكثر، وهمس «مهلاً»، فالتفتت إليه آمبر ودانيال يقول للرجل «لا تفعل»، بينما يحوم إصبعه فوق زر الرهان على ثمانية سباتي وثلاثة قلوب. صاح دانيال بصوت مرتفع: «تباً» حينما نقر الشاب على الزر.

التفت الشاب حوله، وأذناه حمراوان، مستهجناً بصوت مهموس: «اللعنة، ما هذا بحق الجحيم؟».

قال البروفيسور نيكولز: «أهناك مشكلة بالأعلى، أيها السادة؟». تراجع دانيال إلى مقعده. نظرت إليه آمبر وقالت متهكمة: «ماذا كان سبب ذاك؟».

بعد أربعة أشهر في نيويورك، بدت ريدجبورو أصغر وأكثر ضحالة وأبعد كثيراً. بدا المراهقون في دانكن دونتس أصغر سناً مما كان يبدو عليه وهو في مثل عمرهم، ومحل «فود ليون» بممراته الرحبة الفارغة وموسيقاه القديمة التي تميزها آلات النفخ، قد خيَّمت عليه الكآبة. كان هناك كثير من الحبوب، كثير من العلامات التجارية لمعجون الأسنان، رغم قلة تعداد الناس. كان بإمكانك حرفياً رؤية عشبة تتدحرج على الأرض مطبوعة أسفل قاع الصودا ورقائق الشيبسي.

كان فصل الصيف موسماً دراسياً لأربعة أشهر مضغوطاً في ستة أسابيع، وكان يواظب على الدروس طوال أيام الأسبوع من التاسعة للخامسة، وكانت كاي تقول له: «تدريب جيد للحياة العملية»، وكان دانيال يشعر بأنه ملتصق بالأرض، وعليه أن يتعلم كيفية المشي من جديد. لعله كان يغفو في الصف، وينتفض وهو نائم، قلقاً حيال أغنية سايكيك هارتس والهتافات التي كان نيت يتلقاها، والتي كانت من المفترض أن تكون له هو.

في الخامس عشر من مايو، غادر المدينة عند الفجر، ووصل إلى ريدجبورو بالضبط في الوقت المحدد ليقابل العميد. تلك الليلة بينما لعب نيت ورونالد

زملاء هاتش ودانيال، اعتذر دانيال لبيتر وكاي. أجابه بيتر: «لا يمكنني أخذك على محمل الجد حتى تفعل أنت ذلك وتكون جادّاً أولاً مع نفسك». تأكدت كاي من فرصة دخوله في صفين؛ في قسميها هي وبيتر: سياسات مقارنة ومبادئ علم الاقتصاد الجزئي. ثماني ساعات يوميّاً من المحاضرات؛ تشعرك بأنك في معزل، وشعر دانيال أنه مضطهد، لكن أيضاً عليه الالتزام، وعلى مستوى أشمل فقد كان الأمر يصب في مصلحته في النهاية؛ مثل الذهاب إلى طبيب الأسنان أو الإمساك بالباب لغرباء متثاقلي الخطوات وأنت في عجلة من أمرك.

بعد محاضرة إيكون، آمبر بيتبرغر التي اعتاد الجلوس خلفها في صف الأستاذ لومبكين بالصف السادس، سارت معه بعد الظهيرة في جو يونيو الحارق. شعر بوخز في عينيه جراء الشمس المنقضة عليهما، بعد صباح طويل داخل قاعة المحاضرة التي تخلو من النوافذ؛ بينما تبدو المكيفات دوماً معدة على درجة 55 فهرنهايت، أي 17.5 مئوية. خلع قميصه الثقيل ومشى عبر ساحة الكلية كاشفاً ذراعيه، مرتدياً قميصاً لفرقة ميلانكوليا ريكودرس مطبوعاً عليه صورة لشمام على طاولة مستديرة.

سألت آمبر: «ماذا كان ذاك؟».

«هذا الرجل كان يخسر بشدة. أردت المساعدة»، بحث دانيال عن هذا الشاب بعد المحاضرة، لكن أضاعه في الزحام عند مغادرة قاعة بيترسون.

قالت آمبر في صوت أجش متفائل: «سوف تذهب جماعتنا إلى بلاك كات يوم السبت لاحتساء مشروب»، لا تزال تعيش في منزل والديها، ولا تزال تتسكَّع مع أصدقائها من المدرسة الثانوية، وكانت ترتاد صفوفاً صيفية حتى تتمكن من إنهاء الكلية في ثلاث سنوات.

«يبدو ذلك ممتعاً». يوم السبت سوف ينضم دانيال إلى آمبر وكلسي أورتمان وأصدقائهما الآخرين لاحتساء الشراب في واحدة من الحانتين الوحيدتين اللتين تحملان أسماء الحيوانات في الشارع الرئيس لليتل تاون؛ أسفل التبَّة من حرم جامعة كارلوف، ذا بلاك كات وذا سبوتيد كاو. بعد أسبوع، كان هناك

حفلةٌ خارج الحرم، شبيهة إلى حد كبير بالحفلات التي ارتادها في بوتسدام؛ أشخاص بيض يرقصون بشغف على أنغام هيب هوب مبتذلة في منزل متداع، وقِرَب من الشراب، وشباب يصرخون في قُبُّعات بيسبول، وشخص ما يتقيأ على مرج الفناء الأمامي.

«لديهم عرض حي هناك يوم الخميس. ألم تقل إنك كنت تعمل في مجال الموسيقى في المدرسة الثانوية، مع رولاند فوينتيس؟»، لفظته آمبر فين تيز: «ألم يكن يرسب في المدرسة الثانوية، ذا الشعر الأخضر؟ وكان يضع كحلاً».

«اعتدت عزف الجيتار. لقد كان لدينا بعض الفرق وقتها».

كانت آمبر فتاة بيضاء ذات شعر أشقر يكاد يبدو شفافاً تحت أشعة الشمس «يجب أن نستمع إليك في عرض حي قريباً».

رد عليها دانيال: «بالتأكيد، هذا يبدو جيداً»، مع أن ذلك كان آخر ما يرغب في القيام به.

في وقت العشاء، وهو برفقة كاي وبيتر، قال بيتر: «سوف يكون صف هاري بداية جيدة لك في عالم الاقتصاديات؛ وأساساً راسخاً لمستقبلك. ثمة عديد من الطرق التي قد تثري حياتك من خلال معرفة النظريات الاقتصادية، بدءاً من تحديد ميزانيتك، وصولاً إلى معرفة كيفية إدارة محفظة أوراقك المالية، لو أنهم جعلوه صفّاً إلزامياً لكل الخريجين!».

سألته كاي كيف كانت حصة ميليسا يومها. ميليسا هي البروفيسور شينكمان؛ امرأة مكتنزة اعتادت ارتداء أثواب طويلة بنقوش تعود إلى الثمانينيات، أشكال هندسية متداخلة في ألوان وردية صارخة مع اللافندر. تذكَّر دانيال أنه كان يذهب إلى منزلها وهو طفل، في حفلات شواء صيفية مع أعضاء أسرة الكلية الآخرين.

«جيد»، أجاب دانيال، فدائماً ما كانت البروفيسور شينكمان تتصل به كنوع من المعروف لكاي، لتتأكَّد أنه سدد مصروفات دراسته.

كانت وجبة العشاء تتألف من بروكلي ودجاج بارميزان. على الأقل بذلت كاي جهداً في معرفة الطعام الصيني، وذلك الجهد الذي يظهر من فترة إلى أخرى، منذ أن زارت هينينغس وأعطتها إلين كتاب طبخ، وفي وقت آخر عندما ذهب إلى مخيم لمدة أسبوع للأطفال الصينيين المتبنين؛ حيث يشرف مستشارون في عمر الجامعة، وأيضاً متبنَّون، تحدثوا بمشاعر مجردة بحيث شعر بالخجل لأجلهم، ولقد تعلَّمت آنجل وقتئذٍ كيف تصنع وونتون لذيذاً على نحو عجيب ذاك الصيف، لكنه كان الطفل الوحيد هناك الذي كان متبنّى على كبر عمره؛ الوحيد الذي يذكر كل شيء عن أمه الحقيقية.

أصبحت كاي قلقة دوماً، جزعة حياله بشكل مبالغ فيه، وعرف أنها كانت تقلق عليه عندما كان يخرج للشراب، لذلك كان حريصاً على العودة إلى المنزل عند منتصف الليل، ولم يكن هذا صعباً، لقد كان هناك كثير من الوقت يستطيع أن يتحمله وسط آمبر وأصدقائها، وكان بمقدوره رؤية كيف أن هذا يريحها، بل كل ما لزم ليجعلها سعيدة هي وبيتر أن يعود للمنزل وأن يذهب إلى كارلوف، وأن يقول إنه يذهب إلى جلسات علاج إدمان المقامرة.

بعد العشاء دعا بيتر دانيال إلى المكتب بأعلى؛ حيث كان منكباً على السجادة محاطاً بفوضى من كابلات الحاسب، ويصفِّر بهدوء.

رفع بيتر نظارة القراءة متسائلاً: «أين يتوجَّب عليَّ وضع هذا؟».

«دعني أساعدك!»، أخذ دانيال الوصلة وحاول في عدة فتحات حتى ومض ضوء أخضر في مكبِّرات الصوت.

«حسناً، فلتجلس!»، أزال بيتر بعض الفواتير القديمة من على كرسي قابل للطي «انظر إلى ذلك، يمكنك سماع كل أنواع الموسيقى مجاناً من الإنترنت. لقد شاهدت في يوم ما، صورة من حفلة موسيقية حضرتها في عام 1978. إيروسميث في ساحة الحرب التذكارية في سيراكيوز. لقد كنت في الحادية والعشرين من عمري. أيمكنك أن تتخيَّل ذلك؟ حفلة موسيقية تذهب إليها اليوم يمكنك مشاهدتها على الإنترنت بعد أربعين سنة؟

لقد كان هذا الشيء الوحيد الذي قاله بيتر منذ أشهر لا يتعلَّق بالمحاضرات «هل هذا ما نحن على وشك مشاهدته الآن؟ أيمكنك رؤية نفسك من بين الجمهور؟».

«لا، يمكنك رؤية المسرح فقط، وبالكاد حتى ترى المسرح. التكنولوجيا كانت بدائية وقتئذٍ». ضغط بيتر على زر التشغيل، مستكملاً: «لكن استمع إلى هذا الجزء».

لقد كانت صورة فيديو لتسجيل فعلي يدور بينما يعزف أغنية جيمي هندركس 1983... «حوري الماء الذي ينبغي لي أن أكون»، جلس دانيال وبيتر على كرسيهما واستمعا بينما تباطأ مسار الموسيقى حتى انقطع تماماً ثم عاد مجدداً؛ تزحف متثاقلة. قال بيتر: «هذا شريط على الطراز القديم، بنمط هادئ، لم يحتاجوا إلى حواسيب لإنتاج موسيقى جيدة في هذه الأيام».

«إنه مقطع صوتي جيد، أبي، واحدة من أفضل ما قدَّم».

«لقد اعتدت سماع هذه الأغنية عندما كنت صغيراً، في عمرك عندما أتيت للعيش معنا في ريدجبورو، وكان لديَّ بعض التسجيلات لأخي الكبير تركها عندما ذهب إلى الجامعة. اعتدنا تقاسم غرفة واحدة، وبعد أن رحل جلست على سريره وأخذت أستمع إلى تسجيلاته، حيث تذوَّقت الموسيقى لأول مرة، عمك فيل. يقال إنك تظل ولعاً دوماً بأول موسيقى تسمعها. مثلما فعلت مع هندركس».

«استمعت إلى الموسيقى قبل هندركس» لقد كانت المدينة تصدح بالموسيقى المتنوعة، وحتى هندركس، بدا نوعاً ما طفوليّاً بالنسبة إلى ما هو عليه الآن. لقد آل حال الموسيقى الآن إلى بريق أجوف، وصدى صوت ونغمات جرسية صاخبة. تغير في المفاتيح كما تطل الشمس عبر الغيوم. قال دانيال: «أنا أعمل الآن على بعض الموسيقى الجديدة. أحاول، على الأقل. سوف تعجبك. كلمات مجردة مع أنغام الجيتار، دون حواسيب. إنها حقّاً مختلفة عمَّا كنت أعمل عليه أنا ورونالد».

ربت بيتر قليلاً على كتف دانيال؛ قائلاً: «أنا سعيد أنك عدت إلى الكلية. سعيد أنك عدت إلى المنزل».

كم كان من السهل أن تجعل بيتر يشعر بالفخر، لكم كان يتوق دانيال لإرضاء بيتر.

«أعلم».

في محل فود ليون؛ يحضر بعض الخضراوات لكاي، سمع صوت «مرحباً ويلكنسون!»، ورأى كودي كامبل في زي محصِّل المحل؛ يلوِّح له من نقطة استلام البضائع. بدا كودي أكثر ترهلاً مما كان عليه في المدرسة الثانوية؛ فلقد كان يلعب كرة القدم، ولا يزال ضخماً، لكن عضلاته تحوَّلت إلى شحوم.

ذهب دانيال إلى خط كودي لاستلام المشتريات «إنه أنت يا كودي!».

«سمعت من آمبر وكيلسي أنك عدت إلى المدينة. اعتقدت أنني قد أراك بالجوار».

«كيف آل بك الأمر الآن؟».

سجَّل كودي كيس فاصولياء مجمَّدة وهو يقول «الوضع كما هو عليه. لعلِّي أذهب إلى كولورادو قريباً. لي صديقان هناك، وسيذهب معي برايان ميتشل ومايك إيفانز. أخو مايك يعيش هناك، ويقول إنهم صرحوا بتداول الحشيش، ويمكنك الدخول إلى محل وشراء المأكولات المخدِّرة هناك، كما لو كنت تدخل إلى بقالة. يمكنك شراؤها ببطاقة ائتمانك ثم تنتشي، بهذه البساطة».

«حقّاً. كولورادو إذاً؟».

«نعم، هل ستأتي إلى بلاك كات غداً؟».

قال دانيال: «سأكون منشغلاً في الغالب».

الليلة التالية رن الهاتف الأرضي وردَّت عليه كاي من الطابق العلوي: «المكالمة لك، دانيال». لقد كان ينظر في ملاحظاته لصف بروفيسور شينكمان. مهمتهم النهائية، ثلاث مقالات قصيرة، كانت مطلوبة غداً، وهو لم

يبدأ بها بعد. حينما حاول تأديتها انتهى به المطاف أن يبحث في جوجل عن سايكيك هارتس، وتلك الطريقة التي عرف من خلالها أنهم كانوا سيلعبون في جوبيتر في نهاية أغسطس.

رد على الهاتف من غرفة المكتب.

«مرحباً، إنه أنا كودي. أترغب في احتساء الشراب؟».

«نعم، لكن ربما في ليلة أخرى».

كان دانيال على وشك إنهاء المحادثة عندما قال كودي: «مهلاً، ألا تزال تدخِّن؟».

لقد قادا السيارة حتى وصلا إلى بركة أسفل شارع سيدار؛ حيث اعتادا الخروج في ليالي الصيف في المدرسة الثانوية. قاد كودي سيارته إلى الخلاء عند حافة الغابة وأوقف السيارة.

سأله دانيال: «ألا تزال تعيش مع رفاقك؟»، بينما كان يمرِّر وعاء شراب بينهما ذهاباً وإياباً. لم يستطع رؤية أي شيء بالخارج؛ الظلام حالك، والصمت موحش، فتح الراديو، ليستمع إلى محطة روك كلاسيكية.

حلَّقت فرقة بيرل جام في أجواء المكان.

«نعم، لكن..» أشعل القدح؛ مستطرِداً «سأرحل قريباً. سوف أُنتشل نوعاً ما».

تجرَّع دانيال جرعة أخرى. مرت بضع لحظات، وحل ذاك الإحساس الضبابي المألوف الذي يُشعِر بالسعادة، واستلقى على الكرسي الخلفي؛ يفكر في أن عليه شراء حشيش من كودي ويصل إلى أعلى درجة ممكنة من الانتشاء «من أجل كولورادو».

«حسناً، عليَّ الحصول على مال نقدي من أجل.. أنت تعلم؟ أنا أدين بدين ما يجب عليَّ سداده، لكنني أعمل على ذلك».

«أدين أنا الآخر ببعض المال لأحدهم».

«تبّاً يا رجل! اللعنة على الديون». شرب كودي جرعة أخرى. اختنقت السيارة بالدخان، فأخذ يحاكي أنغام أغنية «حفلة في الولايات المتحدة» متغنِّياً: «دخان في سيارتي». صوته لم يكن سيئاً.

«جيد. ربما ينبغي لك تسجيل ألبوم. رونالد وأنا سجلنا ألبوماً منذ أسابيع، بهذا التسجيل المشترك في المدينة. مالنخوليا؟ أتعرفها؟ سوف تقدم الفرقة، سايكيك هارتس، عرضاً في 18 أغسطس في نادي جوبيتر، هذا النادي هناك في المدينة».

قال كودي: «في كولورادو، هناك جبال في كل مكان. يمكنك العيش في جبل والذهاب تزلجاً للعمل. هذا ما سوف أفعله، أنا لا أعلم كيف يمكنك أن تتحمَّل قذارة نيويورك. من الجميل الاستمتاع بالحفلات فيها، لكنها تفوح برائحة الحمقى والمغفلين. على أي حال لا يمكنني العيش في إحدى هذه الشقق التي تكلِّف تسعة آلاف دولار شهرياً. أريد منزلاً في جبل ما. منزلاً كاملاً في جبل كامل لعين».

«الشقق لا تكلف تسعة آلاف شهرياً، هذا بالنسبة إلى المشاهير فقط. إذاً أين سوف تعيش؟».

«ماذا؟ لقد قلت لك، كولورادو».

«أعني في كولورادو، أين ستعيش هناك».

«في جبل! لقد قلت لك. أنت لا تنصت إليَّ. أين يعيش شقيق مايك. إنه يعيش في... لقد نسيت اسم المدينة. اسمه كريس».

«متى زرته؟»، لقد كان الأمر مضحكاً. أراد دانيال أن يخبر رونالد أنه يدخن مع كودي كامبل عند البركة نهاية سيدار، وأن يخبره أنه يذهب إلى إيكون كل صباح مع آمبر بيتبرغر، لكنه لم يتحدث إلى رونالد منذ أن طُرد من مكان البروفة، ورونالد لم يتواصل معه أيضاً، لكنه افتقده حقاً؛ افتقد تسكُّعهما في قطارات الأنفاق، وافتقد جلوسهما على أسطح المباني، وافتقد الغناء، حتى

ولو كانت العودة إلى ريدجبورو أمراً حتميّاً غير متوقع. لقد تغلب على الشعور الذي قد يراوده بأنه لا ينتمي إلى مكان بنفي نفسه إلى اللامكان؛ يقضي لياليَ رُواقية في سريره، أو يتصفَّح مجلات الأخبار مع بيتر وكاي.

«لم أذهب إلى هناك بعد، ويلكنسون، لقد رأيت صوراً فقط. لقد أخبرتك عن كسب المال كي أستطيع سداد ذاك الدين، لكنني أسعى لذلك، سأجد حلّاً مثلك. سوف نحقق أحلامنا، أليس كذلك؟». أمسك كودي بالغليون وهو يقول «أتريد المزيد؟».

«نعم، رجاءً».

رنَّ هاتف كودي بالزقزقة التي تصدر عن الشبكة أثناء استقبال رسالة «إنها من آمبر. تريد أن تعرف إن كنا نرغب في الذهاب إلى ذاك العرض الحي في حانة بلاك كات».

«لنذهب». أراد دانيال أن يكون برفقة أناس آخرين، حتى ولو كانوا آمبر وكيلسي، فتح النافذة وسمع أصوات صراصير الحقل والضفادع عبر الراديو. بدت الغابة مشؤومة، كنذير شرّ، في إحدى المرات بالمدرسة الثانوية قاد مايك إيفانز دراجة أخيه حتى سقط في البركة.

«هل أنت جاد؟».

«هيا، لا بأس! يمكنني شرب القليل».

اقتنع كودي بالفكرة «أنا عطشان نوعاً ما».

في الغرفة الخلفية لبلاك كات، المتجر الوحيد المفتوح وسط مجموعة من واجهات المتاجر المغلقة بألواح خشبية، يجلس أربعة رجال في منتصف أعمارهم يعزفون أغنية لغنز آن روزز «بارادايس سيتي». لوَّح لهما آمبر وكيلسي من على طاولة بالقرب من المسرح.

قالت آمبر: «لقد التقيتما معاً.. تفوح منكما رائحة قربة الشراب».

قال دانيال: «مثل كولورادو».

«كيف حال مذاكرتك لاختبارك غداً، ويلكنسون؟»

«أي اختبار؟» سكب دانيال لنفسه كأس شراب من الإبريق على الطاولة. بدأت الفرقة عزف جيتار فردي، والمغني الرئيس أصلع وممتلئ الجسم، بدأ بهز رأسه على طريقة الهيد بانك. ضحك دانيال «أداء هؤلاء الرجال سيئ للغاية».

ردت كيلسي: «ليسوا بذاك السوء».

«لا يكملون نصف أغنية في المدينة إلا وتتعالى صيحات الاستهجان من الجمهور لينزلوا من على المسرح».

عقب رودي: «لا بأس بفرقة غنز آن روزز» وهو يحاكي طريقة عزف الجيتار بتعابير جدية وحركات جيتار هوائي. أصابعه لم تكن حتى في المواضع الصحيحة للفريتس والأوتار. «أنت في الأدغال الآن! لا آبه إن كانوا سيئين. لا آبه لذلك».

صاحت كيلسي: «يا إلهي، كأنكما توأمان!».

نظر دانيال إلى أسفل، لقد كان يرتدي حذاء التنزُّه، حتى في منتصف الصيف، لأنه لم يكن يملك أي حذاء آخر، وكان كودي يرتدي زوجين مماثلين أيضاً. كلاهما كان يرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصاً أسود.

قال آمبر: «كأنك نسخة صينية من كودي»، فانفجر الجميع ضحكاً.

التقطت كيلسي صورة بهاتفها. قال كودي، بلثغة مصطنعة: «لقد اخترنا ملابسنا معاً».

صاح المغني بنبرة عالية. على الأقل بدت الفرقة كما لو أنهم يحظون ببعض المرح.

عاد إلى المنزل في منتصف الليل، تلاشى الطنين الطويل الذي كان لديه، واضطجع أعلى اللحاف الزغبي ذاته الذي لطالما كان موجوداً هنا منذ أن

أطلق عليه اسم دانيال. تلك الشهور الأولى في ريدجبورو كانت مريبة، يتنازعه إحساس داخلي بالشك في حقيقة ما يجري، مستكثراً ما يراه؛ يشعر بالحسد من الرفاهية التي وجدها، لكن مع الوقت بات من السهل تقبل مجريات الأمور؛ واعتاد الأمر. لقد استشرت الشكوك عميقاً بداخله حتى أصبح بالكاد يشعر بها، في نهاية هذه السنة في المدرسة الثانوية، كان التفكير في ديمينغ أو أمه مثل تذكُّر فرقة سيئة كان قد أحبَّها مرة، لكن الآن تشعره بالحرج لمجرد التفكير فيها.

وفي مرةٍ واحدة فقط، في المدرسة الثانوية، باح ببعض ما كان بداخله بعد أن رأى امرأة صينية في مركز التسوق، باح ببعض ما كان بداخله. عندما أخبره كاي وبيتر أن عليه ألا يبرح المنزل ويدرس لاختبار الكفاءة الدراسية، بدلاً من الذهاب إلى مشاهدة فرقة مع رونالد، قال ديمينغ إن أمه الحقيقية ما كانت لتدعه يذهب. لقد خرجت هكذا، فجأة بلا أي مقدمات: أمي الحقيقية تعبير مجرد؛ من المحتمل أن أمه كانت لتجبره على ملازمة المنزل. لم يقصد إيذاء كاي وبيتر بهذا القدر، لكنه كان غضبان من الجور الواقع عليه، إذا فوَّت هذا العرض؛ فلعلَّه لن يشاهد هذه الفرقة مجدداً! عبست كاي وأخبرته أنها ليست نهاية العالم، وقال له بيتر: «نحن عائلتك الحقيقية».

كان لغز ما وقتها، حدث لعائلته الحقيقية أكبر من أن يحل، لكن الآن لقد وجدهم، ولم يتغير شيء.

عليه أن يسهر الليل حتى ينهي المقالات، شينكمان قد أعادت ورقته الأخيرة واضعة ملاحظاتٍ بالأحمر. طبع اسمه في مستند وورد فارغ، يتبعه التاريخ، أخذ مؤشر الكتابة يومِض بينما كان يقرأ السؤال الأول مجدداً.

ناقش نظريتين رئيستين تصفان الدور الذي تلعبه مجموعات المصالح في سياسات الولايات المتحدة. صف الرؤى التي يمكن لهذه النظريات تقديمها بخصوص منهجيات العملية التشريعية.

تنهَّد، لم يرَ الرجل الذي كان يلعب البوكر في صف إيكون مجدداً. قالت

آمبر إنه ربما ترك الدراسة، أغلق دانيال حاسبه المحمول وقرَّر إخراج جيتاره بدلاً عن ذلك. إلهام جديد كان يتشكَّل، ليس المقال الذي كان المفترض به أن يكتبه، بل أغنية كان يعمل عليها قبل أن يترك المدينة.

عندما عاد إلى كتابة المقال بعد ساعتين، رأى رسالة على البريد الإلكتروني من آنجل. لقد كان يرسل إليها الرسالة المعتادة، بيد أن هذه كانت المرة الأولى التي ترد عليه.

دانيال! رجاء.. توقَّف عن مراسلتي مجدداً! أرجو لك التوفيق!

آنجل

قرأها مجدداً. لقد كانت ترجو له التوفيق، فهذا دليل على أنها لا تزال تهتم لأمره، وإلا ما كانت لتزعج نفسها بالكتابة على الإطلاق. لقد تذكر صوتها المنخفض، الذي يخلو من كل صخب أو مشاعر جياشة، واشتاق إلى صخبها، إلى كمالها. كان سيظل يكتب لها حتى تتفهَّم، لأنه عند هذه النقطة، قد وصل إلى منحنى تغيَّر فيه، لقد خسر أمه ورونالد؛ أمور كان من المفترض أن تشعره بأنه عديم القيمة ومرفوض، ومع ذلك فهي لم تدمره.

كان سيفعل كل ذلك من أجل آنجل إذاً؛ المدرسة، والدرجات، والسيرة المهنية، ستُظهِر لها أن بإمكانه أن يعيد الأمور إلى نصابها، وسيكون عليها حينها أن تسامحه. ضغط على زر إعادة الرد، وكتب بخط يحمل الأمل:

سأبذل أفضل ما في وسعي من أجلك.

- 14 -

وجه البطاقة كان نقشاً بالأزرق الفاتح، مكتوباً عليه: «أبي العزيز، عيد أب سعيد.. مع حبي، دانيال».

طوى البطاقة ووضعها في المغلف، وبلَّلها محكماً غلقها، وكتب على الجهة الأمامية «أبي».

كاي كانت جالسة بالقرب من دانيال على طاولة المطبخ، قالت: «بما أنه عيد الأب وفي ظل هذه المناسبة كنت أفكر بشأن عيد الأم وكيف أنه يبدو غير مريح إلى حد ما. أقدِّر أنك تهدي لنا بطاقة معايدة دوماً، غير أن بإمكاني أن أخمِّن أن هذه ليست أكثر مناسبة مفضلة لديك أيضاً، أليس كذلك؟».

«لا أمانع».

«أقصد، عندما كنت أصغر سنّاً، اعتقدت أنني لا أستحق أن أحتفل بهذه المناسبة، كان هذا كل شيء. لا أعرف، أشعر بأنه تصنُّعٌ بالنسبة إليَّ أن أقوم بذلك كأم بالتبني. إلين هي من أخبرتني أن أتقبَّل الأمر. لم يكن ليفيدك البتَّة أن تحظى بوالدة تشك في قدراتها. لقد احتجت إلى أم، وإن لم أكن أمّاً، إذاً من أنا؟»، مررت كاي أصابعها على طول حافة الطاولة «كانت تلك الشكوك كثيراً ما تراودني حينما أتيت أول مرة للعيش معنا».

دفع دانيال طبق شطيرته الفارغ على الطاولة. كان بيتر بالأعلى في المكتب، وكان يفترض به الذهاب لقضاء بعض الوقت مع بيتر، فقد كان عيد الأب.

انتقلت عينا كاي من وجه دانيال صوب الجدار إلى نافذة المطبخ.

«لقد خشينا جداً أن نرتكب خطأ، اعتقدنا أنه من الأفضل إن غيَّرنا اسمك حتى تستطيع أن تشعر أنك تنتمي إلينا، إلى عائلتنا، وتشعر أنت كذلك أن لديك عائلة».

لم يعرف دانيال أبداً ما إذا كانت كاي تريد منه أن يعتذر أم يطمئنها، في كلتا الحالتين لقد شعر دوماً أنه متورِّط؛ كأنها تنتظر منه أمراً ما لم يكن يحقِّقه لها.

لم يشأ أن يراها تبكي، وبخاصة إذا كان الأمر متعلقاً به «أمي، لا بأس عليك».

قامت كاي، وسمعها تفتح درج خزانة في غرفة الطعام. عادت لتضع على الطاولة مغلفاً لمجلد مانيلا.

«ما هذا؟».

«إنها التسجيلات كافة التي لدينا بشأن تبنِّيك. المراسلات مع وكالة رعاية التبني، والنماذج التي ملأناها، كنت أنوي إعطاءها لك».

فتح دانيال المغلف وتصفَّح مجموعة من الأوراق، شاكراً إياها، لم يكن ثمة شيء هنا لم يره من قبل.

«لم يوافقني أبوك حيال فعل ذلك. لقد قال إن هذا قد يثير ذكرياتٍ سيئة، لكنَّني أصررت».

أخذ دانيال في فتح المغلف بثني مشبكه إلى الخلف والأمام، ثم قال لها: «لقد توصلت إلى بعض الأشياء في الحقيقة، وعليَّ أن أخبرك، لقد عثرت على أمي أخيراً؛ أعني أمي الحقيقية، إنها في الصين».

حكى لكاي أن أمه ذهبت إلى العمل يوماً ما ولم تعد إلى المنزل، وكيف

أن ليون رحِّل إلى الصين بعدها لمدة ستة أشهر. كيف أن فيفيان أمَّنت له رعاية تبنٍّ، وأن أمه ربما يكون قد تم ترحيلها.

جحظت عينا كاي كما لو أنها تعرَّضت للكمة.

وقال أخيراً: «لقد تحدَّثت إليها... مرتين».

«ماذا قالت؟ كيف كان الأمر؟»، كانت ابتسامة كاي ترتجف على صدغيها، لذا بدا تصنُّعها مؤلماً.

«لقد كان الأمر جيداً، مع أنه غريب بعض الشيء، وصينيتي ضعيفة جراء قلة الممارسة، لكننا تمكَّنا من الفهم المتبادل، إنها تعيش في فوزهو، متزوِّجة وتعمل مدرِّسة للغة الإنجليزية».

«هل ستتحدث معها مجدداً؟».

«ربما».

التقطت كاي المغلف وثبتَّته من أسفله على الطاولة، وأخذت ترتب الأوراق بالداخل، ثم قالت: «بالمناسبة، لقد تلقيت اتصالاً هاتفياً غريباً في الأيام الماضية، من تشارلز، صديق آنجل».

«حقّاً؟».

«قال إنك اقترضت مالاً من آنجل ولم تسدِّده بعد. سألته لمَ يتصل بي أنا حيال ذلك فأخبرني أنه يتوجَّب عليَّ سؤالك أنت عن هذا، لذلك أسألك».

حاول دانيال تبيُّن ما إذا استشعر اتهاماً ما في كلام كاي، ما إذا كانت لا تزال تفترض حدوث الأسوأ منه؛ إن كان دانيال الذي فشل أم دانيال الذي يحتاج إلى رعاية «لا بد أنها تتحدث عن هذه المرة التي تلاقينا خلالها في المدينة. لم يكن معي أي نقود وكان عليَّ اقتراض بعض المال من أجل العشاء».

«بدا الأمر أنه يتعلَّق بما هو أكثر من ذلك. بدا أن الأمر جديٌّ. ألم تكن آنجل تتحدَّث في حفلة عيد ميلاد جيم عن لص ما؟».

«ليس جديّاً، إنه يختلق الأمر».

«لكن لمَ يتصل بي صديقها ويختلق أمراً ما؟ وضِّح لي، رجاء!».

«لا يوجد ما يدعو للتوضيح. كل ما أعرفه أنه ربما يشعر بالغيرة مني ومن آنجل كوننا أصدقاء جيدين، بعض الأشخاص يتصرفون كذلك».

رأى دانيال، في ملامح كاي، المزيج نفسه من الألم والشك، مثلما حدث عندما علمت حيال طرده من بوتسدام، وقام آخذاً المغلف، قائلاً: «لكنك ذكَّرتني أنني نسيت أن أدفع دين آنجل. سوف أذهب لأدفعه الآن، على حاسوبي».

اجتاز كلا صفَّيه في الجزء الأول من الفصل الدراسي الصيفي؛ حاصلاً على جيد مرتفع في السياسات المقارنة وجيد جدّاً في علم الاقتصاد الجزئي، وتابع في الجزء الثاني بالإحساس نفسه من الكدر، في أوقات الصباح علم الاقتصاد الكلي، وفي أوقات المساء دورة تاريخ أمريكي، وفي أواخر يوليو ظهرت رسالة نصية منفردة من رونالد يسأله عن حاله. رد دانيال على الرسالة يهنئه على الحفل الحي بجوبيتر ويتمنَّى له التوفيق؛ تتردَّد في وجدانه أمنية آنجل له في بريدها الإلكتروني، والتي كانت مخادعة؛ إذ وشت لتشارلز عنه.

اقترض تلك الليلة سيارة بيتر الفولفو وقادها في الأرجاء بنفسه. لقد افتقد القيادة في أرجاء المدينة، وعجلة القيادة المتينة في راحة يده، ويده الأخرى حرة ترفرف خارج النافذة المفتوحة والهواء كثيف يرتطم بين أصابعه، والانزلاق الجانبي السلس بين الطرق المنحنية ذات الحارتين. تذكر القيادة عبر الليل مع رونالد في سنة التخرُّج، كل الطرق تؤدي إلى بوسطن يشربان قهوة في محطة البنزين ويغنيان معاً أغاني الأقراص الرقمية المدمجة. لقد كانا يقودان إلى بيت صديق لهما عندما قرَّرا الصعود على الطريق السريع ويواصلان القيادة متجهين ناحية الشرق؛ فلم يعد بإمكانهما تحمُّل يوم سبت آخر في ريدجبورو، وعندما وصلا إلى بوسطن حظيا بوجبة إفطار على العشاء؛ فطائر وافلز وفطائر محلاة وعجة غربية، وصباح شتاء مشرق مع هبات من الثلج. شاهد دانيال العدائين بأزيائهم الحرارية يعبرون الجسر عبر نهر تشارلز، وكان هناك طلاب جامعيون

يرتدون ستراتهم الصوفية وأوشحة؛ يحملون أكواباً ضخمة من القهوة. لقد تمنى أن يترك المنزل ويعيش بمفرده، تلك الحياة التي تنتظره فور أن يترك ريدجبورو. عندما يستطيع التحرر، بالطريقة ذاتها التي ظن مايكل أنه يعيشها بالفعل.

الآن يحلِّق عبر المدينة بلا أي وجهة محدَّدة؛ هاتفه متصلٌ بسماعات السيارة؛ ينتقل من أغنية إلى أخرى، ومن ألبوم إلى ألبوم، يملُّ من كل تسجيل موسيقي يستمع إليه بعد ثوانٍ معدودة. لقد سئم كل أغانيه؛ خمسة آلاف أغنية ولا يوجد ما يطرب أذنيه، ثم توقَّف صوت الموسيقى.

انعطف ناحية خط الطوارئ، إما أن بطارية هاتفه قد فرغت وإما أن الكابل انفصل ويحتاج إلى إعادة توصيله. أنزل النافذة وسمع طبقات من نقيق الصراصير؛ ففتح باب سيارته ومشى في الشارع. كان ثمة منازل على المدى، الضوء العرضي، ورقعة من العشب الطويل على الجانب ركلها بقدمه. اعتاد هو ورونالد أداء بعض الحركات البهلوانية بالدرجات على الطريق الترابي بالقرب من هنا، وقف ثابتاً في مكانه، يتأمَّل الليل.

لفترة طويلة جدّاً اعتقد أن الموسيقى هي الشيء الوحيد الذي يمكنه الإيمان به: التناغم واللحن الفرعي وقرع الطبول؛ عالمٌ ليس في الماضي ولا في الحاضر؛ مكان يسكنه طول أغنية. بالنسبة إلى أغنية لديها نبضها الوجداني، أغنية بإمكانها أن تمنحك دفعة أو تجرعك جرعة من السلوان. الموسيقى فقط هي ما كانت تمنحه شعورَ النشوة أكثر بكثير من الحشيش والكحول. مع رونالد أراد أن يملأ الصمت القابع داخل الآخرين، أن يحجب أفكارهم ويستبدل بها الصوت والنغم؛ بحيث لا يعد الأمر معنياً بالتواصل والتفاهم، بل بالاعتداء والعنف. هكذا كان يستلذُّها، إلا أن الوقوف في الشارع المظلم، أطلق كبتاً كان بداخله، وصراصير الليل عزاء على ندمه لتركه المدينة، وأنه قد أبعد أمه عنه قبل أن تتمكَّن من إخباره بالحقيقة.

معظم الليالي قضاها دانيال مستيقظاً. أدَّى واجبه، وكتب موسيقاه، واستخدم ميكروفونَ مكثِّفٍ قديمٍ لتسجيل عدة تسجيلات موسيقية على حاسوب بيتر،

الذي يعمل بنسخة مقرصنة من برو تولز أسرع من حاسوبه. الأغاني التي كان يكتبها لم تكن تشبه أياً من الأغاني التي كان يعزفها هو ورونالد. لقد كانا يفتقران إلى الهيكلة؛ لم تتلاءم أغانيهما بطريقة يمكن التنبؤ بها. لقد كانا مجرَّدين تماماً؛ يفتقران إلى العمق؛ سطحيين تماماً. حرصا فقط على أن يكونا رائعين. هو نفسه لم يعد يرغب في عزف موسيقى تفرض نفسها عليه، أو تحاول أن تكون شيئاً ليست عليه، ولم يكن التحدي يكمن في المبالغة، بل أن تكون صادقاً ومجرد الإحساس، في الصف ألَّف كلمات أغانٍ بينما كان البروفيسور نيكولز يدندن حول المتغيِّرين إكس وواي. كان شعوره كما لو أنه ينفض الغبار عن زجاج سيارته، وأن الضباب قد ينقشع عن نور أبلج.

في نهاية خزينته وجد كومة من أشرطة الكاسيت، أحدها كان ذا ملصق مكتوب عليه بقلم تحديد «هوس الموتى: عقول على مسمار!!!» تذكر تسجيله في مسجل شرائط والدة رونالد يوماً ما في وقت الظهيرة. كان في سنته الأولى في ريدجبورو، كلاهما حزين لتسجيلهما موسيقى مدعومة بخلفية موسيقية من ثلاثة أوتار قد حمَّلها عبر الإنترنت، وضع الشريط في مغلف مبطن مع ملاحظة تقول: «تذكَّر عندما اعتدنا عزف الموسيقى؟»، وأرسله إلى شقة رونالد.

لقد كان عند كودي مساء يوم الجمعة من شهر أغسطس، في قبو عائلة كامبل، يشاهد مصارعة فنون القتال المختلطة. كان كودي الشخص الوحيد الذي يتحدَّث إليه هذه الأيام، بجانب بيتر وكاي. لم تكن آمبر تحضر أي صفوف لبقية الصيف، وقد سافرت لزيارة أسرتها في كونيتيكت.

انتهت المباراة، وفاز الرجل ذو البنطال الأحمر؛ يقف فوق الجسم الخائر للرجل الآخر ذي البنطال الأسود؛ والدم يكاد ينفجر من وجهيهما. حوَّل دانيال التسجيل الموسيقي الذي أتقنه من حاسوب بيتر إلى هاتفه الشخصي: «أترغب في سماع شيء أعمل عليه حالياً؟».

ألقى كودي نظرة خاطفة.

«هلا تخفض الصوت لثانية واحدة؟».

«انتظر»، انتظر كودي ليرى إذا كان مذيع المباراة سيعقِّب بشيء مهم، وعندما انتقلت القناة إلى الإعلانات، كتم صوت التلفاز.

أخرج دانيال هاتفه. سمع النوتة الأولى المألوفة؛ الجيتار، وصوته، وصوتاً معدنيّاً ونغمةً أحادية على سماعة الأذنين. كانت جودة الصوت رديئة لاستيضاح معظم الكلمات.

سأله كودي: «أهذا أنت؟».

«نعم»، لم تحتج الأغنية إلى أي تغييرات أخرى أو إعادة كتابة. لم يهم إن كان قد أداها من قبل أم لا. لقد كانت بالضبط كما أراد لها أن تكون.

قال كودي بعد أن انتهت الأغنية: «لقد تغيرت، ويلكنسون».

«كيف ذلك؟».

«في المدرسة الثانوية، لقد كنتَ مثل..»، حدَّب كودي ظهره، وقرَّب ما بين كتفيه ناظراً إلى الأسفل ناحية السجادة؛ مكملاً: «بالكاد كنت تتحدث الإنجليزية، كما لو كنت تقول: «لكم عني» بدلاً من «إليكم عني»، الآن أنت أمريكي صرف تتحدث اللكنة الأمريكية بطلاقة».

«ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟ لقد كنت أتقن الإنجليزية».

«أكنت تدعو ذلك إنجليزية؟».

«إليك عني كودي، خسئت!».

قال كودي: «تحتاج إلى عازف طبول»، بينما يتجه دانيال ناحية الباب.

«مثل هؤلاء الأشخاص في عرض بلاك كات الحي. لقد أتحفونا!».

لم يستطع النوم؛ فقرَّر أن يجلس في الشرفة. ينظر إلى هاتفه، ولمح مغلف مجلد مانيلا الذي أعطته إياه كاي، فأمسك به ثم ذهب إلى الخارج. اطَّلع على النسخة المطبوعة من التقرير العام للإدلاء بالشهادة أسفل ضوء الشرفة، حيث يخطِّط الآباء بالتبني لرفع عريضة لإنهاء حقوق أبوية الأم على أساس الهجر.

قلب المغلف رأساً على عقب وهزَّه بقوة، حتى سقطت بقية المحتويات على حاسوبه المحمول.

لقد كان هناك نموذج التنازل، بتوقيع فيفيان.

المكان: غير محدد. نموذج آخر وقعته؛ يصادق على وضع أبويه بالتبني. لقد كان هناك مغلف أصغر كذلك، مدسوس بين الأوراق، يحتوي على نسخة طبق الأصل من درجاته من مدرسته الابتدائية 33. لقد حصل على درجة جيد ومقبول في الصف الخامس، وملاحظة من معلميه، الأستاذة ترولي، التي قالت إنه يحتاج إلى دروس تقوية، وملاحظة أخرى تقول إنه دخل غرفة الاحتجاز في 15 فبراير، لقد زوَّر توقيع أمه في مكان التوقيع وأهمل إعادته إلى المدرسة بعد اختفائها.

كانت هناك صورة بالأبيض والأسود له ولأمه؛ مثبتة بمشبك ورقي إلى النماذج، نصف الصورة من الأسفل رسمة مطبوعة لمبنى المقاطعة الملكية، وتمثال الحرية، وسيارة أجرة صفراء تقودها زرافة بعين جاحظة، مع عنوان لجنوب شارع الميناء.

لقد كان طفلاً ذا خدين ممتلئين، وشعر مموَّج داكن، وكانت أمه كذلك ذات مظهر يبدو طفولياً؛ أصغر مما يتذكرها، لقد كانت الصورة الطفولية الوحيدة التي رآها لنفسه، الصورة الوحيدة التي كانت لديه لها.

لمَ لمْ يعطياه بيتر وكاي إياها من قبل؟

قرَّبها من وجهه، متصوِّراً فيفيان وهي تحزم ملابسه؛ واضعة نموذج الاحتجاز، متصلة بالمدرسة لنسخه المصورة، مفتِّشة عبر أغراض والدته تبحث عن صورة لها لتضعها له في كومة الأوراق تلك كي يحظى بها كتذكار عن والدته، وضعتها كلها في مغلف وسلَّمته للخدمة الاجتماعية، لكن هل فعلت فيفيان هذه الأشياء، أم كان ليون، أم كانت أمه؟ هل كان لها يد في ذلك؟ لقد وضع كل الاحتمالات وراودته كل الظنون، والدته كانت في السجن، ولقد رُحِّلت. لقد أحبته، لكنها لم تهتم به. كان بإمكانه تخيُّل الشيء ونقيضه، فحوى

الملاحظة نفسها قد يختلف حسب ما ترغب في فهمه، في استطاعتك تجربة إحسان الظن، ولكنك لا تزال تشعر بخطأ ما بداخلك.

لقد وجد رقمها، لا يزال في هاتفه، واتصل بها لآخر مرة، لكنها لم تجِب.

في اليوم التالي سجَّل لصفوف فترة الخريف التي اقترحها بيتر وكاي، وعندما قالت كاي: «لقد سدَّدت دينك لآنجل، أليس كذلك؟» أخبرها أنه فعل.

احتفالاً بإنهاء دانيال للصف الصيفي باجتياز درجات النجاح، اصطحبه بيتر وكاي إلى العشاء خارجاً في مطعم ريدجبورو إن؛ حيث ذهب ثلاثتهم حينما تخرج في المدرسة الثانوية، وحين صدور كتاب كاي، ووقت ترقية بيتر لكرسي رئيس القسم بعدما تقاعدت السيدة فاليري ماكليلان. كان مطعم إن كهفاً مضاءً بشكل خافت بعوارض خشبية ونُدُل مبتذلين كبار في السن يرتدون أزياء للاستعمالات الشاقة ذات لون كستنائي وذهبي، وقائمة طعام متماثلة من اللحوم والضلوع وحساء البصل الفرنسي في خط مزخرف ومخطوط. لقد كان المطعم الوحيد بالقرب من ريدجبورو، حيث لن تبدو غريباً فيه وأنت ترتدي سترة وربطة عنق.

طلب بيتر زجاجة شراب. ملأ النادل كؤوسهم، ورفع بيتر كأسه: «نخب دانيال، من أجل عودته إلى المسار الصحيح نحو بداية جديدة لحياتك المقبلة».

اقترض دانيال ربطة عنق من بيتر وارتدى السترة الوحيدة التي لديه، فالأكمام الآن أقصر عليه، لكن الأكتاف فضفاضة. ظل يضبط ربطة العنق، ويسحب الأكمام إلى أسفل، حتى بنطاله كان أضيق عما كان عليه منذ أشهر مضت؛ فالآن صار يقود بدلاً من أن يمشي.

كان المسار الصحيح ينحرف إلى جانب الهاوية، وكان وجها بيتر وكاي يضيئان فرحاً، وقالت كاي: «نحن فخوران بك».

نفخ في حسائه ليبرِّده، وأمسك بملعقته لكسر الخبز بالأعلى. تصاعد بخار الأكل؛ ولا يزال ساخناً لأكله، وضع ملعقته على الطاولة؛ وجهها المستدير يلمع في وجهه كأنه تساؤل.

كان النادل يحوم حولهم؛ يعرض فلفلاً لسلطاتهم، والشموع الصغيرة متلألئة على الطاولة، لكن ورق الحائط الكستنائي والستائر السميكة جعلت الغرفة باردة ومظلمة، وهناك لوحاتٌ مع إطارات الباروك النحاسية معلَّقة على الحوائط، لصور رجال في الأزياء العسكرية، وامرأة بثوب طويل؛ تعابير وجوههم قاطبة وحادة، وكذلك مناظر طبيعية لتلال متموِّجة وشجر صفصاف يوحي بالحزن، وبيوت ريفية بيضاء على المدى.

حدَّق بيتر شزراً إلى لوحة لمرج مع نهر على الجانب «تلك بحيرة ريدجبورو الهلالية الشهيرة».

قال دانيال: «أنا لا أرى أي هلال».

«بل البحيرة الهلالية؛ حيث يصنع النهر بحيرة هلالية هناك.. انظر، إنه ينحني في هذا الاتجاه وذاك. لا بد أن هذه أرض ويلكنسون السابقة، هنا في اللوحة. ذكر جدي ذلك في تاريخ العائلة الذي كتبه قبل أن يُتوفَّى»، ثم علت نبرة صوت بيتر «فيما مضى، كان جدك الأكبر يمتلك تلك الأرض. لقد زرع فيها الخضراوات، وكان يملك أحصنة. كان رجلاً مغامراً؛ جيكوب ويلكنسون».

وضع دانيال ملعقته في حسائه مجدداً. لقد كان يخيم إحساسٌ بالحزن والأسى على أدوات المائدة الفضية المتراصة، حيال لوحات الأماكن والأشخاص الراحلين.

لقد كان آخر أفراد عائلة ويلكنسون، الحفيد الوحيد. أقاربه الوحيدون كانوا من جهة عائلة كاي، وكانوا يحملون الاسم الأخير لعمه جراي. الطريقة التي تحدث بها بيتر حيال الأمر؛ كونه آخر سليل لعائلته، توحي بمسؤولية كبيرة. كان عليه فعل شيء مميز ليستمر إرث عائلة جيكوب ويلكنسون. هذا الرجل الذي لا يشبهه إطلاقاً، والذي لو كان حيّاً، لما تقبَّل، على الأرجح، دانيال كفرد أصيل من عائلة ويلكنسون.

بدا لو أن الملعقة ترمقه إلى أعلى، ونظر هو إلى الأسفل، ممعناً ناظريه في

المعدن اللامع، آملاً أن يرى انعكاسه، لكن المكان كان حالكاً كي يرى أي شيء باستثناء قطرات الحساء.

في الليلة التي سبقت أول أيام الخريف، أجرى دانيال تعديلاً على تسجيل موسيقي على حاسوب بيتر. بدا صوته غريباً، فيه نغمة أميل إلى الحدة، وحازماً بالنسبة إلى اللحن.

الرفوف في غرفة المكتب حملت فيضاً من الكتب بأغلفة قاتمة وعناوين طويلة عن الديمقراطية والأسواق المفتوحة، ونسخاً من كتب كاي وبيتر الشخصية تملأ نصف رف. لقد نظر فيها من قبل، رأى سير المؤلف وصوره. كانت كتب بيتر مخصصة لدانيال وكاي؛ وكتبت كاي لدانيال وبيتر. الجدار فوق الحاسوب استعرض شهادات كل منهما: درجة البكالوريوس ودرجة الماجستير ودرجة الدكتوراه. دليلٌ مؤطَّر لإنجازاتهما الأخرى، والجوائز والمقالات ومراجعات الكتب في المجلات الأكاديمية؛ تُحيط بصورته. نزع سماعة رأسه، ولم تكن الأغنية تعمل.

مرَّ بغرفة بيتر وكاي ليتأكَّد أنهما نائمان، ثم رجع إلى المكتب وأغلق الباب، فتح المتصفِّح وكتب لعبة البوكر، مُقنعاً نفسه أن الأمر لن يفلح، وأنه يحاول فقط لأنه يريد أن يثبت لنفسه أن الأمر لن يجدي، وأنفاسه تتسارع، ذيَّل الكلمة بـ com، ثم نقر (رجوع). لقد تذكَّر حساباً قديماً؛ حساباً بالكاد استخدمه ولم يخبر بيتر وكاي عنه. حُمِّلت الصفحة الرئيسة؛ رؤية الخلفية الخضراء والبطاقات الرقمية بدت كما لو أنه يهرول عائداً لخليلته القديمة. كان هناك خمسون دولاراً في هذا الحساب المنسي. لعلَّه يلعب مرة فقط ثم يسجِّل خروجه، ومن ثم يمحو كل شيء.

بدأ في طاولة القمار، كذلك الرجل في محاضرة إيكون، وأحدهم يدعى آردفارك تكساس نزل الرهان بكل ما معه بزوجي ملكات ـ رفع دانيال الرهان لمستوى الرهان الأخير، حاملاً 4 ورقات آس بستوني ـ غير أنه لم يستطع التراجع وهو متقدم. اللعبة لمرة واحدة تحولَّت إلى مرتين، ثم تحوَّلت بعد

ذلك إلى لعب متواصل بلا توقُّف، حتى وصل حسابه إلى 100 دولار، ثم 300، ثم 500، وثب على الكرسي؛ يستمع إلى الخشخشة وقرع أجراس لأصوات الرقائق والورقات؛ مشوَّشاً بسبب فورة الحماس، حتى أحسَّ بيد على كتفه.

«لقد طرقت الباب»، قالها بيتر له وهو يضع يده على كتفه.

«أبي؟»، أخفق قلبه بقوة، لكنه لا يستطيع التوقُّف، نظر إلى الشاشة مجدداً ليؤكِّد مكاسبه التي قد أضيفت إلى حسابه، بينما كان بيتر يشاهد، رفع دانيال قبضته في الهواء.

هذه المرة، كان بيتر هادئاً، وكأنه كان يتوقَّع ذلك «حسناً، هذا يكفي الآن».

لقد كانت السابعة صباحاً. حزم دانيال حقيبته؛ تلك نفسها التي أحضرها معه من المدينة، ولكن ترك جيتاره في غرفته. كان سيجعلهم يرسلونه إليه لاحقاً، أينما كان ذاهباً.

جلست كاي إلى طاولة المطبخ، تشرب كوب شاي. كانت هناك هالات تحت عينيها، منتفخة من البكاء.

«ألن تطلبي مني أن أبقى؟».

هزَّت رأسها: «لقد تلقَّيت بريداً من إلين».

حمل حقيبته على كتفه قائلاً: «سأخرج بمفردي».

- 15 -

لم يتذكر شيئاً عن الرحلة، عدا الظلام والتأرجح، ثم الاستيقاظ لمدة 19 ساعة حتى شروق الشمس الذي اخترق النافذة، الترجُّل عن الطائرة خلال الظهيرة الرطبة، يوم كامل اختفى، وكان المدرج الوحيد محاطاً بشوارع غير معبَّدة، تمتد عبر القذر والصخور، وكأن المطار قد أُسْقِط داخل صندوق رمل. حلَّقتْ اللغة حوله بسرعة البرق، أشد وأغلظ من اللهجات ذاتها التي سمعها في نيويورك.

حام قائدو الدراجات البخارية كالنسور. نعقوا قائلين: «فوزهو!»، تقدم خطوة إلى الأمام، توقف ثلاثة من قائدي الدراجات البخارية وتصايحوا. قال الرجل الأول: «هيا اركب بسرعة!»، وبدوره، وازن دانيال نفسه وأخذ يثبت أحزمة حقيبة الظهر خاصته بينما تسارع السائق وانطلق قُدُماً. قال الرجل: «تشبَّث جيداً!». لف ذراعيه حول خصر الرجل، ساعلاً جراء العادم، بينما ينطلقان عبر الشوارع. رأى قائدي الدراجات البخارية والركاب الآخرين وقد تلثَّموا أقنعة واقية من الدخان.

سأل قائد الدراجة: «إلى أين أنت ذاهب؟».

صرخ دانيال: «فوزهو».

«أي الأماكن في فوزهو؟».

«منتصف المدينة؟».

«ميدان ووبي».

أجاب دانيال: «أجل».

انحرفا عبر طريق طويل، كان خالياً عدا من بعض الشاحنات التي تمرّ عرضاً. بصق دانيال الرمل والتراب فأرجعتِ الرياحُ دفقة اللعاب إلى بنطاله الجينز. لم يستطع ترك خصر السائق، لذا فقد ظلّتِ البصقة على فخذه، تغيظه وتنتشر فوق قماش البنطال. كانت الحقول الخضر والتلال مرقَّطة بمجموعات البنايات. بدت الأشجار أعرق لما لها من جذوع متشعِّبة وأوراق زغباء، بدت أكثر ألفة من أشجار الصنوبر والبلوط في شمال نيويورك.

سأل قائدُ الدراجة: «من أين أنت؟»، بينما كانت الحقول تتيح مجالاً لبنايات أطول.

«أمريكا».

«ها!».

«نيويورك».

سأل القائد: «من الحي الصيني؟».

«أجل».

«الكانتوني؟».

«الفوزوي».

أصدر السائق صوتاً يوحي بالضجر: «كلا».

«أجل. أمي من ميانيانغ».

«امم».

انسدَّ الطريق ذو المسارات الأربعة بفعل السيارات والحافلات، أبطأ السائق لحدوث اختناق مروري، كان محاطاً بكتلة مرورية صعبة، يضغط كل منهم على بوق سيارته في تناغم، بعد ذلك أشعل سيجارة، وبدوره أخذ الدخان يتجه مباشرةً صوب وجه دانيال. تحوَّلت الإشارة إلى اللون الأخضر فألقى السائق السيجارة على الأرض وتسارع، ارتدَّ دانيال بقوة إلى الخلف.

توقف عند شارع مزدحم قريب من بيتزا هت ومركز تسوق.

«أتعرف فندقاً بالجوار؟».

قال السائق: «هناك!»، مشيراً إلى ممر مروري ودائرة مفترق طرق. كان ذا وجه طفولي صغير تعلوه البثور، أدرك دانيال أنهما في نفس العمر تقريباً.

«كم تريد مقابل هذه التوصيلة؟».

«مائة وخمسين يواناً».

أخرج دانيال ورقة بمئتي يوان من النقود التي حصل عليها من الصرافة بالمطار.

«حديثك ممتع». ناول السائقُ دانيال بقية النقود «لقد تعلمتَ اللهجة الكانتونية».

لم يدرك دانيال أن السائق قد أعطاه مما تبقى له عشر يوانات فحسب؛ إلا حين كان يدفع لقاء غرفة في فندق مين هوتيل، المبنى ذي الطوابق الستة المفروش بسجادة برتقالية تمتد من الجدار إلى الجدار.

كانت تقع غرفته في الطابق الثالث عند نهاية ردهة طويلة، غرفة مزدوجة بسريرين عائليين، أغلى بكثير من الغرف الفردية، كانت الغرفة الوحيدة الشاغرة لديهم، على حسب قول الموظفة، وبدوره فقد كان دانيال منهكاً للغاية، منهزماً جراء لهجته التي لا تمكنه من المجادلة. انزوى إلى الفراش مقترباً من النافذة، كانت الفُرُش والوسادات تفوح برائحة كما لو أنها رائحة دخان سجائر، على الرغم من أنه قد طلب غرفة لغير المدخنين. كان سيهاتفها حين يصبح أكثر اتزاناً، ربما بعد ذلك سيبدو أقل من حيث الطابع الكانتوني.

استيقظ بعد ثلاث ساعات، ينتابه الصداع، والظلام يلف أرجاء الغرفة، وفقاً للساعة كان في وقت مبكِّر من المساء، وما إن فتح الستائر كان نور الشمس لا يزال في الأفق. صف من الحافلات تعطَّل بالأسفل فتوقَّف المرور، حشد كبير من الناس كانوا يصطفون خارج بيتزا هت. جلس على السرير مثقلاً. حسبَ كم الساعة في نيويورك، وكم مر من الوقت منذ أكل آخر مرة، فتح هاتفه وطلب رقم أمه، لكن الأمر لم يفلح. جرَّبَ مرة أخرى لكنه حصل على النتيجة ذاتها. لم يكن بالفندق إشارة إنترنت لاسلكية، لذا لم يكن متصلاً عبر الإنترنت لمعرفة إذا ما كان يمكنه طلب رمز خاص. حاول مرة أخرى أن يستخدم الهاتف المجاور للسرير، لكنه لم يصدر غير تسجيل تلقائي يقول إنه ليس بإمكانه إجراء المكالمة. عالم ريدجبورو يخيِّم على الأرجاء كافة من جديد.

ولما نزل متوجهاً إلى مكتب الاستقبال، أخبرته الموظفة قائلة: «عليك الاتصال بهذا الرمز».

«من أجل المكالمات الداخلية أيضاً؟».

حاجبا الموظفة أشبها علامة الطرح. قالت: «لن يعمل هاتفك الخلوي ها هنا. لو أنك استخدمت الهاتف في غرفتك وضغطت على هذا الرمز، ستكون قادراً على إجراء مكالمتك. يمكننا دفع أي مكالمة لحسابك لو أنك أعطيتنا بطاقة الائتمان خاصتك».

حاول دانيال فك شفرة الكلمات السريعة للموظفة بينما يستوعب الرد.

أخرج بطاقته الائتمانية، لقد دفع لتوّه تكاليف رحلة الطيران؛ لذا فإن مكالمتَي هاتف لن تحدِثا فارقاً كبيراً.

عاد إلى غرفته واتصل برقم أمه مجدداً، من خلال استخدام الهاتف المجاور للسرير. هذه المرة سمع رسالتها الصوتية.

«أمي! أنا ديمينغ. أنا في فوزهو ولقد جئت لرؤيتك. أنا أنزل بفندق مين هوتيل بميدان وويي، غرفة رقم (23). هاتفيني من فضلك!». ترك رقم هاتف غرفته وخرج بحثاً عن العشاء.

بدت رائحة فوزهو كرائحة الشواء في الخريف. كان للبنايات نوافذ يخالها كالعيون، تَرْقُب رحلته المتعرجة. كانت بعض البنايات عريضة ومنحنية ذات شريط نوافذ تشبه الشرائح الرمادية للاصقات قناع التجميل، بينما البنايات الأخرى كانت طويلة ناحلة ذات أسقف حادة أو مستديرة. بدت بعض البنايات وكأنها بطاقة تهنئة مفتوحة، تجلس إلى الطاولة بأذرعها المفتوحة كي تحتضنه، أما البنايات الأخريات التي بُنِيَت بعض أجزائها، ذات القمم التي تحمل قفصاً عظميّاً من السقالات، فقد كانت تبدو من بعيد وكأنها فرقة من الدمى غير المتجانسة. لقد كان هناك تنافر معماري لكنه بدا منطقيّاً. كان دانيال يفضِّل عدم منطقية المنطق، أحب الأشجار في المساحات الشاغرة بين البنايات، والأوراق التي تداعب الأسطح المنخفضة للبيوت العتيقة. بدت المدينة وكأنها تحاول أن تُشيِّد نفسها لكنها لم تفلِح بالقدر الكافي. هذه كانت مدينة المُهَمَّشين، مدينة الجوع التوَّاق النَهِم، عشوائية بما يكفي كي تنقضَّ في ليلة ويُعَاد بناؤها بحلول الصباح التالي.

كان الطابع العام لفوزهو هو الألوان الصفر الفاقعة والزرق القاتمة والبرتقالية الداكنة. جلجلت من حوله الفوزوية والماندرينية، قائمة التشغيل الخاصة بعقله الباطني، بل والكلمات والعبارات التي لم يكن يعرفها كانت وكأنها تنزل في حمام دافئ. لم يكن ثمة أثر للإنجليزية، ولا في أي مكان؛ لا في لافتات الشوارع ولا محطات الحافلات ولا لوحات الإعلانات، ولا في الأصوات التي يسمعها، ولا في الموسيقى التي تتسلَّل من سيارات الأجرة. لقد كانت مشوَّشة سريالية، دوامة الأصوات المألوفة في هذه الشوارع غير المألوفة. لم يطأ فوزهو من قبل مطلقاً، لكنها كانت المكان الذي يعهده بالفعل. كان عقله يحاول جاهداً أن يبقى يقظاً، فردَّد في نفسه بالإنجليزية: أنا في الصين! أنا في الصين!

التفت ليتفادى دراجة بخارية متهوِّرة بجانب الرصيف، وكادت دراجة تنحرف صوبه. حين توقف، صرخت المرأة من خلفه: «تَقدَّم!»، خاض في أقرب مكتبة ليشتري دليل الطريق، وبعد قليل عناء، تذكر كلمة خريطة وابتاع

واحدة تشرح المدينة، لكن ما إن تصفحها حتى وجد أن أسماء الشوارع بالصينية ولا يمكنه قراءة شيء منها.

رأى أسرة تتجه صوب زقاق جانبي متعرِّج يكاد يختبئ بين البنايات العالية، وتبعهم متاخماً لجدار صخري غطَّته لافتات توعية بأهمية غسل اليدين بعد العطس. خطا فوق برك الوحل التي تتوسَّطها ألوان الزيت اللامعة، سار في فناء. اختفت الضوضاء القادمة من ميدان وويي سكوير، والبنايات ذكَّرته بالبيوت في الزقاق الثالث، بيوت ذات طابقين بجدران من الطوب، يتدلَّى منها الغسيل. يلعب الأطفال بينما العجائز يجلسن فوق مقاعد بلاستيكية ويُنسِّمن أنفسهن بالصحف، يتحدَّثن عن كيفية زواج فلانة ابنة فلان بفلان ابن فلان. داخل البيوت، رأى أُسراً تطهو الغداء وأسراً تتناوله؛ تشكَّل في حلقِه تكتلٌ ما.

وجد كشك معكرونة منزوياً بين منزلين، فطلب صحن معكرونة شعيرية بمرق الخنزير والخضراوات، سُرَّ لعدم تعقيب أي شخص على لهجته الفوزوية. جاءه الطعام فواراه معدته، احتسى أكواباً من الشاي حتى هدأ صداعه، وفي طريق عودته إلى الفندق، ضل طريقه، اتَّبَعَ الطريق الطويل حول موقع تشييد لبناء غريب نصف متهدِّم، وبمرور الوقت وصل إلى ميدان وويي سكوير، كان الظلام قد خيم.

لم يكن ثمة رسائل جديدة في غرفة الفندق من أجله. استحم ديمينغ طويلاً، مالئاً الحمام بسحب البخار. عاود الاتصال بأمه، وترك لها رسالة أخرى، ثم استلقى. استيقظ صباحاً في السابعة بفعل الضوء النافذ عبر الستائر المفتوحة، حينها لم تكن قد هاتفته بعد. كانت هناك لدغة كبيرة خلف عينيه. ها هو قد جاء إلى هنا، لكنها لا ترغب في مقابلته، كذلك ليس له من يقصد بيته إطلاقاً. منذ صباحين مضيا، رحل عن ريدجبورو وفي حسابه المصرفي تسعمائة وستون دولاراً، وخلال فترة سكون في دراما منتصف الليل مع كاي وبيتر، صرفها نقداً من اللعبة بهدوء، دفع قيمة التذكرة لفوزهو وغادر من مطار سيراكيوز في الظهيرة التالية، وأزال حساب لعبة البوكر، في زاوية من شارع أوك، هاتف كودي في السابعة صباحاً.

قال: «هل مقدورك أن تسدي لي صنيعاً لن أنساه؟ أحتاج توصيلة إلى المطار».

جاء كودي بسيارته الجيب محضراً هدية تليق بالوداع، علبة عقار فيكودين باقية من عملية خلع ناجذه، أحضرها لدانيال كي يصطحبها معه في رحلته. لمَّا سجل دانيال الدخول إلى المطار، واجتاز بوابة الأمن مبكراً بست ساعات، جلس عند بوابة غير مشغولة وأدرك أنه كان يرتجف، في النهاية لم يكن قادراً أن يفعل ما رغب فيه بيتر وكاي. ثلاثة فصول دراسية أخرى، تليها كلية الدراسات العليا، والإقامة في شمال المدينة، كذلك لم يكن قادراً أن يفعل ما طلبه رولاند منه، أن يعزف الموسيقى التي طلب منه رولاند أن يعزفها. لو أنه تكلم فحسب إلى أمه شخصيّاً، فلربما كان بإمكانه أن يستوعب من ينبغي له أن يكون الآن، والآن في الفندق تمنَّى لو كان لديه عنوانها. كل ما كان يعرفه هو ما أخبرته به في الهاتف، أنها عاشت في حي يُدعى ويست ليك وعملت في مدرسة تعلِّم الإنجليزية. اتصل هاتفيّاً وترك لها رسالة أخرى، استقلَّ المصعد إلى باحة الفندق. سأل الموظفة: «هل يمكنك البحث عن عنوان من أجلي؟ عنوان بولي قو. أو بوليان قو. تعيش في ويست ليك». ربما تكون قد غيَّرت اسمها إبان زواجها الأخير، لكنه لم يكن يعرف اسم زوجها، ما يعرفه عنه فحسب أنه يملك مصنعاً للملابس.

دليل الهاتف الوحيد الذي كان يملكه الفندق؛ يعود إلى خمس سنوات مضت. قلبت الموظفة الصفحات. «قو... قو». كانت تمرِّر إصبعها أسفل الصفحات «أنا لا أرى أي بولي أو بوليان. هنا بينغ، بان... هنا عدد من أسماء غوو مع حرف الباء للاسم الأول، لكن العناوين ليست بأي مكان قريب من متنزَّه ويست ليك».

«أتعرفين أي مدرسة لتعليم الإنجليزية في الجوار؟».

قالت الموظفة: «أنت تريد أن تتعلم الإنجليزية؟».

«نعم ـ بالتأكيد».

«صديقتي تذهب إلى مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية قريبة من الطريق السريع، يمكنني أن أسألها من أجلك».

«هل توجد تلك المدرسة في ويست ليك؟».

فتحت الموظفة الدرج وأخرجت خريطة حافلة. أشارت إلى نقطة عليها قائلة: «انظر! نحن هنا. متنزَّه ويست ليك هنا في الأعلى». تتبَّعَتْ خطّاً عبر المدينة، ثم توقَّف إصبعها على ميدان أخضر «يمكنك ركوب هذه الحافلة، المحطة على بعد شارعين».

سأل دانيال عما إذا كانت هناك أي طريقة للدخول إلى الإنترنت، إذ يمكنه البحث عن مدرسة لتعليم الإنجليزية، واستخدام موقع ترجمة متصل بالإنترنت ليترجم الكلمات الصينية إلى إنجليزية، أو يتصل بمن في الجوار ليتبيَّن إن كان لديهم من تعمل تحت اسم بولي أو بوليان. أخبرته الموظفة أن هناك مقهى إنترنت أيضاً ليس بعيداً هو الآخر، لكنه لن يكون مفتوحاً لساعة أخرى أو ساعتين «هل تود تناول الإفطار؟».

أومأت إلى زاوية بعيدة من باحة الفندق، حيث كانت هناك مجموعة من الطاولات خلف حاجز، وأخبرته أن وجبة الإفطار مضمَّنة في ثمن الغرفة.

عند الطاولات كان هناك رجال وسيدات بقمصان خضر متطابقة. سحب دانيال كرسيّاً ثم جلس إلى جوار رجل ذي لحية كثة، على الجانب الآخر من الطاولة اثنان يتحدثان الماندرينية. جاءت موظفة الفندق فسألته عن رقم الغرفة التي كان ينزل فيها، فحصت المفكرة ثم قدمت صينية تحمل صحناً من العصيدة الرقيقة، وأطباقاً صغيرة من الفول السوداني المملَّح والخضراوات المخللة، وعلبة من حليب الصويا مع شفاطة دقيقة. نزع دانيال الغطاء البلاستيكي الذي يعلو العصيدة وأكل ملء ملعقة، فكان مذاقها كالورق الكرتوني.

ليس ثمة شخص آخر على الطاولة قد فَرُغ من طعامه. سأل: «هل أنتم فريق من مدرسة؟».

«نحن في جولة». هكذا أجابت المرأة التي تجلس في الجهة المقابلة من الطاولة «نجوب عشر مدن في خمسين يوماً».

نظر الرجل ذو اللحية الكثيفة إلى صحن عصيدة دانيال «لا تأكل صحن البواسير هذا. هناك مقصف يقع أسفل الطريق، سنذهب إليه بعد ذلك».

ضحك دانيال «هذه العصيدة مذاقها مقزِّز». كان يحب الشتم بالصينية، والخيارات المتنوعة غير المتاحة في الإنجليزية، واجه صعوبة في تذكُّر كلمات الخريطة والحاسوب، لكن الشتائم يحفظها عن ظهر قلب.

دفع صينيته بعيداً ونهض، في خضم انشغاله بمهمة البحث عن أمه، نسي الاتصال بشخص ما. قال: «أتمنى لكما رحلة سعيدة!»، صعد الدرج واتصل بثاني أكثر الأشخاص بعد أمه من حيث بذاءة اللسان ممن يعرفهم، الثاني مباشرة بعد أمه.

«ماذا تفعل في هذا الفندق الخَرِب؟»، صاح ليون عبر الهاتف.

بناء على وصف ليون، ركب الحافلة إلى الحي الواقع على الجانب الآخر من الطريق السريع، ماشياً عبر شوارع أقل سكاناً من تلك التي تقع في ميدان وويي. كان ليون يعيش في بناية تشبه التجمع السكني بجوانب خرسانية، ذي خمسة أبواب عبر كل طابق من الطوابق الأربعة، وقضبان معدنية بطول حافة الممشى، وشبكة كبيرة مستطيلة. اجتاز دانيال أرضية البناية ثم صعد الدرج. كانت ممرات المشي مزدحمة بالدراجات البخارية والمبردات البلاستيكية، وكرات الشاطئ وأُصُص الزهور. أمام واحدة من الشقق كانت توجد دمية دب محشوة عملاقة ذات فراء أزرق ساطع، محشورة في كرسي استرخاء بحجم طفل.

رن جرس الشقة رقم تسعة. كانت هناك دراجة ثلاثية الإطارات وردية اللون مقيَّدة بالقضبان المعدنية المواجهة للباب، مزيَّنة بلاصقات تحمل صور شخصيات كرتونية. سمع وقع خطوات، ثم صوت رفْعِ رتاج الباب.

«ها أنت هنا!»، كان شعر ليون أشعث وأكثر شيباً، وصدره وكتفاه أنحل من ذي قبل، لكن ابتسامته العريضة لا تزال كما هي.

قال دانيال: «مرحى يا ليون!» لم يستطع منع ابتسامته.

كانت النباتات المنزلية تتدلَّى من السقف، على الأرفف والطاولات وعتبات النوافذ، أفرعها الخضر تمتد في خطوط أسفل الجدران. تبع دانيال ليون عبر الغرفة الرئيسة حتى المطبخ، حيث كانت هناك امرأة تقرأ جريدة على طاولة المطبخ.

قال ليون: «هذه زوجتي، شوانغ».

قالت شوانغ: «مرحباً ديمينغ أنا مسرورة لأنني قابلتك أخيراً».

فتاة صغيرة كانت إلى الطاولة كذلك، لها فم ليون الواسع ووجه شوانغ النحيف. كانت ساقاها تتأرجحان في اتجاهين متعاكسين، وتنقر بالتناوب على أرجل الكرسي المعدني لمرتين أو أربع مرات. كانت منكبَّة على تلوين كتاب، تتأرجح جديلتها المذيَّلة بينما تمسك بقلم التلوين الأزرق في تركيز.

قال ليون: «ييمي! رحبي بابن عمك، ديمينغ».

نظَرَتْ إلى الأعلى «أنت ابن عمي؟».

قال دانيال: «مرحباً ييمي! ماذا ترسمين؟».

«أميرة».

ارتشفت رشفة من عصير التفاح «تأكل شطيرة».

«لم تواجهك متاعب في الحافلة؟».

أومأت شوانغ إلى كرسي بجوارها.

«لقد كان الأمر سهلاً، لم تكن ثمة مشكلة».

«أخبرتُ ليون أن يذهب لإحضارك في سيارة أجرة. قلتُ له إنك قادم كل ذلك الطريق ويتركك تأتي بالحافلة؟ قد يضل الطريق».

«لدى ديمينغ خبرة جيدة بخصوص الحافلات». استند ليون إلى إطار الباب «يعيش في مدينة نيويورك. لم يركب سيارة أجرة حين يكون الأمر أسرع وأرخص بالحافلة؟».

هزت شوانغ رأسها، لكن دانيال يمكنه رؤيتها تضحك «سوف تنتظر العشاء وتنام في غرفة ييمي. بإمكانها أن تنام في غرفتنا».

قالت ييمي: «بإمكاني؟».

«أجل! بإمكانك النوم إلى جوار أمك العزيزة وأبيك العزيز».

قال ليون: «هذه متعة لها».

«أنا لا أقصد أن أسبِّب إزعاجاً. لتوّي دفعت من أجل غرفة بالفندق».

قال ليون: «هل تمازحني؟ ابننا رقم واحد لا يأتي من أمريكا كل يوم لزيارتنا. ستقيم معنا ما أردت».

امتُقِع لون وجه دانيال. قالت شوانغ: «لا تكن ذلك المستضيف البخيل! أكرم ضيفنا بشيء يشربه!».

فتح ليون الثلاجة، أخرج قنينتي شراب، وناول دانيال واحدة «أقبِل! سأريك بقية الشقة».

إنه لمن الغريب أن يشرب دانيال إلى جوار ليون، لكن دانيال كان ممتنّاً من أجل الشراب. ساقه ليون خارج المطبخ إلى صالة بها ثلاثة أبواب «ها هنا الحمام». أشار ناحية اليسار، الغرفتان الأخريان كانتا غرفتي النوم، الصغرى كانت تخص ييمي، شارات حيوانات كرتونية على الجدار، وفُرُش السرير مطبوع عليها أفراخ البط الصغيرة. غرفة النوم الخلفية حيث كان ليون وشوانغ ينامان، لها نافذة تفتح على شرفة صغيرة بقدر سلم طوارئ الحريق. رفع ليون الحاجز الزجاجي وتبعه دانيال. كانت الشرفة تطل على مكبٍّ نفايات محاط بزجاجات بلاستيكية فارغة وأكياس قمامة منتفخة، تنفث القاذورات في الهواء، وعلى البعيد يمكنك رؤية معالم الجبال.

ومن كُلَّاب على الحاجز المعدني، كانت تتدلَّى فأس مع زهور أرجوانية، فقال ليون: «شوانغ لديها خبرة جيدة مع النباتات، حيث تعمل في فرع جديد من فروع وول مارت، بقسم التشجير؛ أحببت الشقة؟».

تسلل صوت الباستيل مخترقاً نوافذ الشقق الأخرى. صنبور مياه متدفِّق، رنين القدور والأواني، عويل الأطفال، مذيع الراديو.

قال دانيال: «إنها لطيفة. منذ متى تعيش هنا؟».

«سنتين. البناء ليس متداعياً، نحن على أرضية راسخة. ابن عمي كان يعرف الرجل الذي يعمل لدى مالك الأرض، وابن عمي بدوره يمتلك الشركة التي أعمل فيها. نعمل بالاستيراد والتصدير، أنا أعمل في الشحن؛ أفضل من تقطيع اللحوم». أراح ليون زجاجته «والآن أخبرني. لَم تقطع كل هذا الطريق حتى فوزهو كي تزورني؟».

«كنت أفكر في لقائك».

ضحك ليون، وبدوره فقد رمش دانيال سريعاً وحاول التركيز على معالم الجبال.

تلك الليلة نام في غرفة ييمي تحت ظلال شارات الحيوانات ـ حمار وفيل وبقرة وأسد ـ وحينما استيقظ سمع صوت التلفاز. تفحَّص ساعة هاتفه، فوجدها العاشرة صباحاً، لو أن أمه هاتفته في الفندق فلن يمكنه أن يكون هناك كي يجيبها.

في الغرفة الأمامية من الشقة، كان ليون يأكل الخبز المحمص.

قال دانيال: «أريد الذهاب إلى الفندق، فلربما قد اتصلت أمي بي هناك، ويجب عليَّ فحص رسائلي». لقد دفع من أجل غرفته خلال الليلة، لم يكن قد خرج من الفندق رسميّاً.

رفع ليون شريحته من الخبز: «أتريد الخبز المحمَّص؟».

«أنت غير ذاهب إلى العمل اليوم؟».

«لقد استأذنت في عطلة اليوم».

انتعل دانيال حذاءه: «أنا عائد مرة أخرى إلى الفندق».

«كلا! سوف نذهب إلى ويست ليك».

سار دانيال تجاه النافذة ورفع الستائر، كان بوسعه سماع الطيور بالخارج: «لِم؟».

«سوف نذهب لنعثر على أمك. ما بك، أنت تريد أن تجلس متراخياً طوال اليوم منتظراً اتصالها بك؟».

قال دانيال: «يجب عليَّ أن أذهب إلى الفندق».

«بمقدورنا أن نهاتف الفندق من هنا ونستعلم عما جاءك من رسائل، ثم نذهب بعد ذلك إلى ويست ليك».

«لكننا لا نعلم أين تقيم هي».

«لقد قلتَ إنها أخبرتك بمعيشتها هناك، وهذا كافٍ لي».

«سوف نذهب للتجول في الجوار ونظل ننادي اسمها حتى تأتي وهي تجري خارجة من البناية؟».

«لا تكن سخيفاً».

أخذ دانيال يعبث بورقة من نباتات شوانغ «يمكننا أن نجدها، ويمكنها أن تصفع الباب في وجهي». تخيُّل ذلك والوصول إلى النتيجة النهائية الحاسمة لعديد من سنوات عدم المعرفة، جعله يتراجع.

«كن جادّاً، لو أنك أظهرت نفسك أمام بابها فلن تفعل ذلك، فأنت ابنها».

لم تكن هناك حفر في الشوارع القريبة من ويست ليك، وعدد أقل من المارة، أشجارها عريضة الجذوع ومحالُّها ذات طابق واحد، كان الحي يشبه ضاحية أمريكية رغدة الحال. اجتازت الحافلة المدخل إلى المتنزَّه وصفّاً من البنايات السكنية الشاهقة، ثم أشار ليون إلى السائق أن توقَّف. قال ليون: «قلتَ إنها أخبرتك أنها تعيش في شقة بشرفة. تلك هي كل البنايات التي تحوي شققاً، كلها تطل على المتنزَّه».

«بالتأكيد هناك المئات من الشقق».

«لكل منها دليل. سوف نذهب هناك ونرى إن كان اسم أمك مسجلاً، أو يمكننا أن نسأل حراس العقار. هؤلاء الناس الأغنياء لديهم دائماً حراس».

كانت الكلمة توحي بالخيانة، إذ يُشار إلى أمه بالناس الأغنياء. كانت للبناية الأولى التي رأيا أنها ذات شرفات، حارس أمني خارج البوابة. حين سأل ليون إن كانت بولي أو بوليان تعيش هنا، أجاب الحارس أنه لا يمكنه الإدلاء بأي معلومات خاصة عن السكان.

سارا حول منعطف في الطريق. أزَّت حافلة على البعيد، يَزْمُر بوقها. البناية الثانية ذات الشرفات، كان لها حارسان ولم يكن لها بوابة. قال أصغرهما: «ليس ثمة سيدة تُدْعَى بولي أو بوليان ها هنا».

لم يجدا حراسة عند البناية الثالثة، بوابة طويلة فحسب وليس عليها أي دليل أسماء. البنايات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كذلك لا حراسة عندها ولا دليل أسماء.

حين كان دانيال في طور ديمينغ، كان يعتقد أن أمه لا تُقْهَر. كانت أجرأ وأكثر مرحاً وأنشط وأكثر ذكاءً من غيرها من الكبار، ولم يكن يمكنه أن يكتم عنها سرّاً، بخصوص نتيجته الدراسية أو إذا اعتاد ترك قمامة بشكل منتظم، أو إن كانت تلك المخلفات هي الفتات الذي سقط منه على الأرض. لم تكن متزمِّتة حرفيّاً أو قاسية، لكنها حَرِّيفة، متفوقة على نفسها. كانت صعبة المراس، عملتْ بجد، بغض النظر عن مدى إرهاقها، ودائماً ما كان هناك اهتمام أو يقظة مدَّخَرَة له. على الرغم من ذلك، وفي مرحلة ما، تغيَّر هذا.

كان هناك سور حديدي عن يسارهما، وبالأسفل كان المتنزَّه. توقف دانيال «هي لا ترغب في التحدث معي».

توقف ليون كذلك: «أمك! إنها معقَّدة».

ودَّ دانيال لو استطاع أن يقول مستعصية على الفهم بالصينية.

«كنتَ تعني لها الكثير، أكثر من أي شيء آخر، فمهما كان هناك ما يجعلها تخشى التحدث إليك، لا يتنافى مع كونك تعني لها الكثير».

«هي حتى لم تخبر زوجها عني على الإطلاق».

«أهذا صحيح؟».

وقفا قبالة السور الحديدي يشاهدان العربات بينما تمر. كان ذلك في الظهيرة الماضية، والشمس محرقة، فتمنَّى دانيال لو كانت لديه نظارة شمسية، لقد تركها في ريدجبورو.

شرعا في المسير مجدداً، بأبطأ مما كانا عليه. قال ليون: «حين رأيتها لأول مرة بعد أن عادت، كان شيء ما قد انكسر بداخلها، ولم تكن ترغبُ في أن يعرف أي شخص ما هو».

«رأيتَها؟ لقد ذكرتَ أنك ما كنت تكلمها إلا عبر الهاتف».

«لقد التقينا بالفعل، حين كانت ييمي رضيعة».

«لكنك أخبرتَني...».

«لا تَلُم فيفيان أو أمَّك. لُمْني أنا، فلقد عشتُ الحياة وفق رغباتي، لو أننا فقط يمكننا العيش معاً مجدداً يا ديمينغ، لكان لا يزال بإمكاننا الاستمرار هناك، فوق تلك الأريكة التي كانت أمك تكرهها».

«كان بإمكاننا اقتناء أريكة جديدة الآن». سيارة دفع رباعي سوداء نوافذها معتمة كانت تسير مسرعة أسفل التل «أتعلم أنني عدت إلى الشقة بعد سنة تقريباً من رحيلك؟ كانت أسرة جديدة تعيش هناك».

قال ليون: «أحياناً، حين أهمُّ أنا وشوانغ بوضع ييمي في فراشها، أتفكَّر في أن هذا الوضع هو ما آلت إليه الأمور. هذه حياتي، المرأة التي أرادت أن تتزوج بي، الطفل الذي رُزِقنا به. كيف يمكنني أن أتخلَّى عن هذا الآن؟».

تخيَّل دانيال عرضاً مسرحيّاً، أتاه ليسمع هتافات الجمهور: «أنا أتفكَّر في الشيء ذاته أحياناً».

قال ليون: «لذا، لربما تفكِّر هي بنفس الطريقة كذلك».

رأى دانيال بنايتين سكنيتين عبر الشارع، شبه مختفيتين بفعل مجموعة شجيرات. أمه وحياتها الجديدة، لم تكن الشيء ذاته. أراد أن يخبرها أنها غير قادرة على التخلِّي عنه فحسب، تظاهر أنه لم يكن موجوداً «لا أزال على رغبتي في أن أعثر عليها».

بعد مضي ساعات، كانا قد ذهبا إلى كل البنايات البارزة في الحي ذات الشرفات، وزادت وطأة الحرارة. تجرعا زجاجتي المياه التي اشترياها من ذلك المتجر الذي لمح فيه دانيال امرأة في عمر أمه وساوره بريق أمل في أن تكون هي، على الرغم من ألا شيء في المرأة يمتُّ إلى أمه بصلة. استغرقا في ذكريات نيويورك، وحكى دانيال لليون عن ريدجبورو، وكيف كان يقضي الاستراحة من المدرسة.

كان يشعر بموفور الراحة حين كان يتحدَّث بالصينية، لم يعد يأبه بعد، حتى ولو اقتضت كل جملة قليلاً من الجهد، حتى ولو كان يشعر بنفسه أكثر في الإنجليزية، كان تحدُّث الصينية وسماعها بمثابة إعادة ألبوم لم يستمع إليه منذ سنوات، مقدِّراً كم كان الصوت أقوى.

«أينبغي لنا الرجوع إلى البنايات الخالية من الحراسة، لنرى إن كانت هناك طريقة تمكِّننا من الدخول إليها؟»، في شقة ليون يوجد كثير من زجاجات الشراب. يمكنه العودة إلى هنا في يوم آخر، لكنه شك أنه سيفعل ذلك.

قال ليون: «ربما!».

«أتريد العودة؟».

«عاجلاً».

برزا في شارع آخر، أكثر حدَّة من الأخير، إلا أن المتنزَّه كان مرئيّاً إلى حد ما في الأسفل. «لنعدْ أدراجنا».

«هاك! دعنا نجرِّب هذه البناية». أمامهما كان بناء ذو ستة طوابق له بوابة فضية، شرفاته تبرز من جانبيه، كانت هناك قائمة أسماء في الخارج.

«هنا غاو، لكن ليس ثمة غوو».

قال دانيال: «لنعدْ أدراجنا! سوف أجرِّب مقهى الإنترنت غداً، لأبحث عن مدارس تعليم الإنجليزية»، لكنه فَقَدَ حافز البحث. لقد كان من الكافي بالنسبة إليه أن يقضي الظهيرة مع ليون. كان بإمكانه دوماً أن يسلِّي نفسه بأنه قد بحث وحاول.

«انتظر!» ليون مشيراً: «هناك».

اتَّبَع دانيال إصبع ليون ورأى بقعة ماء، كان بالأسفل لدرجة أنه بالكاد يمكنه تمييز ماذا كان ذلك «أجل! يمكنك رؤية المحيط، علينا أن نكون هناك عالياً جدّاً».

«ديمينغ! أين كانت أمك تفضل المشي بينما كانت فتاة صغيرة؟ أين كانت تحب الذهاب في نيويورك؟».

«إلى النهر، لكننا في وسط المدينة، وليس ثمة نهر بالقريب».

«إذا كانت تذهب للإقامة في شقة ذات شرفة، فماذا سترغب في رؤيته من هناك؟ الماء! هذا هو الشارع الذي تعيش فيه».

قال ليون: «يجب أن يكون هو».

استمرا صاعدين التل. لم يكن للبنايتين التاليتين أي شرفات، لذا فقد فَوَّتَاهما، في نهاية الشارع كانت هناك بناية أخيرة ذات شرفات.

قال ليون: «هنا حيث تعيش هي»، تمنى دانيال لو استطاع الوصول لقناعة ليون.

كان الحارس الأمني رجلاً مسنّاً بوجه مرتخٍ، يقرأ كتاباً ورقي الغلاف داخل كشك ضيق «كيف يمكنني مساعدتك؟».

قال ليون: «نحن نبحث عن امرأة تدعى بوليان أو بولي، تعيش في بنايتكم. هل من الممكن الاتصال بشقتها؟».

«لا يوجد أي شخص بهذا الاسم هنا».

قال دانيال: «أمتأكد أنت؟ إنها معتدلة الحجم من حيث الطول والوزن، ذات صوت عالٍ وشامة على رقبتها». لربما كانت قد فقدت بعض الوزن أو زاد وزنها، أو قامت بعمليات تجميل وما إلى ذلك، لكن هذه كانت البناية الأخيرة، فرصتهم الأخيرة «اسمها الأخير ربما ليس غوو، لكن اسمها الأول هو بولي أو بيلان؟».

«كلا».

«هي متزوجة من رجل يمتلك مصنع ملابس؟ وتعمل في مدرسة إنجليزية؟».

أعاد الحارس كتابه «لقد أخبرتك أنها لا توجد هنا».

قال ليون: «حسناً. شكراً لك».

سارا حذاء رصيف المشاة، وقال دانيال: «من الجيد أننا حاولنا».

«لقد حاولنا».

«دعنا نعُد إلى البيت الآن».

«أنت جائع؟ أعرف مطعماً يمكننا التوقُّف عنده. ليس في الحي، فالطعام مزعج هنا للغاية، لكن في هذا المكان، لديهم حساء مع لحم الضأن والمعكرونة مطهية بعناية».

قال دانيال: «لا أطيق الانتظار. لقد أصبحت جائعاً الآن». لم يحجز تذكرة طيران للعودة، لكن يمكنه العثور على واحدة قد اعتذر عنها أحد المسافرين. كان ليون وشوانغ لطيفين معه، لكنه لم يُرِد استغلال ذلك، فلا يمكنك الظهور من حيث لا ندري وتنتظر معاملة كابن حقيقي!

بالمقارنة مع وسط المدينة فإن أرصفة المشاة في ويست ليك كانت بلا عيب. لم تكن هناك علكة أو نفاية تشوِّه طريقهما، ولا برك برتقالية غريبة ولا فخاخ مباغتة من مخلَّفات كلب كما هو الحال في نيويورك. تدحرجت حصاة أسفل رصيف المشاة، كان الطريق دون عوائق، فركلها دانيال، مراقباً إياها بينما تنحرف إلى اليمين.

قال ليون: «توقَّف!».

رأى دانيال فجوة في السياج وممرّاً قصيراً يمتد إلى أرضية أرحب، وفي النهاية كانت هناك بناية. عندما مدَّ رقبته، رأى ناطحة سحاب لونها بيج، وصفوف من الشرفات.

قال ليون: «لعلنا قد فوَّتنا تلك البناية».

دخلا الممر الذي كان أمامه حارس العقار، يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً رماديّاً يطفئ سيجارته في منفضة سجائر معدنية.

سألا نفس السؤال الذي طفقا يسألانه طوال الظهيرة. هزَّ الحارس رأسه، ليس ثمة بولي غوو في البناية، ولا بيلان.

كرر ليون: «ولا بيلان؟» كأنه لا يصدق ذلك.

«هي معلمة لغة إنجليزية. مديرة مدرسة إنجليزية».

«أوه! كان ينبغي لك قول ذلك. أنا أعلم السيدة المعلمة التي تتحدث عنها».

قال ليون: «بولي!».

«بولي لين».

قال دانيال: «لقد أخبرتنا لتوِّك أنه ليس ثمة بولي في هذه البناية».

رفع الحارس سماعة الهاتف وضغط بعض الأرقام على لوحة مفاتيح مخفية «سوف أهاتف الشقة من أجلك».

كان ليون يتحرَّك متسرعاً طوال الممر. كان العرق يغمر ملابسه، وضع الحارس السماعة وقال: «هو قادم هنا كي يقابلك».

سأل دانيال: «هو؟»

«يونغ. زوج بولي. هي ليست بالمنزل الآن».

رفع ليون حاجبيه. أشعل الحارس سيجارة أخرى. أراد دانيال زجاجة مياه، لكنها نفدت، زجاجتاهما صارتا فارغتين، لم يعلم ماذا سيقول لزوج أمه.

بعد خمس دقائق انفتح الباب الأمامي من البناية وظهر رجل يوحي مظهره كما لو أنه رجل عصابة، ببزَّة سوداء وقميص غير رسمي، ونظارة شمس سوداء، وبينما يقترب لاحظ دانيال أزرار أكمامه الفضية وخاتمه الزبرجدي.

أومأ الرجل إلى ليون ودانيال: «أنا يونغ». كان صوته أجشّ، لكنه لطيف على الرغم من ذلك. كان شعره أسود فاحماً بظل لا يمكن خروجه على هذا النحو إلا من خلال زجاجة صبغة. التجاعيد التي تعلو وجهه جعلته رغم صغر عمره يبدو أكبر من ليون قليلاً: «هل يمكنني مساعدتك؟».

«اسمي ديمينغ. أنا أعرف زوجتك ـ من نيويورك وهذا ليون». لم يكن واثقاً مما سيقوله بعد ذلك. لم يكن يونغ كبيراً، لكن يبدو وكأنه رجل مخيف، إذا أهنته أو قلتَ شيئاً خاطئاً.

لو أن أمه لم تخبر زوجها بأمره إطلاقاً، فلربما يعرِّضها للخطر، ويعرِّض نفسه للخطر، من خلال الكشف عمّن يكون هو.

خلع يونغ نظارته وتفحَّص وجه دانيال: «ماذا قلت، ما اسمك مرة أخرى؟». كان لاثنتين من أسنانه غطاء ذهبي.

«ديمينغ... غوو».

«عجباً أنت ابنها! تشبهها كثيراً. يمكنني رؤية ذلك، الأنف، الفم، الفك! يا للعجب. لقد ذكرت أنها تحدَّثت إليك أخيراً وأنك تعيش في نيويورك؟».

نظر دانيال إلى عيني ليون ثم ضحك: «أجل! أنا هنا لزيارتها».

«سوف تنزعج كثيراً حين تعلم أن فرصة رؤيتك قد فاتتها».

«أين هي؟».

«في بكين. المدرسة التي تعمل بها ترغب في توسيع فروعها، لذا فقد سافرت لدراسة السوق. علاوة على ذلك فسوف يُعقد مؤتمر هناك هذا الأسبوع عن التعليم، وهي ستكون إحدى المشاركات».

«حاولت الاتصال بها لأيام، تركت لها عديداً من الرسائل».

«سُرِق هاتفها في القطار. هاتفتني من الفندق أمس».

«متى ستعود إلى فوزهو؟».

«نهاية هذا الأسبوع». ناول يونغ هاتفه لدانيال: «هذا هو الاسم، مؤتمر معلمي الإنجليزية، في فندق بارك هوتيل».

مرر دانيال الهاتف لليون كي يترجم، فقال: «لا يمكنني قراءة الصينية».

كانت وجبة المعكرونة ولحم الضأن شهية للغاية بالضبط كما قال ليون، لا سيما أنها كانت منقوعة في الشراب. لمَّا عادا إلى الشقة كانت ييمي وثلاثة من الأطفال الآخرين يقودون دراجاتهم في ساحة الانتظار. كانت شوانغ وبعض النسوة الأخريات يجلسن على كراسي حديقة، يشربن عُلب الشاي المثلَّج.

قال ليون: «خمِّني من سيذهب إلى بكين غداً؟».

كان دانيال يستمع بينما يحكي ليون عن يومهما، وبينما تحوَّلت المحادثة إلى الحديث عن الأسرة التي رحلت أخيراً من البناية، استأذن منهما وجعل يسير حول ساحة الانتظار. كانت توجد نسمة هواء، وكان العرق الموجود فوق ذراعيه وفروة رأسه يجف. كانت صفحة السماء أرجوانية فاتحة، وتلاشت رائحة القمامة مع تلاشي حرارة اليوم.

ترك الأطفال الآخرون دراجاتهم ليمرِّروا الكرة، وسمع ييمي تقول لأصدقائها: «هذا ابن عمي من نيويورك».

لوَّح لها، فقالت ييمي: «ديمينغ! التقط!».

رأى الكرة تتطاير في الهواء، شيء ضبابي أصفر سريع، رفع ذراعه، وتركها تهوي نحوه، صائحاً: «ارفعي رأسك يا ييمي!»، ثم ألقى الكرة ناحيتها مرة أخرى.

- 16 -

كانت بكين مدينة الدوائر. ستة طرق دائرية؛ كل منها أكبر من الآخر؛ سلسلة من الحلقات المركزية. محطة القطار كانت في الطريق الدائري الثالث، استغرق القطار فائق السرعة المغادر من فوزهو 12 ساعة. تمكَّن دانيال من النوم فقط لغفوات سريعة بسبب الجهد، وتورَّمت قدماه جراء الجلوس الطويل. خارج المحطة تجاهل حشد راكبي الدراجات المتجمِّع، واستقل سيارة أجرة إلى فندق بارك هوتيل. كلَّما كان يقترب من الطرق الدائرية الداخلية، كان يزداد تعقيد الهندسة المعمارية، سواء المنشآت الشاهقة المضيئة بالنيون، أو المباني القديمة ذات الأسطح الصدفية. دخان كثيف قد غطى الطوابق العلوية من المباني الشاهقة، وأناس على أرصفة المشاة كانوا يضعون أقنعة أو أوشحة متلثِّمين بها. موسيقى التكنو الجامحة تجتاح عبر الراديو، مرجفة الصين الحمراء. طلب دانيال من السائق رفع الصوت. اجتاحت السيارة كلمات الأغاني المفعمة بالحركة، ثم صاح رجل بلكنة الماندرين: «أعلى رجاءً!»، استجاب السائق، وتعمقت الألوان «أعلى».

كانت لقاءات مدرسي الإنجليزية منعقدة بالدور الأرضي في فندق بارك هوتيل. دفع دانيال للسائق وشكره بالماندرينية، وخرج إلى زاوية الشارع

حاملاً حقيبة ظهره. كان الشارع يكتظُّ بالمحلات التي تبيع مجوهرات يشم مزيفة وتماثيل بوذا للسياح، ولقد سمع رجلاً يقول بالإنجليزية: «اللعنة، أحتاج إلى قيلولة». كانت طريقة نطقه لحروف العلة الطويلة غريبة ومبالغاً فيها بشكل يصم الآذان.

مشى عبر الأبواب الدوارة للفندق، خلال الردهة، مارّاً بمكتب الاستقبال، ومنعطفاً عند الزاوية؛ حيث تقف سيدتان تعلِّقان شارات بيضاً باسميهما؛ تجلسان على طاولة موضوعاً عليها كتب ومجلات. جدول لقاءات بالإنجليزية والصينية، كان معروضاً على منضدة معدنية، ورأى اسم أمه، بولي لين، مدرجاً كواحدة من المتحدِّثين في اجتماع الخبراء تحت عنوان «تعليم الدارسين الشباب»، من الساعة 10:30 حتى 11:30 صباحاً. نظر إلى هاتفه، وكانت الساعة 11:05.

قاطعه رجل في حلَّة زرقاء؛ كُتب على شارة اسمه واي من المدرسة الإنجليزية في سوزهو، قائلاً: «هل لديك شارة باسمك؟».

«أعتذر، لا بد أنني تركتها في غرفتي. هل يجب عليَّ الذهاب وإحضارها؟».

التفت واي ليتحقَّق من السيدتين على الطاولة؛ وبينما كان ثلاثتهم يتشاورون، تسلَّل دانيال إلى قاعة المحاضرات وجلس على أول كرسي شاغر رآه، بالصف الثاني من الخلف؛ والذي كانت رؤيته محجوبة إلى حد ما بسبب العمود. كان يجلس على المسرح امرأتان ورجل، وإحدى السيدتين كانت أمه. امرأة ثالثة، منسِّقة الجلسة، كانت تجلس على كرسي منفصل. أمسكت أمه بالميكروفون وقالت: «هذا ما أعنيه»، كلماتها واضحة ورصينة. كانت تؤدي إيماءات مقنعة ولافتة للنظر بيدها اليمنى بينما تمسك الميكروفون بيدها اليسرى، وكان دانيال سعيداً لرؤية أنها لا تزال تستخدم يديها عندما تتحدَّث «لا يمكنك تطبيق المنهجية نفسها التي تتبعها مع المتعلمين الكبار عند تعليمك للصغار. ليس ذاك قياساً مناسباً يصلح تطبيقه على جميع الأعمار». صفَّق عديد من الأشخاص الحضور، وكان دانيال ممن انضم إليهم، جاعلاً تصفيقه أعلى صوتاً ورنيناً.

سألت منسقة الجلسة الرجل سؤالاً عن إعداد منهج اللغة الإنجليزية بمراجع صينية. مرَّرت أمه الميكروفون. لقد كانت ترتدي نظارة بإطار ذهبي، وسترة بنية مريحة، وبلوزة قِشدية اللون مع كشكشة ذات مظهر حيوي، ووشاحاً حريرياً مزركشاً. شعرها كان قصيراً، منفوشاً ومموَّجاً. لم تبد أكبر بعشر سنوات، لم يستطع أن يرى أي تجاعيد أو شيب، على الأقل من تلك المسافة، على العكس كان مظهرها جميلاً ومصقلاً. ليست كهؤلاء الأساتذة في كارلوف بمظهرهم الهيبي الذي عفَّى عليه الزمن، ولا تبدو كبيتر وكاي في مظهرهما الكلاسيكي، لكن كامرأة أعمال أو صراف بنك، لقد كانت ترتدي تنورة بدت كما لو أنها شخص آخر غير أمه.

أعاد الرجل الميكروفون إلى السيدة التي بجوارها، وبعد حديثها تحدثت أمه مجدداً، وشعرَ دانيال بتيه، فخوراً بكمّ الثقة والذكاء اللذين تملكهما، وبمدى السلاسة والإتقان عندما تتحدث بالماندرينية. تلعثم الرجل، وضخَّم الميكروفون الانقطاع البسيط في صوته، وكانت جمل السيدة الأخرى يتخلَّلها توقف محرج، على عكس أمه التي تتحدث بلا أي تردُّد.

سألت منسِّقة الجلسة الجمهور ما إن كان لدى أحدهم أي استفسار أو تساؤل. تحدَّثت امرأة بالقرب من المقدمة وأخذت تثرثر بخصوص برنامج أعدته حتى أوقفتها منسقة الجلسة. رفع دانيال يده وسمحت له منسقة الجلسة. لقد عزف ما يكفي من العروض بحيث يستطيع أن يعرف أن أمه لن تتمكَّن من رؤيته في آخر قاعة المحاضرات وهي على المسرح، ليس وذاك العمود يحجب الرؤية. تحدَّث بأفضل أسلوب يمكن أن يحاكي به لكنة شمالية، محاولاً عدم التلعثم أو المبالغة، لأنها كانت ستصبح محاولة سيئة لتقليد الماندرينية: «أرغب في تعلُّم المزيد حيال التعليم المزدوج في المدارس الصينية. هل تدرسون الصينية والإنجليزية في الوقت ذاته؟ وماذا عن الطلاب الذين يستطيعون تحدث كلتا اللغتين؟».

أجاب الرجل على المسرح عن السؤال، متحدِّثاً عن مبادرة في الكلية حيث

يعمل، لكن دانيال رأى أمه تجوب بناظريها في القاعة؛ تبحث عنه، بينما يكافح وجهها ألا يتلفَّت يمنة ويسرة، فكتم ضحكته.

وجدته بعد نهاية اللقاء يخترق الصفوف منتظراً ليتحدَّث معها.

«ديمينغ، اللعنة! لقد أفزعتني!».

اتسعت عيناها، وتبادلا التحديق كل منهما في الآخر. لقد كانت تضع مكياجاً ـ لا يذكر أنها كانت تضع مكياجاً من قبل ـ وتغطي بشرتها بودرة خفيفة على نحو متناسق. لقد شعر بالارتياح عندما سمعها تشتم، ليعلم أن جزءاً منها لا يزال قابعاً أسفل هذه المساحيق الظاهرية.

«مرحباً ـ أمي». انبثَّ الدفء في وجهه وفي يديه، لما شعر بخجل شديد عندما لفظ هذه الكلمة؟ بدا كما لو أنه يدعي شيئاً لم يعد موجوداً منذ مدة طويلة بالنسبة إليه. تهادت شفتاها، كان قلبه يخفق بصوت عالٍ بحيث كان بمقدوره أن يسمع اندفاع الدم في أذنيه. كان الناس يحاولون المرور بجانبهما، ودانيال وأمه لا يحركان ساكناً، كل ما كان بمقدورهما فعله هو الوقوف هناك؛ يتأمل كلاهما الآخر. لقد أثقلته حدَّة تفرُّسها في وجهه؛ لدرجة أحسَّ أن عليه تفاديها والاختباء منها. لقد أراد أن يعتذر لها أنه كبر، وأنه أصبح على هيئة أخرى غير التي اعتادتها.

هرعت إليها منسقة الجلسة قائلة: «سنذهب لتناول الغداء يا بولي مع مجموعة شنغهاي».

أجابتها ولم تزح عينيها عنه: «لا أستطيع. ابني هنا».

التفتت منسقة الجلسة وقالت «ابنك؟ لا بد أنه مدرِّس تعليم ثنائي أيضاً».

أجابها دانيال: «شيء كهذا». أراد أن يخبرها أن ترحل وتتركهما بمفردهما، ألا تستطيع أن ترى أنهما لا يريدان لأحد أن يزعجهما؟

عقدت أمه ذراعيهما معاً؛ مستشعراً ارتجافها. قالت له: «لنذهب»، وخرجا عبر الردهة ثم غادرا الفندق بأكمله. كانت ترتدي حذاءً ذا كعب عالٍ؛ أسود ذا

رأس ناتئ، وكان هناك إحساس في حركاتها بأنها ترغب في تعويض كل ما فاتها؛ ملامحها طبيعية حذرة من المبالغة. ظلَّت تحيط ذراعها بذراعه، تقوده في شارع مزدحم من ثم إلى سيارة أجرة، مرشدة السائق إلى وجهتهما في ماندرينية سريعة، ثم وجدا نفسيهما عالقين في ازدحام مروري لا تبدو له نهاية.

قالت: «لقد قطعت كل هذا الطريق من نيويورك».

أجابها: «لقد استقللت الطائرة من نيويورك منذ أيام عدة».

نبرة صوتها أصبحت حادة ومختنقة: «لقد قطعت مسافة طويلة!».

«في الواقع، لقد استقللت القطار اليوم من فوزهو».

أخذت منديلاً من حقيبة يدها وجفَّفت جبينها، ثم عينيها «لا أحب الصعود على المسرح، وأن يشاهدني الجميع».

«لكنك كنت مذهلة». لاحظ تحرك عضلات وجهها، والكدح في أن تُبقي نفسها متماسكة «ماذا عن تدريسك أمام صف دراسي؟».

«ليس بهذا السوء، فأنا لا أدرس كثيراً هذه الأيام، مع ذلك عملي متعلِّق أكثر بالإدارة، هل تشعر بالجوع؟ راسلني يونغ عبر البريد الإلكتروني ليخبرني أنك جئت إلى السكن».

«لقد أردت مفاجأتك».

«أحد الحمقى سرق هاتفي في القطار. كان عليَّ شراء آخر، وتغيير رقمي. أمر مضنٍ. آمل أنك ما زلت تحتفظ بهاتفك».

تحسَّس جيبه: «لا يزال هنا».

«لم تذهبي إلى بكين من قبل، أليس كذلك؟».

«لا».

«هذه المرة الثانية لي هنا خلال هذا الشهر، لقد كنت أسافر كثيراً من أجل العمل».

«هل تحبين بكين؟».

«ثمة عديد من التغييرات التي تحدث هنا».

«كانت هناك أعمال بناء في جميع أنحاء فوزهو عندما كنت هناك».

«هنا أيضاً الحكومة تهدم هذه المنازل، حيث عاشت عائلات فيها لسنوات، يقولون إنهم سيدفعون لهم تعويضات مناسبة، لكنهم يدفعونهم إلى شقق سيئة على الطريق السريع الخارجي».

«يبدو الأمر كنيويورك. هناك مبانٍ جديدة ضخمة في الحي الصيني الآن، بحواجب وأشخاص بيض». شاهد دانيال الزحام المروري يتلاشى، ثم يختنق مجدداً، لقد كانوا يتحركون لمدة عشر ثوانٍ فقط ثم يقفون مجدداً. أينما كانت تصطحبه أمه، فلن يصلوا هناك قبل السنة المقبلة.

اصطدمت شاحنة في الحارة التالية «منذ عشر سنوات، كان هذا ممراً للدراجات».

«أتفضِّلين ركوب الدراجات؟».

ضحكت قائلة: «أبداً».

«في ريدجبورو، المدينة التي عشت فيها بعد أن رحلتِ، تحتاجين إلى سيارة للذهاب إلى أي مكان، ذات مرة أخبرت صديقاً لي أنني سأستقل القطار لأراه، لكنني تذكَّرت أن ليس هناك قطار».

«صينيتك قد تحسَّنت. لا تبدو كما كنا نتحدث على الهاتف».

أعجبته مضايقتها اللاذعة، مستذكراً مشاكستها، وحبَّها الكتوم. كم كان مختلفاً عن مشاعر كاي المجردة، أمه لم تطلب أبداً طمأنته.

«أنا في الصين منذ أسبوع الآن».

قالت له: «لم تفقد اللغة، أنت تحتاج فقط إلى التعامل بها مجدداً، ودماغك سيتذكَّرها». اندفعت سيارة الأجرة نحو الأمام «الدماغ مرن».

«هل الأمر كذلك معك بالنسبة إلى اللغة الإنجليزية؟».

«قد تضحك إن سمعتني، لكن بالمقارنة مع الأساتذة الآخرين، فأنا عمليّاً أتحدث الإنجليزية بطلاقة. قليل جداً منهم من سافر إلى الخارج، لذلك فهم يتعلَّمون من الأفلام ويستمعون إلى التسجيلات، الأمر ليس بالمثل».

«سوف أساعدك على ممارستها إن رغبت في ذلك».

«لا بأس».

«متى يلزمك العودة إلى المؤتمر؟».

«ليس قبل الغد، سوف أفوِّت بقية اليوم، وأقضيه معك».

شعر بالارتياح، توقفت سيارة الأجرة عند مجموعة من المباني القديمة بأسقف مفصَّلة.

قالت أمه: «هذا القصر الصيفي».

قادته عبر جسر، وأسفل طريق طويل، السقف من الفسيفساء المعقَّدة بالأزرق والأخضر، فجأة أصبح المكان هادئاً، فُتِن دانيال بالألوان. عبرا إلى مكان مفتوح حيث تجمَّعت مجموعات سياحية، كان المرشد يتحدَّث في مكبرات صوت بالكانتونية، ودخلا دهليزاً أكثر هدوءاً، مارين عبر ممرٍّ مغطًّى حتى وصلا إلى بحيرة فسيحة.

توقف دانيال، يتأمل بذهول منظر هذه المياه الغزيرة.

جلسا على مقعدين متقاربين، وقالت أمه: «هذا هو مكاني المفضل في بكين، كان يقضي الأباطرة راحتهم الصيفية هنا، أسرة تشينغ».

لقد رأى جسراً مقوَّساً، وقوارب صغيرة بأسطح صفراء. شعور بالإجهاد سرى في جسده، كان منهكاً تماماً، فقد كان منذ أربعة أيام، في ريدجبورو.

«إنها بحيرة من صنع الإنسان، مثل بحيرة متنزَّه ويست ليك في فوزهو. أذهب إلى هناك عندما تبدأ الجدران في السقوط. هل ذهبت إليها عندما كنت هناك؟».

ما الذي عنته بـالجدران؟ «لقد تسكَّعنا أنا وليون فقط في الحي».

«وكيف حال ليون؟».

عقدت أصابعها معاً كما يفعل الحمام عندما يتقاتل على كسرة خبز ساقطة. كان دانيال يقوم بالشيء نفسه عندما يكون متوتِّراً؛ يبدأ في فرك أصابعه، أراد أن يفصل أصابعها بعضها عن بعض ويهدئ من توتُّرها.

«إنه في حال جيدة؛ لقد قابلت زوجته وابنته، لديهم شقة لطيفة».

«قال يونغ في رسالته إن ابني وأباه جاءا لزيارتي، ولدقيقة لم أكن أعرف عمَّن كان يتحدث. اعتقدت أنه يقصد هايفينغ، أباك الحقيقي».

«هايفينغ؟»، لم تذكري اسمه أبداً من قبل.

«لم أتحدَّث معه منذ سنوات طويلة، قبل أن تولد، حتى. أسمع أنه يعيش في تشيامن الآن».

«يبدو يونغ رجلاً صالحاً».

أشرق وجه أمه «نعم، عندما أخبرته أنني أرغب في السفر أكثر من أجل عملي، لم تعجبه الفكرة في البداية، وقال إنه سوف يفتقدني، لكنه في النهاية تفهَّم الأمر».

«ماذا تعنين؟».

«لا أحب البقاء في المنزل لمدة طويلة. الجدران والسقف نفسه. ينتابني شعور سيئ، وتراودني كوابيس».

«إذاً، لقد كان يعلم بأمري، قبل أن يراني حتى».

«نعم لقد كان يعلم».

ابتسم دانيال، فتهدَّلت جفونه.

سألته أمه: «أين يعمل أبواك بالتبنِّي؟».

«إنهما أستاذان بالجامعة».

«لا بد أنهما ذكيَّان».

لم يعد يعرف متى سيرى بيتر وكاي مجدداً.

لقد كان فزعاً من فكرة التحدث إليهما مجدداً، إلا أنه كان يخشى كذلك عدم رغبتهما في التحدث معه مجدداً. هذه المرأة بجواره، أمه، تلك الغريبة عنه، كانت الأسرة الوحيدة التي لديه. إنهما يودان مني أن أكون مثلهما، أن أذهب إلى الكلية وأدرس ما يدرسانه». لقد صارع ضد نزعته الداخلية في الدفاع عنهما.

«لكنَّني مع ذلك غير متأكد مما إذا كان هذا ما أرغب فيه».

شاهدا القوارب تطفو، وقد كان دانيال يحتاج إلى قيلولة. تساءل متى سيتحدثان، متى سيتحدثان حيالهما. أمسكت أمه بيده، واعتصرتها بقوة حتى كاد ينزعها، غير أنه آثر أن يدعها مضمومة بين راحتيها. لقد تذكر كيف كان يشعر أنه محاصرٌ عندما كانت تقبِّله كاي من وجنتيه وتخبره أنها تحبه، كما لو أنه من المفترض عليه أن يجيبها بالطريقة المناسبة، لكنه لا يشعر الشعور نفسه الآن.

تركت قبضته، لم يكن متأكداً متى حكمت أسرة تشينغ، إلا أن ذلك كان منذ أمد بعيد، ولقد تصوَّر الأباطرة وهما يجدِّفون عبر الماء في قوارب طويلة منزلقة، الأجنحة والمعابد ممتلئة بالناس، والآن الغرفة خاوية والأصوات الوحيدة التي يسمعانها هي صيحات المرشدين، فلقد كان مكاناً حزيناً، قصراً للأشباح.

«هل أنت جائع؟»، تركت أمه يده وربتت على ذراعه.

هل هما متشابهان بالفعل كما قال يونغ؟

«أريد أن أصحبك لتناول الطعام».

لم يكن يتضوَّر جوعاً؛ فلقد تناول وجبة إفطار دسمة على متن القطار، ولكنه تركها تصحبه إلى مطعم في الحي؛ حيث كانت واجهات المحل من الزجاج والكروم، وأناس يحملون حقائب تسوق وحقائب يد جلدية، كان المطعم ذا اسم فرنسي.

قالت أمه: «اجلس! سوف أذهب وأطلب الطعام»، وجد دانيال طاولة في الفناء وشاهدها تلج بالداخل، وهزَّة خفيفة في كعبها، فركت فَوْدَيها وأغلقت عينيها، ثم فتحتهما، وتحوَّلت ملامحها إلى ابتسامة مجاملة.

لقد كان الأمر مثل الوجود في ستاربكس في سوهو. أراح ظهره على مقعده، وكان على وشك أن يغفو عندما أتت أمه بصينية مليئة بالطعام.

«هذا المطعم مشهور بالحلويات». مرَّرت صحناً به شريحة من كيك الشوكولاته؛ كانت طبقة الكريمة بدأت تذوب عنها بالفعل، وصحناً من فطائر البيض. كوبان من القهوة، واحد لها والآخر له، وكومة من أكياس السكر وعلب من كريمة القهوة.

«شكراً لكِ»، أخذ الملعقة التي قدمتها له وقضمة من الكيك. طبقة الكريمة كانت لذيذة جدّاً لدرجة جعلت لسانه يتلوَّى.

شاهدته أمه: «هل الكيك جيد؟».

«إنه رائع!».

أخذت قطعة صغيرة من الكيك وغمستها في قليل من القهوة. لقد تمكن من رؤية لطخة في كحلها، ولقد رسمت حواجبها بقلم ترك أجمة في شعراتها «لتتناول فطيرة بيض»، وقربت الطبق إليه.

التقط واحدة من المعجّنات وأخذ قضمة «إنها لذيذة!»، مع أنها كانت بالية بعض الشيء.

«لطالما أحببت الحلويات».

لقد طحن فتاتاً من الكيك أسفل ملعقته، منتبهاً إلى أنها تحيطه بناظريها.

«تناول المزيد!».

أخذ قضمة أخرى. الأمر حقيقي، لقد كانت لها نفس العينين والفم. لشفتيها الانحناء نفسه والشق في المنتصف ـ لقد كان يعتقد دوماً أن فمه رقيقٌ شيئاً ما

بالنسبة إلى رجل ـ وأعينهما ذات بؤبؤ كبير وجفون سميكة. متى ما كان ينظر إلى المرآة خلال السنوات العشر الأخيرة، كان يشعر أن لا أحداً يشبهه، لكنها كانت معه.

لقد تركت راحة يدها على خده، وضعتها فحسب هناك. يدها دافئة ولم يستطع التحرك، كأنه لو انتزعها فسوف تنشق الأرض أسفلهما.

عندما أزاحت راحة يدها، خلفت بقعة ساخنة على جلده، فقال: «أنا هنا يا أمي»، وتنهدت هي تنهيدة عميقة.

لقد سارا عبر حي هوتونغ القديم، يتجولان عبر المدينة المحرَّمة، كل مبنى أكثر روعة وهيبة من سابقه، واليوم يمر وأمه لم تظهر أي علامة توحي بالضجر، ولم تتصرف كأنها على عجلة من أمرها كي تعود أدراجها إلى الفندق، لكن عندما كان يأتي على ذكر أي شيء حميد بخصوص برونكس ـ أتتذكرين تومي؟ السيدة جونسون؟ متجر البودجي، القطار الرابع؟ ـ أو يتكلم عن ليون أو فيفيان أو مايكل، كانت تغير الموضوع، وتأخذه مرة أخرى إلى الحاضر، لتتحدث عن بكين والهندسة المعمارية والتدريس.

لقد حظيا بغداء شهي من البط المشوي في مطعم فاخر ذي مفارش مائدة بيضٍ سميكة، ولقد أكل على قدر ما يستطيع، وذلك أسعدها على ما بدا. مع الوقت رجعا إلى بارك هوتيل، وقد كانت الساعة التاسعة ليلاً، وكانت غرفة أمه في الطابق الخامس، غرفة مزدوجة مثل تلك التي كان فيها في فوزهو، لكن أنظف وأكثر رقيّاً، واغتسل بينما كتبت هي رسالة إلكترونية على حاسوبها، وبعد أن جفَّف نفسه وفرَّش أسنانه، أخذ يتأمل انعكاس وجهه في مرآة الحمام. قبل أن يغادر، لعله يأخذ صورة لهما معاً كدليل.

جلست على سريرها مرتدية بيجامتها، بعد أن أزالت المكياج بقطعة قطنية.

«كلانا لديه سريره الضخم الكبير. بخلاف ما كان عليه الأمر عندما كنَّا ننام في نيويورك. لطالما قلت لنفسي لن أرجع لأعيش هكذا أبداً، لكننا لم نكن نرى أنفسنا كمحرومين، أليس كذلك؟».

أجابها: «لم نكن محرومين»، وفتح حقيبة ظهره وأخذ صورة قديمة لهما في جنوب شارع الميناء. «لقد أردت أن أريك هذه».

أمسكت أمه بالصورة من الزاوية «كيف وجدت هذه؟».

«كاي، أمي بالتبنِّي».

«كيف حصلت هي عليها؟».

«من فيفيان، على ما أعتقد».

أخذت أمه تحدِّق في الصورة «لقد كان حجمك ضئيلاً جدّاً، وانظر كيف كنت صغيراً ويافعاً!».

كان عليه أن يسألها. لم تكن لتركله خارج الغرفة في هذا الوقت المتأخر من الليل. بالكاد تلفَّظ بأول جملة خرجت من فيه «أكنت فعلاً لن تحادثيني مجدداً؟ هل كنت مرتاحة لذلك؟».

ناولته الصورة قائلة: «لم أكن أعرف إن كنت تود التحدث إليَّ أم لا، بعد كل شيء فعلته».

«بالطبع كنت أريد التحدث إليك. أنا من اتصلت بك أولاً، أتذكرين؟ وأنا من أتصل بك مجدداً، مرتين!».

«لقد أخبرتني ألا أتصل بك مجدداً في رسالتك الأخيرة». احمر وجهه وقال لها: «لم أعنِ ذلك. لقد كنت غاضباً».

لوّحت بيدها إليه، قاطعة حديثه: «لقد كنت محقّاً عندما قلت إنني لا أستطيع أن أدَّعي أنني لم أفسد الأمور».

ذهبت إلى الحمام، ثم عادت إلى سريرها. لقد كان الوقت متأخراً. لديها لقاء في الثامنة صباحَ غدٍ مع معلمين في اللقاء، وبعد ذلك سوف تتركه، في أي لحظة سوف تطفئ الإضاءة ولن يستطيع معرفة ماذا حدث.

تلحَّف بالأغطية وهو لا يزال جالساً. تأكدت أمه من أن الستائر منسدلة ومغلقة، أخرجت غطاء العينين، كان مبطناً بنسيج وردي، من حقيبتها.

«لا أستطيع أن أنام والإضاءة مسرجة، لذا إن كنت ترغب في البقاء مستيقظاً، فسأنتظرك حتى تنام أولاً».

بذلك سوف يبقيها مستيقظة قدر ما يلزمه من الوقت «لا أذكر أنكِ كنت كذلك في نيويورك. لقد كنت تنامين دوماً والستائر مفتوحة».

فتحت زجاجة حبوب وقالت: «تراودني كوابيس، في إحدى المرات استيقظ يونغ لدخول الحمام ونسيَ إطفاء الإضاءة في الردهة، واستيقظت أصرخ، فقام يصرخ هو أيضاً، لأنه سمعني أصرخ، ولقد كان كلانا خائفاً، لقد كان أمراً مضحكاً».

لم يبدُ الأمر مضحكاً «هل تراودك هذه الكوابيس كثيراً؟».

«ما دمت أتناول دوائي، فأنا بخير»، وأخرجت حبة دواء وأخذت كوباً من الماء «إنها تساعدني على النوم».

قال لها: «انتظري، هل يمكنك أن تنتظري وألا تأخذيها بعد؟ انتظري فحسب، رجاءً؟».

تردَّدت، ثم أعادتها إلى الزجاجة «يجب أن أحرص على أن الغرفة باتت معتمة».

ثم أطفأت الإضاءة بجانب سريرها، لذا أصبحت الغرفة مضاءة بالمصباح القريب منه «في آردسليفل، كان المكان مضاءً طوال الوقت، وكلاب توقظك في منتصف الليل. لا يمكنك النوم هكذا إطلاقاً».

«آردسليفل. هذا....»

«اسم المخيم، مخيم الاحتجاز».

قشعريرة سرت في ظهره. لقد تأمَّل لوحة مؤطَّرة على الجدار؛ صورة لنفس البحيرة التي زاراها اليوم «أخبريني عنه».

ضحكت ضحكة يعتريها التوتر «لا أستطيع».

«لن أغضب. أعدك».

«لا أستطيع ديمينغ. الحمل ثقيل، ولا أريدك أن تعرف».

«أريد أن أعرف الحقيقة. كيف انتهى بك الأمر هناك؟ ما الذي حدث لك عندما ذهبت إلى العمل ذاك اليوم؟ أرجوك! أستحق أن أعرف».

وضعت رأسها على ذراعيها «كانت هناك شاحنة. أغاروا على صالون تجميل الأظافر». انحنى إلى الأمام، يحبس أنفاسه «لم تكن هناك هواتف، ولا يوجد وسيلة للاتصال بأحد. عندما أُطلق سراحي، أرسلوني إلى فوزهو. بعدها لم أعد الشخص نفسه الذي كنت عليه»، وتوقفت «لو أخبرتك، لن تتفهَّم».

«رجاء حاولي!» لمس لوح السرير الأمامي من خلفه. لقد كان في بكين، الصين. نيويورك وريدجبورو ودانيال ويلكنسون... كل ذلك انهار واختُزِل العالم فيه وفي أمه فقط؛ صوتها وصوته فقط في غرفة الفندق.

أخبرته عن تذكُّرها أنها كانت في غرفة مكتظة؛ تنظر إلى الأرقام في هاتف.

«في آردسليفل؟».

«لا، كان ذلك لا يزال في نيويورك».

- 17 -

لم تكن هناك نوافذ في السيارة التي أقلَّتني، لذا كان من المحال أن أعرف إن كنا ابتعدنا خمسة شوارع أو خمسين شارعاً، ولم يمكنني رؤية أي من نساء هالو جورج، فقط غريبات يتصايحن ومزيد من رجال الشرطة في زيهم الرسمي. ناولني أحدهم الهاتف وقال إنه بإمكاني إجراء مكالمة.

حام إصبعي فوق لوحة المفاتيح بينما أحاول تذكر رقم ليون: 347، هذا هو الجزء الوحيد الذي كنت متأكدة منه. 8685ـ453، أو أنه كان 435؟ 8568؟ 445؟ كان رقمه مسجلاً في هاتفي الخلوي، لكنه كان في حقيبتي.

سألت بالإنجليزية: «أين حقيبتي؟»، لم يجب الضابط.

طلبتُ الرقم 8685ـ453ـ347. رنَّ الهاتف، وقد يكون ليون في العمل لكن يمكنني ترك رسالة له.

جعلت أرن. لم يكن هناك خدمة الرسائل، لذا فقد حاولت مرة أخرى 8685ـ435ـ347.

رن الهاتف مرتين ورفع السماعة رجل لكنه لم يكن ليون. سألت عن ليون، لكن الرجل قال شيئاً بلغة أخرى.

مدَّ الضابط يده ليلتقط الهاتف قائلاً: «هو اتصال واحد لا غير».

تجاهلتُه وطلبت مجدداً 8658_453_347، بعد رنَّات عديدة سمعت رسالة مسجلة، رسالة من تلك التي تكرر الرقم، متبوعةً بتعليمات لترك رسالة. لم تكن هي الرسالة التي يسجِّلها ليون على هاتفه، لكنني تحدثت سريعاً: «أنا نجمتك الصغيرة، لقد ألقت الشرطة القبض علينا من الصالون. أنا لا أعلم إلى أين سنذهب، لكن ابحث عني وتعالَ لتأخذني، بسرعة!».

بعد ذلك شعرت بكل تأكيد أن الرقم كان 8586_435، وفي مخيم السجن كان هناك هاتفٌ واحدٌ متدلِّياً من الجدار، لكن لم تكن به نغمة تدل على أنه يتصل. كل صباح خلال الأربعمائة والأربعة والعشرين يوماً اللاحقة، كنت أرفع سماعة الهاتف رجاء أن تكون هناك نغمة اتصال.

قلتُ: «لكن لم تكن هناك أبداً نغمة اتصال، هذا الهاتف اللعين لم يعمل قط».

«لقد كنتَ هناك طوال الأربعمائة والأربعة والعشرين يوماً؟»، بدا عليك أنك لم تصدق هذا.

«لقد كنت أعد الأيام».

«هذا قرابة العامين!».

«14 شهراً. أتفهم! لقد أخبرتُك هناك أكثر ممَّا يمكنك سماعه».

«ليس بالكثير، أريد معرفة كل شيء».

أردت التوقُّف عن الكلام، لكنَّني أردت أيضاً أن أخبرك، واصلت قائلة: «الساعات في فترة ما بين الاستلقاء والنهوض كانت كابوساً».

سقطت الطائرة في العتمة والرمال، على البعيد كانت الخيام المنصوبة محاطة بسلك شائك، صناديق بِيض كبيرة في فضاء قاسٍ من اللاشيء. إنها تكساس على الرغم من أنني لم أكن قد عرفتها بعد. نقطة النهاية وايتي

القصوى، شديدة البرد في الشتاء، وقائظة الحر في الصيف، حرارة حقيرة دنيئة اختطفت المطر وحجبته.

بلاستيك أبيض ثقيل تمدَّد فوق إطار الخيمة المعدني. طوابق خرسانية غير مستوية، كأنما كان الأسمنت مصبوباً على عجلة. بدا الطعام غثّاً: خبزاً جافّاً، عجينة شوفان مجروش، معكرونة بجبن لونه ضارب إلى الخضرة، ولأن منطقة تناول الطعام كانت مجاورة للمراحيض، فقد كان مذاق الطعام كالبول والقذارة. أخيراً تلاشت نكهة البول النفاذة، ولم يبقَ سوى الجوع، وبدوري فلم أكن أطعم سوى اللبن والجبن اللذين حصراني في المرحاض.

لم تكن الأنوار تنطفئ أبداً، لذا فقد كانت مقلتاي تؤلمانني وتخفقان دوماً. كنت أستلقي على سريري وأسمع صوت نوم ليون بجواري على السرير الذي كنا نتقاسمه، وأنت ومايكل إلى جوارنا على السرير الذي كنتما تتقاسمانه، كنتُ أسبُّ الحراس بالفوزوية. ثكلتك أمك! تبّاً لك! الجزء الأسوأ كان أنك تخال أنني هجرتك.

وعندما يأتيني النوم، كان يأتيني مباغتاً متسلِّطاً، ثم أستيقظ على أصوات، غير متأكِّدة إن كانت ساعات مرت أو دقائق، وأرى حارساً ينتصب واقفاً فوقي، يضع إشارة على جزء من ورقة.

كان الحارس يقول، فُحِصَ السرير.

كنت أرد بالإنجليزية: أنا هنا.

كانت الخيمة بقدر طول الشارع في المدينة لكنها أضيق. تنام فيها مائتا امرأة، وسرير ذو طابقين مقسَّم على ثمانية صفوف يضم كل منها ثلاثة أسِرَّة، وكنا نرتدي بناطيل زرقاً قاتمة ذات رباط خصر مطاطي، وقمصاناً لونها أزرق فاتح. خياطة رثَّة؛ أساور قذرة. لم يكن لدينا أي نقود، ولا يمكننا الحصول على أي نقود، طالما أن أُسرَنا لم تعرف أين نحن. كان يمكننا العمل كفريق نظافة، نكنس الأرضيات، وننظِّف المراحيض، ونخرج القمامة، كل هذا لقاء خمسين سنتاً يوميّاً، ولكن كانت هناك قائمة انتظار طويلة كي يمكنني الالتحاق، لا يزال أمامي ثلاثة وسبعين اسماً.

كانت الحمامات والمراحيض في كشك واسع مفتوح لها جدران منخفضة تصل إلى خصري. معظم الأيام لم يكن هناك صابون، وغالباً لم تكن هناك مياه. أُصِبتُ بطفح جلدي في وجهي، وظهر الطفح الجلدي كذلك على ذراعي، وصارت بشرتي قاسية وجافة، في المنتصف كان هناك مثمَّن زجاجي له نوافذ معتمة، حيث كان يمكن للحراس مشاهدتنا. كان بوسعهم أن يرونا لكن لم يكن بوسعنا أن نراهم، كنت أقف تحت سلم المثمَّن وألوِّح بيدي.

دأبت على سؤال الحراس دوماً، عن منظمة شؤون الهجرة، لكنهم كانوا يخبرونني أن أنتظر. لم يكن يقدِّم أي منهم النصائح أو الإجابات. بعض النسوة لم يكن يتحدثن أي قدر من الإنجليزية، والأخريات كنَّ يتحدَّثن بتلك الإنجليزية السريعة التي لا يمكنني متابعتها. أي يوم الآن، ظللت أخبر نفسي، ستتمكَّن ديدي وليون من أن يعثرا عليَّ ويخرجاني من هنا.

في اليوم الثاني عشر جاءتني امرأة صينية ذات نمش في يوم وجبة الشوفان وقالت بالماندرينية: «تعالي لتأكلي معي. أنا لاي». كنت سعيدة للغاية لأنني تحدثت مع إحداهن، وددت لو قبَّلتُها. خلال تناولنا وجبة الشوفان، عرفتُ أن لاي هي من شاندونغ في الأصل، وكانت في المخيم لمدة ثمانية عشر شهراً تقريباً، ولقد تلقَّت مخالفة سرعة في شيكاغو، وتم شحنها إلى هيئة الهجرة.

«ثمانية عشر شهراً؟»، كنت أحاول جاهدة أن أهدِّئ من حدَّة غُصَّتي من خلال تصوُّر نفسي وأنا عائدة معك إلى الوطن، هذه الاثنا عشر يوماً مجرد قطرة في بحر أيامنا الرتيبة.

والتفكير في رتابة هذه الأعمال كان يريحني. الطبخ برفقة فيفيان. ركوب القطار إلى العمل. أمرك أنت ومايكل أن تغلقا التلفاز، وأن تذهبا إلى النوم، والآن ذهب أمل العودة هذا أدراج الرياح «لا يمكنني البقاء هنا لهذه المدة الطويلة. لديَّ أسرة ولا يعرفون أنني هنا». نظرت حولي فإذا النسوة على الطاولات يغترفن جرعات الشوفان بأيديهن، ولم يكن هناك ما يكفي أبداً من الملاعق والشوك.

قالت لاي: «هناك بعض النسوة اللاتي بقين هنا لمدة أطول. هناك توجد امرأة تُدْعى ماري، عاشت في أمريكا منذ أن كانت تبلغ من العمر ستة أشهر، ولِدَت في السودان. كانت طالبة في الكلية، ولديها تأشيرة سفر، تم إلقاء القبض عليها في المطار عقب عودتها من الدراسة في فرنسا. قالت الحكومة إن أبويها لم يسبق لهما أن عدَّلا وضع هجرتها حين كانت وليدة، وأنها بحاجة إلى فحص بدني لاستكمال طلبها كي يمكنها تغيير وضعها، بالطبع كان الفحص يكلِّف ثلاثمائة دولار ولن يعطوها تلك النقود في آردسليفل، ولا يمكنها الوصول إلى حسابها المصرفي؛ لأن دائرة الهجرة حظرت اسمها»، هزت لاي رأسها «الروتينية».

لا أحد يعرف أي شيء. كان هناك كثير من الدعاوى في محاكم الهجرة، قالت لاي، وليس من حقنا الحصول على أشياء كالمحامين مثلاً، القاضي وحده هو مَن يملك أن يقرِّر إن كنتِ تبقين أم ترحلين. لا واحدة منا تعلم متى يمكنها مقابلة ذلك القاضي، لو أفرجت عنا السلطات من الحجز، أين سينتهي بنا المطاف؟

لقد كنت أشعر دوماً بالنعاس؛ أرغب في النوم طوال الوقت. كانت قدماي تؤلمانني جراء عدم سيري بالقدر الكافي. مرة أو مرتان في الأسبوع كان الحراس يسمحون لنا بالخروج إلى الفناء لمدة ساعة، ذلك المستطيل المحاط بالأسلاك الشائكة، واسعٌ بما يكفي لنا كي نقف ولا يفصل بين كل منا أكثر من طول ذراع، في الخلف كان العلم الأمريكي العملاق؛ يرفرف في الرياح الحارة، وساحة مفتوحة محاطة بأسلاك شائكة، تضم سجناً منفصلاً أطلقت عليه لاي اسم الجُحْر، وكان الرجال في الخيام الأخرى خلف ذلك السجن، خيام لا يمكننا رؤيتها.

كانت هناك أيام لازمت فيها السرير؛ أحكُّ جسدي تحت البطانية. افترضت أن الشمس كانت لا تزال تتبادل المقاعد مع القمر كل اثنتي عشرة ساعة، على الرغم من كل ما أعرفه، فقد تكون السماء خضراء والشمس الآن مربَّعة والنجوم قد انطفأت وصارت ملطَّخة كالبعوض الملتصق بأسفل النعل.

ديمينغ، دي - مينغ - قَرع اسمك يدُقُّ بين عينيَّ. كنت أنوي الرحيل، والآن قد تظن أنني رحلت عن عمد.

حككت ذراعيَّ بشدة بالغة وتشقَّق الجلد إلى بقع حمر غاضبة. ربما تكون قد نسيتَ وجهي، في المرة التالية التي أراك فيها ربما يكون صوتك أكثر انخفاضاً، ولربما يعثر ليون على امرأة أخرى. أحتفظ بالخاتم الذي أعطانيه، وأُحْكِم غلقه حول إصبعي، أحسست أنه يقرص بشرتي.

ليلةٌ مرصعة بالنجوم، حقلٌ معشوشب، فرَق صرصار الليل، أصوات الدجاج. أنت. حاولت تجسيد كل الأشياء التي أحبها، لو أن لعابي وفيرٌ لأمكنني التظاهر بعدم العطش. زجاجة المياه. كوب شاي. قبُلات ندية. ليون. حاولت الاسترخاء، آملة في بضع ساعات أنامها قبل فحص السرير الأوَّلي. أيادٍ دافئة. موسيقى صاخبة. أنت.

قصصت للاي عنك، كم كانت إنجليزيَّتك جيدة، وكيف تعتني بمايكل، لكن كل يوم كان قلقي يتزايد. هل تبلي حسناً في دراستك، هل تطعمك فيفيان بما فيه الكفاية، وأين تُغسَل ملابسك. لقد كنت بحاجة إلى حذاء جديد، كانت قدمك تكبر سريعاً، لم تكن لتسير لو أن حذاءك ضيق للغاية، ومن سيبتاع لك الحذاء، كيف تسير؟

أسابيع، ثم أشهر مرت. أستلقي على ظهري في السرير العلوي. لم تكن هناك مساحة كافية لأنام على أي وضعية غير الظهر وبلا حراك، درسٌ تعلمتُه حين تدحرجت من السرير فسقطتُ على الأرض. سحبت البطانية على وجهي، فانكشفت قدماي. بعد ذلك نهضت وذهبت لأتناول الطعام برفقة لاي.

كانت تجلس مع امرأة تُدْعى سمارا، كانت من باكستان. ثلاثتنا كان يمكننا التواصل مستخدمات ما نعرف من إنجليزية قاصرة.

بعض النسوة كن يخطِّطن لاحتجاج، قالت سمارا. كان هناك أناس من الكنيسة يتربَّصون خارج المخيم، وبطريقة ما فإن ماري المرأة التي عاشت في أمريكا منذ أن كانت رضيعة، استطاعت التواصل معهم.

قلتُ: «لن يكترث الحراس إذا احتججنا».

قالت لاي: «لقد رأيت ما فعلوه مع من احتج قبل مجيء كليكما. ثلاثة من الحراس أخذوا يركلون النسوة حتى نزفن، ثم فُصلن. ما الذي يجعلك تعتقدين أن الأمر سيشكِّل فارقاً الآن؟».

اليوم 203. توهَّج نور الشمس فوق سقف الخيمة. جلست فوق سريري، أدخلت يدي تحت أكمام قميصي، مصوبةً الأظافر نحو الجلد، ثم حككت. كنت أعلم أن ذراعيّ كانتا ملتهبتين بالفعل وحمراوي الشقوق، لكن الحك كان يُصدر ألماً مريحاً، الحريق الألطف على الإطلاق. حين حككت تمكنت من غرس أظافر يدي في كل ما أكتمه في صدري من كلمات خلال الأشهر الماضية.

بدأت في كراهية ليون وديدي، وفي العزم على نسيانهما. هل جرَّبا أن يبحثا عني على الإطلاق؟ ربما تلك الطريقة هي الأفضل، كي أتظاهر أنهما لم يكونا موجودين، فالاشتياق إليهما كان أسوأ، وكان ذلك متوقَّعاً.

رسمنا الخطة. حين تركنا الحراس في الفناء، لم نكن ننوي العودة. امرأة منا كانت ستبلِّغ شكوانا. كانت المجموعة الكنسية قد تواصلت مع الصحفيين، والذين سيأتون بدورهم ليسجلوا معنا كي يعرضونا على هؤلاء الأمريكان الذين سيعلمون عن المخيمات، والحكومة ستغلق آردسليفل ومن ثم يمكننا العودة إلى البيت.

لم أعتقد أن الأمر سيكون بهذه السهولة، لكن كان لزاماً علينا أن نحاول. كان من الأفضل أن أشارك على أن نقر بأنه ليس ثمة خيارات.

رفضت لاي أن تكون جزءاً من العملية.

بعد الغداء، فتح الحراس الباب الموصِّل إلى الفناء وسرنا خارجاً. بعد دقائق قليلة شرعنا في التحرُّك يمنة ويسرة، متحولين من مجموعات إلى صفوف وزوايا، كوَّنا حروف كلمة النجدة، كي يمكن للمروحيات الإخبارية أن ترانا من الأعلى.

وقفت خلف سمارا، أرفع أكمامي عالياً تحت الحرارة.

قالت سمارا: «بشرتك متشقِّقة، يبدو أنها تؤلمك».

أنزلت أكمامي مرة أخرى، قائلة: «إنها ليست بشيء».

وقفنا لوقت طويل، انتظاراً أن يحدث شيء، من وفد الكنيسة، أو من الصحفيين، لكن لم يحدث أي شيء سوى ما كان من الحراس من غضب، يصرخون فينا أن ندخل. لاي والنسوة الأخريات على الجانب الآخر من الفناء دخلن الخيمة. لم يكن هناك طيور في الصحراء، ولا سيارات تمر على طريق سريع بالجوار، ولا محيط بارد يطوِّق كاحلي، لم يكن سوى السماء الحارة، ثم سمعته... طنينٌ يشق الهواء. علا صوت الطنين ورأيت كياناً يلف حول السحب، نقطة زرقاء ليست بأكبر من طائر، تنامى الطائر وصار أكبر، والطنين صار راعداً.

لكن عندما حلقت الطائرة بعيداً، بات الصمت وحشيّاً. قلت لسمارا: «نحن لم نخطِّط لما يمكن فعله بعد هذا».

اندفع إلى الفناء حراس يرتدون خوذات ويحملون هراوات بلاستيكية، وبينما يمتلئ الهواء بالحوارق، احترقت عيني وصار لساني مريراً. ما كان يمكنني رؤيته فحسب؛ السحب والرجال أولي الخوذات. استشعرت هراوة على جانبي وكان أول ما اصطدم مني على الأرض هو ظهري.

حجم غرفتي الجديدة كان إحدى عشرة وطأة قدم طولاً وثماني عرضاً. كل تلك الأشهر في الخيمة أنتظر دوري للذهاب إلى المرحاض، وها أنا الآن يمكنني قضاء أسبوع جالسة في المرحاض بمفردي، كانت هناك حشية فوق رف خرساني، وكتلة خرسانية على هيئة كرسي، وضوء خافت لا ينطفئ أبداً.

ثلاث مرات يوميّاً، كان الباب الصلب في الجدار الأمامي ينفتح وكانت صينية تُرْمَى خلال شق كلسان ناتئ خارج الفم. أنا الإفطار، هكذا تخيَّلت الفم ينطق. مرحباً! أنا الغداء! كانت الصينية تحتوي على شريحة بنية. الإفطار أو

الغداء، شريحة. العشاء، شريحة. كان مذاقها كالعصيدة. تحدثت إلى الفم بينما أدفع الصينية فارغة معيدةً إياها. أتعرف كيف يبدو ذلك الشعور أيها الفم الكبير؟ أنت تحبه. إنه يروقك.

ثلاث مرات أسبوعيّاً، كان الحراس يثبتون سلسلة حول كاحلي، وأخرى حول خصري. ثلاث ساعات أسبوعياً كان مسموحاً لي أن أخرج، في قفص داخل فناء تحيطه جدران عالية، تورَّمت ساقاي وذراعاي جراء عدم تحرُّكي، وعيناي كانتا تؤلمانني لأنهما لم ينظرا إلى مكان بعيد، في بعض الأحيان كان يمكنني رؤية طيف الآخرين. أكان ذلك الطيف هو ماري؟ سمارا؟ لكنني لم أرَ أيّاً منهما بالقرب كي يمكنني التمييز.

وعلى عكس إرادتي تذكَّرت ابتسامتك تنبلج بينما كنا نركب المترو، تفكَّرت في تلك الكلمات التي تقطَّرت وانفلتت بسهولة بالغة على لسان بولي، التي كانت تصل دون اضطرار إلى بذل جهد أو ترجمة. تذكرت بيلان تقبِّل هايفينغ، وكيف أن جسد بيلان كان غضّاً للغاية حين كانت تلقي نظرة على نفسها في النافذة وتتأمل، أجل، إنها أنا. حينما كان من المفترض أن تتولى بيلان الغسيل كانت ستمشِّط شعرها لساعات حتى يلمع، ويتدلَّى منطلقاً بحيث يمكن لشعرها أن يقبض على الضوء ويشربه.

كانت الجدران كذبة، خدعة. كان بمقدوري أن أدفعهم بعيداً بيديَّ، بلطف وبعزم، كنزع قميص عن رأس طفل، أهبُّ على الأرض حتى تُزاح بعيداً ومن ثم سوف أكون في العشب، الشمس تتدحرج على جسدي، تطوِّق أصابعي. سوف يكون للشمس لسان لطيف وسميك، يلعق ببطء وتراخٍ، والعشب ستفوح منه رائحة الديدان والوحل، وسيكتسب جسدي سرعة بينما أتدحرج، يطير في الهواء محلقاً فوق التلال والمحيطات. هناك كان منزلي، وأبي في الفناء مع الدجاجات. سوف أصل، أحرِّك ساقيَّ ذهاباً وإياباً على مياه الشاطئ.

لأنني لم أكن حقيقية هنا. هذه كانت حياة شخص آخر كنت أشاهدها في فيلم وأقول: يا للأسف! يا لهذه المرأة المسكينة! أنا سعيدة أنها ليست أنا.

دفعت الجدران برأسي. كان بإمكاني هدمها، ومن ثم يمكنني العودة إليك لأبقيك برفقتي.

ضمَّدوا جمجمتي، هناك قرقعة في رأسي وخدوش في ذراعيَّ، ولأيام شعرت وكأن دماغي تنبت منه المسامير.

في غرفة ذات صفوف طويلة من الكراسي والطاولات، استمعت لشاب يرتدي بزَّة يتحدَّث عبر شبكة سلكية، ياقته يغمرها العرق، تنحشر كلماته خلال حاجز شبكي. لم أتمكَّن من معرفة أي لغة يتحدثها. آخر شخص كنت قد تحدثت إليه كان الحارس، ومن قبله كان الحارس. قال الرجل ذو البزة أنا محامٍ بالماندرينية، وبينما يتكلَّم كان يشير بيده، توهمتُ أنهما تلتفان حول عنقي فصرخت.

لا أعرف كم يوماً بعد ذلك، كنت في سيارة تحرَّكت صوب الطريق السريع، واغرورقت عيناي تحت ضوء الشمس المفاجئ. بعد ذلك كنت في غرفة ذات نوافذ، كان الارتفاع شاهقاً، لذا فقد أحسست بنفسي أسقط، ورويداً رويداً سار رجال ببناطيل زرق وقمصان حتى مقدمة الغرفة للتحدُّث إلى رجل عجوز قدَّم نفسه باعتباره قاضياً، ولما حان دوري تحدث القاضي إليَّ، لكنه تحدث سريعاً، لم أستطع معرفة ما قال.

امرأة بيضاء كانت بجواري في بزة بنية اللون، تنتظر إجابتي. نبست بكلمة واحدة ثم التفتُّ إلى المرأة المجاورة لي: لماذا؟

هوى القاضي بيده على المنصة. أنتِ لا. تكلمي أنتِ.

سأل القاضي بالإنجليزية: «ما اسمك؟».

أجبتُ: «غوو بيلان، بولي غوو».

هوى بيده إلى أسفل مرة أخرى. المرأة التي ترتدي البزة تتحدَّث بالماندرينية: «عليكِ أن تنتظري حتى أترجم».

«ما اسمك؟»، سأل القاضي مجدداً، ومرة أخرى أجبته قبل أن تتكلَّم المرأة.

كررت المرأة: «عليكِ أن تنتظري ترجمتي. لا يمكنك الرد على سؤاله حتى أترجمه أنا».

«ولكن ماذا أفعلُ هنا؟».

«يريدون ترحيلك، لكن يلزمهم الحصول على المستندات الصحيحة قبل كل شيء».

«لا يمكنهم ذلك. أين المحامي الخاص بي؟ لديَّ ابن هنا، هو مواطن أمريكي».

قال القاضي شيئاً لم يسعني سماعه.

قالت المرأة: «لقد فوَّت السؤال، تحدثت خارج دورك. هو بصدد إصدار أمر ترحيل يتضمَّن أنك لم تحضري اليوم لأنك تتكلَّمين خارج دورك».

«لكنني حضرت!».

الركوب قافلة إلى آردسليفل كان محموماً ومزلزلاً. رجل في زي ضابط شرطة طلب مني أن أضع إشارة على ورقة مطبوعة ذات كلمات إنجليزية، كتبت اسمي على الخط.

هناك في الخلف في غرفتي، تبدَّدت الجدران وخطوتُ خارجاً، كنت في طور التحوُّل إلى إنسانة أخرى مرة ثانية.

تذكَّرت ضوء الحبس الانفرادي يومض على حافة جناح الطائرة، الرجل على المقعد المجاور يهزُّ ركبتيه وكأنما كان على وشك أن يقفز من بنطاله. كان الوقت ليلاً. ارتعشت، تعرَّقت، لم أستطع تذكُّر آخر مرة أكلت فيها، بعد ذلك انحنيت وتقيأت على حذائي.

رجلان بزي رسمي ساقاني خارج الطائرة بورقة من فئة العشرين يواناً وبطاقة هوية صادرة حديثاً. كان هناك أناس حولي يتحدثون الماندرينية والفوزوية.

سألت الرجلين بالماندرينية: «أين نحن؟».

«فوزهو. تشانغل».

«ليس هناك مطار في تشانغل».

«بل أصبح الآن».

وجدتُ باباً ودفعته فاتحة إياه، وقفت على الرصيف، أشعر بالغثيان، بينما كانت الدراجات النارية والسيارات تحوم من حولي، كانت الضوضاء تصم الآذان؛ ترعد، وبينما أتقدَّم خطوة إلى الأمام، خطوت أمام دراجة نارية اقتربت ومرت، كادت تصدمني. قال الرجلان ذوا الزي الرسمي أن بإمكاني الذهاب، لكن إلى أين؟ ربما لا يزال هناك حراس يراقبونني.

كان صباحاً غائماً من نوفمبر، أو يناير، والهواء معتقاً بروائح أعهدها، ذكريات القرية: الخشب المحروق ورماد الورق، اللحم المشوي والملح، الرائحة الآسنة، وَحِلَّة زَخِمة مع قليل من العفن. عطر ضفة النهر. أكان هذا حقيقياً، أم أنه خدعة؟

احتجت أن أعثر عليك. انطلقت حافلة قاصدة ميانيانغ، فتحت الباب سائقة شعرها مصفف بشرائط طويلة معقوصة. حدقت بها، فقالت: «هل ستركبين أم ماذا؟».

دفعت قيمة التذكرة من ورقة العشرين يواناً، جلستُ إلى جوار النافذة، وراقبت الطريق وهو يتلاشى خلفي كلما ابتعدنا عن المطار. لم يكن أحد يرصدني لأسابيع، بل لشهور، بل لسنوات، كلما ارتدت زاوية جديدة أو فتحت باباً، كنت أتوقَّع أن يكون هناك شَرَك نصبه لي الحراس، حتى الآن لا يمكنني الجزم بأنهم لن يأتوا إليَّ يوماً ما.

كان مدخل القرية المقنطر أوسع بكثير مما كان عليه قبل عشرين سنة مضت، والامتدادات بُنِيَت من الجانبين وحتى الأعلى، وكان هناك أيضاً لافتات شوارع وأعمدة إنارة جديدة. صارت الطرق الترابية كلها معبدَّة ومرصوفة. تخطَّيت دجاجات وشاحنات ودراجات وأغطية بلاستيكية معلقة بين الصواري وملصقات على الجدران يعربن عن مشاريع تنموية جديدة.

تفرَّستُ وجه كل شخص كنت أراه، أخشى اللحظة التي سأتعرف فيها إلى أحدهم أو يتعرَّف أحد ما إليَّ، لكن على الرغم من ذلك بدا بعض الناس مألوفين، لم يمكنني تحديد أي شخص أعرفه. بعد عشرين سنة في البعيد، لم يبدُ أي شخص كما كان.

عند حامل الجرائد التقطت جريدة الصباح وطالعت التاريخ في الأعلى. كان الشهر هو أبريل، لكن السنة كانت مختلفة. لقد عددت الأيام بطريقة صحيحة. أربعة عشر شهراً من عمري قد انقضت بينما كنتُ في آردسليفل.

شعرت كأنني سأفقد الوعي. دار رأسي. بحثت في وجه بائع الجرائد علَّني أجد دليل تمييز، لكن لم يظهر أي دليل.

في الزقاق الثالث كان الممر نظيفاً مكنوساً، وكانت هناك طبقة طلاء حديثة على منزلي القديم. حاولتُ فتح الباب، لكنه كان مغلقاً. طرقتُ الباب، فأجابت السيدة لي، كانت ترتدي بزة رياضية بنفسجية تعلوها زهور داكنة.

«بيلان؟ ماذا تفعلين ها هنا؟».

«ماذا تفعلين في منزلي؟».

«كنا نسكنه. ابن عمي وأسرته يعيشون هنا، على الرغم من ذلك فقد عادوا إلى الريف الأسبوع الماضي لقضاء العطلة. هل أنت عائدة لقضاء عطلة؟».

«تشوينغمينغ». قالت السيدة لي كلماتها ببطء بينما تتفحَّص زيي الموحد لآردسليفل.

«أنت تقيمين في أرضي، بيتي؟».

«كنتِ في أمريكا. لم يمكننا التواصل معك».

«أنا لم أعطك البيت».

«يمكنك البقاء إن أردتِ».

«ليس من شأنِك أن تقرِّري».

اندفعت متخطية إياها. داخل البيت كذلك كان قد أُعيد طلاؤه. كانت غرفتي القديمة تكتظُّ بممتلكات ابن عم السيدة لي الريفي وزوجته. ماتت السيدة لي منذ ثماني سنوات، وهايفينغ وزوجته رُزِقا طفلاً من صلبهما، يبلغ من العمر خمس سنوات أرتني صوره السيدة لي. شعرت بالارتياح حين لاحظت أنه لا يشبهك.

توافد الجيران، على الرغم من أنني لا أذكر أسماء معظمهم، وبدوا مندهشين حين رأوني. هل تغيرتُ إلى هذه الدرجة؟ أخبرتهم أنني عدت إلى البيت لأنه لا تتوافر كثير من الوظائف في نيويورك، وأنك تقيم مع أقربائك حتى تنتهي من دراستك. لقد كان احتجازي لما يربو على العام أمراً مخزياً، كأنما قد تم اكتشافي بسبب غبائي، ولا يمكنني إطلاع أي أحد على ذلك.

أعطتني السيدة لي بزَّة رياضية وردية اللون لأرتديها. طفتُ القرية دون أن يعترضني جدار أو سياج، أهز ذراعيَّ وساقيَّ، أبتلع الهواء النقي، وفي المقبرة شاهدت اسمي إلى جوار اسم أبي على شاهدٍ يضم أسماء أهالي القرية ممَّن تبرَّعوا بالمال لإجراء الترميمات. يلزم أن يكون أبي قد تبرَّع بالمال الذي كنت أرسله إلى البيت. أكلتُ لحماً وأرزاً وخضراوات لكن لم أطعم الشوفان، سمعت الموسيقى والسيارات والناس، سرت لساعات دون تلقِّي الأوامر من الحراس القابعين بالداخل. أدخلت شفرات العشب بين أصابع قدمي وضغطت بالإبهام على الأوراق واللحاء، فاحت من الوحل رائحة حلوة، وكان النسيم لطيفاً ونظيفاً كالملاءات حديثة الغسيل، لكن المنزل لم يعد منزلي بعد الآن. أنجب ابن عم السيدة لي طفلة صغيرة، وكانت كتبها وملابسها منتشرة خلال الغرفة في الطابق السفلي. اختفى تلفاز أبي، وحل محله تلفاز جديد، ووجدت حذاءً مختفياً في زاوية تحت السرير، كان حذاء يخصُّك. ابتعته من أجلك في أول شتاء لي في نيويورك، قبل أن أرسلك إلى هنا. قبضت على الحذاء الرمادي الصغير في راحتي، تذكَّرت وأنا أمرِّر قدمك الصغيرة فيه، وشدِّي للأربطة بإحكام. لقد كان هو ما تنتعله تقريباً حين عودتك من نيويورك. استقرت الأوساخ في طياته، والنعل بدوره قد ترك تراباً في راحتي. لم أتمكَّن من إيجاد الفردة الأخرى.

تلك الليلة نمت في منزلي، وفي الصباح التالي أخذت الحافلة إلى فوزهو حاملة خمسة آلاف يوان دفعتها لي السيدة لي لقاء امتلاك منزلي. لاحقاً عرفت أن المنزل كان يستحقُّ خمسة عشر ألفاً، بل وعشرين، لكن ساعتها لم يكن ذلك هو الأمر المهم.

في وسط المدينة لم تبدُ فوزهو على حال أحدث مما كانت عليه قبل عشرين سنة مضت. كانت النوافير تتدفَّق في الميدان، محاطة بتماثيل من الرجال والنساء الذين يرفعون أيديهم، وأولي الأوجه التي بدت وبغرابة أوروبية الملامح. سارت الناس نحوي واجتازتني في بزَّات عمل، في مقصورة الهاتف، طلبت رقم المرابي، وحصلت عليه من الجيران في الزقاق الثالث، وأخبرت الرجل من أنا، وتاريخ مولدي، واستفسرت عما دفعته قبل أن أغادر نيويورك، وأنني في الصين وأريد معرفة ما بقي عليَّ من دين.

قال: «لحظة واحدة. دعيني أراجع». انتظرت بعد ذلك، عاد الرجل إلى الهاتف قائلاً: «لقد تم سداد دينك، رصيدك الآن صفر».

عضضت إصبعي، لا بد أن ليون هو من سدَّد الأقساط، شهراً فشهراً، إبان كنتُ في آردسليفل.

ابتعت بطاقة اتصال دولية وطلبت رقم ليون، الشخص الذي فكرتُ فيه وتذكرتُه. رنَّ الهاتف مرتين ثم انقطع الاتصال، لم يجب أحد، ولا بريد صوتي. حاولت مرة أخرى وأخرى وأخرى. ظللت في مقصورة الهاتف أجرب مزيجاً مختلفاً من أرقام الهواتف، كل الاحتمالات الرقمية التي قد تخصُّ ليون، ولكن لم يكن أيها الرقم الصحيح، حتى إنني اتصلت بهاتفي المتحرك القديم، الرقم الذي أتذكَّره تذكُّراً تاماً، والذي ردَّت فيه فتاة مراهقة، لم أتذكَّر إطلاقاً رقم هاتف ديدي أو هالو جورج، ومع كل مكالمة هاتفية عديمة الجدوى يتراجع تفاؤلي، حتى أخذت أبكي في أكمام بزَّة السيدة لي. لقد فقدتُك، ضاعت أسرتي. أربعة عشر شهراً انقضت، والأدهى أنني لا أجد لنفسي مكاناً أعيش فيه.

وكان الجوع وحده هو ما أخرجني أخيراً وقادني من مقصورة الهاتف حتى أقرب كشك للطعام، حيث أكلت حتى هدأت رجفتي وقَوِيَ يأسي ليتحول طموحاً. دلَّتني السيدة لي على صالون لتجميل الأظافر، الأول في ميدان وويي سكوير، وجدت المكان وقدمت نفسي للمالكة، امرأة كان طلاء الأظافر الفرنسي مقشراً على أطراف أصابعها. أخبرتها: «لقد عملت في نيويورك. اسمحي لي بعشر دقائق وسيمكنني رسم وجهك على ظفر إبهامك». بحلول الليل كنتُ قد تقلَّدتُ الوظيفة واستأجرتُ سريراً في بناية تعج بالعمال السيتشوانيين.

- 18 -

بابٌ بالأسفل في بهو الفندق صُفِقَ بشدة، تَبِعَ ذلك وقع أقدام. توقَّفتُ وفي منتصف الحديث سمعتُ امرأتين تتحدثان، يتلاشى صوتهما بينما تتجهان ناحية المصعد، شعرتُ وكأنني أفيق من غفوة. لقد سألتَني أنك تريدني أن أخبرك الحقيقة، والآن هذا ما فعلتُ، تبدو وكأنك تتمنَّى أن لم أفعل.

قلتَ: «لمْ يمكنك الاتصال بي، لأنني بالفعل كنتُ في ريدجبورو».

«أنا أعلم ذلك الآن، لكن حينها كنتُ قلقة للغاية».

«لكنكِ وجدتِ ليون، بل وقابلتِه كذلك. ألم يخبرك أن أسرة قد تبنَّتْني؟».

حاولت أن أستبصر ما ينبغي لي قوله.

«كنت تعلم، ولم تفعل أي شيء؟».

قلتُ: «لم أعثر عليه. هو من عثر عليَّ».

كنت أبحث أسبوعيّاً خلال يوم عطلتي، عن أسرة ليون. لو أنني وجدتهم فسيمكنهم تيسير تواصلي معه، وهو سوف ييسِّر تواصلي معك، وما انفككتُ عن الإيمان بذلك، لذا فقد ركبت حافلة صغيرة إلى قرية ليون وذهبت إلى كل

البيوت التابعة لأسرة غينغز في دليل الهاتف، لك أن تتخيَّل كم هو طويل ذلك الكتاب، لكن لم يكن أحد يعرف من هو.

وللوصول إلى مقر إدارة المقاطعة، اضطررت إلى ركوب حافلتين بين المدن، ومن بعدها ركبت حافلة صغيرة، ثم سِرت عبر أراضٍ قفرة من ساحات الانتظار.

ثم انتظرت خارج ذلك المبنى المهجور في الرطوبة، أتعرَّق في ملبسي الوحيد النظيف. كان الباب مغلقاً دوماً، والستائر محكمة الغلق. كان الصمت مخيفاً، ولم يكن هناك ظِلٌّ، لم يكن سوى نور الشمس على الأسفلت المجرد، وفي النهاية ينفتح الباب ويخرج الموظفون.

«معذرة!»، كلمتُهم بينما يجتازونني سائرين «انتظرت حتى يعودوا من راحتهم. يمكن أن تكون خمس دقائق، أو ساعتين، اضطررت إلى أن أعترضهم سريعاً، قبل أن يختفوا في المبنى». تعوَّدتُ أن أصطحب حقيبة فول سوداني للغداء وقارورة مياه، وأن أتحدَّث بأدب وبحزم في الوقت ذاته، مبتسمة لأثير كلّ من العجلة والتعاطف: «أنا أبحث عن أسرة ليون غينغ، أنا زوجته. لقد انفصلنا، وأريد العثور على أسرته».

بعد زيارات قليلة، عرفني الموظفون، كانوا يمتعضون حين يرونني أنتظر، ويتحاشون النظر إلى عينيَّ، قال رجل منهم: «سيدة غوو! لقد أخبرتك الأسبوع الماضي أن سجلات تسجيل الأُسر قد تم تصنيفها، إلا إذا أحضرتِ وثيقة زواجك».

«سوف أعود مرة أخرى، سوف أعود غداً».

ذهبت على نحو أسبوعي، وهاتفتهم كل يوم حتى قال الرجل إنهم سيعتقلونني إن لم أكفّ عن السؤال.

لشهور لم أكن لأتكلم إلا إن كنت مضطرة، أتجنَّب جميع السيدات الأخريات في النُّزُل، واللاتي عاملنني بريبة وتتكلَّم كل واحدة منهن مع الأخرى باللغة السيتشوانية. كان لديَّ رداءان وكنت أغسل كل واحد منهما في الحوض ليلاً بعد ارتدائه، أعلِّقه ليجفَّ على شماعة صنعتها من الأوتاد وشرائط المطاط. عملت

بكل ما أوتيت من حولٍ، حتى أصبحت منهكة للغاية بالقدر الذي لا يمكنني معه أن أتحمَّل مزيداً من الذنب والحنقة والحزن الطاغي، وفي بعض الأحيان وأنا أرسم أظافر المرأة كنت أشعر فجأة أنني بحاجة إلى الصراخ، وفي فترات الراحة كنت أذهب إلى كشك الحمام وأفعل هذا بالضبط، أحشر أصابعي في فمي كي لا يمكن لأحد سماعي. انصهرت الأسابيع بعضها في بعض. أيام العطلة كانت الأسوأ، لأنه لم يكن هناك عمل يُلهِيني، وكان ذهني طازجاً بما يكفي كي يسترجع ذكرياتك وليون وذكريات آردسليفل. مرَّت الساعات منتظرة خارج مبنى الإدارة، حيث كانت فرصتي لأقرِّع نفسي حتى إنني تمنَّيت أن تنحرف حافلة عن الشارع وتدهسني. بدأت في العمل سبعة أيام في الأسبوع. نظرت إلى نفسي مرتين في مرآة الحمام حين رأيت الأسى وشعور الجرح يعلو وجهي، كما لو أنني تعرَّضت لتوِّي للكمات متتالية، لكن ذلك أيضاً بدا عقاباً مناسباً.

ذات ظهيرة بعد أن كنت في الصين لمدة ستة أشهر، كنتُ أدهن أظافر قدم سيدة ما ولاحظت رجلاً غريباً في الصالون. عدت للانشغال بأظافر القدم، لكن كان يمكنني أن أشعر به يسير مقترباً نحوي، ولما رفعت ناظريَّ رأيتُ فجوة بين ثنيتي أسنانه فتركت دفقة الطلاء تنسكب على ركبتي.

قال: «نجمتي الصغيرة؟».

أنجزت العناية بالقدم بأسرع ما يمكنني، وطلبت من إحدى رفيقاتي في العمل أن تتولَّى زبونتي التالية واصطحبت ليون للخارج إلى الشارع. أخبرني أن واحداً من غينغز في قريته الأم، الرجل الذي تركت عنوان الصالون عنده، ذهب إليه في ماواي.

وجدنا زقاقاً ولفَّ كل منَّا ذراعه حول الآخر، وعندما ضغطتُ خدَّيَّ على خدِّه، كانت رائحة بشرته لا تزال كما هي، آسنة وحلوة، جميلة للغاية، مألوفة. متى كانت آخر مرة أمسك بي فيها أحدهم؟ منذ وقت طويل مضى. كان ليون قبل أن يتم أخذي إلى آردسليفل. أحكمت الإمساك به، أتحدث إلى عنقه «أين ديمينغ؟ هل هو برفقتك؟»، «أريد إخبارك بشيء». تحدَّث ليون إلى الجدار. أخبرني كيف

تبنَّاك زوجان أبيضان، أمريكيان في نيويورك، فيفيان هي من رتَّب لذلك. هي لم تعرف كي يمكنها التواصل معي، واعتقدا أنني لن أعود مرة أخرى. قال: «كان ينبغي لي ألا أرحل إطلاقاً، لو أنني لم أغادر لكان لا يزال برفقتي. إنه خطئي، أنا لا أعلم كيف يمكنني التواصل معه». سمعتُ نحيب ليون، وبعده صوت بكائي. صرخت فيه، ولمتُه، ووصفته بأقذع ما تسنَّى لي من الألفاظ. على مدار الأشهر الستة الماضية كنت أتقلَّب بين أمل أنني سأراك وأحاول تقبُّل أنك قد رحلت.

ساقني ليون حتى النُّزُل وجمعت أغراضي. ذهبنا إلى شقة صغيرة في الناحية الشرقية من المدينة، التي يملكها صديق له كان خارج المدينة. سألْتُه لِم لن نذهب إلى شقته، فقال: «أريد أن أخبرك شيئاً آخر»، وقد فعل.

في الليلة الأولى كنا معاً، ارتعدتُ مستيقظة. أضواء الفلورسنت، الحارس يحمل المفكرة، شعرت بيد على ذراعي وصيحات عالية «نجمتي الصغيرة! نجمتي الصغيرة!»، رأيت وجه ليون. كان كابوساً متكرراً، صراخي أثناء نومي.

والذي اشتكت منه رفيقات الغرفة. جدران الجُحْر، ثِقَلُ الأصفاد حول معصمي وكاحلي.

قبَّلني ليون: «أنتِ هنا معي الآن».

ما كنَّا نترك الشقة إلا للخروج إلى الطعام، الوجبات الجاهزة كنا نأكلها على طاولة المطبخ نستحمُّ سريعاً فقط لنعود إلى الفراش. كان هاتف ليون يرن من حين إلى آخر، كان نادراً ما يرد، ولكن حين يرد، كان يحتاط بالقدر الكافي، فيتلقَّى المكالمة في غرفة أخرى، في الظهيرة الثالثة انصرف خارجاً وعاد يحمل زجاجة حبوب، وتلك الليلة انقشعت كوابيسي، وانحصر النوم في مربع مظلم فارغ. كانت خمسة أيام فقط، حلماً محموماً، وفي النهاية كنا منهكين لكن لا نزال نجتمع، كمغناطيسين خارت قواهما اعتادا أن ينجذب كل منهما للآخر، أو لانعدام الخيارات. طوال بقائنا في هذه الغرفة لم يكن الوقت يستمر. كان يمكننا أن نتظاهر أن سنتين لم تمرا منذ آخر مرة التقينا، وأننا لم نكن نتجنَّب الأسئلة، وأنك لم تضِع منا.

لقد رحلت هكذا، مُنِحتَ لأسرة أخرى ككلب ضال، كان أكبر من أن يتم مراعاته، فهام على وجهه كبقية كلاب العالم، ليصبح صعب المنال. سمعت عن زوجين ريفيين حاولا أن يستردَّا ابنتيهما من أسرة تبنَّتهما، لكن انتهى بهما المطاف في السجن، فكَّرت في أن أبتلع الحبوب كلها دفعة واحدة، أخرجتها من الزجاجة وعددتها (كانت خمساً وثلاثين حبة)، ثم وضعتها بالزجاجة مرة أخرى؛ فلربما لا يزال بإمكانك أن تجدني.

وطوال بقائنا في الداخل، لم تكن مسألة تبنِّيك حقيقية، لكن صديق ليون كان مقبلاً في اليوم التالي، وسوف نكون مضطرين إلى مغادرة الشقة.

قال ليون: «يمكنني أن أرافقك». كنا نتناول الإفطار في المقصف، خرج ليغسل الملاءات والمناشف «يمكننا أن نكون معاً مجدداً». عقد ذراعيه على الطاولة، أحاطت أصابعه أصابعي.

سيارة إسعاف مرَّت بجانبنا، وقفزت على أثر صوت صفارات إنذارها. الأيام الخمسة الماضية كانت مجرد وهم. كان يطلب مني أن أبقى معه لأنه تخيَّل أن هذا هو ما أنتظر سماعه منه، لكنه بالفعل لديه أسرة. كان بإمكاني رؤية الارتياح يرتسم على محياه حين قلت له لا، لأن البقاء مع ليون يجعل فقدانك حقيقيّاً. أجبته: «عد إلى زوجتك!»، في اليوم الأول الذي كنا فيه معاً اعتقدت أن بإمكاني أن أجعله يختار، لكن بحلول اليوم الخامس لم أعد أرغب في ذلك «عد إلى المنزل، إلى فتاتك الرضيعة!».

لقد انزلقتَ أسفل الجدار حتى طمرتك ملاءات الفندق.

قلتَ: «وهذا ما حدث؟ هل نسيتني؟».

«لم أنسك. كنت أحاول البقاء على قيد الحياة فحسب».

لقد ارتدت فصول تعليم الأعمال بالماندرينية كي يمكنني أن أطمس لهجتي القروية، ويمكنني الارتقاء إلى وظيفة أعلى. حين سمع المعلم أنني عشت في أمريكا، قال إنه هو الآخر بصدد افتتاح مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية. أخبرته

أنني درست في نيويورك وذهبت إلى أمريكا بتأشيرة طالبة، حتى إن إنجليزيتي لم تكن جيدة، لكنها كانت أفضل حالاً من لغة بعض المعلمين الآخرين.

«العمل من أجل وورلد توب لا يمكنه أن يوفِّر لك تسجيلاً رسميّاً بين الحضريين إلى الآن». قال الرئيس تشينغ ذلك عقب انتقالي إلى مبيت المعلمين: «لكننا سنرى ماذا سيكون في المستقبل». كنت عازمة على أن أتقلَّد تلك الوظيفة، لجني كثير من المال، وأتفقَّد طريقة للعودة إلى نيويورك، ومن ثم يمكنني أن أعثر عليك.

كنت أدرِّس في وورلد توب طوال العام تقريباً، أعمل وأدَّخر بقدر ما يتسنَّى لي أن أدَّخر، حين ظهر يونغ في فصلي. لم ينجح في تعلُّم كثير مني، لكن في ليلة آخر حصة له، قال بالإنجليزية: «أود لو أراك في وقت ما».

بدأ في اصطحابي خارجاً للعشاء مرتين أسبوعيّاً، تلك الساعات القليلة التي كان حزني يهدأ فيها، كاستراحة مؤقتة. أعجبني ثباته وكذلك طموحه وحنانه؛ نسيتُ كيف يبدو الأمر وأنا لديَّ شخص يعيرني اهتمامه، أن يكون لديَّ شخص أتحدَّث إليه. ها هنا كان شخص يمكنه أن يكون شريكاً، وكانت تلك فرصتي للزواج بمواطن حضريّ، وأن أحصل على تصريح إقامة مؤقَّت بالمدينة، فمن دونها يمكنني أن أظلَّ مهاجرة دوماً، ويمكن لإدارة المدينة أن تركلني خارجاً في أي لحظة. تلك الأيام الخمسة مع ليون، الشعور بأن الأرض انشقَّت من تحتي، هذا لا يمكن أن يحدث مرة أخرى. بعد شهرين قابلت يونغ، وبعد ستة أشهر عقدنا حفل زفافنا في فندق بميدان وويي سكوير. قُدِّمَ الطعام لاثنتي عشرة طاولة، ثمانٍ منها طلبوا الطعام البحري.

قلتُ: «لم يكن هناك أي شيء يمكنني فعله. لا يمكنني العودة إلى أمريكا بعد أن طُرِدت منها. لا يمكنني العودة إلى أي مكان. لو فكرت فيك أكثر من اللازم فلن أكون قادرة على البقاء على قيد الحياة».

أعلم كيف كان من المفروض أن يبدو لك ذلك، أنني لم أحاول بجدية كافية، أنني لم أحببك بما يكفي، أنني كنت أستطيع مواصلة البحث إلى الأبد، احتجت أن تكون متفهِّماً لذلك.

قلتَ: «لقد نسيتِني».

«كلا! على الإطلاق!».

«بل إنك حتى لم تخبري زوجك عني».

«لقد أخبرتُه بالفعل. أنت قابلتَه. أنت تعلم».

«لم تخبريه حتى اتصلتُ بكِ».

طأطأت رأسي، لقد كنتَ محقّاً.

«ظننتُ أنه قد يغضب، ومن ثم يتركني ويرحل»، لكن ذلك أيضاً كان كذباً. أنا ما أخبرت بذلك إلا نفسي، ولم أصدِّق ذلك على الإطلاق.

«اعتقدتُ أنك رحلت بعيداً لأنني قد اقترفت خطأً ما. لقد كنت طفلاً!».

«ضربتَ الحشية بقبضتيك، لا بد أنك كنت تريد أن تعاقبني كذلك».

قلتُ: «لم تقترف خطأً على الإطلاق. حين عدت إلى الصين وعلمتُ أن ليون دفع ما تبقَّى من ديني، علمت أنك بخير، حتى وإن كنتُ أكره فكرة أن تنادي امرأة بيضاء بأمي أو ماما».

قلتَ مزمجراً: «ليون لم يدفع أقساط القرض، فيفيان هي من دفعت».

الآن شعرت وكأنني بالفعل قد عوقبت «لكنك كنتَ بأمان، ألم تكن كذلك؟ برفقة والديك بالتبني؟». استطعت سماع اليأس المخلوط بالضراعة في أسئلتي، كم كنت حقّاً أودُّ أن أصدِّق أنك كنت بخير، وأنني بذلت قصارى جهدي.

خيَّم صمت طويل، في النهاية قلتَ: «أنا ما ناديت من تبنَّتني بأمي أو ماما قط».

أطفأتَ الضوء، وللحظة، نمنا معاً على سريرينا المنفصلين، بينما سحبت كلماتك بطانية دافئة علينا وجعلتنا أقل وحدة.

- 19 -

لم يتوقَّع أن يحب التدريس بهذا الشكل. اليوم قسَّم تلامذته إلى مجموعات من ثلاثة تلاميذ للعب أدوار؛ يطلبون الطعام من مطعم، ويسألون عن التوجيهات بالإنجليزية. المعلمون الآخرون، حتى أمه، ضحكوا عليه لتعقيد الأمر على نفسه وعدم التدريس من كراس التمرين، لكن طلابه كانوا يقظين ومتفاعلين، وكان على استعداد أن يشحذ نفسه كي يكون على قدر تسليتهم وفضولهم. عندما قال لهم إن بإمكانهم سؤاله عن أي شيء يودونه، ما داموا يسألون بالإنجليزية، انهالوا عليه بالأسئلة. ما نوع الملابس التي يرتديها الناس في نيويورك؟ ما الذي يأكلونه؟ هل لديه خليلة؟ الرئيس تشينغ اشتكى قائلاً إن فصله صاخب جدّاً، لكن عندما أخبر تلامذة دانيال أصدقاءهم بشأنه وبدأ هؤلاء التلامذة الجدد في الالتحاق وطلبوا الحضور في صفِّه، توقَّف الرئيس تشينغ عن الشكوى. قالت له أمه: «الرئيس تشينغ لا يعلم رأسه من قدميه»، مقهقهة بضحكتها القديمة. كان يهتم جدّاً لمجاملاتها، دوماً يشتهي مزيداً منها «أنت أفضل مدرس في هذه المدرسة. يجب أن تكون المدير». تلك كانت خطتها الجديدة له؛ أن يبقى في فوزهو، يتبع خطواتها. كان ذلك يشعره بالفخر، وبحالة من عدم اليقين كذلك. هو لا يعلم إن كان يود أن يكون

مديراً لمدرسة وورلد توب إنجلش، لكن حينها سوف تنظر إليه وتبتسم وهو سيبادلها الابتسامة، وهو يفكر، نعم... هذا هو المكان الذي أنتمي إليه.

إنه في الصين منذ ثلاثة أشهر، ولم يتحدث إلى بيتر وكاي منذ أن رحل من ريدجبورو في أغسطس. لم يعد الناس يضحكون على لكنته، لكنته الماندرينية والفوزوية صارتا في مستوى أهل اللغة، وتقلَّصت الفجوات بين الترجمة والتحدث أكثر وأكثر حتى بات يتحدث الصينية بتلقائية دون تفكير؛ فدماغه تحوَّل إلى الإدراك باللغة الصينية.

كانت تأشيرته السياحية على وشك الانتهاء، وأمه في خضم كفالته لتأشيرة عمل حقيقية. كانت النماذج في غرفته لأسابيع، وكان عليه تعبئتها، وحتى يفعل ذلك لا يمكنه تلقي أي راتب قانوني؛ إذ لم يكن في كشف الرواتب الرسمي في مدرسة وورلد توب إنجلش، لكن الرئيس تشينغ دفع لأمه أموالاً إضافية، أودعتها بدورها بعد ذلك في حسابه البنكي.

بعد صفه الصباحي خرج دانيال للغداء مع مدرسين آخرين، إيدي وتامي. عادةً يصران على أماكن مثل ماكدونالدز أو بيتزا هت؛ أماكن لن يأكل فيها أبداً ما يريده، لكن اليوم سيذهبان إلى مطعم معكرونة قال تامي إنه مطعمٌ راقٍ، مع أنه بالنسبة إلى دانيال لا بأس في الذهاب إلى حجيرة لبيع معكرونة النودلز واحتساء طبق حساء بخس الثمن. مشوا عبر ثلاثة شوارع من المدرسة وصولاً إلى المطعم. باتت معظم الشوارع مألوفة بالنسبة إلى دانيال في وسط فوزهو، وأصبح معتاداً أن تأتيه الدراجات النارية الصغيرة من كل ناحية. الصيف في ريدجبورو وأواخر الشتاء الذي سبقه، بدت حياة من عالم آخر مختلف. لقد كان التفكير أنه ذلك الشخص شيئاً مذهلاً؛ يخوض عبر الثلج في شارع كانال، لا يعرف أنه في نهاية هذه السنة، لن يرى أمه فحسب، بل وسيعيش معها؛ يراها كل صباح.

داخل المطعم، تُعزف أغنية قديمة على المكبر؛ كلمات أغنية «عندما تقع عيناك على القمر وتراه كفطيرة بيتزا كبيرة». كانت النادلات يرتدين أزياء من الأحمر والأبيض والأخضر. لقد كان الطعام وجبة معكرونة باللحم المشوي

على الجريل. تناول إيدي المشويات بجانبه «هل قائمة الطعام موثوق بها؟»، خارج الصف كانوا يتحدثون بالفوزوية.

قلَّب دانيال صور المعكرونة الغارقة في الصوص الأحمر والأبيض. كان تامي وإيدي يدعانه يطلب هو الطعام دوماً، إن لم يكن المطعم صينياً، أجابهما: «نعم!».

أزاحت تامي شعرها المنسدل عن عينيها، وعلى خلاف إيدي، فلقد كانت تتجنَّب تلاقي العينين بأي شكل «المطعم الذي يرتدي النادل فيه أزياء رسمية هو بالتأكيد مطعم موثوق به. ديمينغ، اطلب لنا أنت الطعام».

طلب دانيال من النادلة ثلاثة أوعية من المعكرونة وكرات اللحم وصحناً من عيدان الثوم. بدا تحديق إيدي الذي لا يرمش له جفن كأنه يخضع للاستجواب. قالت تامي إنها سمعت أن المطعم يقدم أفضل طعام أمريكي في فوزهو.

قال إيدي: «هذا الطعام ليس أمريكياً».

عقب دانيال: «في الواقع، إنه إيطالي، لكن الأطباق على الطريقة الأمريكية أكثر. يمكنهم أن يطلقوا عليه الأمريكي الإيطالي».

قالت تامي: «لكن هل هو إيطالي أم أمريكي؟».

«كلاهما».

قال إيدي: «لكن الإيطالي ليس أمريكيّاً».

«بالتأكيد يمكن أن يكون إيطاليّاً أمريكيّاً. كأن يكون أبواك قد ولدا في إيطاليا، لكنك ولدت في أمريكا».

قالت تامي: «إذاً سيكون أمريكياً، لأنك ولدت في أمريكا».

«حقيقة، بإمكان المرء أن يكون أمريكيّاً صينياً. أنا صيني أمريكي لأنني ولدت في أمريكا».

قالت تامي: «لكن وجهك صيني، وهذا يجعل منك صينيّاً».

«الأمريكيون يمكن أن تكون وجوههم صينية، ليسوا قوماً بيضاً فحسب».

تبادل إيدي وتامي النظر وتمتم إيدي بعبارة خاطفة بالفوزوية لم يستوعبها دانيال بسرعة.

قال دانيال: «أنا هنا، كما ترى! أستطيع سماعكما تتحدثان عني».

قالت تامي: «نحن لا نتحدث عنك».

صوص الطماطم كان لذيذاً جدّاً، والمعكرونة ناضجة أكثر من اللازم، واشتهى دانيال شرائح رقيقة على طريقة نيويورك، مطوية من المنتصف ويأكلها بينما لا يزال يقف عند واجهة مطعم بيتزا مشبعة بالزيت. الليلة، لعله كان سيحضر الليلة طعاماً في طريقه إلى المنزل ويأكله وهو يشاهد التلفاز. إذا كان في مانهاتن أو ريدجبورو، لكان قد اشترى له أصدقاؤه بعض النبيذ، لكنه بدلاً من ذلك سوف يعود إلى شقة خاوية. من المفترض أن أمه ستصل البيت متأخِّرة، على قطار فائق السرعة من تشيامن؛ حيث قضت آخر يومين هناك من أجل العمل. لم تعد ترعاه بحذر بالغ، كما لو أنها تخشى عليه من الزوال، وفي عطلة نهاية الأسبوع يقضيان ساعات يتسكَّعان في أرجاء المدينة معاً، يتناولان وجبات طويلة وسهلة، تشعره بالدفء والشبع، لكن عندما كانت تعدُّ له الخطط، وتأتي على ذكر أشخاص تودّ منه أن يقابلهم أو رحلة لعلَّهما يقومان بها في المستقبل، كان يشعر برهبة لزجة، كأنه غطَّ في نوم عميق في يوم شتائي واستيقظ ليكتشف أن الليل لم ينجلِ بعد.

لم يرغب أن يكون بمفرده، ليس اليوم «ماذا ستفعلان الليلة؟».

تبادلا النظرات، وقال إيدي: «سنحظى بعشاء عائلي مع أسرنا».

انتظر الحافلة إلى متنزَّه ويست بارك بعد أن أنهى صفه الأخير لهذا اليوم، سوف يعمل يونغ إلى وقت متأخر الليلة، أو لديه عشاء عمل، في إحدى الليالي اصطحب دانيال إلى مصنعه، ونظر دانيال من المكتب التنفيذي إلى صفوف النساء على ماكينات الخياطة. قال يونغ: «أمك لا تحب زيارتي في العمل».

لمرة أو مرتين أسبوعياً يستقل دانيال الحافلة إلى مكان ليون لتناول الطعام معه ومع شوانغ. لعب مع ييمي في المتنزَّه، يعلِّمها كيف ترمي الطبق الطائر أو تقوم بحركات بهلوانية بدراجتها، وتمنَّى لو أنها كانت أخته الحقيقية، أو على الأقل قريبته. عندما ذكر هذه الزيارات لأمه قالت: «ربما سآتي معك في إحدى هذه الزيارات في وقت ما»، لكن الليلة كان ليون مشغولاً، وقال إن عليه العمل إلى وقت متأخر.

الآن بعدما بات بمقدور دانيال كسب المال، بدأ في السداد لآنجل، شيئاً فشيئاً. لقد قطَّع بطاقة ائتمانه وخفض الميزانية، لكن متى ما توافر لديه أي مال، حتى ولو لم يكن بالكثير، كان يرسله إليها، لم ترد عليه أبداً، لكن المال يُودع.

لم يسمع من رونالد كذلك. آخر مرة بحث عن فرقة سايكيك هارتس، منذ أسابيع مضت، قرأ مقالة نقدية عن آخر عرض لهم مع عنوان رئيس «لا تصدقوا الحماس المفرط!».

في حين أن عازف الجيتار نيت لاندستورم ـ عضو سابق في عدد من مشاريع المالنخوليا ـ شخص ذكي تقنياً وأسلوبيّاً، إلَّا أن التكوين الجديد الأكثر انبعاثاً على الرقص يفتقد الإحساس الخانق والهوس الاكتئابي ومعظم التماسك الباطني لعضويه الأساسيين. أصوات البيت البوكس المتكرِّرة على جهاز اللوبي أصبحت مهترئة ومتكرِّرة على نحو مزعج، وصراخ فوينتيس بات مبتذلاً، كما لو أن فرقة لايتيننغ بولت تواجه موسيقى البابلغام بوب.... كيف يمكن لشيء بهذا الثقل أن يبدو كشيء بهذه الهشاشة؟ بالتأكيد الأمر ممتع، يا شباب، لكن لا يوجد ما هو مميز حيال هذه الفرقة.

وصلت الحافلة. بالطبع، جميع الركاب كانوا صينيين. لقد استغرق منه الأمر أسابيع كي يتأقلم على أن كل من حوله، بما في ذلك التلفاز، والفتيات الجذابات، صيني، وكونه من أمريكا جعله شخصية مرغوبة، ما كان يشعره بالإطراء وبالغرابة معاً؛ تغازله الفتيات عندما يكتشفن أنه من نيويورك. حتى تامي التي لديها صديق، جنحت إليه قليلاً وهم سائرون في طريقهم إلى الغداء.

لقد تسكَّع بضع مرات مع فتاة تعمل مديرة مبيعات في شركة مصنِّعة للنعال البلاستيكية؛ وكانت قد ارتادت الثانوية مع أحد معلمي المدرسة الآخرين. هناك أيضاً هذه الفتاة الأخرى، صديقة لصديق لإيدي، التي كانت تعيش في الضواحي مع والديها وكانت تراسله الفينة بعد الفينة.

كان يشعر براحة الانتماء؛ شعور لم يخالجه من قبل، غير أنه وبشكل ما لا يزال يشعر أنه تحت المجهر تتطلَّع إليه الأعين. رمقه سائق الحافلة لمدة طويلة عندما كان يشتري التذكرة، كما فعلت أيضاً المرأة في المقعد المقابل عبر الممر، ممسكة بكيس خضراوات تحمله على ركبتيها. لقد أكَّد لهم يونغ وأمه أن صينيته باتت مقاربة للطبيعي الآن، وليست غريبة بالقدر الذي كانت عليه عند وصوله، لكن دانيال فطن إلى أن الأمر ربما متعلِّق بملابسه أو سلوكه أو الطريقة التي ينظر أو يمشي أو يقف بها؛ أمرٌ ما يكشف أنه لا ينتمي إلى هنا، حتى إذا شجَّعهم على طرح أسئلة، لكنه سئم من نظرة الطلاب والمعلمين الآخرين في المدرسة له على أنه سحر دائم. سأله طلابه لماذا هو طويل جدّاً، رغم أن إيدي أطول منه، وحثُّوه على غناء أغانٍ لهم بالإنجليزية. حينما سأله المدرسون الآخرون كيف يسلِّي نفسه وأجاب أنه يحب التجوال والاستماع إلى الموسيقى في سماعات أذنيه، ضحكوا.

اتصل بوالدته ليرى إن كان هناك فرصة لتعود على العشاء، وعندما لم ترد، لم يُعنِّ نفسه ترك رسالة لها. لم يكن عليه أن يطلب منها أن تكون في المنزل الليلة. إذا نسيت أيَّ يوم هو اليوم، فهو يعرف ماذا عليه فعله. يا إلهي، لقد رجا ألا تنسى.

أوصل سماعات رأسه في الهاتف، شعر بالاسترخاء بينما كانت الموسيقى تعزف على أوتارها؛ مزيجاً من الأغاني المفضَّلة القديمة وفرقة سوسايد، وآرثر راسل، وكوينز أوف ستون إيدج. لقد كان هاتفه يطنُّ وتوقَّع أن يرى رقم أمه، لكن كان اتصالاً بالخطأ، رجل قال بالماندرينية: «ظننت الرقم لشخص آخر». لقد كان من الحماقة أن يكون هنا مجدداً؛ ينتظرها. خاب رجاؤه فيها.

فتَّش الشقة بالكامل عندما كان بمفرده، منقِّباً عبر الأدراج والخزائن، وحتى إنه بحث أسفل السرير وبين الأرائك الجلدية (أخيراً حصلت أمه على الأريكة المريحة التي لطالما أرادتها)، لكنه لم يعثر على أي شيء سوى ملابس مطوية ومهندمة، ووثيقة متعلِّقة بالعمل والشقة. لقد كان يبحث عن حقائق مخفية؛ علامة ترشده نحو ما عليه فعله بعد ذلك، مع ذلك لم يكن هناك ولو صورة واحدة، أو صندوقٌ مخفيٌّ لتذكارات عاطفية، لا مذكرات مخفية أو أدوات تقنعه بأي منظور لأمه وليونغ أبعد مما يصوران له. إنهما موجودان فقط في الحاضر؛ حياتهما صفحة بيضاء مثل شقتهما. لقد أمل أن يجعله ذلك يثق بهما، لكن زاده هذا قلقاً، لم يرد أن يكون أحمق لا يدري ماذا يدور حوله.

لقد كانت تحدِّق فيه المرأة على المقعد المقابل بكل وضوح وصراحة، ولقد لاحظ التوتر في فكه، كم كان يعتصر أصابعه بإحكام. رفع صوت الموسيقى، لكنه لم يستطع الوصول إلى فورة النشاط الأولية تلك. تمادى القلق؛ الخوف من أنه كان يخذل شخصاً ما، أنه كان يخذل نفسه.

عند بوابة الشقة، حاملاً طعاماً جاهزاً اشتراه من مطعم بالقرب من محطة الحافلة، حيَّا دانيال تشون حارس الأمن، فرد عليه: «ليلة سعيدة!» وابتسم. استخدم دانيال مفتاحه ليفتح الباب الأمامي من المبنى وصعد في المصعد إلى الطابق الثاني عشر.

توقَّف قبل فتح الإضاءة، كان يخلع حذاءه من قدمه مستعيناً بقدمه الأخرى عندما سمع حركة داخل الشقة «من هنا؟»، وبعدها بثانية واحدة اشتعلت الأنوار وجوقة من الناس يصيحون «مفاجأة»، وأمه كانت بجانبه، ويونغ ومجموعة من وجوه أخرى.

لم تنسَ عيد ميلاده، وهي لم تتذكَّر فحسب، بالطبع كانت تذكره؛ أنَّى له أن يخطر في باله أنها نسيت، بل ودعت كل شخص عرفه في فوزهو: إيدي وتامي ومعلمين آخرين من المدرسة، طلابه من صف «تحدث الإنجليزية بسرعة»، وهي وأصدقاء يونغ، حتى ليون وتشوانغ وييمي كانوا حاضرين.

غرفة المعيشة كانت مكتظَّة، بين بالونات مربوطة بالكراسي، وطعام على الطاولة، وصحون من الفاكهة، ولحم مشوي، ومعكرونة نودلز. دارت الموسيقى، فوضع أحدهم شراباً في يدي.

لقد كانت حفلة حقيقية، سألته أمه: «هل تفاجأت؟ لقد استغربوا عندما قلت إن لدينا حفلة مفاجئة، لقد رأيتها من قبل في فيلم ما ذات مرة».

«تامي وإيدي أبقيا الأمر مفاجأة عندما كنا نتناول الغداء معاً، ولم يقُل طلابي أي شيء».

ضحكت: «قلت لهم إنني سأطردهم إن تلفَّظوا بأي كلمة لك».

نظر دانيال حوله في الغرفة مجدداً، فوجد أناساً يجلسون على الأريكة؛ يتناولون رقائق الشيبسي والفول السوداني، في حين كان آخرون يشربون الشراب في المطبخ.

«لكنك لا تحب الاحتشادات، مع ذلك».

أجاب: «لا بأس بها».

«لا تحب الحفلات».

«ليس صحيحاً، بل لقد كنت أعشق الحفلات».

«قد كنت».

«الآن أيضاً».

«لقد دعوت ليون».

«أردت حضور الجميع؛ كل من يهمك. لقد اتصل بي أحد الأيام وتحدثنا قليلاً، قابلت زوجته وابنته..».

بدت سعيدة حقّاً بذلك. قال لها: «شكراً لك!».

ربتت على ذراعه قائلة: «عيد سعيد، ديمينغ! المدير المستقبلي لمدرسة وورلد توب إنجلش».

قال ديمينغ: «حسناً! هذا صحيح، أنا لا أرى بالفعل الرئيس تشينغ هنا الليلة».

تجوَّل في أرجاء المكان؛ يقف قليلاً ليتحدَّث مع الحاضرين. موسيقى البوب بلحن ماندريني آلي تنطلق من مكبرين محمولين. تشوانغ وصديقة أمه نينغ كانا يرقصان مع تامي، المرأتان الكبيرتان تتبعان خطوات تامي المعقَّدة.

كان ليون وييمي يتحدَّثان مع يونغ في المطبخ، ويونغ لوَّح له: «لنأخذ صورة».

ابتسم دانيال ابتسامة عريضة، مفعمة بالحماس والحيوية؛ قائلاً: «أرسلا إليَّ صورة!»، ووضع ذراعه حول ييمي، وليون خلفه، بينما التقط يونغ صوراً بهاتفه.

سألته ييمي: «هل لديك أي شيء ترسم به؟».

وتساءل ما إن كانا يتشابهان معاً بأي طريقة، حتى ولو لم يكونا أقرباء.

«ليس لديَّ أقلام تلوين، لكن لديَّ أوراق وأقلام، دعيني أذهب للبحث عنها».

في غرفة الضيافة التي أصبحت غرفة نومه، حاسوبه كان يطنُّ بلا توقف. ضغط على مفتاح فأضاءت الشاشة، وأغرقته برسائل من ريدجبورو ونيويورك، وحتى بوتسدام.

أرسل إليه مايكل فيديو له ولتيموثي وفيفيان يغنُّون «عيد ميلاد سعيد!» في مطبخهم في شارع صانسيت بارك. أرسل إليه رونالد رسالة إلكترونية: عيد ميلاد سعيد، دانيال! أفتقدك! وحتى كودي راسله: متى سوف تعود إلى الديار؟

قرأ دانيال الرسائل، واحدة تلو الأخرى، قرأها جميعاً. كان هناك كثير منها، ورؤيتها جعلته يشعر بالحزن... إنه لم ينسَ.

من غرفة المعيشة تعالت أصوات الضحك، وتذكَّر لما حضر إلى الغرفة. بحث بين كومة من الأوراق، منحياً ورق التأشيرة التي وعد أمه أنه سيملؤها الأسبوع الماضي، ووجد مفكِّرة وبضعة أقلام. لقد كان على وشك إغلاق حاسوبه عندما ظهرت رسالة جديدة.

وأظهرت النافذة ب ك ويلكنسون يتصل، وظهرت نافذة أخرى مع رسالة مصاحبة: دانيال، هل أنت موجود؟

أخذت النافذة تنبض وتتوهَّج. أغلق باب الغرفة، كي يخرس صوت الحفلة، ثم جلس على السرير ونقر. ظهر وجها بيتر وكاي؛ يحدِّقان في شاشة الحاسوب. لقد كانا في غرفة المكتب في ريدجبورو. لقد ميَّزها من رفوف الكتب، والجدار الأزرق، والشهادات والجوائز المؤطَّرة.

قالت كاي: «دانيال؟».

سأل بيتر: «أين أنت؟».

«في فوزهو، الصين».

لقد كانا يتحدثان معاً. لقد كان هناك تأخير لثانية، لذلك رأى دانيال فميهما يتحرَّكان قبل أن يسمع صوتيهما، ولقد كانت تحرُّكاتهما بطيئة بعض الشيء، وصورهما مشوَّشة تظهر مسحات من اللون تتابع وجهيهما. سمع كاي تقول: «الصين؟»، وبيتر يقول: «عيد ميلاد سعيد!».

صاح دانيال عبر الشاشة، وبدت إنجليزيته متعسِّرة، غريبة: «سوف أمكث مع أمي، أمي الحقيقية. أنا بخير، وأعمل حالياً.

أدرس اللغة الإنجليزية. لم أعد أقامر، لغتي الصينية تحسَّنت الآن، أعني أنها عادت إلى ما كانت عليه».

وجه كاي كان على حافة التجعُّد، فقالت: «أردنا أن نتمنَّى لابننا عيد ميلاد سعيداً».

شعر بعينيه تمتلئان بالدموع.

سأل بيتر: «كم الساعة هناك الآن؟».

أجابه دانيال: «الثامنة مساءً». كان يستطيع أن يسمع الموسيقى من غرفة المعيشة. أراد أن يبقى ويتحدث، لكن لم يرد أن يتفقَّده أحد «إنهم يقيمون لي

حفلة هنا، وأنتما كيف حالكما؟».

قالت له كاي إنها صادفت كودي في متجر فود لاين ذات يوم، وأخبره بيتر أنه شاهد حفلة لتوم بيتي من عام 1980 على اليوتيوب. أخبره دانيال أنه كان المعلم المفضل لدى الطلاب في مدرسة وورلد توب إنجلش.

قال بيتر: «لعلك وجدت ضالتك».

سألته كاي: «هل ستعود إلى الديار، إلى أمريكا؟».

«لا أعرف».

قالت كاي: «أنت تعلم أنك مرحب بك هنا دوماً».

وعقب بيتر: «الكريسماس على الأبواب».

ابتلع ريقه: «سيكون عليَّ التفكير في الأمر».

سمع صوت خطوات بالخارج وأمه تناديه من الردهة: «ديمينغ، أين أنت؟».

قال بالفوزوية: «لحظة واحدة!»، لكن الباب قد فتح بالفعل والإضاءة والأصوات تسرَّبت إلى الغرفة، وأصبح من المتأخر جداً أن ينهي المكالمة. التفت ليرى أمه عند باب الغرفة.

قالت: «الكيكة جاهزة»، بينما يشاهد بيتر وكاي، التقطت أوراق التأشيرة التي كانت قد سقطت على السرير قائلة: «لم تملأ هذه بعد؟»، نظرت إليه، إلى حاسوبه، ولقد استطاع دانيال رؤية وجهها من الشاشة الصغيرة التي عكست ما رآه بيتر وكاي.

وجهه ووجهها، يتاخم كل منهما الآخر؛ ينظران إلى الكاميرا معاً. لقد رأى تعبير بيتر يتحوَّل من الارتباك إلى الإدراك، تردَّد فم كاي لبرهة قبل أن تتدارك نفسها وتبتسم.

«كاي وبيتر؟ هذه أمي، بولي».

قالت أمه بالإنجليزية: «مرحباً!».

قالت كاي: «إنه لمن اللطيف مقابلتك بولي»، محكمة إغلاق شفتيها معاً.

لقد اعتقد أنه لاحظ فتوراً في كلماتها لم يعتده منها. تطلَّع أحدهما إلى الآخر ودانيال يحاول التفكير في شيء مناسب ليقوله.

قال بيتر: «يمكنني ملاحظة مدى الشبه بينكما».

قالت كاي: «شكراً لاعتنائك بدانيال، لا بد أنه يحظى بأفضل أوقات حياته في الصين».

أومأت أمه برأسها، محملقة في الشاشة، ولاحظ دانيال وهي تطبق على أسنانها تميزاً من الغيظ. أراد أن يحميها، لكن ممَّ؟ عندما أخبرته عن آردسليفل، تذكر ما قاله ليون؛ أن شيئاً تحطم بداخلها.

لم يكن متأكداً هل فهمت ما قاله كاي وبيتر، أم أنها لم تملك الكلمات المناسبة بالإنجليزية لترد عليهما، أم أنها لم تعرف ماذا تقول، لكنه أراد لها أن تنطق بشيء ما، أي شيء، كما اعتادها صاخبة وملحَّة وعنيدة. لقد كره رؤيتها بالشكل الذي يراه بيتر وكاي بالتأكيد، امرأة صينية صامتة بلكنة ثقيلة؛ ابتسامتهما المتوترة أثارت غضبه.

قال بالإنجليزية: «يجب عليَّ العودة إلى الحفلة».

قالت كاي: «حسناً، سوف نتحدث معك لاحقاً، دانيال».

وعقَّب بيتر: «ولعلنا نراك في الكريسماس، وبإمكاننا المساعدة على دفع تذاكر الطيران».

انحنت أمه، حاجبة وجهه من الشاشة، قائلة بالإنجليزية: «اسمه ديمينغ وليس دانيال».

دانيال كان على وشك الانفجار ضحكاً؛ عضَّ شفته، وانهارت ابتسامة كاي، وشعر وقتها بالحاجة إلى الاعتذار لها ولبيتر، أو ربما كان عليه الاعتذار لأمه بدلاً عن ذلك؟

قال: «مع السلامة» وأغلق البرنامج في غرفة المعيشة، وكان أصدقاؤه ينتظرونه مع الكيكة، وأمه أضاءت الشمع وأطفأه بنفخة، ثم نظر إلى الأعلى ليرى ليون ويونغ، إيدي وتامي، تشوانغ وييمي. صوت تصفيقهم كان يتلألأ كالبريق الأصفر أمام عينيه، وصوت أمه تقول اسمه ـ ديمينغ! ـ الإحساس بالانتماء شعور لا يوصف.

جمع الأطباق والملاعق، وزجاجات شراب فارغة؛ ربط كيس القمامة، كنس الفتات من السجادة؛ مسح أرضية المطبخ. إذا أبقى نفسه مشغولاً، فلعلَّه يدرأ احتمالية أن تسأله أمه عن بيتر وكاي.

لم يرغب في الذهاب إلى كارلوف. لم يرد أن يُعِد أوراقاً في مؤتمر متعلِّمي الإنجليزية. بيتر وكاي دعماه، بطريقتهما الخاصة، لذا لماذا يشعر بالحنق عليهما؟ لكنَّه لم يستطع خذلان أمه أيضاً، لأنه حينما كان يلعب ألعاب الفيديو مع رونالد ويستمع إلى هاندريكس، كانت هي في مخيم السجن. لا تزال تراودها كوابيس عن ذلك. أقل ما يمكن قوله، أنه لم يرغب في أن يشعرها بالسوء.

كل شخص لديه قصص يقنع نفسه بها ليريح نفسه من عذاب ضميره. مثلما اعتقدت فيفيان أنها ساعدته، وأمه تصر على أنها بحثت عنه؛ أنها كانت لتنسى أمره لأنه كان بخير، في غرفة الفندق ببكين، أراد أن يجرحها عندما أخبرها حقيقة أن فيفيان سدَّدت دينها، ثم بعد ذلك أهداها كذبة، أنه لم يقل لكاي أبداً «أمي».

«لقد رأيت هذه في غرفتك» أتت إلى المطبخ في بيجامتها، ممسكة بنموذج التأشيرة «لا بد أنك نسيت أن تملأها».

قال لها: «اتركيها على الطاولة»، وهو يكشط البقع عن الطاولة.

«سأنظر فيها لاحقاً. ألم يكن مضحكاً عندما غنَّى إيدي وطلابي أغنية «عيد ميلاد سعيد» وكتبوا كلمات جديدة تحمل اسمي؟ لم أعرف أن إيدي لديه صوت جميل هكذا، وتامي كانت راقصة بارعة».

«توقَّف عن الكشف، سأنظِّفها لاحقاً».

«لقد شربنا كثيراً من الشراب! لا عجب أن الجيران كانوا يطلبون منا أن نخفض الصوت».

«اجلس! دعني أقُم بذلك!».

«لقد أعددت لي حفلة رائعة».

«لأنني أردت ذلك، ليس عليك أن ترد الجميل».

أخذت برتقالة من أحد الأطباق المتبقية وأحضرتها إلى طاولة المطبخ، وضع إسفنجة التنظيف وشاهدها تقشِّرها؛ تزيل القشرة بأظافرها، وتفصل فتيلها وتضعه في طبق، نصفٌ لها، ونصفٌ له، وقف فوق كتفها وعانقها من الخلف. متفاجئةً أمسكت ذراعيه هي الأخرى بيدها. على مر السنين اعتقد كيف كانت لتغدو حياته لو لم تنفصل أمه وليون، لو لم تسلمه فيفيان إلى وكالة رعاية تبنٍّ. الأمر يشبه مشاهدة الماء وهو ينتشر على رصيف جاف؛ وكأنه يستحيل خطوطاً تذهب في كل اتجاه. لربما تبنَّى بيتر وكاي ولداً آخر، ولربما لا يزال يعيش في صانسيت بارك، أو في برونكس أو فلوريدا أو أي مكان آخر لم يسمع به.

لقد تصوَّر لو أن هناك أناساً آخرين يشبهونه، كنسخ أخرى منه، يعيشون الحياة التي لم يعِشها، في شقق ومنازل ومدن وبلاد أخرى، بآباء مختلفين، ولغات مختلفة، لكن اليوم لا يمكنه رؤية غير نفسه حيث هو الآن، ضمن مجموعة محدَّدة من الظروف تدفَّقت وصولاً إلى هذه الحياة بالتحديد، والتي ستظل تتدفَّق في اتجاهات جديدة.

جلس، مرَّرت أمه نموذج التأشيرة وقلماً له: «سوف أرسلها غداً».

أخذ شريحة برتقال. كل هذا الوقت كان ينتظر حياته الحقيقية أن تبدأ، سرعان ما أصبح صديقاً لرونالد ووطدت الفرقة صداقتهما، سرعان ما وجد أمه، بعد ذلك سوف تتغيَّر الأشياء، لكن حياته كانت تسير بالفعل في مجراها طوال الوقت، في شريحة البرتقالة وهو يلوكها في فمه، أو في حلمه بلغتين

مختلفتين، أو في تعابير وجه أحد طلابه عندما يتعلَّم معنى كلمة جديدة، أو خيط الدخان بينما ينفخ في شمعات عيد ميلاده، كالنقلات الموسيقية المتباينة للحن مثالي.

سألته أمه: «سوف تذهب إلى نيويورك في الكريسماس؟ إلى أسرتك بالتبنِّي؟».

«كلا! بالطبع لا!».

«هل يتصلان بك طوال الوقت؟».

«لم أتحدث إليهما منذ أن أتيت إلى هنا، هذه كانت المرة الأولى».

«يريدان منك أن تعود إلى المنزل، مع ذلك».

كان مثل تامي، غير قادر على النظر في عينيها «هذا هو منزلي».

«إذاً، هل ستبقى؟ معي؟».

إنه لأمر غريب، العفو. يمكنك قضاء أعوام حانقاً من أحدهم ثم تدرك أنه لم يعد يخالجك الشعور نفسه؛ أن وضع تفكيرك الاعتيادي قد تغيَّر وأنت لا تلاحظ؛ ففي لمعة القلق على وجه أمه وهي تنتظر رده كان بإمكانه أن يستشعر ما أحسَّه في صوت كاي وبيتر المرتجف عندما قالا له مبكراً إلى اللقاء؛ أن خوفَه من أن يكون غير مرغوب فيه قد تلاشى، خلال الأشهر القليلة الماضية، لأن أمه ـ وكاي وبيتر ـ يحاولان إقناعه أنهما يستحقان حبه، وليس العكس.

تناول قضمة من البرتقالة، وأخذ نموذج التأشيرة ورفع غطاء القلم؛ يتفحَّص الورقة باحثاً عن الموضع الذي يجب أن يضع فيه توقيعه.

الفصل الرابع

الحائرون

- 20 -

في الربيع، وبعد أربعة أشهر من رحيلك، رحلت أنا أيضاً. ليس عن فوزهو فحسب، لكن عن حياتي برمَّتها ـ يونغ، وظيفتي، شقتنا، عن كل شخص عرفتُه. قرَّرت الرحيل إلى هونغ كونغ. بينما كنتَ تقيم معي كنتُ أتظاهر أننا لم نفترق على الإطلاق، وأن آردسليفل لم تظهر في مجريات حياتي، لكن لما رحلتَ عن فوزهو، أدركتُ أن بإمكاني أيضاً الرحيل، وربما لم يكن ذلك متأخراً للغاية.

كانت رحلة قصيرة إلى هونغ كونغ، أقل من ساعتين، ومع حلول الوقت الذي بدأت أستشعر فيه أنني في الجو، كانت المضيفات بالفعل يتأهَّبن للهبوط، وفي المطار سحبتُ حقيبة سفري، حقيبة صغيرة تحوي كل ما جمعتُه خلال الهجرة، ومنه إلى القطار الذي أخذني إلى وسط المدينة. خرجت إلى شارع يقع خارج مركز التسوُّق، حيث السيارات التي تسير على الجانب الأيسر من الطريق لا الجانب الأيمن. استغرق الأمر مني محاولات عدة كي أتمكَّن من العبور، وعلى الرغم من أن الوقت ليلاً، فقد كان لا يزال هناك زحام بالخارج، أناس يتكلَّمون الكانتونية، لافتات تومض بالصينية والإنجليزية. حصلت على عنوان الشقة ذات الغرفة الواحدة التي استأجرتها دون أن أراها؛ ومع حلول صباح الغد كنت سأشرع في عملي الجديد في مدرسة كولون.

في محطة العبارات ابتعت تذكرة، بعد ذلك وجدت مكاناً في الطابق العلوي. تأرجح القارب في الماء، وبينما تشقُّ أضواء كولون الضباب لتتراءى لي، قبضت على السور الحديدي، أشخَصُ ضاحكة. يا له من خطأ أن أفترض أن هذا الشعور قد تبدَّد إلى الأبد، تلك الريبة المصحوبة بدوار الرأس، كل مخاوفي وبهجاتي، يمكنني العودة هنا، أَلْكُم السماء، ذلك لأنني وجدتها؛ بولي غوو، فأينما ذهبت بعد ذلك، فلن أدعها مجدداً.

النسيم الذي حمله شعري إلى الخلف، ثم إلى الأمام. كانت المياه هي ميانيانغ، نيويورك، فوزهو، لكن ما هو أهم من كل ذلك؛ كانت المياه هي أنت! تذكرت آخر مرة ذهبتُ فيها برفقتك إلى المياه في نيويورك، الصيف الذي سبق اعتقالي في آردسليفل، وقت أن كان أغسطس يهم بالرحيل، ساعة الأصيل بين الظهيرة والمساء، بينما تحتضر وطأة الحرارة، سرنا إلى الجسر الواقع على نهر هارلم، والواصل بين برونكس ومانهاتن. كان الهواء مخمليّاً كثيفاً، والرصيف يتمايل بينما تمر السيارات، وقد كان قاع النهر بنيّاً موحلاً.

وقفنا في منتصف الجسر، وأنت في العاشرة من عمرك، أو الحادية عشرة تقريباً؛ أي أنك كنت بالفعل تفضل مرافقة أصحابك على مرافقتي. اضطررت إلى أن أعطيك بعض الحلوى كنوع من الرشوة لأتمكَّن من انتزاعك من أمام التلفاز.

أشرت إلى بناية في ضفة مانهاتن، وسألتُك: «أتستطيع رؤية من يعيش هناك؟»، مستذكرة واحدة من ألعابنا القديمة.

هززتَ رأسك وأشحت بعينيك.

قلتُ: «لربما تكون أمّاً وابنها».

أخيراً قلتَ: «كلا! فريق بيسبول».

«الفريق كله أم بعضه؟».

«جميعهم يعيشون معاً في نفس الشقة، إنها شقة كبيرة».

قلتُ: «هم يلعبون بالليل وينامون بالنهار».

شرعتَ في الضحك «هم يأكلون البطاطس المحمَّرة، ويلعبون لعبة المطاردة على الأسطح».

«لكنهم لا يسقطون أبداً».

على البعيد أسفل منا، تحركت المياه، فكشفت عن مظلة وكومة من الأكياس البلاستيكية. بدا النهر فظّاً صارماً، لكنه دائماً ما يبوح بأسراره.

أما الآن فإن محرِّك العبَّارة يتباطأ كلما شارفت المرسى. رمى رجل الحبل خارج العبَّارة. سمعت امرأة تقول: «ها هي ذي كولون». طفت العبَّارة بنا حتى المرسى، وبدوري فقد رفعت يد حقيبتي تاركةً نفسي للزحام يدفعني معه. عما قريب سأسير على اليابسة قاصدة مكاناً آخر. البداية، أنا أعرف ذلك، لطالما كانت الجزء الأفضل.

فوق جسر نهر هارلم، أطلقت عربة آيس كريم أغنيتها، تلاها صوت المكابح وتوقُّف الحافلة، ومن خلال نافذة مفتوحة لسيارة، تسلَّلت الموسيقى، امرأة تغنِّي، بعض الناس يريدون متع الحياة كلها.

وقفنا واستمعنا على حافة ليلة صيفية، بعد ذلك جعلتَ من راحتيك قوسين يطوِّقان فمَك وانحنيت على الحاجز، صائحاً باسمك في الهواء. شاركتُك الأمر، فصحتُ باسمي، وأطلقنا العنان لصوتينا، لتخفق في الفضاء ويتردَّد رجعُها محلِّقاً في سماء المدينة. انشرح صدري، كنت تنمو سريعاً، وعمَّا قريب ستضحى أطول مني، لكن لطالما كانت هناك تلك اللعبة، تلك الأغنية.

توجَّهنا صوب المنزل، جاءت الشمس تتوِّج أسطح المنازل، وما إن بدأتَ في الركض حتى تبِعتُك، تقرع أقدامُنا الرصيف، متأخرةً عنك بلحظة.

- 21 -

المرة الثالثة التي عزف فيها وافقت ليلة ثلاثاء. الفصل الافتتاحي الأول من بين أربعة فصول، جلس على خشبة المسرح حاملاً جيتاره الصوتي ووحدة تسجيل النغمات التي كانت الخلفية للمسارات التي سجَّلها في غرفته بالمنزل. الجو بالخارج كان كعاصفة ثلجية تحدث للمرة العشرين خلال الموسم تطيح بلزمات جيتاره، وفي الداخل لم تكن سوى طاولة واحدة مشغولة من بين جميع الطاولات، وبأعضاء الفرقة صاحبة العرض التالي. زوجان خرجا من الحانة الرئيسة باحثين عن مكان الحمام، توقَّفا لعشر ثوانٍ لسماع أغنية دانيال الأولى. سمعهما يتحدثان خلال عزفه المدخل القصير (اسمه هو مرحباً؛ لكنه رفض السخرية حول الطقس)، ولما خرجا أراد أن ينزل عن المسرح ليلحق بهما.

لم يدعُ أي شخص لعرضه، على الرغم من أن آخر مرة عزف فيها، أي منذ أسبوعين مضيا، تصادف أن رولاند كان يسير عابراً الحانة ولاحظ اسم دانيال على اللوحة بالخارج، حذره صائحاً: «دانيال اللعين ويلكنسون!»، وذلك عقب الأغنية الأخيرة. أردف رولاند بعد ذلك قائلاً: «لم أنت على هذه الحال من السرية البالغة؟ لقد كنا معاً قبل يومين ولم تخبرنا بأي شيء بخصوص عزفك». لم يكن الأمر متعلِّقاً بكونه بالغ السرية؛ بل كان بخصوص حماية

الذات «حسبك أنت أن تتكلَّم وبدوري فسوف أخبر ثاد، ومن ثم يمكنك العمل على هذا، لكن لا تنتظر كثيراً. لا أحد غيرك يقوم بمثل هذه الأشياء».

كانت أضواء عيد الميلاد معلَّقة بطول جدران الحانة، مجموعات زرق وصفر وحمر. سمع دانيال بعض أفراد الفرقة التالية يتحدَّث بعضهم إلى بعض، يختلسون النظر إلى نادلة تعبث في هاتفها.

كانت الأغنيتان الأوليان مضطربتين، لا يزال صوته محشرجاً، تسارع الإيقاع، لكن مع الأغنية الثالثة، تلك التي عن ديمينغ وتوأمه، وتلاشى الاضطراب الأوَّلي عامة، وصار عزفه مستقرّاً وصوته أقوى، وبدأ يستشعر الكلمات التي يغنيها. توقَّف بين الأغنيتين لفترة كافية كي يستثير موجة التصفيق الحار من الفرقة التالية، والذي شكل في حرارته ما افتقر إليه من حيث الحجم.

ماذا كان يجبره على أن يفضح نفسه تماماً، كي يواصل فعل شيء ما يخيفه أن يكون هو مصدر الشتائم؟ لم يكن الأمر مخيفاً حين كان يعزف موسيقى الآخرين، أو يقوم على العزف مع أناس آخرين. كان هذا مختلفاً. أطلق رولاند على أغانيه: النيئة، الثقة المجنونة، الصفقة الحقيقية، وبعد كل حفل كان دانيال يتفكَّر، ربما لا يجدر بي أن أقوم بذلك مجدداً على الإطلاق، لكن بعد ذلك بأيام قليلة كان يعود فيرسل الروابط إلى صفحته عبر الإنترنت، محاولاً أن يحجز للحفل القادم.

عزفها حتى المقطع الأخير في اللحظة التي كان ينظر فيها إلى الغرفة شبه الخاوية، استولى عليه الخوف. تفكَّر؛ هل الجمهور مستحسن لهذا. هل أوقِف مجموعة الأغاني لبرهة. ارتبك ناسياً السطر التالي. هَوَت الأغنية في بئر عميقة. أراد أن يلوذ بالفرار، إلى الأمان والدعة، لكنه كان يعلم أن هذه أغنيات جيدة، وأنه جدير بأن يُسْتَمَع إليه، ويكره ـ أكثر من أي شيء آخر ـ ألا يُسْتَمع إليه. تذكَّر السطر وأخذت الأغنية تتدفَّق في مسارها الصحيح، استعاد توازنه.

حين انتهى من عزفه، لم يحيِّه أحد. كانت نهاية شتاء آخر، أي أكثر من عام بعد العرض الأول لسايكيك هيرتس في الحفل المفتوح، وكان رولاند

ونيت يسجلان ألبوماً كاملاً. قبيل نهاية فبراير، أي بعد أيام عدة من إيداع آنجل لتحويله المالي للمرة السادسة، أرسلت إليه بريداً إلكترونيّاً، لم يكن سوى سطر واحد، والذي جعله يضحك:

الحمل الأبيض عاد إلى الحظيرة.

آنجل.

نادراً ما كان يعود إلى البيت خلال هذه الأيام، فقد كان يعمل في تريس لوكوس ويلقِّن دروساً خصوصية في عزف الجيتار لطلبة الإعدادية في الجانب الغربي الشمالي لمانهاتن. كان يتصادف مع رولاند لمرات قليلة أسبوعياً، وفي ظهيرة أيام الأربعاء والجمعة كان يتولَّى التدريس لصفِّ الموسيقى بعد اليوم الدراسي في واحد من المراكز المجتمعية في الحي الصيني، حيث كان معظم أُسَر طلابه يأتون من مقاطعة فوجيان، وأكثر من القليل من بينهم أُرْسِلوا للعيش مع أجدادهم حتى يكبروا بما يكفي كي يلتحقوا بالمدرسة. أُحْبِط أطفال الجانب الغربي الشمالي عندما حاول دانيال أن يعلِّمهم كيفية إمساك الجيتار، لقد كان آباؤهم يرغبون في أن يصبحوا جاك وايت القادم (في أوقات فراغهم، بالطبع مستواهم الدراسي على رأس الأولويات)، كان يتطلَّع إلى الأيام التي يدرِّب فيها في الحي الصيني، حيث الأطفال هناك يدعونه يي غوو (أي أخونا الكبير غوو)، ويطير فرحاً حينما يركِّزون مع إيقاع أغنية. لم يتعلَّموا بعد كيف يصبحون خائفين من ألا يظهروا بمظهر رائع.

كان هناك أقل من عشر بنايات بين الحانة والمترو، لكنه أحس أن المسافة تبدو بعيدة، وهو يحمل الجيتار والعدة سائراً في الصقيع ينزلق حذاؤه طويل الرقبة فوق الرصيف، وفي الجهة المقابلة لمحطة المترو يقع مطعم بيتزا، وقد كان بدوره جائعاً، لكنه سينتظر حتى يعود إلى مانهاتن. كان هناك طعام في الثلاجة، فضلاً عن أنه صار طاهياً جيداً، يعد الوجبات مع رفيقه في المسكن، ويتقن تحضير الحساء الذي كان تقديماً شهيّاً جديراً بالاحترام الذي كان يفضله ليون في فوزهو.

بعد شهر من يوم عيد ميلاده، كان يتناول العشاء بمفرده بينما أمه ويونغ في العمل، صادف دانيال صورة في مقال كان يقرؤه عبر الإنترنت، حفل بلوار برودواي في ظهيرة ربيعية، سيارات التوصيل وسيارات الأجرة متاحة، وعربات وجبات اللحوم وأغاني الفاير سكيبز. هذه الليلة وللمرة الأولى منذ أن جاء إلى الصين، استمع إلى الأغاني التي كتبها خلال الصيف. تدفَّقت الموسيقى عبر سماعات الرأس في موجات فضية؛ في ألفةٍ شعورية كحاله تماماً بتمام. كان يريد تغيير بعض السطور، لذا فقد خطَّ بضع ملاحظات، متمنياً لو كان جيتاره معه. بعد قراره بالرحيل، أخبر أمه أن الأمر لم يكن بخصوص بيتر وكاي، وأنه لم يفضلهما عليها. بكَتْ؛ نموذج التأشيرة كان قد خُتِم بالفعل، قال: «لكننا سنلتقي مرة أخرى».

جاء ليون برفقتهما حتى المطار، وعندما انعطف دانيال عند منفذ التذاكر رآهما من بعيد، أمه في بزَّتها وحذائها ذي الكعب الطويل، وليون في حذائه الرياضي وسترته الشتوية، يتحدثان ويتضاحكان كصديقين قديمين. لم يكن متأكداً إن كان يتخذ القرار الصائب، لم يكن يعرف كم من الوقت سيبقى. ربما يعود إلى فوزهو بعد رأس السنة الجديدة، في كلتا الحالتين كان من العسير أن يحسم قراراً ما. هو لم يسمح لنفسه قط أن يثق في قرار اختاره.

ثلاث وقفات للاستراحة وما يزيد على 24 ساعة من السفر لاحقاً، وصل إلى مطار سيراكيوز صباح عيد الكريسماس. اللغة الإنجليزية تتردَّد حوله في الأسلاك النحاسية، ولوليس منهم صيني. بالخارج ينتظر بيتر وكاي. الجو كان مثلجاً، ولم يكن لديه معطف.

أوقفا السيارة وخرجا. قالت كاي: «لا بد أنك منهك»، وهي تحتضنه بشدة. احتضنه بيتر كذلك، قائلاً: «مسافة طيران طويلة»، وهو يربِّت على ظهره بقوة.

خلال القيادة إلى ريدجبورو، يصارع تأثيرات اختلاف التوقيت. أمتعه ببعض الملاحظات الخفيفة عن الفروق بين فوزهو ونيويورك؛ متحدثاً عن حركة المرور والضباب الدخاني، وقائمة الطعام في بيتزا هت، وعن طلابه

في صف التحدث بالإنجليزية. كيف أنها لا تثلج هناك، وأنها كانت بعيدة جدّاً جنوباً. شعر بالسوء لأنه يعرِض إيدي وتامي والرئيس تشينغ كمادة للتسلية، لكن الأمر بدا أسهل من توجيه الحديث عن أمه أو عن نفسه.

في طريق عودتهم إلى المنزل، تخطَّوا كنيسة ثم أخذ غفوة، وعندما استيقظ أخرج جيتاره من الحقيبة. بعد أشهر من التوقُّف عن العزف، كانت الحبال لا تزال منضبطة في تناغم. انتقل بين الأوتار وأصابعه ومعصماه مرتخيان، لقد بدأ يستحضر تباين الألوان التي قد نسيها: البني والمائي، درجات من البنفسجي الفاتح والوردي، والدرجات الصارخة من الأخضر. اللعنة، لقد كان شعوراً رائعاً، مع أنه يكاد يجزم أنه كانت هناك تصدعات طفيفة في لوحة الفريتس التي رغب في أن يصلحها، لكنه لم يفعل، أم أنه أصلحها قبل أن يغادر ونسي ذلك؟

نقر بيتر على إطار الباب قائلاً: «اجتمعنا معاً أخيراً».

نظر دانيال إلى الأعلى: «نعم، لقد مرَّ وقت طويل. لا يزال يعمل، مع ذلك».

أشار بيتر إلى لوحة الفريتس: «هل لاحظت أي اختلاف؟».

«لقد أخذته إلى قسم الموسيقى في كارلوف وأحد الأساتذة أوصى بشخص ما يعرفه، مصلح جيتار. اعتقدت أنه قد يحتاج إلى قليل من العناية».

ساعد كاي في تقطيع بعض الخضراوات وتقشير البطاطس للعشاء. أخبرها أنه لم يتناول بطاطس منذ زمن، بينما كانت هي تسكب مزيجاً من اليقطين المعلَّب في غلاف فطيرة. لقد كانت ترتدي سترة أرجوانية لم يرها فيها من قبل؛ وبيتر كان يرتدي أخرى مماثلة بالأخضر «لقد كان لدينا أرز، مع ذلك. الكثير والكثير من الأرز»، وهو يستمع إلى إنجليزيته لا تزال تبدو غريبة بعض الشيء.

كم كان من السهل القول: لقد تعلَّمت كثيراً من الأمور عندما كنت هناك، دعيني أخبرك عنها. لقد أرادت مني أن أبقى، لكن في كل مرة يشرع في قول شيء ما، يتوقَّف.

مرَّرت له كاي قالب الفطيرة وأخبرته أن يضعه في الفرن. جلس يرتِّب رف

الخضراوات وأغلق الباب. عندما وقف كانت تنظر إليه، ولقد كان خائفاً من أن تبدأ الحديث عنه وعن العودة إلى كارلوف، أو لقاءات علاج المقامرة.

سألته: «أكان صعباً؟ وجودك في الصين؟».

نزع قفاز الفرن: «لقد استغرق الأمر بعض الوقت كي تتحسَّن صينيتي وتعود كما كانت، لكن فور ما تحسَّنت، أصبح الأمر أيسر بكثير».

«لكن مع ذلك، لا بد أنها كانت غريبة جداً عنك».

لم يعرف لماذا، لكنه لم يرغب في أن يخبر كاي أنه لطالما شعر بأنه مختلف بعض الشيء، حتى وإن كان يتحدث اللغة.

«فوزهو مدينة كبيرة، مع ذلك، وعصرية حقاً».

«لقد قرأنا أنا وأبوك مقالاً عن كيف أن المرأة في الصين لا تزال تُعامَل كمواطن من الدرجة الثانية، وأظن الأمر منطقياً على ما أعتقد، مع ثقافة تتحيَّز ضد المرأة». هزت كاي رأسها: «بولي، أمك التي وضعتك، لا بد أنها امرأة شجاعة جدّاً أن تحظى بسيرة كسيرتها».

قال: «الأمر ليس كذلك حقيقة»، مع أنها كانت شجاعة، بطرق لم تسمع كاي بها حتى، وبالتأكيد قد يكون الأمر صعباً على المرأة في الصين، أصعب مما قد تلاقيه المرأة هنا، لكن ما أزعجه التحدث عن أمه بهذه الطريقة، وهي ليست حاضرة بينهم.

«إنه من المخزي بالفعل، عندما تفكِّر في الطرق التي كانت قد تزدهر فيها النساء إن أتيحت لهن الفرص والتعليم المناسب، لربما كان بإمكانهن تحقيق كثيرٍ من الأشياء الرائعة، بنحو لا يصدق».

«إنها تُبلي بلاء حسناً. نساء عديدات في الصين حاصلات على شهادات جامعية».

«اسمع، لقد راودتني فكرة للتوّ. ربما أتحدث مع أحد من جامعة كارلوف بخصوص بدء منحة دراسية للطالبات الصينيات».

لم تكن تستمع إليه. لقد تذكَّر كم كانت تصر هي وبيتر على الإنجليزية، اسمه الجديد، أن يحظى بتعليم مناسب. كيف كان تفسير الأفضل والأحسن في مفهومهما عن النجاح، وخططهما. أمه الصينية، اللغة الصينية، برونكس، ديمينغ، لم يكن هذا كافياً أبداً بالنسبة إليه. انتفض جسده، ولوهلة، أو لبرهة مقيتة استطاع أن يرى نفسه بالطريقة التي ينظرون بها إليه، شخص يحتاج إلى من ينقذه.

لا، بل شعر بالغثيان، بالرعب. جمع قبضتي يديه، ووضعهما في جيبه.

انحنت كاي ناحية الفرن، تتفحَّص توقيت الفطيرة «هل ترغب في صنع كريمة مخفوقة؟ لطالما أحببت ذلك. لعق الوعاء وما إلى ذلك». أنزلت وعاء خفق من الخزانة العلوية «جميل أنك عدت. أعني أنا سعيدة أنك حظيت بالفرصة لاكتشاف جذورك، لكنني سعيدة أيضاً أنك عدت إلى المنزل؛ لقد بدا المنزل كئيباً خاوياً من دونك».

حمَّى صهيد الفرن المطبخ، معبقاً إياه برائحة الخبز والسكر والزبدة والقرفة، في غرفة المعيشة، أشعل بيتر ناراً، واستطاع دانيال سماع أصوات اللهيب المتأجِّج، موسيقى كلاسيكية في الاستريو. جيتاره كان بالأعلى، وأعيد ضبط أوتاره وإصلاحه، واكتسى فراشه بلحافه المفضَّل. قال: «من الجيد أن أكون هنا»، وأخرج الكريمة من الثلاجة.

لقد نام لمدة اثنتي عشرة ساعة، ليستيقظ عند الرابعة فجراً، آخذاً غفوة طويلة في وقت متأخر من الظهيرة. عند الفجر كان مستلقياً على سريره وهو مستيقظ. أضاءت الغرفة قليلاً، وتذكر عندما كان يتجوَّل في فوزهو مع أمه، ويركب الدراجة في المتنزَّه مع ييمي، وتلعثمه أول أيامه في فندق مين هوتيل. كل ذلك يبدو غريباً وبعيداً، كأنها كانت حياة شخص آخر.

لقد قضى الأسبوع يشاهد التلفاز، بالكاد غيَّر بناطيله المتعرِّقة أو عني بالخروج من المنزل، في عشية رأس السنة في نيويورك، كان كاي وبيتر نائمين حول الحادية عشرة، وشعر دانيال بالنعاس أمام التلفاز بعد مشاهدة سقوط الكرة في ميدان تايمز سكوير، ومغنو البوب يغنون لحشود من السياح الثملين.

لقد استيقظ أمام إعلان ترويجي لمعالجة حب الشباب.

قام فجاب المنزل في الظلام، وخطواته غير مسموعة وهو يرتدي جواربه الصوفية، حتى وعيناه مغلقتان، كان يعرف أنه يستطيع وضع يديه على جدار في أي غرفة ويعرف بالضبط أين يضع يده على زر الإضاءة، أن كان عليه أن ينعطف ناحية اليمين من رف الكتب في غرفة المعيشة كي لا يرتطم بزاوية نهاية الطاولة، حيث تحتفظ كاي بمجلاتها، وأن هناك 14 خطوة إلى الأعلى ناحية الطابق العلوي. كل لوحة أرضية، كل شبر من المنزل يتذكَّره، ومع ذلك كان هناك الكثير عنه لن يعرفه أبداً هذا المنزل؛ لن يعرفه بيتر وكاي، وقف أمام جدار المطبخ، يستمع إلى صوت همهمة الثلاجة لصوت أنفاسه الشخصية. إذا لم يستطع الشعور بأنه في دياره في الصين، إذا لم يكن ينتمي إلى ريدجبورو، إذاً إلى أين ينتمي؟

ثلاث خطوات إلى غرفة العشاء، ثم ينعطف يساراً، جدار. لا يزال يتذكَّر مخطَّط حياته، مرسوماً مقابل إطار الباب. لقد كان هناك انبعاج بالقرب من لوح الأرضية، نتج ذات مرة عندما كان يقذف كرة سلة. خمس خطوات إلى دولاب الخزفيات، أدراجه العلوية محشوَّة بالمغلفات والطوابع البريدية، ودفتر شيكات قديم، وكرة مطاطية مجفَّفة. مدَّ يده وأغلق عينيه. لقد كان في بيته. بيت عليه أن يغادره أيضاً، وهو يعلم ذلك.

لقد كانت رحلة طويلة إلى هارلم، حيث عزف العرض في بروكلين. عاش دانيال ومايكل شمال المدينة، ليس لأن الإيجار كان يمكن تكفُّله، لكن لأنه كان بالقرب من كولومبيا، حيث يبقى مايكل لوقت متأخر، بعد صفوفه يعمل في المختبر. بمال المنحة استطاع الانتقال من صن ست بارك.

صعد دانيال درج محطة المترو، التي تبعد أربعة شوارع من مبناه، وصعد السلم إلى شقته. عندما فتح الباب، كان سعيداً برؤية الإنارة مضاءة، وأن المكان دافئ تفوح منه رائحة الطعام. خلع حذاءه، ومعطفه، ووضع جيتاره على سريره.

لم يكن هناك أريكة، تلفاز، غرفة طعام أو طاولة مطبخ. كانا يفترشان الأرض

لتناول الطعام، يستخدمان البطانية كغطاء طاولة. كل غرفة من غرف النوم كانت واسعة بما يكفي لسرير مزدوج لا غير، فضلاً عن مساحة ناحية جانب واحد من السرير للمرور دخولاً وخروجاً، ولم تكن هناك خزانات ملابس، لذا فقد وضع دانيال صندوقه بارزاً على كتل خرسانية وخزَّن ملابسه في سلال بلاستيكية بالأسفل. على مدار الأشهر الثلاثة الماضية، كان يستعرض ذكرياته عن فوزهو حتى فقدت وطأتها، ولم تترك أي إحساس إلا الرهبة؛ لقد ذهبت إلى هناك. لقد قمت بذلك.

كان باب مايكل مفتوحاً. طرق دانيال على الجدار قائلاً: «ما الأخبار يا أخي؟»، قالها بالفوزوية.

كان مايكل يجلس قبالة سريره، يأكل من صحن كبير «يوم طويل في المعمل. أنا متعَب. كيف كان العمل؟».

تحوَّل دانيال إلى الإنجليزية «لم أعمل الليلة. كان لديَّ عرض، أعني أنني قد أديت العرض».

«لقد عزفت؟ أين؟».

«في تلك الحانة ببروكلين».

«وكيف كان الأمر؟».

«في الحقيقة، كان جيداً للغاية».

«لِم لَم تخبرني؟ كنت سأحضر».

«سوف أخبرك بالعرض التالي».

أمسك مايكل صحنه «لقد أعددت طعاماً. تجده في فرن الموقد».

«شكراً! أنا أتضوَّر جوعاً».

المطبخ في الجهة المقابلة من الشقة، يتكوَّن من موقد ذي شعلتين وغسالة وثلاجة صغيرة، ورف الأطباق معلق أعلى الفرن الكهربائي، ولوح التقطيع

معلق فوق الموقد، وطاهية الأرز فوق لوح التقطيع. رفع دانيال الغطاء فتطاير البخار، حاملاً رائحة ثومية رائعة لسجق لحم الخنزير أعدها مايكل، لذا فهي تحمل نكهة الأرز في الأسفل. بيضة مقلية كانت تنتظره كذلك.

أخذ الصحن الآخر، ملأه بالبيضة والأرز والسجق، وتوَّجه بملء ملعقة من الصلصة الحارة، في ليلة يوم الأحد كان يذهب برفقة مايكل إلى متنزَّه صن ست بارك، حيث تركا غسيلهما بالأسفل وغادرا المنزل معبأً برائحة التوابل. حين ساعد دانيال فيفيان في إعداد العشاء، كان يفكر في أمه، وهي في شقتها الجديدة، ناظراً إلى الميناء البعيد «سوف أزورك في نيويورك»، هذا ما قالته في محادثات الفيديو خلال الأسبوع الماضي، وأخبرها أنه سيفرح لذلك، على الرغم من أنه لم يكن متأكداً إن كان بوسعها أن تدخل أمريكا بعد أن طُرِدَت منها.

حتى الآن كان هذا هو المكان الذي ستمضي فيه حياته. هذه الشقة برفقة مايكل. هذه المدينة موطنه الأفضل. أزَّ سخان الطعام، صافرة دوَّت في المكان، وضع الغطاء مجدداً على طاهية الأرز وأخذ صحنه إلى غرفة النوم حيث يمكنه ومايكل أن يأكلا معاً.